

العدد التالي من المجلة

العدد الثاني - المجلد التاسع

يوليو - أغسطس - سبتمبر

قسم خاص عن

الاتجاهات الحديثة في النقد الأدبي

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريال	سوريا	٣	ليرة
البحرين	٥	ريال	المتاهرة	٢٥٠	دينار
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلوس	السودان	٢٥٠	دينار
اليمن الشمالية	٤٠٠	فلوس	لبيبا	٣٥	قرشا
العراق	٤٥	ريال	مسقط	٤٠٠	باب
لبنان	٢٠٠	فلوس	الجزائر	٥	دينار
الأردن	٢٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مايم
	٢٥٠	فلوس	المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

للإشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت







# عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني  
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت \* يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٧٨  
للمراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الإعلام - الكويت : ص.ب ١٩٣

## المحتويات

### النقد الأدبي

٣	..... بقلم التحرير	التهديد
١١	..... الدكتور محمد زكي العشماوي	الشكل والمضمون في النقد الأدبي الحديث
٢٧	..... الدكتور عبد العزيز الدسوقي	نحو علم جمال عربي « تصور تطبيقي »
٤٩	..... الأستاذ عبد العزيز محمد الزكي	يحيى حتى . . . بين المصرية والتركية
١٠٧	..... الدكتورة نور شريف	النقد الروائي الانجليزي في دور التكوين

\*\*\*

### أفاق المعرفة

١٣٥	..... الدكتور مصطفى كمال محمد	تكنولوجيا العصر والمجال الطبي للعالم العربي سنة ٢٠٠٠
١٦٢	.....	الدفاعية بين التنظير والنمذجة دراسة تحليلية مقارنة الدكتور طلعت منصور

\*\*\*

### أدباء وفنانون

٢٠٧	..... الدكتور محمد سلامة موسى	ابن شرف القيرواني وآرائه النقدية في رسالته « اعلام الكلام »
-----	-------------------------------	---

\*\*\*

### عرض الكتب

٢٥٥	..... عرض وتعليق الدكتور مصطفى ناجي	مقدمة للسكان
٢٦٩	..... عرض وتعليق الاستاذ عبد الله عبد الفني غانم	مهاجرون سود ومواطنون بيض

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحكمهم



## الاتجاهات الحديثة في النقد الأدبي

تمهيد

ربما كان سقراط هو أول من فرق بين تأليف الأدب ونقد الأدب وميز بينهما ، وذلك حين ذهب الى انه قلما كان يجد من بين الشعراء من يستطيع ان يشرح ما كان يعنيه بشعره . وكأنما كان سقراط يود ان يقول في هذه العبارة انه لم يكن ثمة من بين الشعراء من يستطيع ان ينقد شعره . وقد ادى ذلك بالاستاذ لاسيل أبركرومبي ، وهو يستعرض رأى سقراط في مقاله الرائع عن قواعد النقد الأدبي الذي نقله الى العربية منذ سنوات طويلة المرحوم الدكتور محمد عوض محمد الى ان يميز بين ثلاثة انواع من المقدرات هي : **المقدرة على تفوق الأدب ، والمقدرة على تحليل الأدب تحليلًا منطقيًا ، ثم المقدرة على نقد الأدب** ، وحاول أبركرومبي ان يرد هذا التمييز بين المقدرات الثلاثة الى وجود ثلاث ملكات مختلفة هي ملكة الانشاء او الإنتاج الأدبي ، وملكة التدقيق ثم ملكة النقد . وهذه الملكة الثالثة يمكن ان تكتسب وان تنمي بالدرس والممارسة والمران ، وان كان هذا لا يمنع من ان النقد قد يكون غريزيًا في كثير من الاحيان ، وان يصلو على ما سنرى من القارئ بطريقة تلقائية دون ان يعد لممارسة هذا العمل اعدادًا متعمدًا مقصودًا .

ومهما يكن من امر ، فالهم هو ان « الناقد مادة يكون مدركا » للخطبة التي يتبعها في نقده ، وان هذه الخطبة تعتمد على قواعد منطقية خاصة قابلة لان ترتب بحيث يتألف منها نظام خاص . ومن الممكن دراستها وتطبيقها في دقة وعناية » ، بينما ليس هناك في رايه « قواعد ترشدنا الى كيفية ابتكار الادب ولا الى كيفية الاستمتاع به » . بل الاكثر من ذلك ان النقد الادبي يعجز تماما عن « ايجاد هاتين الملتكيتين عند الناس اذا لم يكن لهما وجود من قبل . فهو يفترض اذن وجودهما افتراضا » ( انظر كتاب **قواعد النقد الادبي** - دار التأليف والنشر والترجمة - القاهرة - صفحات ٤٤ ، ٤٥ )

ولكن على الرغم من اختلاف القدرة على النقد الادبي اختلافا تاما عن المقدرة على ابتكاره والمقدرة على تدوقه فليس ثمة ما يمنع بطبيعة الحال من امكان اجتماع القدرات الثلاث في شخص واحد ، بحيث يكون الاديب قارئاً للادب وناقداً في الوقت ذاته . وعلى اى حال فان النقد يبدأ بمجرد ان يأخذ قارئ الادب نفسه بالتزام « قواعد عقلية » يطبقها اثناء قراءته ويستعين بها في تدقيق الادب مع تقدير ما يقرأ بحيث يصبح الاستمتاع بالقراءة « مبنيا على اساس من الفهم وحسن التخيير » . وبذلك يكون النقد عبارة عن « اسئلة معقولة يسألها المرء عن كل شيء يتعلق بالادب ثم الاجابه عنها كذلك اجابه عقلية » ( ص ٧ ) سواء كانت هذه الاسئلة والاجوبة متعلقة بنظرية الادب ذاتها ، او بما يسمونه « بالنقد الاساسي » او النقد الخاص لاعمال ادبية معينة ومحددة بالذات ومع التسليم بهذا كله فليس ثمة ما يمنع من ان يكون النقد الادبي على ما ذكرنا من قبل « عملا شخصيا كالتأليف الادبي سواء بسواء ، ويكون كالادب وليد النبوغ العبقري » بحيث يصدر عن مواهب معينة قد لا تستند الى اى قواعد واسخة طلبة او مدروسة ، بل وقد تنفر من مثل هذه القواعد الجامدة فلا تلتزم بها ، وبذلك لا يتمسك الناقد بنظرية محددة او بمبدأ معين بالذات يلتزم به طول الوقت ويحاول تطبيقه على كل ما يقرأ . وهذا هو ما يسميه ابركورمى **بنقد الالهام** الذي يصدر عن الخصائص والمميزات والقدرات الذاتية للناقد ، وان كان هذا النوع من النقد لا يعتبر في رأى الكثيرين ، وبخاصة من المهتمين بنظرية النقد الادبي ومدارسه اهم انواع النقد ، لان الذى يهم في ذلك هو مدى ما يضيفه النقد والناقد الى قواعد النقد وطرائقه واسهامها في شرح تلك القواعد والطرائق وتفسيرها والعمل على اثرائها وتقديمها . فمثل هذه الجهود هي التى ادت وتؤدي الى ظهور الاتجاهات المختلفة ، وتنوع المدارس والمذاهب في النقد الادبي . وسوف يجد القارئ عرضا لبعض هذه الاتجاهات والمذاهب في هذا العدد .

والواقع أنه ليس هناك أسلوب أو منهج واحد « صحيح » لمعالجة مشكلات الأدب ، كما أنه لا يوجد مدخل واحد يمكن اعتباره محكاً ومقياساً لتقييم كل أنواع الأدب وكل الكتابات الأدبية على اختلافها . ذلك لأن الأعمال الأدبية كثيرة ومتنوعة إلى أبعد حدود الكثرة والتنوع ، وتغطي حقبة طويلة جداً من تاريخ الإنسان والحضارة . ومع الاعتراف بالدور الذي تقوم به الدراسات النقدية ، وكذلك نظرية الأدب في توضيح ماهية الأدب ومساعدة القارئ على فهم طبيعته وعلى الوصول إلى درجة أكبر من الاستمتاع والتذوق من قراءته للأعمال الأدبية ، فإن من الخطأ الزعم بأن التذوق والاستمتاع وتقدير هذه الأعمال لن تتاح للقارئ إلا عن طريق الإلمام بنظرية الأدب أو الدراسات النقدية فيه . وكما يقول ديفيد ديشيس David Daiches أنه من السخف أن نزع أن اليونانيين القدماء لم يستطيعوا الاستمتاع بأعمال سوفوكليس وتذوقها وتقديرها حق قدرها قبل أن يجيء أرسطو ويكتب كتابه الشهير عن الشعر Poetica ، أو أن نزع أنه كان يتعين على رواد المسرح في بريطانيا أن ينتظروا مجيء برادلي A. C. Bradley أو الأستاذ هيلمان Heilman حتى يمكنهم الاستمتاع بمسرحية « الملك لير » . ذلك أن التذوق والتقدير يمكن أن يكونا مستقلين تمام الاستقلال عن نظرية النقد ، ولو أن الاستعانة بهذه النظرية قد تساعد على توضيح معنى العمل الأدبي وبالتالي تساعد على الاستمتاع به ، والفوصل إلى أعماقه . وهذا معناه أن النقد الأدبي لا يمكن أن يكون غاية في ذاته ، وأنه حسب تعبير T. S. Eliot ليس غاية ذاتية autotelic وإنما هو بالأحرى وسيلة للوصول إلى فهم أعمق للعمل الأدبي وإلى تحقيق درجة أكبر من التذوق والاستمتاع . ويحقق النقد وظيفته بتحقيق ذلك الهدف .

والذي لا شك فيه هو أن الفن أكبر بكثير من شراحه على ما يقول Daiches أيضاً ، وأنه ليس هناك من بين النقاد من يمكنه أن يزعم أنه استطاع أن يحدد قيمة الفن الأدبي ومعناه بكل ما تحتوي عليه من معنى . فتطبيقات النقد نظريات جزئية ومتحيزة وذاتية وقابلة للمناقشة والاختبار ، وإن كان هذا لا يعني أنه لا توجد مقاييس أو معايير للقيمة ، أو أنها تعتمد فقط على الذوق الخاص أو الانطباعات العامة الباهتة . وكل ما يعنيه ذلك هو أنه لا يوجد حكم نقدي لأي عمل أدبي يمكن أن يكون حكماً كاملاً مطلقاً وصحيحاً أو مقبولاً من الجميع . ومع أنه يمكن من الناحية النظرية البحث - وضع بعض المبادئ العامة القوية فالواقع أن الأحكام التي تصدر من الناقد عن أي عمل أدبي هي بالضرورة أحكام تقريبية ، وأنه على الرغم من كل ما يبذله الناقد من جهود للكشف عن طبيعة العمل الأدبي وماهيته فلن يستطيع في الأغلب أن يحيط بكل جوانبه وأعماقه . فالعمل الأدبي مجموعة متشابكة ومعقدة من الأفكار والآراء والأحاسيس والعواطف والتجارب التي خضع لها الكاتب أو الشاعر ، ومن الصعب ، أن لم يكن من المستحيل ، أن يصل إلى كل جزئيات

تلك التجربة ، وأن يتعرف في دقة وعمق على كل جوانبها . ودقائقها . ومن هنا كان النقد الأدبي أقرب في طبيعته إلى الفن منه إلى العلم ، ومن هنا أيضا كان الناقد الذي يحرص على إخضاع الأعمال الأدبية لعدد من المبادئ الجامدة المطلقة ويعمل على تطبيق هذه المبادئ بطريقة منهجية دقيقة وصارمة عرضة لكثير من المخاطر ، كما يشوب عمله كثير من أوجه العيب والنقص .

ومع أن بعض النقاد المحترفين قد يميلون إلى وضع قواعد ومناهج ومبادئ محددة لكي يسترشد بها المبتدئون في فهمهم لاصول فن النقد الأدبي وللإستئانة بها في خطواتهم الأولى فكثيرا ما تنقلب الأوضاع وتخرج هذه القواعد والمناهج عن الأهداف التي وضعت من أجلها ، بحيث تصبح دراسة النقد الأدبي في آخر الأمر مجرد دراسة للأسلوب الذي يتبعه الكاتب والمباراة التي يستخدمها وما إلى ذلك وبدلا من أن يكون دراسة لطريقة الكاتب في عرض تجربته بوضوح وعمق ، وأداة لمساعدة القارئ على فهم تلك التجربة وإدراك أعماقها وجوانبها المختلفة

ومن هنا كان لا بد من أن نفهم وظيفة الأدب أو على الأقل الغرض منه ، ولقد اختلفت الآراء في ذلك اختلافا كبيرا . ولكن الظاهر أن من أهم هذه النظريات التي يمتثلها لفيف كبير من المشتغلين بالنقد الأدبي والتي نجد لها صدى عند كثير من علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع المهتمين بدراسة الأدب وتحليله وعلاقته بالمجتمع ، الاتجاه الذي يذهب إلى أن الغرض الحقيقي من الأدب هو « التعبير » « والتوصيل » فالأدب نوع من التعبير من تجارب المؤلف وحياته وأحاسيسه وانفعالاته وما يدور في نفسه وعقله من مشاعر وأفكار ، كما أنه في الوقت ذاته وسيلة لتأدية هذه التجارب والانفعالات والأفكار إلى الآخرين بنفس القوة التي يشعر بها الكاتب الذي يمر بتلك التجربة . والاختفاق أو الفشل في ذلك يعني الاختفاق والفشل في إنتاج أدب يستحق أن يطلق عليه هذا الاسم .

هذه الوظيفة المزدوجة للأدب ؛ أعني التعبير والتوصيل ، تكشف لنا عن الجانبين الأساسيين اللذين يجب توفرهما في أي عمل أدبي ، وهما الجانب الذاتي . للأدب . والجانب الموضوعي وتوكيد أحد هذين الجانبين أو الآخر ، والاهتمام به وإبرازه هو الذي أدى إلى ظهور مذهب الرومانتوزم من ناحية ، والمذهب الواقعي من الناحية الأخرى ، والجمع بين هاتين الناحيتين ( اللبالية أو الموضوعية ) هو الذي يتمثل في اعتبار الأدب نوعا من توصيل أو نقل التجربة الحية العميقة التي يمر بها المؤلف التي يعبر عنها في كتاباته ، وليست العبارة اللفظية في آخر الأمر سوى « أداة » ووسيلة لتحقيق هذه العملية .

وعلى هذا الاساس فانه يمكن القول مع أبركرومبي - مرة اخرى - ان الادب يفترض وجود اطراف ثلاثة هم المؤلف والقارئ ثم العبارة اللفظية - او الكلام - الذي يكون بمثابة الوسيط بين هذين الطرفين . وليس المقصود بالتوصيل هو توصيل (المعلومات) كما هو الشأن في الكتب العلمية، فنحن لا نحكم على الكتابة الفنية او العمل الادبي بمدى صحة ما قد يكون به من (معلومات) ، وانما الذي نأخذه في الاعتبار والذي تصدر عنه احكامنا هو مدى صدق ذلك العمل الادبي في التعبير عن التجربة التي يمر بها الكاتب بكل اعماقها وقوتها ، وقدرة ذلك العمل الادبي على نقل هذه التجربة الذاتية بكل جوانبها وتنوعها واصالتها .

فالناقد اذن ينظر الى التعبير على ان له قيمة ذاتية خاصة به بصرف النظر عن الاحكام التي قد يتضمنها ، وذلك على الرغم من كل ما يقال من الادب التطبيقي الذي قد يهدف الى الاقناع ، والى قبول قضية او رأى او حكم .

فالفرض اذن من الادب الصرف « هو ان يؤدي عمق الاحساس دون ان يكون له غرض اخر غير مجرد وجوده ، كما ان الحكم عليه بالقوة او الضعف اما يكون بالنظر الى قدرة الكاتب على توصيل تلك التجربة والتعبير عنها » .

وما دام العمل الادبي تعبيراً عن تجربة معينة مر بها الكاتب فان النظرة الى ذلك العمل وتقديره وتقييمه يجب الا تكون مجرد نظرة جمالية خالصة وانما لا بد من ان تأخذ في الاعتبار المناخ العقلي والثقافي والحضاري الذي تم انتاجه فيه ، ومحاولة التعرف على العوامل السيكولوجية والظروف الاجتماعية التي خضع لها الكاتب . فهذه كلها امور من شأنها ان تزيد قدرة القارئ على فهم ما يقرأ والاستمتاع به وتقديره ، وعلى الغرض الى اعماق التجربة الانسانية التي يعكسها الكاتب على ما يقول ديشيس .

فكان الادب على ما يذهب اليه انصار هذا المذهب ، ومعهم المهتمون بالدراسات الادبية من علماء الاجتماع والانثربولوجيا - هو عمل اجتماعي ثقافي الى جانب كونه انتاجاً فنياً او جمالياً . ومن الطريف ان نذكر هنا ان الكثيرين من علماء الاجتماع والانثربولوجيا الذين تعرضوا لهذه المسألة ينظرون الى الكاتب او الاديب على انه انسان يمارس حرفة او مهنة معينة . والى العمل الادبي على انه وسيلة للاتصال ، اي سلعة ثقافية ، والى القارئ على انه مستهلك لتلك السلعة الثقافية بشكل او بآخر .

والمعروف انه منذ عام حاول شوكنج L. L. Schl King على ما يقول سكاربيت Robert Scarpit في مقاله عن « الادب » في الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية - ان يضع نظرية من علم الاجتماع الادبي او سوسيو لوجيا التدوق الادبي . ومع ان هذه المحاولة صادفت كثيرا من الصعوبات ، على الاقل في بداية الامر ، فانها اثارت الاهتمام بالموضوع لدى عدد من المفكرين الاجتماعيين الذين اهتموا بالتعرف على العوامل الاجتماعية التي تؤثر في العمل الادبي ومدى تعبير الادب عن الواقع الاجتماعى وانعكاس البيئة الاجتماعية للكاتب في كتاباته ، واثار البناء الاجتماعى عموما في الانتاج الادبي . ثم بدأت بعض المدارس التي تأثرت بكتابات الفيلسوف المجري **جورجي لوكاش** Gyorgy Lukás تنظر الى المجتمع على انه هو الحقيقة الواقعية التي تختفي وراء مظاهر الادب ، وان كان ذلك لا يتنافى في الوقت ذاته مع اعتباره الادب غاية في ذاتها . وقد بلغ الامر ببعضهم الى حد اغفال دور القارئ في عملية الاتصال الادبي ، بل ان منهم من انكر ان يكون الادب عملية اتصال بالمرة ، وبذلك انكروا وجود ما يمكن تسميته بالاتصال الادبي .

وهذا موقف متطرف يتعارض تماما مع موقف كاتب مفكر مثل **جان بول سارتر** Jean-Paul Sartre الذي يرى في كتابه « ما هو الادب » الذي صدر عام ١٩٤٨ ان العمل الادبي السلي هو نتاج مكتوب للفكر لن يكون له وجود واقعي الا حين يقرأ بالفعل ، لان الكتابة تغير القراءة هي مجرد لغو ، كما ان الكتاب الذي لا يجد من يقرؤه لن يكون اكثر من مجموعة من الاوراق الملوثة بالحبر . وعلى هذا الاساس فانه لا يمكن اعتبار الظاهرة الادبية مجرد حصيلة للفن نفسه ، وانما هي لقاء او تقابل ، بل وحيانا صدام بين فاعلين صادرين من الحرية ، الاول فعل انتاج والآخر فعل استهلاك ، بكل ما يقتضيه هذان الفعلان من نتائج وآثار على العلاقات الاجتماعية والاخلاقية . وعلى اية حال فلا بد من ان يكون هناك دائما « رجل اخر » في الادب : كاتب بالنسبة لقارئ وقارئ بالنسبة لكاتب .



وهذا كله معناه ان من الخطورة الى حد كبير اخضاع النتاج العقلي المكتوب للمحركات الجمالية وحدها او اغفال غيرها من المحركات الثقافية والاجتماعية والاخلاقية ، خاصة وان اداة الادب هي اللغة والكتابة ، وهما اداتان اجتماعيتان .

وليس من شك في ان الكاتب يأخذ في اعتباره في معظم الاحوال الافكار والاحكام والقيم التي تسود في مجتمعه ، فضلا عن الاحكام التي يصدرها القراء انفسهم على ما يكتب . فالتفاعل بين الكاتب



والقارئ قائم وقوى ويعمل في اتجاهين متكاملين، بحيث يلعب الكاتب دورا إيجابيا يتمثل فيما يحاول توصيله من « رسائل » أو تجارب إنسانية إلى جمهوره قرائه الذين تصدر عنهم « استجابات » لهذه « الرسائل » تتمثل في الأحكام التي يصدرونها على ما يكتب والتي تنعكس بدورها على كتاباته الأخرى وهكذا .

ولقد كان من الطبيعي ازاء ذلك أن يشغل دارسو الأدب أنفسهم بوضع الحدود واقامة التمييزات بين « التاريخ الأدبي » و « النقد الأدبي » .

فالتاريخ الأدبي على ما يقول الأستاذ بيتشون Bateson يهتم بتبيين أن استمد من ب ، بينما النقد الأدبي يحاول البرهنة على أن أ أفضل من ب . . . التاريخ الأدبي يعالج حقائق مؤكدة ، أو يمكن البرهنة عليها ، أما النقد الأدبي فيتناول أمورا تتصل بالاعتقاد أو الرأي ، وقد تتعلق بأصدار الأحكام التقويمية . وهذه تمييزات معقولة ومقبولة إلى حد كبير ، وإن كانت المناهج والأساليب المتبعة كثيرا ما تخطئ بينها ، كما أنه كثيرا ما يصعب تصور تاريخ الأدب بغير الرجوع إلى نظرية الأدب أو النقد الأدبي ، أو ممارسة النقد بغير الرجوع إلى نظرية الأدب وتاريخه . وليس من شك في أن أن النقد الأدبي يأخذ في الاعتبار الأحكام التي كانت تسود في عصور إنتاج العمل الأدبي الذي يتعرض له بالدراسة والنقد ، ويحاول أن يتعمق في فهم اتجاهاتها ومواقفها وفلسفاتها ويتعرف على المعايير الأدبية والفنية الموجودة حينذاك . وتعرف هذه النزعة بوجه عام - كما يقول ويليك Wellek ووارن Warren في كتابيهما عن **نظرية الأدب** Theory of Literature بالنزعة التاريخية historicism . وكانت هذه النزعة شائعة في ألمانيا بوجه خاص في القرن التاسع عشر رغم اعتراض الكثيرين عليها ، ثم انتقلت من ألمانيا إلى إنجلترا فالولايات المتحدة ولا يزال الكثيرون من « مؤرخي الأدب » يتمسكون بها ، وأدى ذلك إلى ظهور ما يعرف باسم « النسبية النقدية » Critical Relativism - على ما يسميها فردريك بوتل F. Pottle وهذه تسمية تتضمن الاعتراف بوجود نوع من عدم الاستمرار في تاريخ الأدب ، ما دام إنتاج كل عصر سوف يقاس بمعايير عصره فحسب .

ومع التسليم بما في هذا الموقف من وجهة ، فقد تعرض الكثير من الهجوم والنقد ، على اعتبار أنه يفغل أذواق القراء المعاصرين ، ويحصر العمل الأدبي داخل إطار ضيق من الوحدة الزمانية والمكانية ، وبدلك يسلبه خاصية العمومية أو الكلية التي يجب أن يتصف بها أي عمل أدبي جيد . فالعمل الأدبي يجب للحكم الصحيح عليه أن يخضع لمعيارين ، وإن يدرس من بعديين متكاملين هما الذوق الفني الذي كان يسود عصر إنتاجه ، ثم الذوق الفني أو الأدبي العام ، ما دام

الادب يعبر عن تجربة انسانية ، حتى وان كانت هذه التجربة تتمثل في شخص المؤلف الذي يجب ان يبرز النواحي الانسانية العامة العميقة في تلك التجربة .

ونحن حين نقرأ أى عمل ادبى انما نقرؤه في ضوء عصره ومجتمعه وثقافته على ما ذكرنا ، ولكن ايضا في ضوء التجربة الانسانية العامة وفي ضوء المواقف والاتجاهات الحديثة . وهذا الموقف المزدوج له ما يماثله في الدراسات الانثربولوجية مثلا ، حيث ينظر الباحث الانثربولوجى الى اية ثقافة في ضوء الظروف التى انتجتها وكذلك في ضوء ثقافته هو نفسه ، على اعتبار ان تلك الثقافة الجزئية التى يدرسها ما هى الا مظهر من مظاهر الثقافة الانسانية ككل . وكذلك العمل الادبى ما هو الا تعبير عن جزء معين من التجربة الانسانية العامة ، بقدر ما تعرض لها الكاتب .

فكان من الصعب الفصل نصلا قاطعا وحاسما بين وجهة النظر التاريخية والمعاصرة في دراسة الادب دراسة نقدية ومحاولة تقييمه . ومع ذلك فإنه يتعين على الناقد ان يعمل على ان يتجنب بقدر الإمكان الوقوع فريسة في « النسبية النقدية » او في « التزمه المطلقة Abolutism » ، بحيث يتخلص من قصور النسبية دون ان ينزلق الى الاحكام المطلقة الجامدة التى تعتقد ان الطبيعة الانسانية ثابتة لا تتغير . فالعمل الفنى او الادبى ( ابدى ) ( تاريخى ) معا . وليس من السهل الجمع بين هذين ( البعدين ) ، ولكنه امر لا يدمنه اذا اريد فهم العمل الادبى فهما صحيحا يريد من معرفة الانسان بطبيعة النفس البشرية وعمق التجربة الانسانية وتمقدها .

## الشكل والمضمون في النقد الأدبي الحديث

شغلت قضية الشكل والمضمون في الأدب المشتغلين بالدراسات الأدبية والنقدية على مر العصور ، لا في الآداب الأوروبية وحدها ، ولكن في أدبنا العربي كذلك ، وخطورة هذه القضية إنما تنشأ من ارتباطها الوثيق بتقدير قيمة العمل الأدبي وتبين تأثيره . فإن أي خلط في فهم طبيعة العلاقة بين الشكل والمضمون سيؤدي بالضرورة إلى الخلط في الحكم على الآثار الفنية ، وإلى اختلاف النقاد والأدباء في حقائق ؛ أن جاز الاختلاف فيها في العصور الماضية فلا يجوز أن يختلف عليها أحد اليوم . وعلى الأخص بعد أن تطورت دراسات علم الجمال الحديث وبعد أن وضحت من خلال هذه الدراسات الأسس التي يبنى عليها الفن أيما كان نوعه .

وقبل أن نبدأ في دراسة هذه القضية وتبعضها في مراحلها المختلفة يحسن بنا أن نحدد ما يعنيه النقد الحديث بأصطلاحه الشكل والمضمون أو الشكل والمحتوى ، وقد يستخدم أحيانا اصطلاح الصورة بدلا من الشكل فيقال: الصورة والمضمون .

والشكل عندهم هو الصورة الخارجية ، أو هو الفن الخالص المجرد عن المضمون والذي تمثل فيه وتحقق من خلاله شروط الفن الأدبي ، سواء أكان قصيدة غنائية أم قصة أم مسرحية . فإذا حكمنا على قصيدة غنائية من حيث الشكل مثلاً قصرنا أحكامنا على كل ما يتعلق بتحقيق الصورة

الخارجية لهذا الفن من وزن وموسيقى وصور شعرية ، وصياغة فنية ، وبما قد يتحقق من خلال ذلك من جمال أو انسجام في الوحدة أو تناظر في الأجزاء . وبالجملية كل ما يتصل بالعنصر الشعري الفني في القصيدة وصياغته واسلوب تصويره . وكذلك الحال في المسرحية ، فالشكل فيها هو كل ما يتصل ببنائها الدرامي وتماسك هذا البناء وتدرجه من بداية ، الى وسط ، الى نهاية ، ثم التحام أجزائه وروعة تصويره بغض النظر عما يشمل من مضامين أو يشير من قضايا إنسانية أو اجتماعية أو نفسية أو أخلاقية .

اما المضمون أو المحتوى فهو كل ما يشتمل عليه العمل الفني من فكر أو فلسفة أو اخلاق أو اجتماع أو سياسة أو دين ، أو غير ذلك من موضوعات ذات شأن تاريخي أو وطني . ومن هنا يكون المضمون أو المحتوى هو في غالب الامر المدد الخام التي يستخدمها الاديب أو الشاعر ، والتي يشكلها الفنان في الصورة التي يريدها .

وانقسم النقاد وفقا لهذا التمييز بين الشكل والمضمون الى مدرستين : أحدهما مدرسة الشكل والأخرى مدرسة المضمون . وأخذت كل مدرسة تقيس الفن بمقاييسها الخاصة . فاصحاب الشكل لا يرون في المضمون اية قيمة فنية ، ويحصرون أحكامهم في دائرة الصياغة الفنية وما يتحقق عنها من جمال . واصحاب المضمون يرون ان الفن كله مضمون . وحددوا المضمون كما يقول كروتشه تارة بما يلد ، وتارة بما يتفق مع الاخلاق ، وتارة بما يسمو بالانسان الى سماوات الفلسفة والدين ، وتارة بما هو صادق من الناحية الواقعية ، وتارة بما هو جميل من الناحية الطبيعية المادية « (١) » .

والمسألة مرتبطة في جذورها بفلسفة ادراك الاشياء : هل ماهية الشيء متحققة فيه ، أو ان الماهية فكرة منفصلة عن الشيء ؟ أو بمعنى آخر : هل المدرك الحي الذي امامنا يحمل في ذاته حقيقة كامنة فيه أم انه يمثل ظلا زائلا لحقيقة منفصلة عنه وبعبارة عن كيانه ؟

اما أرسطو فيرى ان الماهية ليست فكر منفصلا عن الاشياء ، والحقيقة عنده كامنة في المدرك الحسي ، ومن ثم فان جوهر الشيء عنده لا ينفصل عن تحققه المادي ، ومن هنا كان عالم الشعر عند أرسطو كامنا في المظاهر الحسية ، ويستطيع الباحث ان يستنتج من نقد أرسطو انه مؤمن بالتلازم بين الصورة والهيولى .

والذين يفصلون الشكل والمضمون انما يميزون الى حد كبير بين الافكار أو الماهيات وبين المدركات الحسية .

والكلمات لا تعني الدلالة على اشياء ، وانما تعني افكارا أو اشياء في الوقت نفسه . فاذا ذكرنا كلمة اسد يتدأى الى الذهن شيان :

أولا جملة الصفات التي تحدد شكل الاسد وتكتسب عن طريق الملاحظة والتفرقة بين الصفات الجزئية والعرضية والصفات المشتركة :

**وثانياً** جملة الارتباطات والانطباعات القائمة حول الكلمة ، او بمعنى آخر ما يمكن او تضيفه الكلمة من احساس . من اجل ذلك كان من الصعب ان تفصل بين ماهية الاسد وبين الاحساس المرتبط بما تثيره الكلمة في النفس من احياءات خاصة الافى نطاق التقسيم النظري بين ما يدرك بالعقل وما يدرك بالحوس . وقد يمكن القول بأن ماهية البدر مستقلة عن جمال البدر الذي يستمد عادة من جملة الاحياءات والارتباطات ، وفي وسع اي انسان ان يقول ان استدارة البدر واستنارته شيء وجماله شيء آخر ، كما في وسع الدراسة النظرية البحتة ان تقول ان وصفنا للبدر بالجمال شيء نابع عن الدوق . اما ماهية البدر التي تتمثل في فكرته كنجم مستدير مستنير في السماء ليلا فشيء آخر اكتسبناه من طول النظر والتأمل ، لا عن طريق الذوق .

ومن الممكن ان نقول ذلك ، وان نفصل بين ماهية الشيء وبين الانطباعات او الارتباطات القائمة حوله ، ذلك اذا اردنا ان نفرق بين الادراك العقلي المحض وبين الادراك الحسي . (٢)

ولكننا في مجال اللغة والادب نخضع لبداعم لا ينبغي الاختلاف عليه وهو مبدا رمزية اللغة ، فليست الكلمات في اللغة والشعر مجرد علامات او اشارات نتخذها لتشير بها على وجود شيء او سواه ، وانما هي رموز تتضمن شحنات من المشاعر والاحساسات .

« فالرموز بالمعنى الدقيق هي تلك التي لا يكتفي فيها على مجرد الدلالة بحيث يكون هناك طرفان فقط : طرف العلامة الدالة من جهة ، وطرف الشيء المدلول عليه من جهة أخرى ، بل يضاف الى مجرد الدلالة شحنة عاطفية من نوع معين مقصود يراد لها ان تنزوي في نفس الراي او السامع كلما وقع على رمز معين ، فعلم جمهورية مصر العربية - مثلاً - له ما لهذا الاسم من دلالة على البلد المراد الدلالة عليه ، لكنه يضيف الى مجرد دلالة الاسم على مسماه ضرباً من الشعور يراد له ان ينشأ في النفوس كلما وقعت العين على ذلك العلم . . . . . والهلال رمز للاسلام ، والصليب رمز للمسيحية ، فكأنهما كلمتان ، لكنهما يزيدان على كونهما مجرد كلمتين لكل منهما مدلوله المعين ، اذ هما تضيفان الى عملية الدلالة موقفاً شعورياً خاصاً » (٣)

فالكلمات اذن ليست قطعاً من الخشب او الفيسفاس يوضع بعضها الى جانب البعض ، وانما الكلمات ارواح تختزن في داخلها مشاعر واحساسات . وهي وبتفاعلها مع غيرها في داخل سياق لغوي قادرة على منح بعضها البعض دلالات وفاعليات خاصة . وبذلك تكون اللغة في يد الكاتب او الاديب في حركة خلق مستمرة ، والفن الادبي استثمار لامكانات اللغة التي لا تنتهي عند حد .

واذا فهمنا رمزية اللغة على هذا النحو يصبح الفصل بين الفكر الخالص المجرد ، وبين الشعور او الاحساس او ما تتضمنه كلمات اللغاة ارتباطات او احياءات امرأ بعيداً كل البعد عن المفهوم الحقيقي لآثر اللغة فنياً .

(٢) نظرية المعنى في النقد العربي ص ٧٠ وما بعدها - دكتور مصطفى ناصف .

(٣) فلسفتون ص ٤٣ ، ٤٤ دكتور زكي نجيب محمود .

من أجل هذا حق لارسطو الا يفصل بين الصورة والهيولى ، ولكن فهم ارسطو للفة لم يصادف هوى عند مدرسة اللغويين الاسكندرانيين ، وعند هوراس وشيشرون فقد رأى هؤلاء ان الشعر عالم من الالفاظ ، واختلط عندهم مفهوم الشعر بمفهوم الخطابة ففصلوا بين الشكل والمضمون تحت اصطلاحى الالفاظ والاشياء ( RES ) ، واستمر هوراس فمن جاء بعده وحتى فى عصر النهضة فاصبح النظر الى الشعر يتساوى مع النظر الى الخطابة والمنطق وفلسفة الاخلاق (٤) .

ومن الغريب ان يمتد هذا التأثير الى القرن التاسع عشر فينقسم فلاسفة الفن فى هذا القرن الى مدرستين : مدرسة الشكل ومدرسة المضمون ، والاعجب من هذا كله ان نرى بيننا اليوم من المعاصرين من يفهم الشعر والادب على انه شكل ومضمون او لفظ ومعنى . ويرجع الفضيلة فيه الى الشكل دون المضمون او الى المضمون دون الشكل . فما اكثر ما نسمع من النقاد ان قصيدة ما جيدة فيما تشتمل عليه من احساسات ومشاعر ، ولكنها فقيرة من ناحية اسلوبها او صياغتها . وكثيرا ما نسمع بعض النقاد يتحدثون عن مسرحية ما فيقولون انها سليمة من حيث البناء الدرامي ، ولكن يعوزها الموضوع الهام ذو الشأن التاريخي او الوطني او الاجتماعي .

وهذه جميعها اخطاء ياباها الذوق بل وينفر منها العلم والفهم الصحيح لعمليتي الخلق الادبي والتقد الادبي على السواء .

وليس من شك فى ان هذا الخلط فى مفهوم العمل الفني خلقا وتقدنا انما يرجع الى ظهور النظريات الكثيرة مثل نظريات اللذة ، والنظريات الاخلاقية والمادية فى الفن وغير ذلك كما يرجع اساسا الى اهمال العنصر الفني اما افلاسنا او عجزنا . الامر الذي جعل اصحاب لنظريات يعتبرون الفن عنصرا لاحقا او عرضيا .

وليس هناك ما هو اشد حسما الخلاف القائم بين انصار الشكل والمضمون من نظرية الخيال عند كولردج فقد حددت النظرية الخطوط الاساسية التي يبنى عليها الخلق الادبي بدرجة لم يعد هناك مجال بعدها للتشيع او الانقسام . فقد عرفنا ان الخيال هو الذي يبدع الشكل العضوي ، وهذا الشكل العضوي ينبع من داخل العمل الفني ، كما انه خاضع لتجربة الشاعر لا لشيء آخر يفرض عليه من الخارج . ومن هنا أصبح الشكل الخارجي فى الشعر ليس بلدي قيمة فى ذاته ، ان قيمته فى اتحاده اتحادا عضويا مع سائر العناصر المكونة للعمل الفني . واعتماد كل جزء من اجزاء العمل الفني اعتمادا كلياً على الاجزاء الاخرى هو معيار جودة الشكل عنده . وقد نتج عن هذا كله نتائج غاية فى الاهمية نجملها فى النقاط الاتية :

اولا : اصبح نقد العمل الفني عند كولردج يقوم على اساس هام هو ان الشكل والمضمون يتحدان اتحادا تاما ، وان الشكل العضوي امر غير مكتسب ، وليس مصنوعا صناعة آلية ولكنه فى باطن العمل الفني ويتحدد فى تطوره من الداخل ومعنى شكله هو بالضبط اكتمال نموه (٥) .

(٤) فن الشعر ص ١٩١ ، ١٩٢ دكتور احسان عباس

(٥) كولردج ص ٩٣ الدكتور مصطفى بنوى

ثانياً : ان قيمة العمل الفني تأتيه من اتحاد أجزائه ، وإذا كان ثمة قوانين للعمل الفني في قانون المعقارية ، لا القانون المفروض على الفنان من الخارج ، انه قانونه الخاص الذي يستطيع ان يطرق به افضل السبل لتحقيق اهدافه ، وبهذا يقضي كولردج على ما كان يلجأ اليه الكلاسيكيون في تقديمهم عندما كانوا يحددون للقراء اصولاً معيناً لا يحيدون عنها ، ويلتزم بها النقاد فلا يحكمون بالجودة أو الرداءة على عمل فني الا اذا توافرت لهذا العمل شروط محددة . وبذلك يحطم كولردج فكرة القانون الصارم في النقد ، ويرى انها مسألة نسبية يحددها العمل الفني نفسه الذي يختلف من شاعر الى آخر ومن عصر الى عصر .

ثالثاً : القضاء على ثنائية اللفظ والمعنى التي كانت سائدة في النقد الأدبي قبل كولردج . وله في هذا المجال فهمه الدقيق للغة ووظيفتها في العمل الفني .

فهو يميز بين الكلمات كأصوات وبينها كأمعان . او بينها كأدوات اصطلاحية الغرض منها الإشارة ، وبينها كوسيلة من وسائل الدلالة على حقيقة الشيء . غير ان اللغة في الشعر تجمع بين لغة الإشارة الباردة وبين اللغة الحية الناقلة للمشاعر . وهو يصف لغة الشعر فيقول عنها : « انها اللغة الأولى ممتزجة باللغة الثانية ، اللغة الاصطلاحية المستخدمة بحيث لا تكفي بمجرد الإشارة الى الصورة الباردة ، وانما بحيث تعبر عن حقيقة شيء (٦) . » ويقول في موضع آخر :

ان الفرق الشاسع بين الالفاظ التي تستعمل كمجرد علامات اصطلاحية للفكر ، والتي هي بمثابة عملة للتخاطب ، عملة ناعمة الملمس امحى ما كان عليها من رسم وكتابة لكثرة الاستعمال ، وبين تلك الالفاظ التي توصل لنا صوراً . سواء كانت هذه الصورة مستعارة من موضوع خارجي معين لكي تحيي وتخصص موضوعاً آخر ، أم كانت مستخدمة بطريقة رمزية لكي تجسد حالة المتكلم الباطنة ، او مستخدمة بحيث تعبر على الأقل عن نزاعه الخاصة « (٧) .

ويعرف الشعر بقوله :

« انه افضل الالفاظ في افضل الاوضاع » (٨) .

ومعنى هذا ان اي كلمة في العمل الفني لا يمكن تغييرها او استبدالها بأخرى دون ان يفقد السياق معناه . فكل لفظة مستقلة بوجودها متميزة بشخصيتها . فليس هناك لفظة يمكن ان تتساوى مع لفظة أخرى في محصولها من الشعور . خذ اي كلمتين متشابهتين في المعنى وحاول ان تستجلي ما وراءهما من احساس فستجد ان لكل منهما مزاجاً مختلفاً وروحاً متباينة . من اجل ذلك قال كولردج : « ان الشعر الرائع هو الذي لا يمكن ترجمته الى الفاظ أخرى دون ان يفقد جماله شيئاً » (٩) .

(٦) المرجع السابق ص ٩٦

(٧) المرجع السابق ص ٩٦

(٨) المرجع السابق ص ٩٦

(٩) المرجع السابق ص ٩٦

ولو كانت الكلمة مجرد رمز يشير الى معنى أو فكرة فحسب لكان يمكن للكلمتين المترادفتين ان يتساويا أو ان تحل الواحدة منهما مكان الاخرى. ولكننا عرفنا ان الكلمة ليست مجرد اشارة باردة لمعنى أو فكرة ، وانما هي نسيج متشعب من احساسات . بل ان لكل كلمة تاريخا طويلا مرت به ، وظروفا نشأت فيها ، وارتباطات احاطت بها، وهذا كله كفيل ان يزيد الكلمة خصبا وحياة ، وان يجعلها شخصية متميزة تماما وهذا هو ما عنده كولردج بقوله :

« ولا يتضمن معنى اللفظة في رأيي مجرد الموضوع الذي يقابلها ، بل يشمل ايضا جميع الارتباطات التي تبعثها اللفظة في اذهاننا . فطبيعة اللغة لا تمكنها من نقل الموضوع فحسب ، وانما تجعلها ايضا قادرة على نقل شخصية المتكلم الذي يعرض الموضوع ونواياه » (١٠) .

يتضح لنا من كل ما سبق ان علاقة اللفظ بالمعنى عند كولردج علاقة حية ، وان ارتباطهما وثيق بحيث لا يمكنك ان تغير اللفظة او تنقلها من مكانها او تستبدلها الا اذا تغير المعنى .

**رابعاً:** من النتائج الاخرى الهامة التي تولدت من مفهوم كولردج للشكل والمضمون اعتباره الوزن الموسيقي في الشعر جزءا لا يتجزأ من التجربة الشعرية ، وعنصرًا ملتحما التحاما كليًا بسائر العناصر الاخرى المكونة للقصيدة . بل ان الوزن عنده ثمرة من ثمار الخيال ، يقول :

« انني اعتقد انه من البشائر المرضية جدافي تأليف الشاب الولع بالصوت الفنى العذب حتى وان كان في ذلك افراط معيب . ذلك بالطبع اذا كان من الواضح ان الموسيقى في شعره أصيلة ، وليست نتيجة تقليد آلي سهل ... فالصور الشعرية ( حتى ولو كانت مستقاة من الطبيعة ولا سيما حين يكون مصدرها الكتب مثل كتب الاسفار والرحلات وعلم الاحياء ) شأنها شأن الاحداث الثيرة ، والافكار الصادقة والمشاعر الشخصية او العائلية الشيقة . كل هذه الاشياء بالاضافة الى فن جمعها او صياغتها في صورة قصيدة ، قد يستطيع أي فرد موهوب ، وعلى قدر من الاطلاع ان يكتسبها بالجهد المتصل مثلما يكتسب المرء حرفة من الحرف . اما الاحساس بالمتعة الموسيقية بالاضافة الى القدرة على توليد هذا الاحساس لدى الغير فانما هي هبة الخيال وحده . ومن الممكن تنمية هذا الاحساس وثقيفه، ولكنه يستحيل تعلمه ، مثله في ذلك مثل القدرة على خلق اثر موحد من الكثرة ، وعلى تعديل سلسلة من الافكار بواسطة فكرة واحدة سائدة أو انفعال واحد مهيمن . ان هذه هي الاشياء التي يصدق عليها المثل القائل بان المرء يولد شاعرا . ولا يمكنه ان يصبح شاعرا عن طريق الصنعة » (١١) .

ومصدر الوزن عند كولردج هو العاطفة أو الانفعال بمعنى ان الذي يختار الوزن الشعري انفعال الشاعر نفسه فعندما تثور في نفس الشاعر عاطفة جياشة يلجأ الى الوزن او الى الموسيقى لانهما أقرب الوسائل للتعبير عن العواطف المشبوبة ولانها هي الاخرى بدورها

(١٠) المرجع السابق ص ٩٧

(١١) كولردج ص ٩٩



أكثر الوسائل قدرة على تبليغ العاطفة وإثارتها عند القارئ أو السامع . على أن الوزن الذي هو وليد الانفعال والعاطفة المشبوبة بحاجة إلى أن يفرض عليه الشاعر درجة من التوازن ، وهنا تتدخل الإرادة التي تستطيع أن تحول العاطفة الشائكة المشبوبة عند الشاعر إلى ارتفاع محدد خاضع لنظام ، وليس مجرد تفجر عاطفي غير خاضع لسيطرة الإرادة . ومن ثم لا يتحقق الوزن في الشعر إلا نتيجة لدرجة من التوازن بين العاطفة والإرادة . وفي هذا يقول كولردج :

« وبما أن الوزن نتيجة فعل إرادي لأجل مزج اللذة بالانفعال فإنه يجب أن تكون آثار هذه الإرادة واضحة في سائر اللغة المنظومة حسب تدخل هذه الإرادة » ( ١٣ ) .

ويربط كولردج بين الكلام المنظوم ولغته . وهو يرى أن أي كلام موزون بحاجة إلى لغة خاصة تناسبه ، فلما كان الوزن وليد الانفعال وصادرا عن عاطفة الشاعر فكذلك لغته . هذا بالإضافة إلى أن جزءا هاما من موسيقى الشعر نابع من علاقات اللغة وأصواتها ونبراتها ، وما تحمله تلك النبرات والأصوات من مشاعر . ومن هنا نشأت العلاقات العضوية الحية بين الوزن وغيره من مقومات العمل الفني وعلى الأخص اللغة التي هي مستودع الانفعال والموسيقى والصورة .

أما تأثير الوزن عند كولردج فيرجع إلى ناحيتين : الناحية الأولى ناشئة من تكرار وحدة موسيقية معينة تنتشر في العمل الفني كله ، وتعمل على تشويق القارئ ودفعه للقراءة وإثارة حب الاستطلاع في نفسه . أما الناحية الثانية فهي النغمة غير المتوقعة ، والتي لا تنشأ عن التشابه بين وحدات موسيقية متكررة وإنما تلك التي تنشأ من عنصر المفاجأة أو خيبة الظن كما يحلو لريتشاردز أن يسميها . فالإيقاع عنده لا يتحقق من قانون التوقع وحده وإنما يتوقف على قانون المفاجأة أو خيبة الظن . يقول ريتشاردز :

« والنسيج الذي يتألف من التوقعات والأشياء أو خيبة الظن أو المفاجآت التي يولدها سياق المقاطع هو الإيقاع . وربما كانت معظم ضروب الإيقاع تتألف من عدد من المفاجآت ، ومشاعر التسويق وخبية الظن لا تقل عن عدد الأشياء البسيطة المباشرة . وهذا يفسر لنا لماذا سرمان ما يصبح الإيقاع المسرف في البساطة شيئا تمجده النفس » ( ١٢ ) .

وهذه النغمة الناشئة عن عدم التوقع أو المفاجأة هي التي تولد الدهشة وتثيرها لدى القارئ في الكلام المنظوم .

ومجمل القول في الوزن عند كولردج انه جزء لا يتجزأ من التجربة ، يصدر عن درجة عالية من التوازن بين العاطفة المشبوبة والإرادة الواعية ، ويثير في النفس حب الاستطلاع والتشويق والدهشة . ويتألف الوزن مع مادة القصيدة يمكن للشاعر أن يحقق عملا فنيا رائعا

أما الوزن وحده فلا يمكنه أن يحقق قيمة غنية في ذاته . من أجل ذلك يشبهه كولردج بالخمرة فيقول :

« ان الوزن اذا ما قصد استعماله لأغراض شعرية أشبه ما يكون بالخمرة ، فالخمرة في ذاتها عديمة القيمة ، بل انها كريهة المذاق ، ومع ذلك فهي تضاف على الشراب الذي يمتزج به بنسب معقولة روحا وحيوية » .

ومن هذه العبارة الأخيرة يتضح لنا أن قيمة الوزن في الشعر لا تتحقق الا اذا استطاع أن يتحد ببقية العناصر في القصيدة اتحادا تاما .

### الشكل والمضمون عند كروتشه :

ومن أهم من تعرض لقضية الشكل والمضمون في العمل الفني الفيلسوف الإيطالي المعروف بندتو كروتشه واضع كتاب « علم الجمال » وصاحب مدرسة كبيرة في الدراسات الجمالية والفنية .

ولقد لاحظ كروتشه أن هناك ثلاثة تمييزات خداعة تملأ ساحة فلسفة الفن وتغري المرء بسهولة وبدايتها الظاهرة وكلها تتعلق بالشكل والمضمون وأشهر هذه التمييزات هو التمييز بين **المضمون والصورة ( ١٤ )** .

وخطورة هذا التمييز في رأي كروتشه يرجع إلى الناقد سوف يجد نفسه أمام قيمتين اثنتين للعمل الفني لا قيمة واحدة . أحدهما ترجع للشكل والآخرى للمضمون . فيرى أشياع المضمون أن الفن هو العنصر الصوري المجرد ، ويرى أشياع الصورة أن الفن هو العنصر المجرد من المضمون .

ويسخر كروتشه من هؤلاء وهؤلاء ، حين يتتبع دراستهم وفلسفاتهم ويجد في نهاية الأمر أن كل ما دار من جدل حول المدرستين لم ينته إلا إلى حقيقة واحدة هي أن أصبح أشياع المضمون ، على غير إرادة منهم ، أشياعا للصورة ، أصبح أشياع الصورة على غير إدارة منهم أشياعا للمضمون . وهكذا وقعت كل من الطائفتين موقف الأخرى ، ولكن على غير استقرار ولا اطمئنان ، ثم تعود إلى موقفها على غير اطمئنان ولا استقرار كذلك .

ولكن قضية الشكل والمضمون عند كروتشه قد وجدت الحل تلقائيا في تفسيره لفن وتحديد مفهومه . ولنعرفنا إن الفن حدس عند كروتشه ، وعرفنا ما يعنيه بكلمة الحدس ، وأدركنا أن تعريفه للفن بأنه حدس قد ميز الفن عن المفاهيم المنطقية والفلسفية والاجتماعية ، كما ميزه عن اللذة والأخلاق ، ولكنه مع تمييزه للفن عن كل المفاهيم فهو لم يقلل من شأن المضمون بل لقد جعله نقطة البدء التي تتفرع منها التجربة والحقيقة التعبيرية أو الفنية . ولكنه مع ذلك لم يجعل للمضمون خصائص فنية سابقة على العمل الفني . فإذا كان للمضمون قيمة فهو لا يكتسبها إلا من خلال العمل ذاته .

---

( ١٤ ) يستخدم كروتشه ( الصورة ) بعبارة ( الشكل )

وينتهي كروتشه في مناقشته لموضوع التمييز بين المضمون والصورة إلى الحقيقة الآتية ، فيقول :  
« والحقيقة هي أن المضمون والصورة يجب أن يميزا في الفن ، لكن لا يمكن أن يوصف كل منهما على انفراد بأنه فني ، لأن النسبة القائمة بينهما هي وحدها الفنية ، أعنى الوحدة ، لا الوحدة المجردة الميتة . بل الوحدة العيانية الحية » (١٥) .

ويقول في موضع آخر :

« فسيان إذن ( أو قل انهما وسليتان من وسائل التعبير الموافق ) أن نعد الفن مضمونا أو صورة ، شريطة أن يكون المفهوم دائما أن المضمون قد برز في صورته ، وأن الصورة متمثلة بالمضمون ، أي أن الشعور هو الشعور المصور . وأن الصورة هي الصورة المشعور بها » (١٦) .

ويقول كذلك :

« والعاطفة أو الحالة النفسية ليست مضمونا خاصا ، وإنما هي الكون كله منظورا إليه من ناحية الحدس . وليس في وسعنا أن نتصور في خارجها أي مضمون آخر ليس في الوقت نفسه صورة مختلفة عن الصور الحدسية :

لا الأفكار التي هي الكون بأسره منظورا إليه من ناحية العقل ، ولا الموضوعات الفيزيائية والعناصر الرياضية التي هي الكون بأسره منظورا إليه من ناحية الإرادة » (١٧) .

وبهذه العبارات الأخيرة المحددة يحسم كروتشه في القضية كلها عندما يربط بين المضمون والصورة هذا الربط المحكم ، فلا يمكن تصور مضمون مهما يكن شأنه خارجا عن الصورة الحدسية . وما الفكر والعقل ، والتخيل والتجربة ، والإرادة إلا وسائل خادمة للفن ولكنها ليست بذاتها فنا .

**أما التمييز الثاني** الذي لا يقل عن التمييز الأول خندا والذي تمتلئ به أيضا ساحة فلسفة الفن فهو التمييز بين **الحدس والتعبير** أو بمعنى آخر التمييز بين الصورة وترجمتها المادية .

فمن الناس من يميز بين التجربة باعتبارها موضوع الانفعال والتصوير وبين ما يستخدمه الفنان من كلمات أو أصوات ألوان للتعبير عنها . ويرى هؤلاء أن الأولى هي باطن الفن والثانية هي ظاهرة . ويعتبرون الأولى هي باطن الفن والثانية هي مادته .

ويرد كروتشه على هؤلاء فيرى أن التفريق بين الباطن والظاهر قد يكون سهلا أمره ولو في القول على الأقل ، ولكننا إذا انتقلنا من عملية التفريق إلى تقرير النسبة أو التركيب فسوف نصطدم بعوائق تخيب الظن وتحطم الآمال ، وإذا بنا ندرك أن تمييزنا كان خاطئا . يقول :

( ١٥ ) الجميل في فلسفة الفن ص ٥٥

( ١٦ ) الجميل في فلسفة الفن ص ٦٦

( ١٧ ) الجميل في فلسفة الفن ص ٥٦ ، ٥٧

« فأنى لشيء خارج عن الداخل وغريب عنه أن يجتمع الى هذا الداخل ويعبر عنه ؟ كيف يمكن لصوت أو لون أن يعبر عن صورة مجردة من الصوت واللون ؟ كيف يمكن للجسم أن يعبر عما ليس بجسم ؟ بآية طريقة يمكن أن يساهم في فعل واحد الخيال التلقائي والتفكير والنشاط المادي ؟ متى فرقنا الحدس عن التعبير ، وجعلنا طبيعة الأول مختلفة عن طبيعة الثاني ، لم نجد هناك حدا وسطا يستطيع أن يجمع بينهما ويلحسم أحدهما بالآخر . ولا تستطيع جميع نظريات التداوى والعادة والآلية والنسيان التى ارتآها علماء النفس أن تحل مسألة الاتصال هذه بين التعبير والصورة . وهذا ما اضطر بعضهم الى افتراض أن فى المسألة سرا . . . فعنهم من رأى أن هذا السر تراوج عجيب ، وهؤلاء من اصحاب الدوق الشعري ، ومنهم من رأى انه نوع من الموازنة النفسية الجميلة .

وكان ينبغى قبل أن نلجأ الى السر أن نبحث هل كان تفريق العنصرين صحيحا ، بل هل يمكن أن نتصور حدسا من غير تعبير . وفي رأيي أن ذلك لا يقل امتناعا على التصور عن تصور نفس بلا جسد . . . والواقع أننا لا نعرف الا حدوسا معبرا عنها . فالفكرة لا تكون بالنسبة اليها فكرة الا اذا أمكن أن تصاغ بالفاظ ، ولا اللحن الموسيقى يمكن أن يكون لحنا موسيقيا ما لم يتحقق بانغام ، ولا الصورة التجسيمية يمكن أن تكون صسورة تجسيمية ما لم تظهر بخطوط واللوان . ولست احتم أن تنطق الالفاظ جهارا ، ولا أن تعرف الموسيقى على آلة ، ولا أن تثبت الصورة على خيش . ولكن من المحقق أنه متى بلغت الفكرة حد النضج وأصبحت فكرة حقا دارت الالفاظ فى كياننا كله ، فحركت عضلات الفم ، ورنّت فى داخل الاذن . ومتى كانت القطعة الموسيقية قطعة موسيقية حقا رأيتها تترنح على الشفاه ، وتحرك الاصابع حتى لكان الاصابع تلعب على أوتار خيالية » (١٨) .

ويقول كذلك :

« انك لو جردت الشاعر من ابحره والفاظه وقوائيه . لما بقى هنالك فكرة شعرية كما يخيّل الى بعضهم . بل لما بقى شيء البتة . فانما نشأ الشعر مع هذه الالفاظ وهذه القوافى وهذه الابحر . وليس فى وسعنا كذلك أن نقول أن التعبير أشبه بالبشرة بالنسبة الى الجسم . اللهم الا أن نقول : أن الجسم كله ، فى كل خلية من خلاياه ، وفى كل عنصر من هذه الخلايا . هو فى الوقت نفسه بشرة » (١٩) .

وهكذا ينتهى كروشه فى مناقشاته بفكرة الفصل أو التمييز بين الحدس والتعبير الى حقيقة هامة مؤداها : أنه لا يمكن تصور الفصل بين الفن ومادته طالما كانت العبقورية الاصلية لدى الفنان هى فى الحقيقة كامنة فى قدرته الفائقة على استغلال مادة فنه واستثمارها على النحو الذى يبلغ به درجة عالية من الكمال . اذ كيف يمكن لإنسان أن يكون شاعرا عظيما وهو يسىء نظم الشعر أو مصورا كبيرا وهو لا يجيد الملاعبة بين الالوان ، أو موسيقيا موهوبا وهو لا يحسن تحقيق

( ١٨ ) الرجوع السابق ص ٦٠ ، ٦١

( ١٩ ) الرجوع السابق ص ٦١

التناغم بين الأصوات . أو يكون فنانا كبيرا وهولا يحسن التعبير ؟ من أجل ذلك قالوا عن روفائيل  
لو لم يكن له يدان لظل مصورا عظيما ، غير أنهم لم يقولوا لو لم يكن له احساس بالرسم لظل  
مصورا عظيما . ( ٢٠ )

**اما التمييز او التفريق الثالث** الذى ملاساحة فلسفة الفن والجمال والذى خدع الناس  
طويلا وما زال يخدمهم ، والذى يحرص كروتشه على أن ينبه الأذهان اليه لخطورته على نظرية  
الفن ، وعلى المذاهب النقدية هو موضوع التفريق بين **التعبير والجمال** .

وهؤلاء ، في نظر كروتشه ، ينقسمون مفهوم التعبير الفنى الى لحظتين « لحظة التعبير بالمعنى  
الخاص للكلمة : يعنى الوصول الى التعبير ، ثم لحظة جمال التعبير : يعنى زخرفة التعبير . وعلى  
هذا الاساس صنفوا التعبيرات في زمرةين : التعبيرات العارية ، والتعبيرات المزخرفة » ( ٢١ ) .

ويرى كروتشه أن هذا الاتجاه في التفريق بين التعبير وزخرفة التعبير منتشر في ميادين الفن  
المختلفة ، ولكنه قد نما واتسع في ميدان اللغة بوجه خاص ، بل انه يحمل اسما مشهورا هو اسم  
البلاغة . ذلك لان البلاغة في اعتقاده هي الميدان الذى تنفصل فيه الصورة البيانية عن التعبير .  
فكثيرا ما نرى الدارسين في الميادين البلاغية يعنون عناية خاصة بزخارف التعبير من تشبيه واستعارة  
ومجاز ، ويفردونها بالبحث والدراسة ، وكثيرا ما يقفون عند هذه الصور وقفات خاصة يتناولونها  
منفصلة عن التعبير مما جعل بعض الناس يظنون ان للصور البيانية قيمة مستقلة عن التعبير الذى  
وردت فيه .

ويعلق كروتشه على هذا الاتجاه بقوله :

« وقد كان للبلاغة تاريخ طويل منذ بلغاء اليونان الى أيامنا هذه ولا تزال تدرس في المدارس ،  
وبعني بها في الكتب ، بل في المباحث اللغوية التى تزعم لنفسها انها عملية ، فضلا عن الافكار العامية  
بطبيعية الحال ، ولو انه فقد في أيامنا هذه كثير من قوته الاولى ، وقد قبله اناس من أهل الدكاء  
والحصافة لا ادرى أمن كسل ام لقوة التقاليد ، وتركوه يعيش قرونا طويلة . ولم تكد تحاول  
الثورات النادرة التى قامت في وجهه أن تشيد ثورتها مذهبا ، وأن تنتزع الخطأ من جذوره .  
ولم يقتصر شر البلاغة التى تقول بوجود لفظة « مزخرفة » مختلفة عن اللغة العارية وسامية  
عليها ، لم يقتصر شرها على ميدان فلسفة الفن ، بل تعداه الى ميدان النقد » ( ٢٢ ) .

وليس من شك في أن المنهج البلاغى الذى يرجع مقياس الجمال والجودة في الشعر او في  
النثر الى ما فيه من صور بيانية منهج لا ينهض على أساس من فهم صحيح للأدب . ولقد نبه

( ٢٠ ) المرجع السابق ص ٦٢

( ٢١ ) المرجع السابق ص ٦٤

( ٢٢ ) دلائل الإعجاز - عيد القاهر الجرجاني - ص ٧٩

عبد القاهر الجرجاني الى خطورة هذا المنهج في القرن الخامس الهجري ، وذلك عندما قضى على فكرة التفريق بين التعبيرات العارية والتعبيرات المزخرفة بقوله :

« ان من الاستعارة مالا يمكن بيانه الا من بعد العلم بالنظام والوقوف على حقيقته » ، (٢٣) وقد كان لنا قدنا العربي الكبير منهجه الخاص في دراسة البلاغة وهو منهج يختلف كثيرا عن منهج من استمسكوا بالتقسيمات البلاغية الشكلية من امثال السكاكي والقزويني .

وما نظن ان هنالك اليوم من النقاد المحدثين من يجادل في ان الجمال ليس محصورا في الزخرف او الاستعارة ، ومن البديهي ان يخلو بيت من الشعر من الصور البيانية ويحقق قمة الجمال في الجمال في التعبير الفني ، بل ان من الشعر مالا يعدو مجرد التعبير عن حالة نفسية تعبيرا بالغ التأثير قوى الايحاء ، وهو بهذا وحده قادر على ان يبلغ الجودة لسداجته وصدقه ، ويقول كروتشه في هذا :

« ان التعبير المناسب اذا كان مناسباً ، كان جميلاً كذلك ، لان الجمال ليس الا القيمة المحددة للتعبير وبالتالي للصورة . ولذا كنا نعتي بنعته بالعري انه يعوزه شيء يجب ان يتوافر فيه . فمعنى ذلك في هذه الحالة انه ليس مناسباً ، اوانه ليس تعبيرا ، او لم يصبح بعد تعبيرا . وكذلك التعبير المزخرف ، فانه اذا كان تعبيرا في كل اجزائه لم نستطع ان ننتعه بأنه مزخرف ، بل بأنه عار كالاول وبأنه سليم كالاول كذلك » (٢٤)

ويقول :

« ليس التعبير والجمال مفهومان اثنين ، فاما هما الا مفهوم واحد يمكن ان ندعوه بأحد اللفظين على السواء . ان الخيال الفني لا يكون بدون جسد ، ولكنه ليس بدنيا ، ولباسه من ذاته ، لا يلبس شيئا غيره ، وليس اذن بمزخرف (٢٥) .

ويرى كروتشه ان موضوع التفريق بين التعبيرات العارية والتعبيرات المزخرفة يرجع في الحقيقة الى تأثير المنطق والفكر على دراسي اللغة وطلماها الذين كثيرا ما دارت بينهم المناقشات حول علاقة الفكر بالخيال والفلسفة بالشعر ، والمنطق بالفن ، والجدل بالبلاغة . ووجد هؤلاء ان التفريق بين الفكر والخيال يقتضيهم ان يصنفوا اللغة الى لغتين : الاولى لغة الفكر والثانية لغة الشعر . وذهبوا الى ان التعبير العادي او العاري هو المطابق للفكر والفلسفة ، وان التعبير المزخرف هو المطابق للخيال والشعر . واستمسكوا بهذه القسمة النظرية التي ان جار لها ان تصح في مجال التفريق بين لغتين ، احدهما لغة عملية صارمة تستخدم خارج ميدان الشعر ، والثانية لغة الانفعال التي تستخدم في ميدان الادب والشعر . ان مثل هذه القسمة لا يجوز لها ان تصح ، هذا ، اذا قصرنا كلامنا على ميدان التعبير الادبي سواء منه المزخرف او غير المزخرف . وذلك اننا في مجال

(٢٢) المرجع ص ٦٤

(٢٤) الجمال في فلسفة الفن ص ٦٥

(٢٥) الجمال في فلسفة الفن ص ٦٥

الأدب لن نجد إلا خيالا وشعرا وفنا ، وأن ادخال المنطق أو الفكر الفلسفي المجرد هاهنا ، ظلما ، خليق كما يقول كروتشه أن يلقي ظلا خادما ، حقيقا بأن يلبس الأمر على العقل ، ويوقعه في الاضطراب ، ويحول بينه وبين رؤية الفن في كامل رحابته ونقاوته بدون أن يريه منطقا ولا فكرا . (٢٦)

ثم يزيد كروتشه الأمر توضيحا حين يهاجم النظرة المنطقية إلى اللغة تلك النظرة التي فصلت بين النحو والبلاغة . فقد ظن أصحاب هذه النظرة أنه ما دامت اللغة نحوا فينبغي أن تكون نظرنا إليها نظرة منطقية . والذي زاد الأمر فظاعة أن هذه النظرة المنطقية للغة قد فرضت هي الأخرى سلطانها على منهج البلاغة ودراساتها . وحين يهاجم كروتشه هذه النظرة المنطقية إلى اللغة إنما ينبه إلى خطورتها على مناهجنا في دراسة الأدب والبلاغة يقول :

« على أن أسوأ الشرور التي سببها مذهب التعبير «الزخرف» لتصنيف صور الفكر الإنساني تصنيفا نظريا هو ما تعلق بنظرة أصحابه إلى اللغة . فأننا إذا سلمنا بوجود تعبيرات عارية نحوية فحسب ، وبوجود تعبيرات أخرى مزخرفة أو بلاغية لزم عن ذلك أن ترجع اللغة إلى تعبيرات عارية وأن ترد إلى النحو . وبالتالي ، (اذلا مكان للنحو في البلاغة ولا في الفن ) إلى المنطق حيث يسند إليها دور ثانوي . والواقع أن فساد اللغة المنطقى مرتبط ارتباطا وثيقا بالمذهب البلاغي في التعبير ، وهو يتقدم معه جنباً إلى جنب ، فقد نشأ معا في العصر اليوناني القديم ، ومعا يعيشان في أيامنا هذه ، رغم تعارض الأول مع الآخر . وقد كانت الثورات على النظرية المنطقية في اللغة نادرة جدا ، ولم يكن لها نتائج ذات بال ، شأنها شأن الثورات التي قامت في وجه البلاغة .

وظل الأمر على هذا المنوال حتى المهد الرومانطيقى ، فأصبحنا نرى لدى بعض المفكرين أو في بعض المراكز المصطفاة ، شعورا قويا بماتماز به طبيعة اللغة من قوة خيالية أو مجازية ، وبما هنالك من روابط تجعل اللغة أوثق بالشعر منها بالمنطق .

على أن كثيرا من خيرة هؤلاء المفكرين ممن ظلوا يرون في الفن رأيا خارجا عن الفن « كالذهب المفهومي أو المذهب الأخلاقي أو مذهب اللذة » ظلوا كذلك يتفرون نفورا واضحا من التوحيد بين اللغة والشعر . وفي رأينا أن هذا التوحيد محترم وسهل معا ، ما دمنا فهمنا الفن على أنه حدس ، وفهمنا الحدس على أنه تعبير ، ووجدنا بذلك ، ضمنا ، بين التعبير واللغة ، إذا فهمنا اللغة بمعناها الواسع . فما قصرنا تحكما على ما يدعى باللغة الملفوظة ، ولا حدثنا منها ، تحكما عنصر النبرة والاشارة ، وإذا فهمناها بكامل قوتها ، أي إذا فهمناها في واقعها ، من حيث هي فعل الكلام نفسه ، فما خلطنا بينها وبين مجردات النحو والمفردات . ولا ظننا - يا للحماقة - أن الإنسان يتحدث وفقا للنحو ووفقا للمفردات . أن الإنسان يتحدث في كل لحظة كما يتحدث الشاعر لأنه كالشاعر ، يعبر عن تأثيراته وعواطفه في هذه الصورة التي يسمونها كلامية أو مألوفة ، والتي لا تفصلها أية

قوة عن سائر العصور التي يسمونها نثرية ، أو نثرية شعرية ، أو قصصية ، أو ملحمية أو حوارية  
 درامية ، أو غنائية أو موسيقية وما الى ذلك . ولئن كان لا يسىء الانسان أن يعدد كالشاعر  
 ( وهو في الحق كذلك ، لكونه انسانا ) فما ينبغي ان يسىء الشاعر أن يجمع الى عامة الناس ، فان  
 هذا الجمع يفسر لنا لم كان للشعر الراقي سلطان عظيم على كافة النفوس الانسانية ، فلو كان  
 للشعر لغة خاصة ، لو كان « لغة الآلهة » لما استطاع البشر أن يفهموه لئن كان الشعر يسمو  
 بالبشر ، فانه لا يسمو بهم فوق ذواتهم ، بل داخل ذواتهم : وهكذا نرى الديمقراطية الحققة  
 والارستقراطية الحققة ، في هذه الحالة ايضا تلتيان : فيلتقى الفن باللغة ، وتلتقى فلسفة الفن  
 بفلسفة اللغة حتى يمكن ان تعرف كل منهما بالآخرى ، أى أن تعدا شيئا واحدا . . . . . وأن هذا التوحيد  
 بين الشيئين يعود على الدراسات الفنية والشعرية بفائدة عظيمة ، فيخلصها من رواسب النظريات  
 المفهومية والاخلاقية ، ونظريات اللذة التي لا تزال تلاحظ بوفرة عظيمة في النقد الادبي والنقد الفني .  
 كما انه يعود بفائدة عظيمة على الدراسات اللغوية التي يحسن ان نخلصها من المناهج الفسيولوجية  
 والنفسية الفسيولوجية التي تجرى الآن مجرى المودة ، وان نحررها من نظرية الاصل الاصطلاحي  
 هذه النظرية التي ما تفك تتجدد ، والتي تستتبع وراءها المزاوجات الغيبية بين الصورة والاشارة ،  
 لان اللغة لا تفهم على انها اشارة ، بل على انها صورة اشارة . أى على انها اشارة للصورة ذاتها ،  
 وبالتالي صورة ذات لون موسيقى وفناء . ان الصورة هي نتاج عفوى للخيال ، لان الاشارة التي  
 يتفاهم بها الانسان مع الانسان ، تفترض مفدا وجود الصورة وبالتالي وجود اللغة ( ٢٧ ) .

هذا العرض الممتع الذي عرضه علينا كروتشه للنظرة المنطقية للغة ، وما ترتب عليها  
 من آثار في المذاهب البلاغية والنقدية جدير بأن يلقى الضوء على كثير مما التبس على أذهان  
 الدارسين حين يفرقون بين لغة الخيال ولغة المنطق ، وحين يفصلون بين اللغة والشعر ، وحين  
 يميزون بين اللغة العارية واللغة المخزفة وحين يراوون بين الصورة والاشارة ، وكلها تقسيمات  
 خطيرة تعود على النقد الادبي والبلاغة بالضرر البالغ ، وتباعد بين الدارسين وبين الفهم الصحيح  
 لطبيعة اللغة الادب .

ولما كانت هذه الافكار وثيقة الصلة بدراساتنا البلاغية ومنهج العرب القدماء في درس  
 البلاغة ، وفي تصورهم للغة ، فقد حرصنا كل الحرص على ان نشبث هنا ما قاله كروتشه كاملا  
 حتى ينتبه مؤرخو البلاغة الى ما ينهض من مناهج البلاغة على مبدأ سليم ، وما لا ينهض منها الا  
 على ضيق في النظرة وفساد في الحكم .

#### الشكل والمضمون ووظيفة الادب

تؤمن المدارس المثالية في الادب بأن الاثر الادبي - ايا كان نوعه - انما يصدر عن تجربة  
 خيالية أو حدسية تلتبس لذاتها ولا تهدف لغاية من وراءها ، اللهم الا ما في التجربة ذاتها من جمال



أو للذة أو جودة . وبمعنى آخر وعلى حد قول وولتر باتر ، ليست الغاية في الاثر الفني هي ممارسة التجربة بل التجربة ذاتها . وواضح ان اصحاب هذه النظرة لا يعنون في التجربة الشعرية أو الأدبية الا بقيمتها الجمالية والفنية وحدهما ، والفن عند هؤلاء ليس وسيلة للتعبير عن المشاعر الخاصة ، بقدر ما هو وسيلة لخلق صور واخيلة واحساسات تبعث على اللذة ، وتنتشر الجمال للجمال وحده . اما ما في العمل الفني من نشاط آخر عقلي أو اجتماعي ، أو فلسفي أو أخلاقي فليس له قيمة في ذاته ، وفي هذه الحالة لا تتوقف قيمة العمل الفني على ما فيه من خير خلقى أو اجتماعي أو فلسفي ، ولا يتوقف معيار صدقه على أى شىء يقع خارج العمل الفني نفسه .

وواضح ان اصحاب هذه النظرة لمفهوم الاثر الأدبي وطبيعته ووظيفته قد تورطوا في خطأ جوهرى ، فهم بهذا الاتجاه انما يعزلون مادة الفن عن صورته ، ولا يلقون بالا لكل ما يتضمنه الأدب من أمور تتعلق بالمجتمع والأخلاق وسائر مقومات الحياة الفكرية العميقة ، وما يتصل بالحياة الإنسانية من مشاكل هي في الحقيقة من صميم تفكير الفنان . فاذا كانت مشكلة الفنان الحقيقية هي في محاولته الربط بين شعوره بفردية الحياة ، وبين حقيقة العالم حواله ، فان الشاعر الذى يبدو في وصفه للعالم مفرقا في الرومانسية والمثالية انما هو شاعر لم يصب الا قسما ضئيلا من النجاح ، بل لعله ان يكون في بعض الاحيان مازفا عن محاولة الخوض في موضوعات تحتاج الى تقمص مشاعر الآخرين ، والى قدر من قوة الخيال التى بدونها لا تتوافر للأدب أصالته وقنواته . أضف الى هذا اننا اذا زعمنا ان ليس في دولة الفن العبادة الجمال ، وأن الجمال وحده هو غاية الغايات في دولة مستقلة ذات سيادة ، فقد حجبنا الأدب عن ممارسة الحياة ، بل قل جعلنا الحياة شيئا ساذجا لا يستحق ان يعاش .

وفي هذا يرد عليهم الناقد الماركسى جوزيف هريمان بقوله :

« أن الناقد الليبرالى يطلب منا ان نعتقد اننا حين نكتب عن رياح الخريف وكيف مبهت بشعر فتاة ، أو نكتب عن النهود العطشى ، انما نكتب عن تجربة . فان كتبنا عن ثورة أكتوبر أو مشروع السنوات الخمس أو عن شئق الزوج في جنوب الولايات المتحدة أو عن اضراب سان فرانسيسكو ، فهذه الموضوعات لا تسمى تجربة » (٢٨) .

وفي هذا ايضا يقول ستيفن سبندر : « الشعر ليس مجرد تصوير لحظة احمرار وجنات الحببين أو رؤية جمال الزهرة أو روعة لون الغروب ، بل الشعر هو الذى يمتد سلطانه فيشمل الحياة بأسرها ، بل وما بعد الحياة ، هو ذلك النهر الهائل الذى يروى الحياة كلها ، لا يحتقر الضئيل الغض ، وان كان يتجاهل التافه » (٢٩) .

( ٢٨ ) الاشتراكية والأدب ص ٥٢ د . لويس عوض

( ٢٩ ) الحياة والشاعر تأليف ريتشاردز ترجمة ترجمة د . مصطفى بدوى ص ١٨

هذاما وقع فيه المثاليون من خطأ اماليساريون المتطرفون فخطأهم لا يقل فظاعة عن خطأ المتطرفين من اليمينيين. فاذا كان اليمينيون قلعبدوا الجمال والفرد وحدهما، فان اليساريين قد اخلوا عبادة الجماعة محل الفرد ، وعبادة المادة محل الجمال ، وجعلوا ظواهر المجتمع بشئى صورته السياسية والاقتصادية غاية يسخر لخدمتها الانسان ، وليست وسيلة تسخر لخدمة الانسان .

وما نظن ان القضية بحاجة بعد هذا التحليل الى ان ينقسم فيها النقاد الى فئتين ، احدهما تقول بوجود ان يكون الادب هادفا ، والاخرى تنادى بضرورة ان يترك الادب حرا من قيود الاهداف ، ذلك ان جذور الخلاف كائنة كما يقول الشاعر الالماني الحديث « اريك نوساك » فى خلط الناس بين مفهومين متميزين : مفهوم « الانسانى » ومفهوم الاجتماعى ولو ادركنا فى وضوح ان « الاجتماعى » وسيلة تحقيق لنا « الانسانى » لزالنا عن المشكلة عقديتها ، لو ادركنا ان كل ظواهر المجتمع بشئى صورته السياسية والاقتصادية انما جاءت ، او جرىء بها لتخدم الانسان - والانسان لا يكون الا فردا - لادركنا تبعا لذلك ان الادب لا بد ان يكون هو الانسان المتعين المتجسد . فاذا شغل الاديوب نفسه باحداث عصره ، فانما يشغلها بها من الجانب الذى بصور لنا وقفة الانسان ازاء هذه الاحداث ، بحيث اذا زالت الاحداث ، واختفت امارتها ، بقيت صورة الانسان حية فى كل عصر وفى شتى الظروف (٣٠) .

وما دام التوجه الى الانسان هو غاية الادب الحقيقية فى كل عصر وكل زمان ، بغض النظر عن اتجاهات الادب ومدارسه ، فان الادب العظيم هو الادب الذى يتامل العالم والانسان وقوانينه، ويتساءل لماذا تجرى الامور على هذا النحو ، والادب الباقي هو الذى يستمد قوته من الحياة والجمال معا ، وهو الذى ينظر بعين يقظة الى المجتمع الانسانى ، فيناصر من هذه المجتمعات ما يتمشى مع القيم الانسانية ، وما يساير الحق والعدل والجمال . فالاديوب الحق يحرص على ان يكون لنظم المجتمعات غاية تعكس ما فى نفوس البشر ، وافراد المجتمع الواحد من هموم وآمال وشعور بالحب والحاجة الى التطور والتقدم .

على ان التوجه الى الانسان - ايا كان محتواه الفكرى او الفلسفى او الاجتماعى - لا يرتقى الى مستوى الفن الا اذا توافرت فيه شروط العمل الفنى ، ذلك اننا نعلم ان الذى يحدد القيمة النهائية لاي عمل فنى هو ما يحتوى عليه من قيم فنية وجمالية . ومهما تكن قيمة المضمون واهميته فلا بد له فى النهاية ان يتحول الى فن ، والعمل الذى لا يقنعنا فنيا يظل قاصرا من بلوغ كماله .

## نحو علم جمال عربي

« تصور وتطبيق »

### ● تمهيد \*\*\*

شغلتنى - عبر أعوام طويلة من حيائى - فكرة ظلت تلح على الحاح متواصلا . وكانت تجسد بين الحين والحين فى بعض كتاباتى ، بطريقة نظرية او تطبيقية . ولقد فجر فى نفسى هذه الفكرة ، سؤال أقيته على نفسى بالمصادفة : لماذا لا يكون لنا « علم جمال عربى » ؟

ووجدتنى أبحث عن تحديد دقيق لهذا المصطلح . وفضلت فى البداية ان أكتفى بالتعريفات العامة المبسطة . فعرفت هذا المصطلح بأنه « النسق الفكرى المترابط الذى يبحث من خلاله عملية الإبداع الفنى » ونختبر على ضوءه طبيعة الأعمال الفنية فى اللغة العربية ، وسيكولوجية مبدعها ، والعناصر التى شكلت ذوقه بطريقة فلسفية .

ويمكن أن نحسّد بهذا التعريف بعض التحديد ونعتبر علم الجمال العربى : هو « مجموعة الأسس النظرية والقواعد والقوانين التى ندرس على ضوءها التجربة الجمالية .

ونمتحن من خلالها الخبرة الجمالية ، وتندوق عناصرها الفنية ، وقيمها التصويرية والتعبيرية والتشكيلية » . فعلم الجمال العربى - اذن - يؤدى الى ادراك ماهية الجمال الفنى ، فى الاجناس الادبية والفنية المختلفة .

ورحت أفتش عن سبب لاختفاء هذا اللون من ثقافتنا العربية الماصرة . على الرغم من انها حفلت بكل الاجناس والانواع الادبية ، حتى تلك الاجناس الادبية - التى قيل ان تراثنا العربى قد خلا منها خلوا تاما ، او على الاقل ، لم يعرفها بصورتها المتطورة الناضجة - كالرواية والاقصوصة والمسرحية ، عرفت ثقافتنا العربية الحديثة ، وطورتها ، واصلتها وانضجتها ، وتحولت الى اجناس ادبية عربية ، لها اصولها الجمالية وتقاليدها الفنية .

فلماذا خلت ثقافتنا العربية الحديثة من هذا العلم ، مع انه ضارب بجذوره فى حضارتنا العربية ، وتراثنا العربى ؟

من الممكن ان نؤجل الاجابة على هذا السؤال ، حتى نتعرف على بدور هذا العلم وجذوره المتأصلة فى تراثنا العربى القديم .

### ● تاريخ وموازنة ...

ولكى تتضح فى اذهاننا الصورة كاملة ، نشير الى نشأة علم الجمال وكيف انتقل الى الحضارة الاوربية وكيف تطور فى الثقافة الغربية ... وبدون الدخول فى تفاصيل ، نحب ان تقدم عرضا سريعا بين يدي القارئ لنحدد له طبيعة هذا العلم ونشأته ومساره فى الحضارات القديمة والحديثة .

نشأ هذا العلم نشأة طبيعية فى حضن الثقافة اليونانية القديمة ، وكان طبيعيا أن يكون فرعا من فروع الفلسفة . وقد اهتم به سقراط وافلاطون وأرسطو ، وبحثوا فى ماهيته ووضعوا له الحدود والتقسيمات . وتشير الكتب التى اهتمت بفلسفة الفن وعلم الجمال الى بدور هذا العلم فى المحاورة التى جرت بين سقراط وتلميذه « هيباس » عندما سأل سقراط تلميذه .

- ماذا عسى ان يكون الجمال ؟

- وأجاب ( هيباس ) أستاذة ، بأن راح يعدد له بعض الاشياء الجميلة .

فلم يجد سقراط بدا من ان يلفت نظره تلميذه الى انه لم يكن يسأل عن « الجزئيات » التى تنطبق عليها صفة الجمال . وانما قصد من وراء سؤاله : معرفة ماهية ذلك ( المدرك ) الكلى الذى نسميه باسم ( الجمال ) . فليس من شأن فلسفة الجمال ان تبحث فى احصاء انواع الجمال ، وانما تنحصر مهمتها فى تعريف ماهية الجمال « ( ١ ) » .

( ١ ) الدكتور ذكريا ابراهيم : فلسفة الفن فى الفكر المعاصر ٦ ( مكتبة مصر سنة ١٩٦٦ ) .

ويحدثنا الدكتور زكريا إبراهيم في كتابه « فلسفة الفن في الفكر المعاصر » أن هذا المفهوم الأفلاطوني الذي اشرنا اليه في المحاور السابقة ، ظل كما هو في الفكر الاوربي الحديث ، وبخاصة عند هؤلاء الفلاسفة المثاليين فهو « بعينه فهم هيجل في القرن التاسع عشر لمهمة (علم الجمال) . ففي كتابه ( دروس في علم الجمال ) ، أكد : أنه لا بد من أن نتخذ نقطة انطلاقنا من ( الجمال ) بوصفه ( فكرة ) أو حقيقة كلية لاننا بذلك ، وبذلك فقط نستطيع ان نتجنب الوقوع في الكثير من المآزق التي تسببها لكثرة المواضيع الجميلة . او تعدد مظاهر الجمال في الطبيعة والفن على السواء » ( ٢ ) .

ثم تطور هذا العلم بعد ذلك في الثقافة الاوربية تطورا كبيرا ، وبخاصة في القرنين التاسع عشر والعشرين ، على أيدي الفلاسفة والمفكرين ، وتنوعت اتجاهاته ومدارسه وتصوراته حسب فلسفة كل فيلسوف من فلاسفة هذين القرنين . ويبدو أن ازدهار هذا العلم في أوروبا في هذين القرنين يعود الى ازدهار فلسفاتهم وتطورها الكبير ، وكان من الطبيعي ان يهتم الفلاسفة بفلسفة الفن وعلم الجمال ، لأنهما من العناصر التي تدخل في مجالات بحوثهم واهتماماتهم . وكان اهتمامهم بدراسة الظاهرة الجمالية والنفاذ الى باطن العمل الفني لا يعني وضع معايير للجمال يطعها منتجو الأعمال الفنية ، بل كان مجرد دراسة نظرية معرفية .

فعالم الجمال « ليس بمأمل تنحصر كل مهمته في الإدراك الحسي ، كما انه ليس بفنان يصدر في عمله عن الهام فني ، وانما هو باحث تتمثل وظيفته في فهم الظاهرة الجمالية ، والعمل على توضيحها في أذهاننا ... فليس ( علم الجمال ) علما معياريا يبين لنا ما ينبغي ان يكون عليه العمل الفني ، وانما هو علم وصفي يدرس العمل الفني باعتباره ظاهرة بشرية تدخل في صميم النشاط الروحي للموجود البشري ... وعالم الجمال لا ينصح الفنان بشيء ولا يلزمه بشيء . بل يقتصر على دراسة النشاط الفني ، والنفاذ الى المعنى الباطني العميق للعمل الفني . » ( ٣ )

ثم اخذت نظره الفلاسفة المحدثين لدراسة علم الجمال تتطور وتأخذ مسارات جديدة . فبعضهم اعتبرها مجرد دراسة تجريبية للذوق الانساني . والبعض الآخر يحولها الى دراسة لسيكولوجية الإبداع الفني والتذوق الجمالي . والبعض ، من الذين يهتمون بالتفسيرات الاجتماعية ، ربطوها بالنشاط الحضاري ، وغدت دراسة تعنى بالبحث في العلاقة بين منتج الفن وجمهوره . وقد كانت هذه التحولات ثمرة من ثمار اهتمام الأدباء وغير الفلاسفة ببحوث علم الجمال . وان كان من الحق ان تقرر ان الفلاسفة والمهتمين بالدراسات الفلسفية ظلوا على اهتمامهم بدراسة علم الجمال ، والاهتمام بالخبرة الجمالية في حد ذاتها ، باعتبارها نشاطا انسانيا يؤكد حرية الفرد وقدرته الإبداعية .

( ٢ ) المصدر السابق والصفحة

( ٣ ) المصدر السابق ٧ - ٨ ( بتصرف )

على ان أهم تحول طرأ على دراسة علم الجمال ، هو ما حدث في مطلع القرن العشرين ، أو في ربعه الأول على وجه التحديد ، وعلى أيدي مجموعة من الباحثين الألمان من أمثال « دسوار » و « أوتيتس » . وغيرهما ، فقد حولوا « علم الجمال » وفلسفة الفن وبحث الظاهرة الجمالية ، الى ( علم عام للفن ) وهجروا بصورة نهائية هذه التسميات السابقة : « علم الجمال » أو « الاستطيقا » لتصورهم ان التسميات الأولى ، غير محدده وغير علمية ، وترتبط في اذهان الناس بالتأمل الفلسفى المجرد . في حين انهم كما يقول الدكتور ( زكريا ابراهيم ) « قد ارادوا ان يجعلوا من ( علم الفن العام ) دراسة وصفية تستوعب شتى مظاهر الخبرة الجمالية دون ان تصطبغ بآية صيغة معيارية » (٤) .

وقد كان هدف هذه الدراسة الوقوف على نشأة الظاهرة الفنية وتقويمها « ومعرفة وظائفها البدائية وبيان علاقتها بما عداها من الظواهر الحضارية الأخرى . وقد كتب ( أوتيتس ) مجلدين ضخمين بعنوان « أسس علم الفن العام » حاول أن يبين - فيهما - ان الفن لا يمثل ظاهرة نوعية مستقلة ... بل هو واقعة من وقائع الحضارة أو الثقافة بمعناها العام ... وليس علم الفن العام مجرد دراسة علمية وصفية ، أو موضوعية للظاهرة الجمالية ، تختفى فيها شتى التأملات الفلسفية حول طبيعة الجمال ، وتنعدم فيها كل الأحكام التقويمية ، بل هو أيضا دراسة بشرية عامة ، تظهرنا على الوظائف الدينية والقومية والتفمية والوجدانية » (٥) .

وإذا كان هذا الاتجاه في دراسة الظاهرة الجمالية قد حاول ان يحولها الى علم تجريبى وضعى فان الفلاسفة ظلوا يعرضون للخبرة الجمالية على ضوء تأملاتهم الميتافيزيقية ، وتأثيراتهم العميقة التى انتقلت اليهم من التراث اليونانى . وواجهوا « المشكلة الجمالية في ضوء فهمهم العام لطبيعة الوجود البشرى ، ولصلة الخبرة الجمالية بما عداها من خبرات بشرية أخرى . ومن هنا فقد ظلت فلسفات الفن في القرن العشرين متأثرة بالتيارات الفكرية التى ظهرت في هذا العصر ، مطبوعة بطابع الاتجاه المذهبى لكل فيلسوف من الفلاسفة على حدة . والا فبل يمكننا ان نفهم نظرية برجسون في الفن ، ان لم تكن على عمق بمذهبه العام في ( الحدس ) ؟ ... وهل يكون في وسعنا ان نقف على جوهر « ( الخبرة الفنية ) عند جون ديوى ان لم تكن على دراية واسعة بنزعه التجريبية المتطرفه واتجاهه البرجماتى الواضح ؟ ... وهل يتسنى لنا ان ندرك معنى العمل عند ( هيدجر ) اذا لم تكن على وعى تام ، بنوع اتجاهه الفكرى ، وطريقته ( الفنونولوجية ) في تحليل الظواهر البشرية » (٦)

ومن خلال هذه التيارات والاتجاهات المتعددة في دراسة الظاهرة الجمالية تفسرت المفاهيم التى كانت سائدة قبل القرن العشرين ، على يد مجموعة متنوعة من الفلاسفة ودارسى فلسفة الفن من أمثال « بندقرو كروتشه » و « جودج سفتيانا » و « ديوى » و « آلان » و « مالرو » و « ألبير كامى » و « مبرلوبونتي » و « سارتر » و « مارتين هيدجر » و « أرنست

( ٥٤ - ٥ ) المصدر السابق ( ١٠ )

( ٦ ) المصدر السابق ( ١٠ - ١١ ) « بتعرف »

كاسير» و «سوزان لانجر» و «هربرت ريد» و «سوربو» و «باير» وغيرهم من الفلاسفة والباحثين الذين تناولهم الدكتور زكريا إبراهيم في كتابه القيم «فلسفة الفن في الفكر المعاصر» .

ولم يكتف هؤلاء الباحثون في فلسفة الفن في القرن العشرين بإعادة النظر إلى المفاهيم التي درج علماء الجمال على استخدامها مثل مفهوم (التعبير) ومفهوم « الصورة » ومفهوم (الحدس) ومفهوم (الرمزية) ... بل ربطوا علم الجمال بمباحث أخرى مثل (عم اللغة) و « علم النفس » وغيرهما من العلوم التي تهتم ببحوث الذكاء ، والعبقرية ، والإبداع الفني . تلك هي الصورة العامة لنشأة علم الجمال وتطوره وتأثيره على الفكر الأوربي الحديث ، اعترف أنها أثرت تأثيرا كبيرا في دراساتها الأدبية والنقد الأدبي ، ولكنهم تبلور تيارا محددا واضحا من تيارات علوم الجمال كما حدث في البلاد الأوروبية .

وإن كانت هناك بعض الجهود الفردية التي قامت بترجمة بعض بحوث علم الجمال من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية . وجهود أخرى قام بها اساتذة في تأليف بعض البحوث القريبة من مباحث علم الجمال ، وإن كانت أقرب إلى النقد الأدبي ومناهج التحليل النفسي منها إلى علم الجمال ومن هؤلاء وهؤلاء على سبيل المثال : يوسف مراد وأمين الخولي والعقاد وزكي نجيب محمود ومحمد خلف الله أحمد . ومحمد النويهي ومصطفى ناصف وعز الدين اسماعيل وزكريا إبراهيم وأميرة مطر ومصطفى سويف وفؤاد البهي السيد وغيرهم من بعض اساتذة الجامعة الذين قدموا دراسات جامعية في الإبداع الفني .

ولكن كل هذه الجهود العلمية الصادقة المخلصة ، لا تشكل ما يمكن أن نطلق عليه ( علم الجمال العربي ) وهي في معظمها دراسات متأثرة تأثرا شديدا بعلم الجمال الأوربي وتياراته والجاهاته ، ويمكن أن ندرجها في مجال النقد الأدبي والدراسة الأدبية .

وبقي السؤال قائما : لماذا لا يكون لنا علم جمال عربي ؟ وهل اختفى هذا العلم من ساحتنا الثقافية الحديثة ، لأن رواد الحضارة العربية القديمة لم يلتفتوا إليه ؟ وهذا التساؤل الأخير لا يمثل الحقيقة ولو رجعنا إلى تراثنا العربي ، فس نجد كثيرا من فلاسفة الإسلام والمتكلمين والعلماء والأدباء من أجدادنا ، قد عرفوا هذا العلم معرفة دقيقة ، وهم الذين نقلوا هذا العلم إلى العالم الأوربي القديم ، قبل النهضة الأوروبية الحديثة ، فقد ترجموا كثيرا من تراث اليونان الفلسفي والأدبي . وقد تأثروا بهذا التراث . وهم الذين ترجموا أهم كتابين من كتب «أرسطو» يعتبران أساسا هاما من أسس علم الجمال ، هما كتاب « الخطابة » و « فن الشعر » ، وهذا الكتاب الأخير ترجمه ولخصه من فلاسفة الإسلام « أبو بشرمى » ويحيى بن عدي و « الكندي » و « الفارابي » و « ابن سينا » و « ابن رشد » ، ولا شك أن هؤلاء المفكرين والفلاسفة ، قد عرفوا أفكار الفلاسفة والشعراء والخطباء اليونان ، ووقفوا على كثير من اتجاهاتهم الأدبية والعلمية . وكان يمكن أن يفيدوا فوائد كبرى في مجال علم الجمال والنقد الأدبي . ولكن اهتمامهم كانت تتجه في المقام الأول إلى الفلسفة والمنطق وعلم الكلام . وجاءت اهتمامهم الأدبية والجمالية تغطي هامش رسالتهم الأساسية وتبعها لها .

ولكن هذا لا يمنع من أن نجد عند هؤلاء ومن تأثر بهم من الكتاب والادباء العرب القدامى بدورا تعتبر اساسا نظريا لعلم الجمال ، ازدهرت على ايدي بعض الفلاسفة المسلمين ، وبعض رجال المعتزلة والاشاعرة . وبعض فلاسفة المتصوفين .

وكان هم هؤلاء جميعا الوصول الى الدروة في التأثير في الناس واقتناعهم بأفكارهم . وكان سبيلهم الى ذلك التأثير والاقتناع ، هو الكلمة الواضحة ، او الكلمة الملهمة المؤثرة . ومن هنا جاء اهتمامهم بدراسة عناصر الابداع الفني في الكلام ، ووجوه تأثيره والهامة وايحائه . وتحولت نظراتهم في هذا المجال الى تأصيل فكري لعلم الجمال .

ويمكن ان نشير على سبيل المثال الى كاتب موسوعي كبير **كاتب عثمان الجاحظ** ، وهو من فرقة من فرق المعتزلة ، كيف شغل هذا الكاتب الكبير ببعض الموضوعات التي تعتبر على نحو ما ، من بحوث علم الجمال ، ومن امعان النظر في كلامه عن هذه الموضوعات نشعر انه كان يمتلك تصورا فكريا لعملية الابداع الفني ، فهو يرى مثلا أن الموهبة الفنية هي الاساس في كل ابداع فني . وان الكاتب الموهوب يندفع بفطرته الفنية الى ابداع اعمال أدبية مكتملة الاداة قادرة على التأثير في الناس . ومعيار جودة العمل الفني عند الجاحظ هو هذا التأثير في نفوس الناس أولا . ثم يأتي بعد ذلك ما في الكلام من صواب ومنفعة . ونستطيع ان نجد دليلا على هذا الكلام في تلك النصيحة التي يسديها الى الناشئين من الادباء ، يقول « فاذا اردت ان تتكلف هذه الصناعة ، وتنسب الى هذا الادب ، فقرضت قصيدة أوحبرت خطبة . أو الفت رسالة ، فإياك ان تدعوك فقتك بنفسك أو يدعوك عجبك بثمرة عقلك الى ان تنتحلّه وتدميه ، ولكن اعرضه على العلماء في عرض رسائل أو اشعار ، أو خطب ، فان رأيت الاسماع تصفى له ، والعيون تحدج اليه ، ورأيت من يطلبه ويستحسنه ، فانتحلّه . فاذا عاودت امثال ذلك مرارا ، فوجدت الاسماع عنه منصرفة ، والقلوب لاهية ، فخذ في غير هذه الصناعة . واجعل رائدك الذي لا يكذبك ، حرصهم عليه او زهدهم فيه » . (٧)

وحول استقبح الجفاف العلمي في الشعر وعدم بناء القصيدة على الافكار وحدها ، يقول الجاحظ : « لو أن شعر صالح بن عبد القدوس كان مفرقا في اشعار كثيرة ، لصارت تلك الاشعار ارفع مما في عليه بطبقات ... ولكن القصيدة اذا كانت كلها أمثالا لم تسر ، ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شيء الى شيء ، لم يكن لذلك عنده موقع » . (٨)

ويمكن ان نجد في كتابات الجاحظ افكارا كثيرة حول « الوحدة العضوية » وحول « اللفظ والمعنى » وحول « فكرة التأثير » او « الخيال » وغيرها من الافكار التي تعتبر من مباحث علم الجمال .

(٧) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ٢٠٣ ( تحقيق عبد السلام هارون )

(٨) المصدر السابق ٢٠٦



نحو علم جمال عربى ( تصور وتطبيق )

فحول اللفظ والمعنى يقول « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء . وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فانما الشعر صياغة ، وضرب من النسيج . وجنس من التصوير » ، (٩) ، فالجاحظ في هذه العبارات يتحدث كعالم من علماء الجمال الفاهين الذين يرون ان العمل الادبي لا يكتمل الا من خلال البناء الفني والوهبة التي تلتقط المعاني المطروحة في الطريق فتصوغها وتنسجها في كلمات وتعبيرات شفافة ، تبرز جمالها وتزيد في تأثيرها. ولا اعتقد ان الجاحظ كان يهدف من وراء هذه الافكار وامثالها الى تفضيل اللفظ على المعنى ، كما ذهب الى ذلك كثير من دارسينا ، ولكنه كان يؤكد تلك الفكرة الجمالية التي نرى اننا لا نستطيع في مجال الابداع الفني ، ان نفصل اللفظ عن المعنى ، او نفصل المعنى عن اللفظ ، فهما مقترنان ممزجان. ولعل هذه الفكرة هي التي الهمت - فيما بعد - عبد القاهر الجرجاني في نظريته عن « النظم » التي تعتبر بكل المعايير من مباحث علم الجمال ، وهي تلامس كثيرا من افكار علماء الجمال المحدثين ، والذين يعاودون النظر في كتابي « اسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » لعبد القاهر يتأكدون من صحة كلامي هذا .

ويمكن ان نشير الى حكيم آخر من حكماء المعتزلة هو بشر بن المعتز ، وقد كانت له نظرات في علم الجمال والنقد الادبي . وصحيفته التي سميت باسمه تحمل تلك الانكار والنظرات . ويقول في هذه الصحيفة حول قضية اللفظ والمعنى « التوهم يسلمك الى التعقيد . والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين الفاظك ، ومن اراد معنى كريما فليتمسك له لفظا كريما فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف » (١٠) .

ويحدثنا عن مناسبة المعاني للالفاظ بقوله لا بد « ان يكون لفظك رشيقا عذبا فخما سهلا . ويكون معنالك ظاهرا مكشوفاً وقريبا معروفا ، اما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، واما عند العامة ان كنت للعامة اردت ، والمعنى ليس يشرف بان يكون من معاني الخاصة ، وكلملك ليس يتضع بان يكون من معاني العامة ، انما مدار الامر على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقام » (١١) .

وهناك كثيرون من الفلاسفة والادباء والباحثين العرب القدامى يمكن ان نستشهد بأقوالهم في هذا المجال من امثال ( الأمدى ) و ( قدامة بن جعفر ) و ( ابن طباطبا العلوى ) و ( ابن رشد ) و ( ابن سينا ) و ( الكندي ) و ( الفارابي ) . ولكن المجال لا يتسع لهذا .

(٩) ( الجاحظ : الحيوان ج ٢ ) ١٢١ - ١٢٢ )

( ١٠ ) نقلا عن البيان والتبيين ج ١ ص ١٢٨ - ١٢٩

( ١١ ) المصدر السابق

وكذلك الامر بالنسبة للمتصوفة . . ولكن لابد من ان نقف عند قضيتين هامتين في هذا المجال هما :

#### قضية اعجاز القرآن

وقضية الرموز الفنية عند فلاسفة المتصوفين

فقد ثارت حول القضية الاولى قضايا كثيرة ، والفت مباحث متعددة . وكان من الطبيعي ان يهتم اصحاب هذه القضايا والمؤلفات بدراسة الظاهرة الجمالية في التراكيب الادبية حتى يتمكنوا من فهم المفزى الادبي والفنى لامعجاز القرآن الكريم .

وقد ألف كثير من علماء الكلام من المعتزلة والاشاعرة وأهل السنة . كتباً تدور حول اعجاز القرآن ، ويعتينا هنا بصفة خاصة كتابان بعنوان « اعجاز القرآن » الاول « **لابى سليمان الخطابى** » والثانى « **لابى بكر الباقلانى** » .

ولست أقف عند هذين الكتابين لأعرف رأى الخطابى والباقلانى في قضية الاعجاز ، ولكن لابين موقفهما من فهم الظاهرة الجمالية في نتاج الادباء . ففيهما أفكار وتصورات في الابداع الفنى والتشكيل البيانى وروعة التجارب الادبية تحتاج الى تأمل ودراسة ، فالخطابى ( مثلاً ) له مفهوم عام لأجناس الكلام ودرجات جودتها يحدثنا عنها بقوله « ان أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة البيان متفاوتة ، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية ، فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل . ومنها الجائز المطلق الرسل . وهذه اقسام الفاضل من الكلام ، فالقسم الاول اعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثانى اوسطه وأقصده . والقسم الثالث أدناه وأقربه . فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الاقسام حصة . وأخذت من كل نوع من انواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الاوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتى الفخامة والعدوية ، وهما على الانفراد في نوعيهما كالمضادين ، لأن العدوية نتاج السهولة ، والجزالة والمثانة في الكلام تعالجان نوما من الوعورة ، فكان اجتماع الامرين في نظمه مع ثبو كل واحد منهما عن الآخر - فضيلة خص بها القرآن » ( ١٢ ) .

ويمكن ان نقف عند معنيين هامين في هذا الكلام للخطابى هما « الجمال » و « الجلال » واثريهما في النفس الانسانية ، وهو يعبر عن الجلال في الاثر الفنى بالرصانه والجزالة والفخامة والمثانة وعن الجمال بالعدوية والسهولة والسلاسة .

ومما يلفت النظر في كلام الخطابى حول الابداع الفنى : ادراكه العميق للمعاناة التى يتحملها مبدع العمل الادبى وما يجب ان يتوافر له من ثقافة وبراعة وقدرة على تحمل المعاناة وبصر بمواضع التراكيب ونظمها . وهو يحدثنا عن كل ذلك بقوله « وأمر معاناة المعانى التى

تحملها الالفاظ شديد ، بالغ الشدة ، لأنها نتائج العقول ، وولائد الأفهام وبنات الأفكار ...  
وأما رسوم النظم فالحاجة الى الثقافة والحدق فيها أكثر ، لأنها لجام الالفاظ وزمام المعانى .  
وبه يتصل اخذ الكلام ، ولتتم بعضه ببعض ، فتقوم له صورة فى النفس يتشكل بها  
البيان « (١٣) » .

وهذا كلام لا يختلف كثيرا عن نظرات بعض علماء الجمال فى الحضارة الاوربية الحديثة ، عن  
علاقة المعانى بالالفاظ التى تحملها ودور الثقافة . والتقاليد الفنية الخاصة بنظم الكلام .

أما « (الباقلانى) » فهو عالم من اهم علماء الأشاعرة ، وكتابه ( اعجاز القرآن ) من ادق  
الكتب العلمية المبكرة التى تناولت بالتفصيل هذه القضية ، ولكنه تناول الى جانب ذلك ، كثيرا من  
قضايا النقد وعلم الجمال . وتعرض فى معظم صفحات كتابه لدراسة الخبرة الجمالية عند  
اشعراء والادباء ، والموازنة بينهما وبين اساليب القرآن الكريم فى التصوير والتعبير ، وطريقته فى  
عملية النظم ، وقد تحول الكتاب الى معرض انيق للتذوق الشعرى العميق .

ويمتاز الباقلانى عن غيره من المتكلمين ومن كثير من اللغويين والكتاب ، بأنه كان يختار نصا  
كاملا يجرى عليه تجاربه فى التذوق الفنى ، فوقف عند « معلقة امرئ القيس » . واستشهد بأشعار  
كثيرة تناولها فى دراسته ووازن بينها وبين البلاغة القرآنية .

وفكرته عن اسلوب النظم فى الكلام جيدة ، وآراؤه حول اللفظ والمعنى ، وعملية الابداع  
الشعرى ، سليمة مستقيمة تدل على ذوق مرهف وحس فنى عميق . وهو يميز تمييزا كبيرا بين  
ذوق العلماء ، وذوق الادباء والشعراء فى عملية التقويم الشعرى والتذوق الفنى . وله تصور  
فنى متكامل لطبيعة التعبير الأدبى والفنى .

فالكلام عنده موضوع للإبانة عن الأغراض التى فى النفوس . واذا كان كذلك وجب ان يتخير من  
اللفظ ما كان اقرب الى الدلالة على المراد ، وواضح فى الابانه عن المطلوب ، ولم يكن مستكره المطلع  
على الأذن ، ولا مستنكر المورد على النفس ، حتى يتأبى بغيرته فى اللفظ عن الافهام ، أو يمنع  
لعويص معناه عن الابانة . ويجب ان يتنبه ما كان عامى اللفظ مبتدل العبارة ، ركيك المعنى ،  
سفسافى الوضع ، مجتلب التأسيس ، على غير اصل ممهد ولا طريق موطن « (١٤) » .

يبقى ان أشير فى نهاية هذا العرض السريع ليدور علم الجمال وجذوره فى تراثنا العربى ، الى  
قضية الرموز الفنية عند فلاسفة المتصوفين . وهى قضية هامة ومتشعبة تحتاج وحدها الى  
دراسة متخصصة وتكاد تكون نظرية مستقلة فى علم الجمال ورائد هذه النظرية بلا مراء ، هو  
الشيخ الاكبر « محيى الدين بن عربى » . فقد اهتمدى هذا الفيلسوف المتصوف ، الى نظام  
ومزى كامل ، طبقه على اللغة والفكر ووصل من خلاله الى كشوف فكرية وفنية كبيرة .

( ١٣ ) المصدر السابق ١٧

( ١٤ ) المصدر السابق ١٧٨ .

وقد درس ( ابن عربى ) هذا النظام الرمزى فى موسوعته الكبرى « الفتوحات المكية » . درسه فى السفر الاول تحت عنوان « علم الحروف » وعاد اليه فى السفر الثانى بالبحث والدرس . ولست بصدد تقويم هذا النظام الرمزى الذى اهتمدى اليه ابن عربى ، فهذا الامر محتاج الى فترة طويلة للتفرغ الكامل لهذا النسق المعقد الذى استغرق مئات الصفحات فى الفتوحات المكية ، ولكن الذى لاشت فيه ان قدرة ابن عربى على التذوق الفنى والادراك الجمالى ، تسلكه فى زمرة علماء الجمال ، وان كان الرجل لم يكن يقصد الى هذا ولا يسره ان ينال هذا اللقب . فقد كان همه الأكبر الوصول من خلال هذا كله الى علم الباطن ، ليكون طريقه الى الروح الأعظم . وسر الاسرار ، الذى كان الهدف من كل مكابذاته الصوفية ، واشواقه الروحية .



اذن لماذا اهتمنا كل هذا التراث الرائع . ؟ ولماذا لم تتطور هذه النظرات العميقة فى دراسة الخبرة الجمالية ، كما تطورت فى الحضارات المختلفة ؟

ولماذا بقينا بلا علم جمال عربى حتى الآن ؟

ولا اريد ان اغامر بالرد على هذا السؤال . فليس يكفى ان نقول ان انقطاع تيار الريادة فى مجال الفلسفة الاسلامية والعربية كان وراء هذا الامر . فلاشك ان عندنا مجموعة من المفكرين والدارسين للفلسفة الاسلامية والمهتمين بالادب والتذوق الجمالى والفنى ، كان من الممكن ان يقوموا بتأصيل نظرى حديث لعلم الجمال العربى فى ساحتنا الثقافية .

وعلى كل حال فليس المهم ان نجيب على التساؤلات التى تثيرها ، ولكن الاهم ان نفجر المزيد من هذه التساؤلات ، ثم نترك الاجابة عليها للتطورات الفكرية والروحية واحداث الحياة وتقلباتها ، ومرور الايام وكر الليالى . فهى كفيلة بان تحل اعقد المشكلات ، وتجييب على أصعب الاسئلة .

وقد نجيب على السؤال بطريقة اخرى ، وذلك بان نقوم بمحاولات فى سبيل الوصول الى علم جمال عربى . وقد قمت - على امتداد عشرين عاما - بمحاولتين ، او بمعنى أدق بمغامرتين فى هذا السبيل لا مفر من ان اعرض لهما مادمت اتحدث عن خلو ساحتنا الثقافية من « علم جمال عربى » .

واتمنى ان نثير حول هاتين المحاولتين مزيدا من الجدل والحوار والنقد والتفنيد حتى نبلور هذه الافكار ونحدد المصطلحات ، مادمتا نسعى الى « علم جمال عربى » .

#### محاولتان :

#### المحاولة الاولى :

اما المحاولة الاولى فقد عرضت لى وانا اقوم بدراسة تفصيلية فى شعرنا المعاصر سنة ١٩٥٨ وكنت اقف عند شعر الراحل الكبير **محمود حسن اسماعيل** طويلا ، اعيش بين صوره والتذوق

تجاربه الفنية ، واحلل طرائفه التعبيرية وقيمه الجمالية . ولكن كنت أحس في شعر محمود حسن اسماعيل بشيء آخر غير كل هذا ، شيء يغمز نفسي ، ويهز وجداني ، ويحرك عقلي . وأحيانا كنت أسمع همسه واضحا في أذني . . ما طبيعة هذا الشيء ؟ هل هي القدرة اللغوية الفائقة عند الشاعر ؟ هل هي الطاقة الشعرية ؟ هل هو قاموس محمود حسن اسماعيل المنفرد ؟ هل هي طريقته في تشكيل صورته الفنية ، وتراكيبه وتعبيراته ؟ هل هو مزيج من كل هذا . . )

ووجدتني أبحث عن تصور جديد لاكتشاف هذا الشيء . وبعد معايشة طويلة لمعظم شعر محمود حسن اسماعيل ، ووجدتني أهتم : حقاً لقد وصل هذا الفنان الكبير الى درجة « الوجد الشعري » وسحرني رنين هاتين الكلمتين ، وفرحت بهما فرحاً كبيراً فقد مهدا لي الطريق الى المحاولة الأولى . واكتشفت ان الفنان الموهوب لابد ان يصل في مرحلة من مراحل حياته الى ذروة النضج الفني ، وكما يصل المتصوفة والساكنون الى الوجد الصوفي يصل الفنان الى شيء قريب من هذا ، لابد من الكشف عنه وتحديد بطريقته موضوعية .

### الوجد الفني

وقررت ان اطلق على هذا الشيء اسم « الوجد الفني » .

واعترف ان فكرة ( الوجد الفني ) هذه ، تراءت لي في الاصل خاطرة صوفية عابرة ، في لحظة من تلك اللحظات الرهفة النافذة العميقة التي تشبه الاشراق الصوفي ، وقد اقتنصت تلك الومضة الحاملة ومزجتها بفلسفة الجمال ، ومصطلحات النقد الأدبي ، واستيقظ طموحي العارم وتذكرت خلوي ساحتنا الثقافية من علم جمال عربي ، فحاولت ان أجعل من تلك الومضة العابرة لبنة من بنات هذا العلم . فاستعرت مصطلح « الوجد » من قاموس المتصوفة والساكنين واستندته الى تجربته الفنية فصار « وجدافنيا » . ورحت أدرس على ضوء هذا الاكتشاف « جهاز الابداع الفني » وطبيعته وطريقته في ابداع التجربة الفنية وأدوات الابداع التي يعمل من خلالها هذا الجهاز . وجعلت أساءل هل اللغة وما يحيط بها من اشعاعات وظلال ، وما تفجره من شحنات وصور ورموز ، هي أدوات هذا الجهاز ؟ وكيف يعمل هذا الجهاز من خلال هذه الأدوات والرموز ؟

وما علاقة كل هذا بالعالم الخارجي ، أو عالم الفنان الباطني ؟

ثم عكفت — بعد ذلك — على وضع بعض الاسس الموضوعية لهذا ( الوجد الفني ) من خلال دراسة التجربة الفنية في مراحلها المختلفة حتى تصل الى ذروة التوهج والاشراق وتقلت معنى كلمة « الوجد » من قاموس الفلاسفة الااليين والمتصوفة وحولته الى مصطلح جمالي يصور ارتباط مبدع الفن بتجربته الفنية ارتباطاً عضوياً حياً متوهجاً ، فيه جدة الفن وعمق الشعور ونضج الاداة الفنية . وحددت السمات والخصائص التي تميز الوجد الفني . ومنها :

التنبه الحاد المصحوب بيقظة الحس ورهافة الشعور وعمق الاحساس بالحياة .

جيشان النفس واحتدام العاطفة ، والروح الانساني العميق الذي يحتضن الوجود بما فيه من كائنات .

غزارة الموهبة ، وثراؤها ، واكمال الاداة الفنية ، مع الاحساس بالدهشة الدائمة من مظاهر الوجود ومراثي الطبيعة .

ووضحت ايضا الروايات المتعددة التي يمكن ان نطل منها على الوجد الفني والتي يمكن ان يتحول اليها :

فقد يكون معيارا فنيا نختبر من خلاله التجربة الفنية ، وندرس ظروف مبدعها وطبيعته

وقد يتحول الى فلسفة جمالية اذا درسنا على ضوءه ، تصور الفنان للجمال ، وادراكه للعلاقات والنسب التي تشكل معمار العمل الفني .

وقد يصبح حالة تلم بالفنان ، فتغير نظره الفنية ، وتصيغ ادراكه للاشياء ونظيره للعلاقات الانسانية .

وقد يتحول الى سمة من سمات العمل الفني ، وخصيصة من خصائصه ، ويكون ادراك تلك السمات والخصائص الجمالية ، منهجاً نقدياً يمكن ان نفيد منه ونفسر على ضوءه الاعمال الادبية والفنية . على ان هذه التحديدات الصارمة لم تمنعني من القيام بعمليات متعددة من التدقيق الجمالي من خلال منهج « الوجد الفني » فقامت بدراسة لشعر محمود حسن اسماعيل بعنوان « الوجد الشعري عند محمود حسن اسماعيل » . . . ودرست على ضوءه بعض التجارب الصوفية كاحياء علوم الدين ومشكاة الانوار للغزالي . والرعاية لحقوق الله للمحاسبي والرسالة القشيرية للقسري . والفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي .

وقامت بدراسة فكرة الموت على ضوء منهج الوجد الفني . ومن خلال هذا المنهج تدوقت القصيدة العينية لابن سينا « هبطت اليك من المحل الارفع » . وهي تجربة عميقة تمتزج فيها الرؤية الفكرية بالرؤية الفنية امتزاجاً تاماً ، حتى يصعب علينا ان نفصل فيها بين التفكير والتصوير والتعبير . ولعل ذلك يعود الى ان الشاعر كان قد وصل الى تلك الحالة المتوهجة المشرقة ، التي تلم بمن يصلون الى درجة الوجد الفني ، فتحولت الفكرة في وجدانه الى تجربة مشبوبة في اعماقه . فخرجت القصيدة الى الوجود على هذا النحو المركب الذي تسوده وحدة عضوية ووحدة فنية ووحدة شعورية . وقد تراءت لي اشياء جديدة في اثناء الدراسات التطبيقية التي كنت اقوم بها على ضوء نظرية « الوجد الفني » .

مثلاً . وانا ادرس الفتوحات المكية لابن عربي تبين لي انه اصل مجموعة من النظرات الجمالية . ووضع نسقاً متكاملًا للمعرفة يتلاءم مع افكاره وتصورات . وتوصل الى مجموعة من الرموز الفنية في الباب الذي سماه « علم الحروف او « علم الاسرار » . وأشاع مجموعة من المصطلحات الفنية واللغوية من الممكن ان تكون نواة صلبة علم جمال عربي . الى جانب ما توصل

نحو علم جمال عربي ( تصور وتطبيق )

اليه من رموز واشارات ، واستخدامات للغة :مكنته من ابداع مجموعة من النصوص الادبية والفنية ، اعتقد انها تثرى نقدنا العربي الحديث ،لو صبرنا على فهمها وسير أغوارها ، واخضعناها للدوق العصري .

واكتشفت وانا ادرس ( مشكاة الأنوار )للامام أبي حامد الغزالي ، انه توصل الى النور الباطني والظاهري وربط بين الدين يدركون هذه الانوار وبين من يتدفون الموسيقى ويدركون طبيعة الالحن ويتدفون الاغاني ويميزون بين الاوتار وقال « فانظر الى ذوق الشعر كيف يختص به قوم من الناس ، وهو نوع احساس وادراك . ويحرم منه بعضهم ، حتى لا تتميز عندهم الالحن الموزونة المتزحفة . وانظر كيف عظمت قوة الذوق في طائفة حتى استخرجوا بها الموسيقى والاغاني والاوتار » .

وقد نشرت بعض هذه الدراسات التطبيقية التي قمت بها . ولفت نظري بصفة خاصة ما اثاره البعض حول دراسة التراث العربي واستلهامه واستيحائه على ضوء هذا المنهج ، فقد ظن البعض أن هذه حيلة الجأ اليها لاجاء التراث العربي ، ولا أدري لماذا نحتال لاجياء تراثنا ، وهو واجبنا جميعا . ولكن الحقيقة المجردة ان « الوجد الفني » معيار نقدي يصلح لدراسة الادب المعاصر والادب القديم على السواء .

فليس طريقا لتلخيص آراء اعرب القدامى في علم الجمال وتصورهم لفلسفته .

وليس منهجا لاعادة النظر في مدلول كلمة الوجد عند الصوفية على اختلاف مدارسهم وتصوراتهم .

وليس دعوة تليفقية لمزج افكار مختلفة من مدارس علم الجمال في الحضارة الاوروبية ، وخلقها بأفكار مشابهة في تراثنا العربي .

فالوجد الفني معيار نقدي معاصر استلهم في البداية التراث العربي ، ثم تحول بعد ذلك الى مصطلح جديد له اسسه وخصائصه وسماته التي حددتها في هذه الدراسة .

وهذا في نظري ، هو المعنى الحقيقي لاستلهام التراث ، فنحن نعمل عقولنا وذوقنا المعاصر في خامات مشبعة عميقة من تراثنا ، لنحولها بعد ذلك الى شيء جديد ، له غزارة الايحاء وعبق التراث في اطار المنهج العلمي الحديث .

ليس معنى ذلك انني لم استفد من نظرات العرب القدامى في علم الجمال وتصورهم للعملية النقدية ، او لم استفد من معاني الوجد عند الصوفية ، او من افكارهم في الذوق والجمال والخير والحب والوهم والخيال ، والابداع الفني بل الصحيح ان هذه الاشياء كلها ، كانت الخميرة الاساسية لهذه الفكرة ، اختلطت بهذه العناصر كلها وتغلغل فيها فانتجت هذا الذي نسميه « الوجد الفني » .

واعتقد انني افدت كثيرا من تطبيق ( معيار الوجد الفني ) على الاعمال الفنية والادبية للمتصوفة والسالكين ، لان اصحاب تلك التجارب وصلوا في معظم الاحيان الى حالة من الوجد

الصوفي ، وهى وقدة روحية مشحونة بالالوان والظلال تهز النفس الانسانية وتفجر كل طاقات الابداع ، ومن ثم تكون الاعمال التي يبدعونها ، على هذا المستوى المشحون المتوتر المتوقد ، وانتهت من هذا الى ان كل اديب لا يصل الى تلك الوقدة الروحية والشعورية وهو يبدع عمله الفني ، لا يكون اديبا بالمعنى الحقيقى . قد يستج فى غير هذه الحالة أعمالا كثيرة ، ولكنها تظل أعمالا فاترة ، لا تهز الوجدان ، ولا تلهج العقل ، ولا تسر القلب ، ولا تثير الشعور . ولا تلهب الخيال ، ولا توصلنا الى هذه الفبطة الفكرية والجدل الروحى ، الذى نشعر به عادة بعد ان نقرأ الاعمال الادبية الشامخة .

وتبين لى - بعد ان وصلت الى هذا الحد - ان « الوجدان الفنى » معيار خاص لا يصلح لسير افوار كل التجارب الادبية . فهو يهمل التجارب المتوسطة والجيدة ، وبناء عن التجارب العادية . ويسقط من حسابه كثيرا من الادباء والفنانين الذين لم يصلوا الى تلك الحالة من التوهج والاشراق التى تصاحب عادة من يصلون الى درجة الوجدان الفنى . وبذلك يكون معيارا خاصا بالقلم والشوامخ والاعمال الادبية والفنية الكبرى .

على اية حال ليس عيبا ان يكون الوجدان الفنى معيارا خاصا . وليس عيبا ان يصل الفنان ومبدع الادب الى تلك الحالة ، من التوهج والاشراق التى نسميها وجدافنيا ، لانهما عندما يصلان الى تلك المرحلة ، يبدعان أعمالا فنية رفيعة ، تمتزج فيها التجربة الشعورية بأدوات الفنان والادب التعبيرية والتصويرية والتشكيلية وتنصهر فى باطنهما التجربة اللغوية بالتجربة الشعورية ، ويخرج العمل الفني موجدا ، تتلأأ فى داخله رؤية الفنان بمنزلة أدواته اللغوية ، وصوره التعبيرية وندفقه الشعورى .

ولكن هذه الخصوصية فى المعيار تستلزم خصوصية فيمن يستخدمه . . . . . واذا كان مبدع الفن قد وصل الى حالة الوجدان الفنى ، فلا بد ان يكون الناقد الذى يتناول عمله ، قد وصل هو الآخر الى تلك الحالة من التوهج والاشراق ، اى قد تربع على قمة الوجدان الفنى .

ولا شك ان تذوق الجمال فى الحروف والاصوات والانغام والاضواء والاشكال ، يعطى الناقد رصيذا من التجارب المتعددة والدربة والخبرة فى استكناه اسرار الجمال فى العلاقات بين الاشكال وبعضى الزمن والنضج واكتمال الاداة ، والامعان فى دراسة الخبرة الجمالية ، تتحول هذه الخبرة عند الناقد الى « حدس فنى » وبذلك يصل الى درجة التوهج والاشراق والوجدان الفنى ، التى يصل اليها مبدع العمل الادبى والفنى . وبذلك يتساوى - حيل معيار الوجدان الفنى - الفنان المبدع مع عالم الجمال والناقد الذى يتناول الاعمال الفنية ، ويصبح الناقد والدارس للخبرة الجمالية فنانا مبدعا . لا فرق بينه وبين الفنان المبدع الا ان الاول يأخذ تجاربه من الحياة مباشرة . بينما يأخذ الفنان الناقد تجاربه الابداعية من الاعمال الفنية . على اننى اعترف ان معيار ( الوجدان الفنى ) لم يستكمل حظه من الدراسة ، ولم يتحدد بصورة نهائية . ولعل ذلك يرجع الى اننى عنيت فى المقام الاول بالدراسات التطبيقية على ضوء الاصول النظرية القليلة التى اهتمت بها . ولم اشأ أن اتفرغ للتأصيل النظرى فى بداية الامر ، وتركزت



الباب مفتوحا امام الجديد الذي اكتشفه على ضوء الخبرة الجمالية ومن خلال تذوق الاعمال الادبية . وظل الامر على هذا النحو حتى استغرقتني المشاغل ، وانصرفت نهائيا عن « معيار الوجد الفني » ولم أعد اتناوله في مجال التنظير ، او في مجال الدراسات التطبيقية .

ولكن يبدو أن فكرة « علم الجمال العربي » ظلت تقبع في اللاشعور ، ولم تفارقتني ابدا . حتى اتبع لها ان تخرج في شكل جديد يختلف عن « معيار الوجد الفني » وكان ذلك نواة المحاولة الثانية .

### المحاولة الثانية :

#### منهج الرؤية الفنية

ولهذه المحاولة قصة ، فقد اكتشفت أنني في مجال الدراسة الادبية لاعلام شعرنا العربي لا نزال نجتر الافكار التي اعتدى اليها الرواد في مطلع هذا القرن والعقود الثلاثة التي تلت ذلك ، وقد نستثنى بعض الدراسات القليلة التي حاولت ان تضيف جديدا ، او تقدم شيئا مبتكرا ، مع ان الدراسة الادبية تطورت في العالم تطورا كبيرا ، واحتدمت الساحة الثقافية في اوربا وامريكا بالنظريات النقدية الكثيرة والحديثة .

ثم رأيت ما طغى على معظم دراساتنا الادبية من وقوع في براثن المناهج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فوقعت في خلل كبير اصاب التدقيق الجمالي بنكسة كبرى . ومحوت معظم دراساتنا الادبية وخاصة في الثلث الثاني من القرن العشرين الى وثائق سياسية ونظريات في الاجتماع والاقتصاد .

وعن لى ان اقف مع القلة القليلة من الاساتذة الجامعيين الذين لا يزالون يولون القيم الجمالية عناية كبرى . ويحاولون إعادة الدراسة الادبية الى طبيعتها الاصلية .

وفكرت في القيام بعمل ايجابي يجمع بين امرين . الامر الاول : إعادة دراسة اعلام شعرنا العربي من جديد ، حتى هؤلاء الذين درسوا على ايدى الرواد واعلام النقد العربي الحديث . في محاولة لتقديمهم للأجيال الجديدة من خلال تصور جديد يستلهم ما جد من تطورات على مناهج النقد والدراسة الادبية في العالم .

**والامر الثاني :** ان اصطنع منهجا جديدا يتيح لى ان انفذ من خلاله الى جوهر التجربة الفنية لهؤلاء الشعراء ، وان اقدم شيئا جديدا ، يحمل بعض النظرات المبتكرة .

واخترت ان ابدأ دراساتي هذه ، بتقديم شاعر من اكبر شعراء العربية على امتداد عصورها هو « أبو الطيب المتنبي » وكان السبب في اختيار هذا الشاعر ، وتقديمه في طليعة هذه الدراسات لونا من المعازلة ، ونوعا من التحدى ، فهذا الشاعر بالذات حظي بدراسات كثيرة والفت حوله مئات الكتب في القديم والحديث . والاقبال على دراسته من جديد ، يؤكد للأجيال الجديدة ، ان طبيعة الدراسات الانسانية تختلف عن طبيعة العلوم ومناهجها ، وان احدا لا يستطيع ان يقول فيها الراى الاخير ، وان التجارب الفنية والادبية مهما قيل حولها ، في حاجة دائمة الى من يقول

فيها رأيا جديدا . واهتديت - بعد معاناه - الى منهج متميز ، تناولت على ضوئه المتنبي . وسميته « منهج الرؤية الفنية » . وقمت بتحديد هذا المنهج تحديدا نظريا ، وفصلت قواعده وأساسه العلمية . وان كنت في دراستي لعالم المتنبي الشعري لم أشأ أن أثقله بتلك التفصيلات النظرية ، وهذه الاسس الفكرية (١٥)

واكتفيت بتقديم بعض الاصول النظرية العامة في مقدمة المقالة الاولى من هذه المقالات التي نشرتها عن المتنبي ودخلت فيها عالمه من خلال رؤية فنية .

وكنت انشر بين الحين والحين - وفي اثناء الدراسة ، بغض ملامح نظرية لهذا المنهج .

### معالم منهج الرؤية الفنية

ويمكن في هذا المجال أن اتناول بصورة عامة معالم منهج الرؤية الفنية ، وأحدد سماته المميزة . واشير الى بعض ادواته وبعض مصطلحاته الجمالية .

ولا أريد أن اضع له تعريفا جامعا مانعا من الدلالة الاولى ، ولنقتصر على وصفه حتى نتيج له النمو بعد ذلك . وهو على أية حال « منهج ينظر الى العمل الادبي من الناحية الفنية والادبية . وليس مقيدا بصورة سابقة ولا بنمط فكري معين ، أو مذهب سياسي أو اقتصادي أو عقيدة من العقائد ، ولكنه يلج مباشرة الى داخل العمل الادبي مجردا من كل الافكار السابقة . ثم يحاكم العمل من خلال مقاييسه الجمالية والفنية ، ويصل الى أهدافه ومراميها من خلال معايير فنية بحث .

ولكن ليس معنى ذلك أن هذا المنهج يتنكر للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية لمبدع العمل الادبي والفني ، فلا شك أن هذه الظروف تؤثر تأثيرا عميقا بصورة أو بأخرى على الاعمال الادبية والفنية ، وتشكل طابعها العام ، ولامعها الاساسية ، وتميز تقاليدها الجمالية في عصر عن عصر آخر . ولكن هذا التأثير لا يكون بصورة مباشرة فقد يكون بلرة صغيرة تنمو داخل التجربة الادبية والفنية وتحول مسارها وجهات متعددة ، وقد يكون هذا التحول ملائما لطبيعة هذه الظروف ، وقد يكون على النقيض منها ، وقد يكون مزيجا مركبا من هذين النقيضين ، المهم أن الفنان عندما يجبل تجربته الفنية ، لا يصوغها من جزئيات العالم الخارجي بطريقة مباشرة ، ولكنها تتحول بجزئياتها وعناصرها داخل جهاز ابداعه الفني هذه التحولات المركبة المعقدة . ثم يزداد تعقيدها بما يحيط بها من عناصر الابداع الاخرى غير المنظورة والتي ترجع الى طاقة الفنان وموهبته .

ومن أجل هذا كان على الناقد الذي يتناول عملا ادبيا أو فنيا ، أن يطرح كل افكاره السابقة ، ويدخل مباشرة الى داخل العمل الادبي والفني يتذوقه ويتعرف على عناصره الجمالية والفكرية ، ويعرف طبيعته الفنية وتقاليد الجمالية . ولا شك أن كل عمل فني له عالم خاص مستقل

(١٥) الثقافة - مايو سنة ١٩٧٧ وراجع الاعداد ٤٤ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ من مجلة الثقافة .

كل الاستقلال عن كل الظروف الخارجية : وله معايير ومقاييسه الخاصة به ، وقد يكشف الناقد أن جزئيات العمل الأدبي والفني الذي يعيش في داخله ، قد تشكلت من بعض عناصر العالم الخارجي ، ومن كل عناصره ، وقد يجد في داخل العمل اصداء واضحة للظروف السياسية والاقتصادية والمقائدية التي احاطت به . هنالا يمكن لمنهج الرؤية الفنية ان يتنكر لهذه العناصر التي اكتشفها الناقد من باطن العمل الفني والأدبي .

ولكن منهج الرؤية الفنية ينكر كل الأفكار، ما شاع في بعض الدراسات الأدبية التي تصطنع المناهج الاجتماعية والعقائدية مما يسمى (بالحتمية والجدلية ) بين ظروف مبدع العمل الأدبي والفني وبين ظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية وطبيعة حياته ونزعاته . لأن الذين يقولون بهذه الحتمية ، مقيدون بمعايير أخرى ، تختلف عن معايير العمل الأدبي والفني ، ثم هم يبدأون دراستهم من خارج النص الأدبي والفني ، فاذا دخلوا الى باطن العمل الفني ، فلكي يبحثوا فيه عن السياسة والاقتصاد والاجتماع واصداء المذاهب والأفكار ، وقيسوا على ضوئها شعر الشاعر وعمل الأديب وفن الفنان ، ويبحثوا عن مطابقة هذه الأعمال لتلك الظروف الخارجية ، فاذا طابقتها فهي أعمال أدبية صادقة وممتازة ، وإذا لم تطابقها فهي في نظرهم أعمال غير صادقة او ضعيفة او زائفة . وبذلك تتحول الأعمال الأدبية والفنية . عند هؤلاء الى وثائق سياسية وتاريخية واجتماعية وفي بعض الأحيان الى وثائق نفسية .

ولكن منهج الرؤية الفنية ينكر كل الأفكار ، جذريا عن تصور هؤلاء ، يختلف في طبيعة عمله ، وفي تصوره وفي ادواته الفنية . فهو - كما قلت يبدأ من داخل العمل الأدبي والفني نفسه فهذا العمل الأدبي والفني في نظره ، كون مستقل عن عناصره الأولى وجزئياته التي أسهمت في تشكيله ، كون خاص له قوانينه الموضوعية وتقاليده الجمالية الخاصة به . فنشر المتنبي مثلا عالما لغوي جمالي ، مستقل كل الاستقلال عن عناصره الأولى التي شكلته ، وهي ظروف الشاعر السياسية والاجتماعية وتأثره بأفكار عصره وعقائد مجتمعه ، هو خلق لغوي مستقل ، ولكن يعمر في داخله كل ما يعمر في الحياة من تيارات ، ولكنه ليس الحياة ذاتها ، وقد نصل من خلال هذا العالم الفني الى أحداث وظروف تطابق أحداث حياة الشاعر وظروف نفسه ، وقد نصل الى أحداث تناقض الأحداث التي نعرفها عن الشاعر لأن الشاعر عندما يشكل تجربته الشعرية تتفاعل وتحول الى خلق لغوي وعالم فني مستقل عن جزئياته التي شكلته ، فظروف الشاعر وأحداث حياته ، قد تكون مجرد مثير للتجربة ، وقد تلهمه تلك الظروف والأحداث صورا عكسية . وقد يعمر الشاعر في تلك الأحداث وقد يضيف إليها أحداثا من عنده يخترعها اختراعا . وقد يطمس كل الأحداث الخارجية طمسا تاما . ولهذا فالربط الحتمي الساذج بين الظروف الخارجية وبين العمل الفني ، عمل تأباه طبيعة ( منهج الرؤية الفنية ) . وهذا هو الفرق الأساسي الذي يميز هذا المنهج عن بقية مناهج الدراسة الأدبية التي تهتم بالرؤية الاجتماعية .

( الرؤية الفنية ) منهج فنى يهتم بالعمل الفنى وحده ومن دخله يصل الى كل القسم الفكرية والجمالية . وقد تكون هذه القيم من عالم السياسة او من عالم الاجتماع او من طبيعة النفس البشرية ، المهم ان نتوصل اليها من داخل العمل الفنى وفي اطاره ، وبهذا يختلف منهج الرؤية الفنية أيضا عن مناهج الدراسة الادبية ، التي لا تهتم الا بالنواحي الجمالية او تصطنع مناهج التحليل النفسى ، او التحليل اللغوى .

انه منهج يجمع فى اطار واحد بين جوهر كل تلك المناهج . ولكنها تتفاعل وتتوحد وتتحول الى معيار واحد هو ما اطلقت عليه « منهج الرؤية الفنية » .

لقد افاد هذا المنهج من كل مناهج النقد الموضوعية والتاريخية والجمالية والاجتماعية والنفسية . ولكنه فى النهاية حدد لنفسه نسقا معيننا يميزه عن كل هذه المناهج ، وجعل له طبيعة مختلفة ووظائف متغايرة .

عنى أن هذا المنهج لم يقتصر فى تناوله للأعمال الادبية والفنية على الادوات المتعارف عليها فى مجال الدراسات الادبية ، وم يقتف بمصطلحات البلاغة القديمة ولا مصطلحات النقد السائدة . وانما اصطنع لنفسه مصطلحات جديدة وصك تعبيرات جمالية جديدة ، ونوع فى استخدام الادوات النقدية وافاد فى كل ذلك بعلم الفسة الحديث والدراسات الصوتية . كما افاد من مجالات فنون اخرى كالنوتن التشكيلية والموسيقى والتصوير .

ولقد كانت الدراسات التطبيقية مجالا لاختبار هذا المعيار الجديد وامتحان المصطلحات الجديدة التى حاولت ان احكمها . لان الاصول النظرية لاي منهج من المناهج ، تظل قيما جامدة ساكنة ، لا تنبض فيها الحياة الا اذا نزلت الى ساحة الاستعمال التطبيقى . وقد اتاحت لى دراسة شعر المتنبي من خلال منهج « الرؤية الفنية » ان اختبر بصورة تطبيقية معظم هذه المصطلحات الجديدة . فاسهمت بشكل جيد فى حل كثير من المشكلات التى كانت تواجهنى ، وانا اقوم بعملية التدقيق الفنى ، قبل ان اهتدى الى هذه المصطلحات . وارجو ان استشهد فى غير هذا المجال بنماذج تطبيقية تبين كيف كنت اقلب على هذه المشكلات ، لاني خصصت هذه الدراسة للجانب النظرى .

ولست ارجب فى استقصاء كل المصطلحات التى حددتها خلال « منهج الرؤية الفنية » وكفى ان اذكر اهم هذه المصطلحات مع التعريف به .

ولعل من اوائل المصطلحات التى اهتديت اليها مصطلح « التشكيل اللغوى » والفنان العظيم يملك الى جانب موهبته الفنية وطاقته الابداعية موهبة التشكيل اللغوى ، وهى التى تعينه على تشكيل العمل الادبى والفنى من خلال الصور ، او من خلال براعته فى استخدام الكلمات وتتابع المقاطع ، والقدرة على استخراج ظلال الالفاظ وايحاءاتها وجرسها ، واكتشاف المعانى المستكنة فى باطن الكلمات .

وهناك مضطلع آخر يتصل بفكرة التشكيل اللغوى فى الشعر اطلقت عليه « بناء القصيدة على طريقة اللوحة » فالشاعر الذى يملك القدرة على هذا التشكيل الفنى . يبنى قصيدته بالطريقة

التي يشكل بها الفنان لوحته . فكما يهتم الفنان - وهو يبدع لوحته - بالاضواء والظلال ، والفراغ والنسب في المساحات والالوان ومعالم الاطار الذي يضم كل هذه العناصر ، يهتم الشاعر بكل هذه الاشياء . ولكن في حدود وسائله التعبيرية والتصويرية ؛ فادواته التي يبنى منها قصيدته على طريقته اللوحة ؛ هي الحروف والالفاظ والمقاطع . والشاعر الذي يملك هذه القدرة الفنية ، يستطيع أن يشكل عمله من خلال تنابع الحروف وانتقاء الالفاظ والمقاطع . يستطيع أن يحدث ظلالا وفراغات ومساحات ويفجر فيها الضوء ؛ وقد يستخدم موهبته السمعية والبصرية في مراعاة النسب في القصيدة وأدراك التوازن والتباين والتدرج والابقاع والتماثل في الاطار العام الذي يشكل فيه القصيدة وبذلك تتحول القصيدة الى لوحة تبحث فيها عن كل هذه العناصر التشكيلية . وقد اتاح لى هذا المصطلح أن اسمى قصائد المتنبي لوحات ، وحلت بصورة تفصيليه على ضوء هذا المصطلح الجديد ثلاث لوحات من شعر المتنبي . هي اللوحة الاولى وهي قصيدته التي مطلعها

« ضيف الم براسى غير محتشم      والسيف احسن فعلا منه باللم »

واللوحة الثانية : قصيدته التي مطلعها

« وأحر قلباه معن قلبه شهب      ومن بجسمى وحالى عنده سقم »

واللوحة الثالثة : قصيدته التي مطلعها :

« ليالى بعد المظاعنين شكوك      طوال وليل العاشقين طويل »

وقد تبين لى بعد تذوق هذه اللوحات الثلاث ان المتنبي يملك حسا نثيا متفوقا وقدرة باهرة على الاحساس بالالوان والظلال في الكلمات ، ولقد كان يشكل منها لوحاته الفنية تشكيلا اخاذا جذابا لا يتأتى الا لفنان موهوب يملك ناصية اللغة . ويعرف كل مفرداتها ؛ ويفهم دلالاتها المختلفة .

هناك مصطلح آخر اطلقت عليه « الاشعاع الفنى » وهو مترتب على سجية شخصية تكون في الفنان الموهوب . وهي « جاذبية الشخصية » الفنية . والفنان الذي يملك جاذبية الشخصية يتمكن بسهولة من ادراك الالفاظ والتعبيرات والحروف والمقاطع التي تسهم في عملية البناء الفنى وتزويد في حيوية العمل الفنى ، ولكن هذه الجاذبية تتحول الى شيء آخر عند الفنان المبدع هو الذى سميت « الاشعاع الفنى » . وهو شيء لا يمكن أن نقف عنده في تعبير أو تصوير أو تركيب أو صورة ، ولكننا نحسه عندما نقرأ العمل الفنى ؛ ساربا كالنور يضيء بين اجزائه وفصوله ، ونندرك آثاره بالتذوق ، متمثلا في تلك الغبطة والنشوة والجلد الروحي ، الذى نحس به بعد فراغنا من قراءة عمل فنى ممتاز .

اننا نحس آثار هذا « الاشعاع الفنى » ونطرب لها ، لا مجرد طرب حسى عابر ، ولكن على صورة جيشان فكرى وروحى وفنى ، يلازمنا وقتنا طويلا وبغيرنا . وبذلك نصير شيئا آخر غير الذى كنا عليه ، قبل القراءة . . شيئا جديدا يضيء داخلنا ذلك ( الاشعاع الفنى ) الذى سرى الينا من العمل الفنى العظيم .

• • •

هذه أهم المصطلحات الجديدة التي أضافها (منهج الرؤية الفنية) ، الى مصطلحات النقد الادبي وعلم الجمال .

وهناك مصطلحات أخرى ثانوية وغير دائمة تجيء من داخل العناصر التي تشكل العمل الفني او من الافكار التي يحتوى عليها العمل .

مثلا « فكرة الزمن » قد تتحول عند فنان موهوب من مجرد فكرة تدل على معنى محدد ، الى مصطلح جمالي يسهم في تشكيل العمل الفني كله ، فتصهر كل الادوات التعبيرية والتصويرية وتدوي فكرة الزمن في كل جزئية من جزئيات العمل الفني .

ولا اريد ان اتابع الحديث عن هذه المصطلحات الثانوية ويكفي هذا المثال دليلا عليها .

ونعود مرة أخرى الى منهج (الرؤية الفنية) بعد ان عرنا طبيعته ووظيفته وادواته التي يستخدمها صاحب هذا النهج في تذوق الاعمال الفنية ، لتتساءل . :

هل هذا منهج جديد حقا ؟ ! وهل من حق الباحثين والدارسين ان يحاولوا اصطناع مناهج جديدة في النقد الادبي وعلم الجمال ؟

وسأترك الرد على الشق الاول من السؤال للقارئ ، الذي عرف هذا المنهج من هذا العرض النظري ، وتابع تطبيقاته التي نشرتها في مجلة الثقافة القاهرية . واتخذت شعر المتنبي مجالا لتطبيقه ، وتمحيص قيمة الفنية . واختبار معايير الجمالية .

اما الرد على الشق الثاني من السؤال . فيتلخص في ان من حق كل باحث او دارس في كل عصر من العصور ان يتذوق العمل الفني بالطريقة التي تروق له ، وان يعيد قراءة الاعمال الفنية القديمة ، قراءة جديدة ، وان يستخرج من تجربة الاديب والفنان ، ملامح جديدة في الابداع والفن ، وان يعيد تحليلها وتركيبها على ضوء قراءته الجديدة من خلال ما يصطلح من مناهج .

وهذا هو العمل الذي يعمل منهج « الرؤية الفنية » والذي حاولت استخدامه .

قراءة جديدة للتجارب الادبية والفنية ، وتحليل لمكوناتها الجمالية ، وتفسير لخصائصها الفكرية والروحية ، وتركيب جديد - على ضوء هذا التحليل والتفسير - حول التجربة الفنية والحديث عنها ، الى شيء جديد . وبهذا يتحول العمل النقدي الى عمل فني ابداعي ، يثير من الامتناع واللذة العقلية والفنية ، ما تثيره التجربة الاصلية من متعة جمالية وروحية . وتحول - بذلك - التجارب النقدية الى تجارب فنية . ويقدر ما تتعدد الاعمال الفنية ، يجب ان تتعدد الاعمال النقدية التي من هذا الطراز الفني ، بل يمكن ان تتعدد الاعمال النقدية تعددا كبيرا حول عمل فني واحد . فالعمل الفني لا يبوح بكل اسراره لناقد واحد مهما كانت مواهبه وقدراته واكتمال ادواته . وسيظل لكل ناقد جديد - سر جديد يبوح له به دون غيره ، ومن الممكن ان يظل العمل الفني محتفظا باعظم خصائصه واجمل سماته واكبر اسراره لناقد معين قد لا يجيء الا بعد الف عام او اكثر .

ولعل هذا ما يفسر لنا ما نراه الآن من جدّة وطزاجة وابتكار في دراسات نقدية جديدة . تعرض لأعمال جاهلية وعباسية وأموية . كما نجد في دراسات الدكتور مصطفى ناصف عن الشعر العربي ودراسات الدكتور عبد القادر القط عن الأدب الإسلامي والأموي ودراسات الدكتور محمد النويهي عن الشعر الجاهلي ، ودراسات الدكتور إبراهيم عبد الرحمن . وغيرها من الدراسات التي تتناول جوانب الأدب القديم .

لكن يبقى أن أطرح على نفسي سؤالاً ، هل هاتان المحاولتان اللتان قدمت لهما تأصيلًا نظريًا هذه الدراسة يمكن أن تكونا نواة لعلم جمال عربي ؟

✳ وهل تصلحان أساسًا نظريًا لمزيد من الدراسات التطبيقية ؟

✳ وهل تصلحان للنقد والتمحيص ؟

✳ وهل حقًا هما محاولتان جديدتان ؟

وإدع الإجابة على كل هذه الأسئلة للمتخصصين في الفلسفة والنقد الأدبي وعلم الجمال وعلوم اللغة ، ولا شك أنني سأفيد من توجيهاتهم فائدة كبرى .

ولكن ردي على السؤال بصفة مبدئية أنني لم أنظر إلى هذين المنهجين إلا على أنهما محاولتان . وهذا وحده يؤكد أنني لا أزال في مجال المحاولة والتجريب . وقد أصل في يوم ما إلى أساس نظري متكامل يصلح أن نقول عليه : هذا هو « علم الجمال العربي » ولكن هاتين المحاولتين - وحدهما - لا تصلحان أساسًا لهذا العلم الذي نهفوا إليه ، ونسعى إلى تأصيله في ساحتنا الثقافية ، ولكنهما بالتأكيد خطوة نحو علم جمال عربي .

#### تقويم المحاولتين ....

وإذا كان لي في نهاية هذه الدراسة ، أن أقوم بنقد هاتين المحاولتين ، فأنني اعترف أولاً بالعيب الأساسي ، الذي تسلل إليهما ، على الرغم من محاولتي الشديدة تجنب الوقوع فيه ، وهو الاختلاط وعدم التحديد الدقيق للمصطلحات ، وأن كان هذا الأمر في النهاية سيتيح لي أن أمعن النظر طويلاً حتى أنتهي إلى التحديد الدقيق للمصطلحات ، والتعريف الجامع المانع لها .

وهناك مشكلة تثور حول هذين المنهجين ، ومن الممكن أن تكون عيباً ، ما لم نحاول العمل على تحديد حجمها وتوضيح ما تثيره من اختلاط .

وهذه المشكلة تلخص في أن هذين المنهجين يتشابكان مع مدلول « النقد الأدبي » بشقيه النظري والتطبيقي .

وفي رأيي أن النقد الأدبي يقف على أرض مشتركة مع « علم الجمال » وهناك مساحات كبيرة يتجولان عليها معاً .

على أن علم الجمال ظل لفترة طويلة فرعاً من فروع الفلسفة ، وعندما انفصل عنها احتضنه النقد الأدبي ، وظل رافداً من روافده حتى الآن ، والنقد الأدبي نفسه ظل ممتزجاً لفترات طويلة بالدراسات الأدبية والأدب المقارن وتاريخ الأدب والنظريات الأدبية . ولم يستقل كل علم منهما استقلالاً تاماً إلا بعد تقدم الدراسات العلمية وقيام المتخصصين بتحديد دقيق صارم لكل نوع من هذه الأنواع .

ولهذا لن افزع كثيراً إذا وجدت هاتين المحاولتين تدخلاً على نحوهما في مجال النقد الأدبي .

وإن كنت اعتقد أنهما أقرب إلى علم الجمال منهما إلى النقد الأدبي . لأنهما تحاولان أساس البحث في ماهية الجمال . والخبرة الجمالية في الأدب والفن .

و ( معيار الوجد الفني ) موغل في القرب من علم الجمال ، لأنه يقوم في البداية على أساس فكرة فلسفية ، اقتبستها من قاموس فلاسفة المتصوفة . ولأن الأساس التي يقوم عليها أقرب إلى التنظير الفلسفي ، وهو من هذه الناحية يكاد يكون علماً « معيارياً » وإن كانت له جوانب أخرى تتمثل في الأدوات الفنية التي يستخدمها لدراسة الخبرة الجمالية ، وتلدق النصوص الأدبية والفنية . وهذا الجانب يقرب من النقد الأدبي ويجعل « الوجد الفني » يلامس مناهج العلوم الوصفية .

أما منهج « الرؤية الفنية » فعلى العكس من ( منهج الوجد الفني ) جانبه الأهم ، موغل في القرب من النقد الأدبي وهو الجانب الذي يهتم بتدقيق العمل الفني من خلال أدوات النقد الأدبي ، ولكن يقلب عليه من ناحية أخرى الاهتمام بدراسة الظاهرة الجمالية وتحديداتها تحديداً علمياً كلون من ألوان المعرفة الفلسفية . وهو صميم علم الجمال .

وهناك عيب اعترف به في نهاية هذا التقديم وهو الحماس الشديد الذي غلب على بعض أجزاء الدراسة في هاتين المحاولتين . وقد كان هذا الحماس ناشئاً عن إحساسي بأنني لا بد أن آتي بشيء جديد . ولعل هذا الإحساس هو السبب الرئيسي في كل العيوب التي لحقت بالمنهجين .

ولكن حسبي - في هاتين المحاولتين ، أنني بذلت جهدي ، واستنفدت ، في البحث والتدقيق طاقتي ، فإن أخطاءاً فلي اجر المحاولة ، وأنا أصبت فلي اجران ، كما يقول العلماء . والله من وراء القصد . وما توفيقني إلا بالله عليه توكلت واليه أنبت .

★ ★ ★



## يحيى حقي بين المصرية والتركية

لا جدال في أن دراسة فن يحيى حقي الأدبي يستلزم التعرف على نشأته وأساليب تربيته ، خاصة وأنه نشأ وتربى في أسرة ذات أصلا بتركية تعرضت في أحضان المجتمع المصري ، وتعرض بذلك لكثير من الصراع بين المصرية والتركية ، كما تراوحت حياته بين الانتماءات الصوفية الإسلامية والبوذية الرومانسية . . . وأساليب التفكير الشرقي والحياة الغربية الحديثة . ثم محاولاته للنجاة من تلك المتناقضات في رحاب حرية الفنان . . . ومع ذلك فإذا كان هذا البحث يركز على مشكلة صراع يحيى حقي بين تركيبيته الموروثة ومصريته التي يحياها فإن الهدف الأخير منه هو أن يبين كيف انتصر يحيى حقي على ذاته ووصل إلى نوع من السلامة النفسية التي شق على الكثيرين من أقرانه الوصول إليها . وقد حقق له ذلك الكثير من وضوح الرؤية ونفاذ البصيرة مما جنبه التخبط والضياع . وعاونته على ممارسة الفن وهو متحرر من مختلف العقدة الموروثة والمكتسبة . . .

### - ١ -

إن جلدور يحيى حقي ليست مصرية صميمية، فقد نشأ جده « إبراهيم حقي » في بلاد المورة بجنوب اليونان ، في حين كانت تنتشر أصول العائلة في ربوع تركيا وفسروع منها في مصر .

وشاهد ابراهيم حتى من قرب بعض نواحي النهضة الأوروبية الحديثة الى ان بدأت أوروبا تضيق الخناق على العناصر التركية في حركة مناهضة الحكم العثماني بقصد تحرير بلاد اليونان ، وصاحب ذلك هجرة الكثيرين من الأتراك من أوروبا الى تركيا وغيرها من أقطار الدولة العثمانية ، وبذلك رحل ابراهيم الى مصر بعد أن توسّطت له خالته السيدة « حفيظة هانم » خازندارة قصور الخديو اسماعيل ، ونجحت في تعيينه في خدمة الحكومة المصرية التي كانت تعاني نقصاً في مختلف الوظائف الحكومية ، التي لا يشغل كوادرها العليا في غالب الأحيان إلا من له صلة قرابة بالعناصر المصرية التركية الأصل ...

وهكذا حضر ابراهيم حتى التركي المقيم في بلاد اليونان .. والجامع بين الحضارة الإسلامية وحضارة الغرب الحديثة - الى مصر في عهد الخديو اسماعيل طلباً للدخل المستقر ورغبة في الأمن ... واستلم مهام وظيفته ببلده دمياط ، وأخذ يتدرج في وظائف الحكومة حتى أصبح مدير مصلحة في بندر المحمودية بالبحيرة (١) في ظروف سياسية معقدة تتشابك فيها الصراعات بين العناصر التركية والمواطنين المصريين ...

وعاصر ابراهيم أحداث الثورة العراقية ، وعاش كل ما تعرضت له العناصر التركية من انفعالات ومشاعر ، وانساق فيهم من أعمال وتصرفات نتيجة للتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تمر بها مصر في ذلك الحين .. ومع ذلك استقر فكر ابراهيم حتى على البقاء في مصر ، وتزوج من سيدة تركية تعيش في مصر ، أنجب منها ثلاثة من الأبناء أكبرهم محمد والد يحيى حتى ، والثاني محمود طاهر الذي الهبت مشاعره الفنية وهو في فترة الشباب « مذبحة دنشواي » فأنفعل بأحداثها وخرج علينا برواية « عدراء دنشواي » ، وهي أول رواية فيها مشاركة وجدانية وطنية من العناصر التركية للمواطنين المصريين . أما الابن الثالث فهو « كامل » ولا يكاد يذكر عنه يحيى حتى شيئاً ..

والذي يهمنا هنا هو الابن الأكبر محمد حتى ... ولقد ولد محمد حتى في مصر ، وحاول والده أن ينشئه في أول الأمر تنشئة إسلامية صرفة ، فالحقه بأحد المعاهد الأزهرية حيث حصل على نصيب من الثقافة الإسلامية العربية قبل أن يلتحق بأحدى المدارس الفرنسية ، ولكنه لم يلبث أن قطع تعليمه عندما أدرك أن ظروف أسرته المتوسطة الدخل لا تقوى على تكاليف المدارس الفرنسية ، ورضى بوظيفته في وزارة الأوقاف .. ولكن صلته بالثقافة والعلم لم تتوقف ، وحده طموحه الثقافي الى قراءة عيون الكتب العربية كديوان المتنبي وكتب الغزالي ومقامات الحريري ، استجابة لنزعات أدبية وميول فنية ساعدته على حفظ روائع الشعر العربي ، فاكسب فصاحة في اللسان وقدرة على البيان . وتزوج محمد حتى أيضاً من سيدة البانية الأم تركية الأب تعيش مع أسرتها في بندر المحمودية حيث كان والدها يعمل دليل مكتب البريد .. وكانت السيدة/ سيدة السيد حسين تجيد القراءة والكتابة ، كما كانت شديدة التدين تقبل على قراءة

(١) يحيى حتى : اشجان علو منتسب : سيرة ذاتية .. مجلة « عالم الفكر » المجلد الخامس - العدد الثالث : أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٤ - الكويت .

القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف والسيرة النبوية العطرة ، كما الملت كذلك بكتب الادب العربى القديم ... وهكذا شب يحيى حتى بين والدين يعشقان الادب ويعملان للقراءات الاسلامية ..

ولقد انجب محمد سبعة من البنين والبنات ، وكون أسرة كبيرة العدد تحملت الأم شتى المسؤوليات وكثيرا ما اشاد يحيى حتى بتضحيات والدته ودورها الفعال في حسن تربيته هو واخوته واخوانه فقال : « ربنا بيدها تطبخ وتطعمنا متكلفة في ذلك أشد العناء متمايلة للوصول بنا مستورين لآخر الشهر ... ربنا بلسانها تحت بغير الحاج على الاستقامة والجد والمذاكرة كسوط صاحب الجواد الاصيل له دفع وليس له لسع ... وبتنا بنظراتها اذا كنا في تجمع من الناس تحوط علينا وتعلمنا كيف ينبغي ان نجلس وكيف ينبغي ان يكون الكلام المهلب ، تقيد علينا كل زلة لسان وان كانت بريئة ، وتنبهنا اليها اذا انفض الجمع ... بل من عادة أمى ان لاتنام الا ان اطمانت اننا عدنا جميعا » (٢)

ولد يحيى - وهو الثالث في تسلسل قائمة الابناء - في السابع من يناير - الموافق - يوم عيد ميلاد السيد المسيح عند اقباط مصر - عام ١٩٠٥ - وقت ان كانت حركة مصطفى كامل الوطنية على أشدها ، في بيت ضئيل من بيوت الاوقاف بحارة الميضة وراء مقام السيدة زينب المتفرع من شارع الصليبية بحى قيسون المعروف حاليا بقسم الخليفة ، وهو حى من الاحياء الشعبية الصميعة .. نشب يحيى حتى في الأجواء الشعبية القاهرية ، وشاهد منذ الصغر « ابن البلد » من قرب شتى احواله : في جده ودعابته ، في حرمانه وسخريته ، في ذكائه وقناعاته ، في ايمانه وانحرافاته ، فنما في قلبه وهو مازال صبياح ابن البلد وميل التردد على الاحياء الشعبية ، خاصة بعد ان ترك حى قيسون وسكن بعيدا ... بل ان أول ما عرف قلبه الحب تعلق بحب بنت من بنات البلد رغم انه كان يعيش في أسرة تنتمى الى مجتمع مهاجرين من العزلة الانطاكية ، يرقب المجتمعات عن بعد دون اندماج ويشعر بأن مستواه الحضارى ارقى من المستويات المصرية ، وان جمعة بين الثقافة الاسلامية والحضارة الغربية اعطاه ميزات لا تتوفر في كثير من جماعات عامة الشعب .. ولكنه مع ذلك حرص على الا يظهر بأى مظهر من مظاهر الاستعلاء ، مما يدعو الى تصنع ضروب من التواضع لا تخلو من تكلف يكشف عن معالم التعالى الكامن .. ومع انه كان لا يتكلم الا باللغة العربية فان الكلمات التركية كانت تظهر عادة في حالات انفعالات الغضب والضيق التى تتحرر من التصنع والتكلف ... وحتى حين كانت تقوم علاقات مع بعض الافراد من عامة الشعب فانها كانت مجرد علاقات سطحية تهتم بتوثيق الروابط مع من يتعاملون معه ، ويقدم لهم خدمات يومية لا يستغنى عنها احد .. ويؤكد يحيى حتى ذلك حين يذكر ان « اسرتى كان يشغلها منذ وعيت وروح من الديمقراطية الشعبية .. لا أدري من أين جاءت .. ؟ هي طبع وخلق

(٢) يحيى حتى - خليها على الله : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر - القاهرة - بدون تاريخ .

لا ثمة علم واقتناع ... فما دخل بيتنا خادماً والأخلاقنا مخالطة الأهل ... ولم ننظر بأنفة الى القصاب والبقال وبائعة الجبن والصابون ... ولكننا اقلنا ديمقراطية معاملة نصيب (٣) .

هكذا كانت تعيش الاسر المصرية ذات الجذور التركية سواء من الناحية النفسية او الاجتماعية اصة منذ قيام الثورة العربية ... ونشأ يحيى حقي وتربى وتعلم وهو يعيش شتى محاولات المعاناة التي كانت تقاسي منها المجتمعات المصرية ذات الاصلاب التركية في جهودها للموامة بين بواطن الاتجاهات التركية وأغراض الاستقرار في مصر ... ويبدو أن يحيى حقي لم يستطع ان يخطئ الحواجز الاسرية وان يندمج في الحياة المصرية التي لم يشهد غيرها الا خلال واقعية روحية بمواقفه وعقله جميعا بعد ان عايشها بكل كيانه وارتضاها طواعية حتى استمد منها رغباته وآماله وأحلامه وأوهامه وبمكس عليها كل ما ينفعل داخله من مشاعر وافكار وخيالات وهو اجس ... لم يحس اطلاقا في قرارة نفسه بأن هذا التباين الذي يوجد بين حياته المنزلية بتقاليدها التركية وحياته العامة في مختلف مجالات المجتمع المصري تدعو الى نوع من الانفعال ترغمه على ان يستقل بحياة اسرية بعيدة عن مجتمع القاهرة ... ولذلك لا نكاد نلمح اى احساس يجعلنا ندرك انه يشعر بأى نوع من التباين او الاختلاف بينه وبين اى مواطن آخر يزامله الحياة في المدرسة او في العمل او في اللهو رغم معرفته الاكيدة بأصله التركي ... بل يلحظ عليه احيانا علامات من الضيق والتناف اذا ما نبه احد عثره بـ بطريقه أو أخرى من قريب أو بعيد الى اصل عائلته الابلاني خاصة اذا ما كان يحاول ان يشكك في أصالة انفعالاته المصرية وعمق تجاربها مع الحياة المصرية ...

واذا كانت أحداث الحرب الابانية اثارت وجدانه عام ١٩١٢ والهبث مشاعره التركية وهو ما زال صبيا في السابعة من عمره ، وحثته على قول الشعر ليعلن السخط على الاستعمار الأوربي الذي يهدد كيان الدولة العثمانية ويعرض مسقط رأس اجداده للخطر ، فان فظائع دنشواي - التي اطلع على أحداثها عام ١٩١٤ في قصة « عذراء دنشواي » التي كتبها عمه محمود طاهر حقي - زادت من سخطه على طغيان الاستعمار البريطاني فتعلق قلبه بجهاد الزعيم مصطفى كامل الذي يدعو باصرار الى ضرورة جلاء الانجليز عن مصر دون شروط مسبقة .

ولقد سحر مصطفى كامل العناصر التركية ببلافته الكلامية في الخطب والمقالات التي اخذت تتصاعد لهجتها وتشتد وتقوى حتى بلغت الذروة حين أعلن حربا لا هوادة فيها ضد احكام الاعدام الظالم في حادثة دنشواي . واذا بالعناصر التركية يجرفها تيارت المشاعر الوطنية وتجذب نفسها تعيش هذه المشاعر بكل وجدانها ، واذا بها تحس بأنها أكثر التصاقا بأرض مصر مما تظن . ويكاد محمود طاهر ينفرد بعرض هذه المشاعر في رواية « عذراء دنشواي » ويرجع يحيى حقي حماس هذه الانفعالات الفنية الى انه قد تم « التحام كامل بين محمود طاهر

(٣) يحيى حقي : نعمة .. فابتسامة . روز اليوسف - القاهرة . ديسمبر - ١٩٦٥ .

حتى وشعب مصر .. واصبح ابن بلد مضافى جلوره الحديثة نزلت الى الطمى السفلى المتخلف من ايام الفراغة هيهات ليد أن تقتلعها ، او لما بلد آخر أن يهبها الحياة .. وقد ظهر هذا الالتحام في رواية عدراء دنشواى (٤) .. ولاشك أن رواية عدراء دنشواى نجحت في تقريب المصريين الاتراك من المصريين الفلاحين اكثر فاكتر .. حتى أنه لم يظهر من بين الاسر التركية من قبل أن يترافع ضد الفلاحين المتهمين في حادثة دنشواى بخلاف ابراهيم الهلباوى المصرى الصميم الذى ارتضى أن يجرب بلاغته ضدهم .. ويجنى على مواطنين ابرياء من بني جنسه ويسوقهم الى ساحة الاعداء متمصا من وطنيته .. ولكن بلاغة الهلباوى حفرت له قبره اذ ظلت مرانته في دنشواى سحابة سوداء تطل على كل عمل يصدر عنه وتشوه اخلاصه وتعرض مستقبل حياته العامة ، حتى فشل في الحصول على الغفران عندما حاول الدفاع عن ابراهيم ناصف الوردانى بعد أن اغتال بطرس غالى الذى كان رئيسا لمحكمة دنشواى .

ولقد تصدى الكتاب الاتراك الى هذه النزعات فكتب « ولى الدين يكن » في مقال الشقاق (٥) « أنا تركى .. وأبغض عباد الله الى تركى يعتدى .. احب العناصر العثمانية كلها وأخذ بناصر المستضعف منها .. ثم احب العرب حبا خالط الروح وجرى مجرى الدم في العروق .. وأنا عربى الادب والقلم ، عربى النزعة ، ومن ابغض العرب فأنا مبغضه .. » ولكن اذا به يعود ويقول بعد اغتيال بطرس غالى في مقال رومانسي الافكار والعواطف عنوانه « بطرس غالى في موكبه الاخير » (٦) قال القضاة : قتل احد الباغين بطرس باشا غالى قتل لقد قتل مصر .. كل قطرة من ذلك الدم البريء عند الله أجرها وعلى الانسانية والعصر العشرين عارها .. ماذا جنى هذا الفقيد المظلوم .. ؟ صاح اكثركم مذكرا بحادث دنشواى ، وتشدد آخرون باتفاق اتكثرا ومصر على السودان ، وشكا غيرهم من قانون المطبوعات ..

ولقد تصدى كذلك عبد الخالق ثروت باعتباره النائب العام لمهمة التحقيق في الاعتداء بنفسه ، ثم قام بالرافعة في الدعوى ضد ابراهيم ناصف الوردانى .. واتسمت كلمته بالاعتدال وان استنكرت اغتيال الاكفاء المخلصين « نحن اول من يحل الاشتغال بالمسائل العامة ، ونرى أن السعى بالطريق المشروعة فيما ترقى به البلاد واهلها من فروض العين على المصرى ، وأن كل مصرى مطالب بتضحية شيء من وقته وماله وجهته في خدمة بلاده .. نحن اول من يرحب بتنمية الوطنية ورياضة النفوس على احتمال اشق المشتقات في اعلاء كلمة مصر وزيادة شرفها ورفعها ، وكذلك نرى من مرقبات الامم الدارجة في رقيها النظر في اعناق القابضين على ازمة الامور فيها ونقدتها ... ولكننا لا نسلم بحال من الاحوال أن يتطلع الى مقام ناقد الحكام الى رجل

(٤) يحيى حقي : عطر الاحباب : دار الكتاب الجديد . القاهرة ١٩٧١ .

(٥) الكتاب الثلاثة : ولى الدين .. المنفلوطي .. العقاد . جمعه محمد محمد زكى الدين . الناشر حسين حسنين .. القاهرة بدون تاريخ .

(٦) الكتاب الثلاثة : ولى الدين .. المنفلوطي .. العقاد . جمعه محمد محمد زكى الدين الناشر حسين حسنين .. القاهرة بدون تاريخ .

جمع الى العلم الفزير والحكمة البالغة الاتزان في القول والفعل حتى يقدر الاعمال حق قدرها وينظر الى الامور بفكر صحيح فلا يتعدى حد المشروعية والا انقلبت الخدمة العامة وبالا ، و ارادة الخير شرا .. » (٧)

لاشك في أن استنكار الكتاب ، خاصة الاثرالك منهم حادث اغتيال بطرس غالى وتولى العناصر التركية مهمة توجيه الاتهام الى الوردانى اثار الريب في نفوس الشباب المثقف في مصر بينما كسب الوردانى عطف الكثيرين منهم .. فاذا نال ثروت بكلمته الحكمة المعتولة اعجاب المسؤولين وتقديرهم ، الا انها بعثت الضيق والسخط بين الشباب رغم اعجابه بكفاءاته وحسن بيانه كالمسؤولين سواء .. واكن الحكم باعدام الوردانى حرك ماخبا في النفوس من مشاعر التدمير والاحساس بالقهر ، والاستبدادجددت اللوعة من قوة احكام الاعدام الظالمة في حادثة ونشواى .. وسرمان ما اجتاحت البلادحركة اغتياالات أخرى تولى تنفيذها أجهزة سرية اشترك فيها الوطنيون من المصريين والعناصر ذات الجذور التركية على حد سواء .. واذا بها تخطط من اجل التخلص من الخونة على اختلاف اجناسهم ودياناتهم مناصبهم ، ومن الانجليز الذين يقيدون الحريات في مصر ..

الا ان المحتل البريطانى لم يدع الوحدة الوطنية تسير في طريقها الطبيعي وتحقيق مسا تصبو اليه النفوس من قوة وترايط. وثيق بين كافة المصريين ، واخذ يضرب على وتر فرق تسد .. ولذلك كثيرا ما حاول ان يستغل اى خلاف ظاهرى ويشير ضروريا من التنافس ، خاصة بين اميان المصريين وقادة العناصر التركية حول السلطة خلفت صراعات انحرفت عن طريق الوحدة الوطنية واثارت الشكوك بين الجميع ، حتى اذتبت كل فئة في نوايا الفئات الاخرى ... ولقد نجح الانجليز بالمحاولة المالة في تفجير حدة الخلافات بين سعد زغلول الممثل الشعبى لكافة المصريين وبين عدلى يكن صهر أسرة محمد على الذى زوج ابنته لشريف صبرى شقيق تازلى زوجة السلطان احمد فؤاد باثارة الاشاعات حول عرض الانجليز العرش على سعد زغلول شريطة قبول الحماية البريطانية ونضل السودان عن مصر مما اشعل مخاوف السلطان فؤاد من اطماع سعد زغلول .. الا أن عدلى يكن ، والحق يقال كان في موقف صعب ، فهو لا يستطيع ان يقف في جانب السلطان والانجليز ويعادى الشعب الذى يمثل سعد زغلول ، وفي الوقت نفسه لا يستطيع ان يجارى الشعب في اندفاعاته الوطنية التى لا يقبل الانجليز الخضوع لها ، فلم يجد امامه الا ان يقف موقفا وسطا ، وحاول ان يوفق بين مبادئ سعد زغلول في الوطنية التى تتمسك بالاستقلال التام وجلاء القوات البريطانية وسيادة الشعب المصرى على اقدارة وبين حرص الانجليز على البقاء في مصر بصورة او اخرى يرضى عنها جميع الاطراف المعنية ... واستطاع عدلى بموقفه الوسط المرن ان يكسب ثقة السلطان فؤاد وتعاون الانجليز وان يتوصل بمجهوداته

(٧) الدكتور محمد حسين هيكىل : شخصيات مصرية وغربية .. كتاب روز اليوسف رقم ٢ القاهرة يناير - ١٩٥٤ .

الخاصة الى ان يقنع بعض الاعيان الاقطاعيين من المصريين داخل حزب الوفد نفسه ويكسب تأييدهم لسياسته التى تقبل ان تقابل الانجليزى منتصف الطريق (٨) .

**واحسب ان اسرة حتى ، رغم انها اسرهموظفين يغلب عليها الحياء والانطوائية ، لم تكن** فى منأى عن الاحداث سواء التى تقع فى تركيا أو فى مصر ... فكانت تتعاطف مع كل ما يدور حول الدولة العثمانية . فما ان نشرت قصيدة أحمد شوقي فى البكاء على خلع السلطان عبد الحميد فى الصفحة الاولى من جريدة الاهرام حتى « كان البيت كله يقف على رجل .. كنا نقرأها بصوت عال . ونحفظها ونظل نردها فى مختلف المناسبات (٩) وتعاطف أيضا مع اتجاهات مصطفى كامل التى تتمسك بجلاء القوات البريطانية ولا تعادى الخديو عباس الثانى ، وتستعدى الدولة الفرنسية على الانجليز .. ولذلك كانت جريدة اللواء لسان حال الحزب الوطنى هى جريدة الاسرة المفضلة .. ومع ذلك « لم يمتعنا ذلك من التعلق بسعد زغلول ومتابعة احداث ثورة ١٩١٩ بحماسة شديدة .. فى اكثر ما كنت اصحاب ابى وشقيقى ابراهيم واسماعيل الى الازهر أو بيت الامة أو شادر مقام فى ساحة فسيحة لاستمع الى خطباء الثورة ... واحيانا كان الانجليز يسدون الطرق المؤدية للازهر ليمنعوا الجماهير من حضور اجتماعات الثورة .. لكننى اسير مع ابى وأخوى فى طرق ملتوية وازقة ضيقة حتى نصل الى الازهر ونستمع الى خطباء الثورة ونردد مع الجموع اناشيدها ... وكان افراد الاسرة يتخاطفون بلهفة شديدة ما يصل الى ايدينا من منشورات الثورة ... وقد سرت فى بعض المظاهرات الصاخبة التى كانت تكتسح شوارع القاهرة .. وحين كان الانجليز يطلقون علينا النار كنت اجرى مع الجارين ... وفى تلك الايام قرأت كل ما وقع فى يدي من كتابات عبد الله النديم ومصطفى كامل .. وكل ما نشر عن حادثة دنشواى ... وهكذا التحقت بمدرسة الحقوق وقد تشبع وجدانى حتى الثمالة بحب مصر « (١٠) ولكن لما دب النزاع بين سعد زغلول وابن الفلاح المصرى وبين عدلى يكن ذى الاصل التركى « اجتاحت بيتنا موجه عارمة من الكآبة وخيبة الامل لفرقة الصف الوطنى « (١١)



لا شك فى ان ثورة ١٩١٩ ضد المحتل البريطانى الذى يماطل فى خروج قواته من ارض مصر صهرت كثيرا مما تبقى من مشاعر الغربة التى كانت تعاني منها العناصر التركية المصرية فى بوتقة الوحدة الوطنية ، واقتربت من التخلص النهائى من نزعات تعدد الولاء لاكثر من وطن ، خاصة بعد انحصار الدولة العثمانية فى نطاق الاراضى التركية فقط .

(٨) معهد كامل سليم : ازمة الوفد الكبرى : سعد وعدلى : كتاب اليوم برقم ١٠٧ ، مؤسسة اخبار اليوم - القاهرة - مارس ١٩٧٦ .

(٩) يحيى حتى : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(١٠) يحيى حتى : اشجان عضو منتسب .. سيرة ذاتية .. مجلة عالم الفكر ١٩٧٤ .

(١١) نفس المرجع .

وإذا ما انتقلنا من المجالات السياسية والمواطف الوطنية الى المجالات والعواطف الإنسانية نجد انه ، لكل مستقيم الحياة للعناصر التركية في مصر ، ينبغي أن يبلغ حبهم للمصريين نفس قوة حبهم لارض مصر ووطنهم مصر .. ولا يتأتى ذلك الا اذا اتسع حب الوطن بشفاية الحب الانساني وودعة الحب الاجتماعي الذي لا يهدف الى اى نوع من السيطرة العسكرية او التفوق الاقتصادى او السيادة السياسية ، ويتجنب بقدر الامكان اثارة التنافس على مراكز القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية ويعتمد أكثر ما يعتمد على أصول الحضارة المصرية من فكر وفن وأدب ، ومن علم وثقافة ، ليحتفظ بدرجة عالية من الرقى الاجتماعى والتفوق الحضارى .. فأقبل أبناء الاسر التركية المصرية على دراسة القانون والهندسة ، لان معرفة القانون تسمح بتولى مناصب القضاء ، والنيابة أخطر المناصب وأكثرها رهبة بين عامة الناس .. بينما تسمح دراسة العلوم الهندسية بالتفلفل فى شتى شئون المرافق العامة المصرية فى المدن وفى القرى ، نظرا لشدة حاجة الجميع للخدمات الهندسية ... وكثير من أبناء الاسر التركية لم يقفوا عند حد التعليم العالى فى مصر بل اهتموا بطلب المزيد من العلم والثقافة والحضارة فى أوروبا .. ولذلك كان هناك تنافس مثير على التفوق الدرامى للفوز بالبعثات المجانية الى الخارج خاصة بين النابهين غير القادرين على تحمل تكاليف العلم فى أوروبا . وبذلك فقد اتاحت للكثيرين منهم فرص الاتصال الوثيق بالتطور الفكرى والثقافى والاقتصادى والاجتماعى فى العالم الحديث .

ولا نعجب اذا ما شعرت العناصر التركية بانها أكثر قدرة على خدمة مصر حضاريا من المصريين الاصليين ، لانها تشعر بأن لها خبرات أوسع فى المجالات الحضارية الحديثة .. ولقد كان لها بالفعل الاسبقية والفاعلية فى تنشيط كثير من مجالات الحياة الثقافية والاجتماعية فى مصر .. فلم تقف هذه العناصر عند حد التمنى بأن تصل مصر الى ما وصلت اليه أوروبا من نهضة وازدهار ، او تكتفى بأن تشيد بذكر حضاراتها السابقة .. بل اخذت تسهم اسهاما جديا فى مختلف مجالات الإصلاح تحت احساس بأنهم على مستوى حضارى متقدم يسمح لهم بسرعة استيعاب الحضارات الغربية مما يعطيهم امكانيات ثقافية تضعهم على رأس قادة الفكر والادب والإصلاح الاجتماعى فى مصر .. واذا بهم يكونون شتى الجمعيات التقدمية الثقافية والاجتماعية ، ويظهرون كثيرا من النشاط الجاد الصادق لبعث نهضة فكرية مصرية تطور المجتمع المصرى وترفع من مستواه الحضارى . ولقد تنافس كل من احمد شوقي - وهو من أصل تركى - وحافظ ابراهيم - وهو من أم تركية ورباه خاله المهندس زميل والده - على الترنم بأشعار تسبح بحمد مصر ، وتشيد بمجدها الخالد وتظهر الحب العظيم الخالص لمصر ، وتشدو بالوطنية المصرية وتفلها على كل وطنية وقومية .. بينما أعطى محمد تيمور ومحمود طاهر لاشين ومحمود طاهر حقى - وكلهم من أصل تركى - اهتمامات زائدة لواقع الحياة المصرية فى المدن والقرى . وكتب كل منهم قصصا تناول احوال الفلاحين فى الريف ، وتعرض ميل



ابن البلد في المدن للفكاهة والدعابة ، وتعلقه الزائد بالنكتة الساخرة ، وتمسكه بروح الشهامة التي تظهر في كثير من تصرفاته الانسانية ... كما برز من بين العناصر التركية قاسم امين على راس الداعين لقضية تحرير المرأة المصرية ورفع الحجاب حتى تستطيع ان تكون أكثر حركة وقدرة على الاسهام في تحرير الوطن وتقدم المجتمع المصرى .

ولكن كيف يمكن لهذه العناصر التركية التي تكاد تعيش في الواقع في شبه عزلة اجتماعية وتعودت على ان تتوقع داخل نطاق الاسر التركية وتبتعد بقدر ما تستطيع عن كل ما يحيطها من مشاكل يومية ان تفهم واقع الحياة المصرية في الصميم في الريف وفي المدينة ، وتعى ما يدور في خلجاتها الداخلية وهي لا تنتظر الى اهل الريف وسكان المدن الا من علو الفكر ؟ ان الحنين الوطن الاصلى لا ينمى من الوعى مهما طال الزمن .. وان اختفى من الوعى الظاهر فلا بد ان يكون كامنا في الوعى الباطن يؤثر في الفكر وفي الوجدان وفي التصرفات .

وليحيى حتى راي خاص يفسر به نجاح العناصر التركية في تناول الحياة المصرية في قصص ومسرحيات .. فزعم ان محمد تيمور وجد « ان المجتمع المصرى في المدن والريف قادر على ان يمد الكاتب بقصص فنى مما يشهد على ان نوعته الادبية مبعثها حب صادق لمصر واهلها وليس من الغريب كما يظن لاول وهلة ان الذى يغمز هذا الحب كله ويحمل لواء المناداة بالادب المصرى الصميم فنى لا تجرى في عروقه دماء مصرية بل دماؤه خليط من التركية والكردية والاغريقية . هذه ظاهرة طبيعية مألوفة عند الآخرين ، كما عندنا في ان العرق الحديث اشد العروق اهتزازا بحب الوطن الجديد وانتباه النضاله وجماله .. ولذلك نرى محمد تيمور ، ومن بعده محمود حريصين اشد الحرص على تأكيد خبرتها بعامة الشعب من الفلاحين وفقراء المدن . وليست العبرة ان يولد الكاتب في احضان هذه الطبقات بل في قدرته على الاحساس بها وفهمها بفضل حب وتجاوب روحى . » (١٢) ولكن يحيى حتى يعود ويتساءل « لا ادرى لماذا استشف في كتابات محمد تيمور - رغم خفة دمها وميلها للدعابة نفمة حزن دفين » (١٣) كأنه يريد ان يقول ان اثار مشاعر الغربة الاليمة رغم كل ذلك الحب لمصر وللمصريين قد اظهرها الوعى الباطن في تلك النفمة التي تئن بحزن دفين .. !!

الا ان تردد كثير من الافراد من بين العناصر التركية على اوروبا واحتكاكهم المستمر باوروبيين اتاح لهم فرص الاطلاع على الدراسات العلمية الغربية في الشؤون الاجتماعية والاتجاهات الاقتصادية والمذاهب السياسية التي تتصارع في مختلف مجالات الحياة الاوروبية .. وتكاد هذه الدراسات تتفق جميعا في ضرورة تحقيق نوع من العدالة الاجتماعية ومن المستوى الاقتصادى اللائق بكرامة الانسان ، ومن الحرية التي تساوى الكل في الحقوق والواجبات ..

(١٢) يعبى حتى : فجر القصة المصرية .. الكتبة الثقافية رقم ٦ - القاهرة .

(١٣) نفس المرجع السابق .

مما حدا ببعض الافراد من هذه العناصر الى الاهتمام بأحوال الفلاح المصرى وفقراء المدن ..  
ومما يثير الدهشة حقا هو الحال قوم من الارستقراط فى الدعوة لرفع مستوى حياة  
الفلاحين وعامة الفقراء . !! هل قامت هذه الدعوة تحت تأثير مشاعر من القلق لم ترتفع  
لاوضاع اجتماعية تقسو على اناس وتحرمهم من كثير من ضروريات الحياة وتهدر كرامة  
أدينتهم ؟ أم ترجع لمجرد بواهب انسانية صرفة بعثت فى النفوس الاحتكاك بالحياة الغريبة  
ويسند لها فكر متعال لا يقبل ان يكون أتباعه على هذا الوضع المهين المخجل .. ! ! ولكن  
كيف تحولت نظرة التعاطى الى مشاعر من العطف والرحمة والحنان . ؟ هل  
الاحساس بسوء معاملة الفلاح واستغلاله من قبل الحكام الاتراك وحاشيتهم حرك عقد اللذب  
وحملهم الشعور بالاثم مسئولية عما انتهى اليه الفلاح من حالات بؤس وشقاء وتخلف .. ؟ هل  
استيقظ فيهم الضمير الحضارى وحثهم الاحساس بالواجب على بذل أقصى ما يستطيعون  
بذلك من فكر من صيانة انسانية هذا الفلاح وتعويضه عما ضاع عليه من فرص الحياة الكريمة  
وتخليصه من الهوان الاجتماعى الذى يعانيه حتى يستطيع ان يرفع رأسه ويشعر بتمام  
المساواة مع جميع الناس .. ؟ ..

لا ريب فى ان الدعوة الى الإصلاح الاجتماعى لا تعدو وان تكون مجرد عملية تطهير ذاتية ،  
قصد بها ممارسة عمل فكرى نبيل يعطى نوعا من الامان الذاتى والاطمئنان الروحى ، تمنح  
من السيادة الفكرية والقيادة الانسانية والنفوذ المعنوى ما يعوض العناصر التركية عما فقدته  
من جاه سياسى وسلطان اقتصادى وزعامة عسكرية ، قد تحقق نوعا من الشعبية تعزز من  
صدق المشاعر الوطنية ، وتدعو الى مزيد من الالتصاق بعصر وشعب مصر ، يساعد على  
تحطيم دعائم العزلة الاجتماعية التى تحاصر الاسر التركية المصرية ، وتيسر اندماج افرادها  
فى شتى ثنايا المجتمع المصرى دون عقد ، وتقاوم كل ما يعترض الاندماج الكامل فى الحياة المصرية.

ولذا فان جيل الشباب من العناصر التركية فى أوائل القرن العشرين انشاء حركة مصطفى  
كامل الوطنية وثورة سنة ١٩١٩ الشعبية تعرض لهزات نفسية اوقعته فى ازيمات فكرية ،  
فاذا به يعانى مرارة حيرة الآباء بين الولاء للدولة العثمانية من جهة وتعلقهم بالقطر الذى ولدوا  
على أرضه ثم هاجروا منه من جهة ثانية ... بينما يعانون هم أنفسهم من تضارب العواطف  
وتناقض التصرفات ، ولا يدرون كيف يوفقون بين التعالى العالى على عامة المصريين وبين  
التواضع الاجتماعى فى المعاملات اليومية مع عامة الناس ، والتعاطف الفكرى والمشاركة  
الوجدانية التى تجارى المصريين فى تطاعاتهم وآلامهم . !! ولا يعرفون كيف يجمعون بين  
التمسك بالتقاليد التركية داخل البيت وبين مجازاة العادات المصرية خارج البيت ...  
ويتأملون كيف داخ الجميع من محاولات المرحبين الدعوة للوحدة الاسلامية التى تحت على  
تكتل الدول الاسلامية فى جانب تركيا ضد الاستعمار الاوروبى ، وبين ضرورة الارتباط  
بالوطنية المصرية التى تلزم جميع العناصر والطبقات بالتكتل من أجل مصر ضد أى تدخل  
أجنبى .

ولعل المحاولات التي بذلتها هذه العناصر من أجل التوفيق بين الحياة الخاصة للعائلات التركية داخل البيوت والحياة العامة في خضم المجتمع المصري خارج البيوت .. وكذلك

الجهود التي صرفت للمواءمة بين اتجاهات الشخصية المصرية ونزعات الشخصية التركية اكتسبت افراد الاسر المصرية التركية نوعا من المرونة النفسية ، رسبت خبرات وقدرات ومهارات تساعد على وضع الحلول الوسط ، وتحقيق ثبط من التوازن بين كثير من الاختلافات المتضاربة يرضى عنها الجميع رغم الصراعات التي بينهم . . . واذا بالظروف تكاد تلزمهم بان يلتزموا على الدوام بالمواقف الوسط في المنازعات السياسية التي غالبا ما تنشأ بين المصريين والانجليز حول الجلاء والحرية والاستقلال . . . ولذلك ارتاح لهم الانجليز ، واستغلوا وساطتهم في اخضاع المصريين لمطالبهم ، واطمان اليهم القصر السلطاني واعتمد عليهم في المفاوضات مع الانجليز ، بل قدر عامة الشعب وخاصته كذلك مجهوداتهم في تخفيف حدة التوترات السياسية . . . ولا تعجب اذا مالجا اليهم الجميع على اختلاف مواقفهم عندما تستبد بالبلاد الازمات السياسية . . . وأحيانا كانوا ينجحون في تخفيف حدة الشقاق وتجنب البلاد مخاطر التطرف في أي نزاع ، مما مكنهم من أن يلعبوا على الدوام دورا إيجابيا في تحقيق ضرب من الوحدة الوطنية تمتص خلافاً كل العناصر المتنافرة ، فترضى مواقفهم الوسط جميع الاطراف المتنازعة ، على اساس الاعتقاد بأن الوحدة الوطنية كفيلة بأن تعدي شتى العقبات ، وقادرة على ان توصل الى الامانى المنشودة ، وتخص بالذكر موقف عدلى يكن الذى حاول ان يوفق بين خداع الانجليز وتمسكهم بالبقاء ، وبين صراحة سعد زغلول ومواجهته للانجليز وتشبيته بتحقيق الطالب الوطنية في الجلاء والحرية والاستقلال . . . ورغم حسن نوايا عدلى يكن الوطنية ، ورغبته الاكيدة في تحقيق استقلال مصر فان محاولاته في لقاء الانجليز في منتصف الطريق ، واتباع سياسة الخطوة خطوة ، وتحقيق الاستقلال على مراحل أفسد عليه كل شيء وتعرض لمقاومة سعد زغلول الذى رفض في النهاية التعامل معه ، وأثار ضده غضب الشعب الذى اسقطه في الانتخابات وهو رئيس الوزراء فانسحب من الحياة العامة ويرجع كل ذلك الى ان جيل العناصر التركية في هذه الايام رغم قوة نزعاته الوطنية ما زال يعاني من ميول ارسنقراطية لم تعائش المشكلات الشعبية معاشة واقعية ، ولم تسمح له بالاندماج فيها اندماجا متكاملا ، وانما سمحت له بالندماج محدود يتأملها من علو الفكر دون ممارسة شاملة . . . ولذلك خلا هذا الفكر من يقين المعاشة ووضوح التجربة . . . بل عاش في استرخاء يحتل بعض المناصب القيادية والرئيسية لتعدد قدراته وكفاءاته وخبراته ، واستعداداته لتحمل شتى المسؤوليات ، وتفوقه في الثقافة من علم وفن وأدب يحدوه حماس متدفق يرمى النزعات الانسانية الإصلاحية ، دفعته للإشراف على الجمعيات الخيرية التي توزع المساعدة والعون لكل من يستطيع ان يصل اليها بطريق أو آخر أو لكل من نريد ان نصل اليه لسبب أو لآخر . . . وحثته كذلك على تنفيذ بعض المشروعات الاقتصادية التي لا تعود مكاسبها الا على فئات معينة دون بقية الفئات الأخرى . . . وتعتمد أكثر ما تعتمد في السيطرة على جوانب متعددة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على نقص الخبرات المصرية وضعف وعيها الحضاري من ناحية ، وانهاز فرصة

انحسار النفوذ الاجنبى تدريجيا بسبب المقاومة الوطنية لتتسرب بسرعة ، وتستولى على المواقع التى تركها الاجانب قبل ان ينتبه الى خطورتها المواطنون المصريون من ناحية اخرى .. وكل ذلك ينم عن ان هناك نوعا من الانانية كانت تتحكم في تصرفات العناصر التركية ، افقدتها القدرة على الرؤية عن بعد ، والتصور السليم ، لتطور المواقف المصرية الصميعة ، وقدرتها على مواجهة مختلف الصعاب واسترجاع شتى حقوقها المقتضية .

ولذلك كانت مفاجأة ثورة ٢٣ يولييه التى لم تصدم القوى العالمية والنفوذ الاجنبى وسلطان الاقطاع فقط ، وانما صدمت كذلك العناصر ذات الاصول التركية صدمة مباغتة ، جددت في نفوسهم كل ما كانت تثيره الثورة العربية من مخاوف ومواجه و تهديدات .. واذا بهم يرون احمد عرابى جديدا يعود في ثوب جمال عبد الناصر ، وما لم يستطع احمد عرابى تحقيقه في المجالات الداخلية استطاع جمال عبد الناصر ان يحققه فلقد اطاح بالنظام الملكى من اساسه ، وازال القصر ومن كان يدور في فلكه من امراء وحاشية واتباع دون تعييل بين مختلف العناصر ، سواء اكانت من اصلا ب تركية او مصرية صميعة او اجنبية ، دون نظر لخبراتها وامكانياتها الحضارية وسرعان ما الفيت الانقلاب انفخريه واخفى ما تثيره من حساسيات التعالى التى تباعد بين طبقات الشعب ، وضاع كل ما تحاط به من هبة مفتعلة واصبحت مقامات الجميع على قدم المساواة .. ولعل قوانين تحديد ملكية الاراضي الزراعية وتأميم الشركات والمصانع والمصارف وتأسيس القطاع العام كانت من اشد الضربات التى انزلتها الثورة الناصرية باقتصاديات الاسر ذات الاصول التركية وافقدتها كل ما اكتسبته على مر الاجيال من معيزات اجتماعية وسياسية واقتصادية ... ولا غرابة اذا ما اخذت المخاوف القديمة على المستقبل الآمن تعاود الاسرة المصرية التركية من جديد بعد ان عاشت آمنة مستقرة فترة طويلة ...

ولكن ما ان اطمأنت ثورة ٢٣ يولييه الى امكانية السير في الخط الاشتراكي دون معوقات خطيرة حتى اهتمت بتعزيز الخط الديمقراطي الذى ضحت به بعض الوقت من اجل تدعيم الاصول الاشتراكية في العقول والنفوس .. وما ان اطلقت الحريات في حدود القانون ، واعيدت الحقوق التى تحفظ عليها التحول الاشتراكي ، واستعانت بأهل الخبرة بعد ان شربوا من مناهل الاشتراكية ، حتى عم اقتناع عام بأهميتها في حل مشاكل الجماهير وازال كثيرا من القلق الذى راود البعض خوفا على المستقبل الآمن للابناء ، ويرد الشكوك التى حثت البعض على الهروب ، واخذ الفارون يرجعون تبالعا الى ارض الوطن وهم اكثر اطمئنانا ، لا ييخلون باسهامهم في حل مشاكل الجماهير .. وهكذا قبلت اخيرا العناصر التركية نمطا من الدوبان في المجتمع المصرى لم يسبق لها ان قبلته في اى عهد من العهود ... II

## - ٢ -

هذه صورة سريعة لتطورات الاسرة المصرية التركية من النواحي الفنية والاجتماعية والاقتصادية منذ الثورة العربية حتى الثورة الناصرية ... وفي معبرة هذه التطورات ولد يحيى حقي ونشأ وتربى وتعلم وتوظف ومارس الادب والفن وهو يعيش شتى محاولات

المواطنة بين الطبع التركي وتطلعاته في تحقيق المستقبل الآمن وبين اهتماماته بالاستقرار في مصر كإبنائها الأصليين ... وشاهد يحيى حقى كيف بدأت دعائم الوحدة الوطنية تتوطد بفضل جهاد مصطفى كامل وثورية سعد زغلول ... وثقف على أيدي أجيال اهتمت بتدعيم التقارب بين مختلف جماعات الشعب المصري ، رغم اختلافاتها العنصرية والطبقية والاجتماعية والاقتصادية والدينية . . . وتقلب بين جنبات الطبقة الوسطى الحديثة التكوين من جماع المثقفين والإعيان من شتى الفئات ، وسأيرها وهي تناضل من أجل تحقيق نوع من التناسق بين اتجاهات الحياة المصرية الحديثة وتأسيس وحدة وطنية مصرية تصرف جهودها نحو بناء مصر العصرية . .

فمنذ البداية شب يحيى حقى في حى شعبي ، وأحب ابن البلد ولفته العامة المميزة . . ولكن على قدر ما أحب الحى الشعبى وابن البلد كره المدرسة المصرية والمدرسين المصريين . . إذ ما أن بلغ السن الذى يسمح له بتلقى العلم حتى بدأ تعليمه في كتاب السيدة زينب . . ثم التحق بمدرسة ابتدائية مجانية لا يدخلها عادة إلا أولاد الفقراء عانى فيها من قسوة ضرب عصا المدرسين ما جعل الدنيا تظلم في عينيه يجبر نفسه أجبارا ويعذبها عذابا شديدا حتى تقوى على حشر دماغه بمعلومات لا يكاد يفهم منها شيئا ولا يدري لماذا يتعلمها ، وذلك لكي لا يتكرر رسوبه كما حدث في السنة الأولى الابتدائية ، ويطلق سراحه من جحيم المدرسة الابتدائية ويرضى أمه التي تفضب وتتحسر على خيبة أملها في أولادها إذا ما رسب أحدهم (١٤) . . وظن أنه قد يجد تعليما أفضل في المدرسة الثانوية ، إلا أنه عانى فيها حرمانا في تربية الخلق ، وتأذلا في انماء الشخصية ، وتقصيرا في الكشف عن المواهب والاستعدادات والقدرات تكتفى بحشو الرأس بالقشور وبالعلم النظري دون أن تعتنى بالدراسات العقلية والتجارب العملية . . تخلو الكتب الدراسية ومناهج التعليم من كل ما يتصل بالموسيقى من قريب أو بعيد رغم أنها غذاء الروح . وتخلو أيضا من الفنون وهي مهذبة للحس والدوق ومن التربية الدينية السليمة ، ويقتصر التعليم الديني على استظهار بعض الآيات القرآنية . . . إلا أن يحيى حقى عوض كثيرا مما حرم منه في المدرسة المصرية بما تلقاه من مدرسة الأم التركية . . إذ كانت على قدر من الثقافة الأدبية والدينية ، تعطي اهتماما بالاحتفالات الدينية والأعياد الإسلامية خاصة مواعيد النبي الشريف . . . ولذلك فإن أول هزة روحية خبرها يحيى حقى في حياته كانت إيام الطفولة أثناء حفلة المولد النبوي الشريف ، التي كانت تهتم الأم بإقامتها بالبيت في مياعدها من كل عام ، كما عودته منذ الصغر على زيارة المساجد ، خاصة تلك المساجد التي تقام بها الموالد . ولذلك عشق حضورا احتفالات مولد سيدنا الحسين ليمتتع برؤية ما يستعرض فيها من مشاهد السيرك من ألعاب الحيوانات ومن تمثيليات بسيطة ومن الأغاني الدينية . . (١٥)

(١٤) يحيى حقى : حليها على الله .

(١٥) يحيى حقى : دعمة فابتسامة .

وما كاد يحصل يحيى حقى على شهادة الكفاءة حتى وقع في حيرة . اذ كان عليه ان يختار بين القسم العلمى والقسم الادبى .. لقد كان يتمنى في صباه ان يكون طبيباً لان الطب مهنة حرة تهتم بدراسة جسم الانسان ، وتكشف عن اسباب علله وامراضه ، فكان عليه ان يختار القسم العلمى ولكنه فضل القسم الادبى خشية ان يرسب سنة او اكثر من ناحية ، وان يحمل الاسرة مزيداً من الاعباء والمصروفات من ناحية اخرى .. فما كاد يحصل على شهادة البكالوريا عام ١٩٢١ حتى التحق بمدرسة الحقوق العليا التي كانت تمثل قمة التعليم العالى في ذلك الوقت ، ولا يدخلها الا المحظوظون من الاوائل ، ولذلك اعتبر التحاقه بمدرسة الحقوق شرفاً عظيماً لا يناله من يدخل مدرسة التجارة العليا او مدرسة المعلمين العليا .. الا انه لم يجد في اساليب الدراسة في مدرسة الحقوق ما يجعلها تفضل عن المدرسة الابتدائية او المدرسة الثانوية ... لقد افتقد فيها علاقات التراحم والانصاف والمساواة بين الاساتذة والطلبة ، ورأى حدة الصراع بين الاساتذة القدامى والاستاذة الجدد . ومع ان منصب الاستاذ لا يعلوه منصب آخر فان اغلب الاساتذة اقرب الى التجار الجشعين وابعد ما يكونون عن حملة العلم .. ووجد الطلبة في زحمة الامتحانات في سباق مروع من اجل الظفر بالاولوية دون مرشد يدلهم على احسن المراجع وادقها . في حين يجامل بعض الاساتذة ابناء الوزراء وكبار موظفي الحقانية التي تتبعها مدرسة الحقوق .. ويسرقون وقت الطلبة بالعبث والمماحكة حتى اصبح التعليم « كسلق البيض » ومجرد حشو الدماغ ، حتى يكاد ينفجر بالتفاصيل والقشور دون ان يتاح لطالب واحد فرصة ليقف ويتكلم امام جمع من الناس وهو حاضر الذهن مالكا لشخصيته واعصابه ، حتى لا يمارس المحاماة الا وهو مدرب على صنعة الكلام وحسن الخطابة بعد معرفة القانون واجراءاته .. (١٦)

وهكذا كان مجتمع مدرسة الحقوق صورة مصغرة من المجتمع المصرى ككل شاهديه يحيى حقى صراعات غير مفهومة بين الاساتذة المصريين على الربح والمنصب ، ومنازعات بين الاساتذة الانجيز والفرنسيين من اجل توجيه الدراسة في المجالات التي تراضى مصالح بلادهم ، وتنافس بين الطلبة على الاولوية عن طريق التفوق في الامتحانات او الوساطة والمحاباة والمجاملة .. ولقد اکتوى يحيى حقى بنار هذه الصراعات والمنازعات والتنافس التي كانت تثير في داخله تيارات مريرة من القلق والشك وعدم الاطمئنان ...

وانتهت مرحلة الدراسة بمدرسة الحقوق العليا بنجاحه في امتحان الليسانس عام ١٩٢٥ وجاء ترتيبه الرابع عشر ... فبعد ان كان قبل ظهور النتيجة يتمنى فقط مجرد النجاح ولو جاء اسمه في ذيل قائمة الناجحين حتى لا يقضبامه او يجرحها مقبة خيبة الامل . وحتى لا تنمى ضياع جهادها من اجل اولادها او تندب سوء حظها معهم . فاذا به يتطلع ان يكون من بين الاربعة الاوائل الذين سترسلهم مدرسة الحقوق في بعثات الى جامعات أوروبا لاعادهم لشغل

مناصب الاساتذة تدعى بحركة تمصير مدرسة الحقوق ، واحلال الاساتذة المصريين مكان الاساتذة الاجانب من انجليز وفرنسيين ... وأخذت تراود يحيى حتى آمال تؤكد لها تجربته في المدارس المصرية ، وأشعرته بأن لا مجال للتثقيف الحقيقي الا في الخارج ولا فرصة له في اقان لغة اجنبية الا بالسفر الى بلادها حيث تتوفر مناسبات لمشاهدة ضروب من الفن الرفيع على مسارح الباليه والأوبرا والكونسيرت... وكم آلمه أن يرسل في الكشف الطبى ويخرج من دائرة المرشحين الاصليين وينزل الى مرتبة المرشح الاحتياطي .. وتحسر على ضياع فرصة كان يأمل أن تعوضه عن كل ما افتقده في المدارس المصرية ، وينعم بالجو العلمى الصحيح ، ويعيش في اجواء ثقافية تنمى عقله وترهف حسه وتندب ذوقه وتسمح له بالتمتع بمختلف ضروب الفن الرفيع ...

ولم يكن هناك بد من أن يقف يحيى حتى في طابور الطالبين للوظيفة . مثله في ذلك مثل جميع أفراد أسرته الذين لا يوجد احد منهم من تجرأ واشتغل بالهن الحرة ... وأصبح امله ان يعينه ترتيبه المتقدم للحصول على وظيفة في قلم قضايا الحكومة .. وحيث انه كان يعلم ان وظائف النيابة المختلطة كانت وقفا على اولاد الدوات وعلى من يجيد الحديث باللغة الفرنسية اضطر ان يقدم طلبا للنيابة الاهلية ، فوضع تحت التميرين في مكتب نيابة الخليفة لقربه من سكنه .. وبدا عملا اصدق وصف له هو « صبي وكيل نيابة » كل مهمته ان يجلس بجوار وكيل النيابة ويراقبه .. قد يسمح له بقراءة محضر التحقيق وإبداء الراى فيه شفويا .. ولكن لا يحصل مسئولية تولى التحقيق ذاته أو ابداء الراى فيه كتابة . ولم يجد من يحاسبه على الحضور والانصراف فلم يرتجح لمثل هذا العمل ، وشغل نفسه في الفترة ببعض الدراسات القانونية من الاحداث والقائم بعض المحاضرات عنها .. كان يطعم من طريقها ان يتولى وظيفة تسمح له بالاشراف على ملاجئ الاحداث ومواصلة ابحاثه في كل ما يتعلق بمشاكل الحدث . ولكنه وجد السبل مسدودة لمثل هذه الوظيفة . فحاول أن يجرب حظه في الحمامة وهى عمل حر غريب عن أسرته يتطلب اتصالات متشعبة بمختلف فئات المجتمع .. بينما أسرته قليلة العدد منطوية على نفسها في شبه عزلة اجتماعية .. كل رجالها موظفون ، ليس لهم معاملات مع الناس تدعو الى الدخول في خلافات مدنية أو منازعات جنائية أو حتى مشاحنات عائلية تستدعى خصومات شرعية . فلم يجد يحيى حتى من يسنده في القاهرة ، وهى بلد كبير يحتاج فيه المحامى الناشئ الى اتصالات ومعارف واصدقاء لكي يستطيع ان يجد لنفسه مكانا بين كبار المحامين الذين يسيطرون على مختلف القضايا .. (١٧) فاذا به يركب الصعب ويقبل الذهب الى الاسكندرية وينزل ضيفا عند خال له يعمل بالجمارك ليمارس الحمامة في بلد تكاد تخلو من كبار المحامين الاهليين ، ويكثر بها المحامون الاجانب الذين يسيطرون على سوق محكمة الاستئناف المختلطة . فاشتغل أول الامر في مكتب محامى يهودى وجد فيه كثيرا من مظاهر التقدم الثقافى ومن علامات الرقى الحضارى .. ولكن سرعان ما تركه عندما لم يف المحامى



اليهودى بوعده ويدفع له المكافأة في أول الشهر .. واشتغل في مكتب محام مصرى وعده بمكافأة شهرية أكبر .. ويبدو أنه لم يجد الأمان كذلك عند المحامى المصرى وإذا به ينتقل الى دمنهور وينزل عند احد انسبائه البعيدين ويعمل في مكتب محاماة أتابه صاحب المكتب في تولى امر الدفاع في بعض القضايا الصغيرة .. دعتة الى التنقل بين مراكز دمنهور لحضور جلسات محاكمها .. وفي دمنهور تعرف على طباع اهالى البحيرة من خلال خلافتهم التى تعرضها أمامه ملفات القضايا التى وكلت اليه دون ان يخالط الاهالى مخالطة تعرفه بهم عن معاناة وتجربة .. الا انه نزع من قضايا النصب وما تنطوى عليه من غفلة وبراءة متناهية ، ومن لؤم وخسة ودناءة وطمع وجشع من ناحية أخرى .. وتعجب من كثرة ضحايا الخلافات بين الرجل والمرأة ، وما تدعو اليه من خيانات تمس العفة والشرف حتى احس بأن الامانة في هذه الدنيا امر مستحيل .. وليته وجد أي نوع من الراحة وهو يبذل أقصى ما يستطيع من جهد لاثبات الحق ودفع الظلم عن موكله ، ولكنه تعرض لخداع سماسرة القضايا الذين يعملون كوسطاء بين المحامين والمتقاضين .. كما لم يرتح الى كفالة العدالة بسبب العجلة التى تدار بها جلسات المحكمة وسرعه اصدار الاحكام .. فساعد كل ذلك على ظهور عقدة التركى في مصر التى افقدته الاحساس بالامن والاستقرار ، واغرقتة في مشاعر الغربة والخوف من المستقبل . فلم يستطع مقاومة ضغط التخويف العالمى من مغبة الاستمرار في عمل حر غير مضمون الجانب ، خاصة بعد وفاة والده في ١٠/٢٦/١٩٢٦ . وقلق أهله بعد مرور ثمانية شهور على اشتغاله بالمحاماة .. دون فائدة تذكر فوجد نفسه في النهاية يسلم لاساليب الاتراك في الوساطة والشفاعة لنيل وظيفة ، وان كانت أقل كرامة مما كان يتمنى .. واذا به يقول : « تعرضت لضغط شديد .. خفت فيه أشد الخوف من المستقبل المجهول .. من أجل ان ارضى بوظيفة في الحكومة ... لم يجدوا لي بعد الوساطات والشفاعات الا وظيفة معاون ادارة ... ان هذه الوظيفة أقل كرامة من وظيفة النيابة .. فلم اقبل لمنصب الا صاغرا مستسلما » ( ١٨ ) .

ولكن ما ان علم انه عين معاون ادارة بمنفلوط حتى احس بان سفره الى مقر عمله هذه المرة لا يماثل سفرياته الى الاسكندرية ودمنهور حيث نزل عند الاقارب .. واذا به يتهيب السفر الى الصعيد ، ويتوهم أنه مهاجر يقيم منفردا في بلد غريب بعيدا عن الاهل ، ويتوجس خيفة من انقطاع صلتة بعائلته ، ويضطر ان يعيش وحيدا في بلاد تنتشر فيها جرائم القتل والاخذ بالثأر ، محرومة من وسائل التقدم الحضاري من ماء نقي ونور كهربائي ومجاري .. تزحف فيها العقارب في كل مكان .. كلها حياة خشنه صارمة لا تعرف الزينة ولا تجيز دلع القاهري في طعامه وملبسه ونكاته ونزهاته .. ليلا سجان له يد سوداء تفلق الابواب عند غروب الشمس على الانسان والحيوان ... فاحل يحيى حتى يردد اقوالا لا تخلو من رعشة « لا استطيع ان اتبين شعوري حين علمت انني مهاجر لاقيم منفردا بالصعيد .. هل هو تهيب من المجهول .. أو هو خوف من

الانقطاع والوحدة .. ؟ لم يسبق لي قط ان سافرت للصعيد او خالطت اهله .. صورته المنطبعة في ذهني رسمتها لي اقاويل تقاربتهاويل الاشاعات عن جرائم القتل والاخذ بالثأر .. » ( ١٩ ) ومع ذلك سافر يحيى حقي الى منفلوط وتسلم عمله كمعاون ادارة في اول يناير سنة ١٩٢٧ . تحدوه مشاعر « بسعادة الانطلاق .. الى عالم غامض احسن بسحره وعطره .. كنت اشتاق اليه من قديم .. وادرك ان مصريتي ومجيتي لبلدي لا تتمان الا اذا اغتسلت في حوضه » . ( ٢٠ )

لا جدال في ان الشيء الجديد على حياة يحيى حقي في منفلوط هو معشيته وحيدا بعيدا عن الاسرة ، دون تدخل من والدته التي يبدو انها كانت ذات شخصية مهيمنة يعمل لها الجميع الف حساب ... ولقد سكن بمفرده لاول مرة ، اذ لم يكن هناك اقارب ينزل عندهم كما كان الحال في الاسكندرية ودمهور .. يدخل البيت ويخرج منه بلا رقيب ، لا يحاسبه احد وقت الخروج ولا يجد من يسأله متى عاد .. اذ كانت والداته تحرص على ان تتم على اولادها جميعا قبل ان تنام ، ولا ياتي لها نوم الا بعد ان يدخل كل منهم فراشه .. وكل هذه الحرية اتاحت له الفرصة الكاملة لكي يتخلص من تأثير كثير من تقاليد اسرته التركية ، ويقترب اكثر فاكث من صميم الحياة المصرية بعيدا عن كل التدخلات الخارجية .. يعيش في معمعة المجتمع المصري صباح مساء ، تحيط به مختلف مظاهر الحياة المصرية من كل جانب .. يستعين باهل منفلوط ويعتمد عليهم كل الاعتماد في مواجهة شتى الحاجات اليومية الضرورية ... وان ظروف عمله كمعاون ادارة حصرته اتصالاته بالفلاحين الى حد كبير ودفعته لمعرفة طباعهم وعاداتهم في مواقعها الاصلية .. بينما التنقل بين المراكز والقرى لتلبية الواجب الوظيفي جعله يشاهد عن قرب الطبيعة المصرية ويتصل بها اتصالا مباشرا حين يخترق الحقول ويتأمل النباتات ويراقب الحيوان .

وبذلك تكون اقامة يحيى حقي منفردا في منفلوط مدة عامين لمباشرة مهام عمله قد ادت الى احتكاكه الفعال بالانسان المصري والمجتمع المصري والطبيعة المصرية ، مما ساعد على تنمية شخصيته المصرية في ظروف لا تسمح بتسرب نفوذ التقاليد التركية ونزعاتها ، وتدعو الى تغليب التقاليد المصرية وتعميق نزعاتها في مختلف تصرفاته .. واذا بالحياة الجديدة تستغرق كل وعيه واهتماماته ، ولا تكاد تفلت منه لحظة من لحاحات الريف في الصعيد .. فانتبه الى انماط من الانسان الساذج المتخلف .. روعه الدجال الذي يتظاهر بالتقوى ويلبس العمامة الخضراء ليستقل بساطة الفلاحين .. ويبعث الرهبة في قلوبهم ويسلبهم اموالهم ويستدرج نساءهم ... وشغله المحتال الذي يلجأ الى كشف الطالع وادعاء القدرة على شفاء الامراض المستعصية .. فهاله ان ينهزم العقل امام الدجل والاحتيال الذي يوهم بإمكانية الكشف عن كنوز مختفية واظهار القائب البعيد ... ويهزه نفوذ رجال الدين على الفلاحين .. ليس فقط في

(١٩) نلس الرجع السابق .

(٢٠) الرجع السابق .

حلقات الذكر وصلوات الجماعة بل على الخصوص في فض الحرايات وإبطال الأخذ بالثار ، والتقريب بين القلوب وتطهيرها وتقديم النصائح الأخوية التي تمنع الجرائم وتحض على مصالححة المتخاصمين ورد المطلقين ، والسماح بتأجيل سداد الديون .. ولقد أدهشه كيف يعم السلام في اقربة طوال اقامة الشيخ بين ربوعها ينتقل من ضيافة الى ضيافة اسابيع وشهورا ، وكيف يتوجس الاهالي خيفة اذا ما عزم على ترك قريتهم لينوجه الى قرية اخرى .. !! الا انه يلحظ ان قوة هؤلاء الشيوخ لا تتناسب مع ثقافتهم وشخصياتهم بأنه لا يوجد عندهم علم يهر ولا قوة روحية خارقة ، وان ولايتهم ليست الامجرد مهنة متوارثة لكسب العيش بطريق شريف يفيد الاهالي ، ويقوم بدور فعال في تطهير المجتمع من كثير من الشوائب الخلقية والاجتماعية .. !! ولذلك كانت العلاقة بين هؤلاء الشيوخ والفلاحين علاقة مثالية تتسم بالنبل ، ليس فيها استغلال أو خداع بل فيها تبادل المحبة والاحترام والثقة والرغبة في تعميم الخير ونشر السعادة والامان والاطمئنان بين الجميع . وذلك بخلاف العلاقة السائدة بين الفلاحين وموظفي الحكومة الذين استقروا في بلادهم ليقدموا لهم مختلف الخدمات ...

لقد كانت علاقة الموظفين بالفلاحين تفتقر على الدوام الى الثقة المتبادلة ، مما دعا يحيى حتى لان يشعر بالاسى والاسف لوجود « هوة كبيرة بين الفلاح والحكومة » ولذلك فان « معظم اشغال الحكومة ، رغم حسن نيتها ، يساء فهمها .. وتعزل وتهدم .. » (٢١) وحاول يحيى حتى بكل قواه ان يستلين الفلاح حتى يثق به كموظف حكومي فلم يفلح .. !! اذ اصبح في ذهن الفلاح اعتقاد راسخ بان الحكومة لاتفهمه .. هو في واد وموظفو الحكومة في واد .. ينظر الى هؤلاء الموظفين على انهم اغراب اجراء ، لا يفهم الا قبض مرتباتهم ، وقلوبهم ليست معه .. حتى دب في قلب الفلاح ريبة متأصلة من الغراء ، وريبة أشد اذا كان الغريب من طبقة الافندية الموظفين ، الذين يعتقدون انه راقد على كنز ، وان خيرات ارضه موفورة ينبغي أن يكون لهم نصيب فيها .. فلا تعجب اذا ما اخذ الفلاح حذرته حتى لا يظهر عليه دلائل النعمة فلا يطمع فيه « الشباحون » من الموظفين الذين يتوهمون أن تقدير مهابة وظيفتهم تقاس بما يلقونه من اكرام ، ويقدم اليهم من مأكولات حين ينزلون على الفلاحين لظروف العمل ويضطر العمدة لاستضافتهم ... الا ان « فراغة عين الموظف » ليست السبب الوحيد لعدم ثقة الفلاح فيه .. انما لاهتزاز صورته كذلك امام عينيه ، ما ينشعب بين الموظفين من خلافات وخصومات تصل الى حد العداء السافر وكتابة المرائض الكيدية ، فكيف تؤمن جانبه .. ؟ فقد يلقى الفلاح الموظف الجديد بالترحاب عند قدومه لأول مرة ، ويقبل ان يدخل معه في علاقات طاملا انها تعود عليه بالفائدة .. لانه يعلم ان هذا الموظف لم يأت اليهم « حبا في سواد عيونهم » بل تلبية لواجب مفروض عليه ربما يراه كريها فاذا ما فرغ منه يسرع فيولي ظهره وينفض يديه منهم ... ومن خلال هذه المشاعر كانت تعرفات الفلاح تلذبا بين عواطف الوفاء وتكران الجميل

... وبين التودد والنفاق .. مما جعل الموظف بالتالي ، يشعر بان الفلاح رجل لا يوثق به ، عنيد لا يتحول عن طبيعته، وان معاملته بالبلين والانسانية عبث ضائع .. ولكن عدم الثقة المتبادلة وريبة كل منهما في الآخر تفسد كثيرا من مشروعات الحكومة ، خصوصا تلك المشروعات التي لا تراعى احوال الفلاح المصري الاجتماعية والثقافية وسم يسبقها اعداد الموظف المناسب لحياة الريف المصري ... !!

وفقد الثقة بين الفلاح والموظف ليست المظهر القبيح الوحيد في ريف الصعيد .. فان هناك مشاهد اخرى اشد قبحا تستلقت النظر وتدعو الى التأمل .. فان الفلاح المصري الذى لا يثق فى الموظف يتعرض يوميا لضروب مختلفة من الضغط فى شتى مجالات حياته العادية : يستغله الموظفون من اكبرهم لاصغرهم .. فان المأمور يفرض نفسه على العمدة لكى يعد له وجبة فاخرة اذا ما نزل عليه لسبب من الاسباب يستدعى البقاء فى بلدته مدة طويلة ... فيضطر العمدة ان يستولى على دجاجة فلاحه فقيرة لكى يقدم للمأمور الوجبة الشهية التى ينتظرها، ويرضيه على حساب « فلاحه غلبانة » فى اشد الحاجة الى العون والمساعدة .. بينما يعامل الطبيب الفلاحين بأساليب تخلو من الانسانية ، وتتسم بالاستعلاء والغلظة والاستقلال .. . فطبيب القرية لا يتورع عن تشريح جثة قتيل فى عقر داره أمام أهله ، ولا يبالي بحرمة الميت ولا يحترم مشاعر الجاهل ويقطع فى جثة الغريق على الجسر أمام المارة ... ولا يستنكف من ان يسخر من شباب القرية وهو يكشف عليهم عرايا بوقاحة يوم فرز القرعة ... فلو كان يفحص كلبا جريا لكانت يده احن عليه من على هؤلاء الفلاحين ... يعيش فى قصر جميل ، معتزلا القرية ، كانه اقامه وسط فاية واحاطه بالمتاريس، ولا يتسع الا له ولاسرته ويخرج منه يوميسا للادغال لصيد الوحوش ثم يعود ليتمتع دون بقية أهل القرية بكل مزايا المدنية المادية والمعنوية. ... يحيا فى قصر بسوده السلام والدعة والركة والنظافة والابهة والرفاهية ولا يمكن ان يتصور ان هذا الطبيب المهذب النبيل داخل بيته هو نفسه الذى يعامل الفلاحين بغلظة وقحّة لا اخلاقية ... فيشترط دفع الاجر قبل تقديم العلاج المطلوب أو قبل اجراء عملية ، لا هم له الا الاتراء العاجل بأى ثمن بالطرق المشروعة او غير المشروعة على حد سواء دون تمييز بين الخير والشر او الحق والباطل « (٢٢) . هذا فضلا عن ان الفلاح كثيرا ما يتعرض لغلظة العمدة بل وظلمه واستغلاله احيانا لتحقيق مارب شخصية ، او ليظهر مدى سطوته على الفلاحين حتى يرضى عنه الحكام ... فيعيش الفلاح بين مطرقة العمدة وسندان شيخ البلد ، يحاول ان يكسب ود الطرفين المتنافسين دون جدوى .. فلا تعجب اذا ما سرت الغلظة والقسوة فى مختلف نواحي الحياة فى ريف الصعيد فلانكاد نموت زوجة الفلاح حتى يتزوج باخرى مهما كان عدد اولاده ومهما بلغ من الكبر . وسرعان ما يتآمر الاولاد على الاب ويقتلونه . واذا ما فرطت بنت فى عرضها فلا يتردد اى فرد من افراد العائلة عن قتلها حفاظا على الشرف

.. ولا سبيل لحل الخلافات على حدود الأرض ويرى الغيطان سوى تبادل إطلاق النار وسقوط الضحايا من هنا وهناك ، صونا لكرامة ودفاعا عن حرمة الأرض ... بل ان الفلاح منذ ولادته محروم من حياة الطفولة يقاسي منذ الصغرى وبيلات العمل في الحقول ، وسرعان ما يصاب بأمراض البهارسيا والملاريا التي ترهق بدنه وتقتال حيويته وتسرع به الى شيخوخة عاجزة ، في حين لا تعرف الفلاحة الرافة ، فماتكاد تتزوج حتى تنجب ، ولا تمنعها كثرة الخلفة ومتاعب الواجبات المنزلية أمام الفرن وتقريص الجلدة من مشاركة زوجها في القبط .. وهكذا تستمر في عمل يومي شاق دون توقف منذ الصبا الى الشيخوخة حتى يصعب التمييز بين الشابة والمعجوز من نساء القرية « فليس في قبضة الفقر والشقاء الا عمر واحد » . ( ٢٣ )

يجد الفلاح نفسه مضطرا لان يهتم بحيواناته الى درجة تفوق اهتماماته بأولاده وزوجه .. فاذا ماتت الجاموسة ذرف عليها الدموع ، ولطمت النساء الخدود ، واقيمت مناحة كبيرة يتقبل فيها الغزاة من الاهل والجيران .. ولذلك فليس هناك أشد قسوة في الانتقام من دس السم للبقر والجاموس .. وان الترف الوحيد الذي يعرفه فلاح الصعيد الحافي القدمين المرتدى الجلباب الازرق البالي هو القتل عند الاخذ بالثأر . ( ٢٤ ) بينما تكاد تخلو حياة الفلاح الخاصة من اللهو والمرح ، ولا يسرى عنه الا نزول السيرك الى مولد السيد عبد الرحيم القناني .. فيتسابق الفلاحون الوافدون من جميع انحاء المركز على مشاهدة الالعاب البهلوانية وعروض التمثيل ومشاهد الفناء والرقص في نشوة ما بعدها نشوة لا تتكرر الا نادرا .. الا ان الفلاح لا يعرف شيئا عن بهجة الانثى حتى ان الفواني - وهن فلائل - يرقصن في لباس يغطي اجسادهن الى الكمين في بيوت من القش والطين .. ومع ذلك فان الحياة الجنسية تلعب دورا هاما في تحريك الحياة في الصعيد وتثير متناقضاتها الاهتمام .. !! اذ كيف تصبح الست ظريفة - التي كانت في شبابه غانية من الفواني - ولية من وليات الله وبشيد اها مقام يزور ويتبرك به .. بسبب ما اظهرته من كرم وتوبة وتبتل في اواخر حياتها .. ومع ان التقاليد لا تعطي للمرأة التي تفرط في عرضها فرصة للتوبة وتقتص بها فوراً بالاعدام .. كما انها سمحت بوجود نقطة للدعارة الرسمية .. فلم يعترض احد من الاهالي على احتراف الفحشاء أو يتحمس لاجبار المومسات على مغادرة البلاد .. بل لم يتأفف فرد منهم من سوق الشرطة لهن لاستقبال قطار الرحلة الملكية واطلاق الزغاريد التي يمتنع احرار نساء الصعيد عن اطلاقها علنا .. ! وكذلك يعرف العمدة وشيخ البلد كل امرأة تمارس الجنس سرا ولا يحاول احدهما ان يمنع واحدة من باضات الهوى عن التردد على بيوت الافندية في الاماكن النائية في الخفاء تحت ستار الليل .. بل لا يتورع العمدة او شيخ البلد عن أن يدفع بامرأة بحراوية بعد ان يأخذ مأربه منها ليظهر بها الموظفين الذين يتفوزون من قذارة المومسات الرسميات اللاتي يكشف عليهن كسفاطيا شكلها وان كان دووبا ..

(٢٣) يحيى حقي : ام العواجز : قصة ازالة دبعة . الكتاب الذهبي العدد ٢٩ السطس ١٩٥٥ . القاهرة .

(٢٤) نفس المرجع السابق .

بهدف إبعاد خطر استهواء الشباب من الموظفين لبنات القرية ونسائها .. حتى لا يتعرضن لمصرع اليم .. مع أن الرعب من القتل يكاد يحد من انحراف النساء الصعديات .. فإذا ما طاش سلوك واحدة منهن غالباً ما تكون من نوعية معينة: كان تكون ابنة تاجر ثرى مشغول بتجارته .. في حياته يسر ، يتمتع بقسط من التحرر يخفف من شدة الرقابة . (٢٥) أو تكون بنت مدارس دخلت في علاقات اجتماعية لم تنشأ عليها .. أو تكون من أسرة مسيحية يلتحق بناتها بمدارس التبشير التى تسمح بنوع من الاختلاط مع الجنس الآخر (٢٦) وفي جميع هذه الاحوال تنتهى حياة البنت التى لا تحرص على شرفها لسبب أو لآخر وان كل ما ينسب الى الصعيد من انحرافات جنسية ينصب في الغالب على نساء بحراويات اتين من خارج الصعيد (٢٧) أو الى الفوانى اللاتى ينشان على حياة حرة طليقة لا تحافظ على حرمة الجنس وصيانة العرض ، ومستعدة لأن تبذل كل شيء في سبيل المصلحة والنفع والمادة (٢٨) .. وهكذا اهتم يحيى حتى بأن يعرض مناقشات القيم الجنسية في الصعيد ويبين كيف أنه يحق للرجل الصعيدى أن يمارس الجنس في حرة مطلقة دون قيد اخلاقى أو شرط دينى ، ولا يلام اذا ما اشبع نزواته الجنسية بأساليب داعرة رغم تعدد زوجاته . ولا يشعر بالعار اذا ما رأى الدعارة تطوف من حوله ، ولا يجد داعياً لأن يحرك ساكناً طالما انها لا تمس أهله ، بخلاف اذا ما سمحت امرأة من الصعيد لنفسها بممارسة الجنس في غير النطاق الذى وضعه الشرع وتسير عليه التقاليد فانها تلقى مصرها من غير تردد أو تفاض .. ! !



الا أن ريف الصعيد ليس كله قبحاً فان الطبيعة وهبته من الجمال الشيء الكثير ، ما اجبر يحيى حتى على ان يصف روعة تدفق مياه الفيضان مع احتفال الفلاحين بوفاء النيل ، ويعرض مناظر حقول القطن والبرسيم في لوحات خلابة ، ويتأمل حيوانات الفيط عن قرب ، خاصة الحمار الذى زامله مدة اقامته بمنقلاوط ، ويحاول أن يستشف كنه كل حيوان من خلال عينيه « للبقرة عين غارقة في أحلام لذيذة .. للجمال عين ترقب الدنيا من عل بتوجس وغضب مكتوم ، كأنما يخشى أن تلحق بكبريائه اهانة على يد حقراء .. وللحصان عين تنم عن الخيلاء والنبيل والذكاء تعكس الضوء بالليل فتتقد كالياقوتة الحرة .. وللتيس عين فيها العناد كله ، وحتما الخبث والمؤامرات .. وللجاموسة عين متطفئة لا تنبعث منها حياة أو ارادة الا وهي ترضع طفلها فينمقد سباتها على الحنان .. اما الحمار فان عينيه ذليلة حزينة تكاد تترقرق فيها الدموع ، بل يخيل

(٢٥) نفس المرجع السابق .

(٢٦) يحيى حقي : دماء وطن : قصة البوسطجي .. مجموعة اقرا . دار المعارف . العدد ١٥٢ . عام ١٩٥٥ . القاهرة .

(٢٧) يحيى حقي : دماء وطن : قصة « ابو فودة » .

(٢٨) يحيى حقي : دماء وطن : قصة : قصة في سجن .

الى في بعض الاحيان انها معبسة كعيون الاطفال بعد بكاء .. اهلا هو سر نهيفه .. ليس في صوت حيوان آخر مثل هذه الحرقلة والتفجع والمرارة ، انها صرخة عذاب واستغاثة واشهاد الناس في نوبة منفجرة من بكاء بلا دموع تمزق الهواء ثم تذوب كأنها لم تكن .. (٢٩)

لا شك في أن الفترة التي قضاها يحيى حتى في ريف الصعيد - رغم قصرها اذ لم تتجاوز العامين - قد عمقت مصريته الى ابعاد ما كان يستطيع أن يصل اليها لو بقي في القاهرة بصفة مستمرة ولم يتركها الى الصعيد .. فلقد يمرت عليه فهم كثير من اتجاهات الحياة المصرية ونجح في تصويرها تصويرا واقعيا صادقا في كتابه «**خليها على الله**» .. والهمته بأروع قصصه الاولى في «**دماء وطن**» و «**أم العواجز**» كانت صدى لتجارب حية ظلت تتفاعل في داخله وتوحى اليه بعواطف ومشاعر وأفكار وحكمة وموعظة وصور وخيالات ، شغلت وجدانه وحركت عقله لمدة طويلة حتى وهو بعيد عن أرض مصر متنقلين بلدان أوروبا .. وعلقت قلبه بالفلاح المصري رغم قداره ملابسه وبيته وضالة طموحه وسرعة وقوعه في الجريمة والانحراف .. فسخر منه القصصى ليكشف عن اسرار طبيعة شخصيته ، ويدعو الى النهوض به نهضة انسانية وثقافية حتى يرتفع مستواه الحضارى ... الا ان يحيى حتى نظر للفلاح نظرة أهل الحضر وسكان المدن التي لا تستسيغ الاوضاع المتهاكة التي عليها أهل القرى وسكان الريف ، فكان هدفه من وصف المجتمع الصعيدى الوصول الى نوع من النقد والتوعية بقصد ، اولا وقبل كل شيء ، اصلاح حال الفلاح المصرى في ضوء المفاهيم الحضارية الحديثة .. ولكن اوصاف يحيى حتى للفلاح والحيوان والحقول تقف عند حد القطاعات التي سمحت ظروف حياته بأن يتصل بها اتصالات مباشرة او يدخل معها في علاقات عمل او لهو واثقلت فكره ووجدانه .. ولا غرابة في ذلك فلقد نشأ يحيى حتى وترى في القاهرة ، وترجع معرفته بالريف ، قبل ان يذهب الى منفوط ، الى مجرد رؤية بعض القرويين الذين يدخلون بيته لتقديم حساب المحاصيل واجرة الارض ، او لقضاء عمل من الاعمال المنزلية .. وأغلب تصورات عن الريف استقاها عن بعض التهاويل والاشاعات التي استمع اليها من هنا وهناك .. ولما ذهب الى أعماق الريف الصعيدى لم يخالط أهله او يعاشرهم ، انما كانت أغلب اتصالاته مع انداده من الموظفين وبذلك لم يختبر حياة الفلاحين في أحضان الريف ، لانه لم يقيم في بيوت من الطوب اللبن ويرقد على الارض بجوار الحيوان .. ولم يأكل اكلهم صباح مساء او يشرب من مجارى الانهار ويرتدى زيهم الفضفاض .. ولم يشاركهم في جد هم وعيهم ، يستهويه ما يستهويهم وينفرما ينفرون ، يخطط معهم للاخل بالثار أو يجد نفسه بلا ارادة مندفعاً في معركة من معاركهم دفاعاً عن الكرامة او الأرض .. ولذلك اذا اطلع يحيى حتى على بعض اسرار الريف في الصعيد رآها عن كثب فلم تتح له الفرص الكاملة لأن يندمج في عائلة من العائلات الصعيدية اندماجا شاملا يسمح له بالامتزاج التام في خضم حياة

الفلاحين ليتعرف على أبسط دخالهم اليومية التي لا يمكن أن يلحقها القريب مهما بلغ من الوعي والثقافة ودقة الملاحظة . . . أو يستجيب لكل ما يشغل وجدانهم ويثير اهتماماتهم ، ويتجاوب مع كل ما يفعله في قلوبهم من هموم ومخاوف وآمال وتمنيات . . . ولذلك لا يكفي أن يحس الفنان بالمشكلة لكي يفعل بها ويعايش إبعادها معايشة حيوية ليستطيع أن يعبر عنها تعبيراً صادقا ، وإنما يجب أن يعيش هذه المشكلة بكل جوانبها ويندمج فيها اندماجا شاملا في تجربة كاملة لا تقف عند مجرد الانفعال والمعايشة ، معتمدة على نفاذ البصيرة وشفافية الرؤية . . . اذ لا جدال في أن من يعيش التجربة أكثر صدقا وأبلغ دقة وأكثر قدرة على التعبير عنها عن الذي يفعل بها أو يعايشها لفترة من الزمن مهما طالت . . . اذ سرعان ما يستولى عليه الملل ويفقد الانفعال حيويته ، وتصبح المعايشة عبئا ثقيلا قد تنقلب الى ضيق وتذمر يتمنى الخلاص من حياة لم يعتدها . . . وإذا حاول يحيى حتى أن يوهم نفسه قبل أن يوهما بأنه بلغ أغوار شخصية الفلاح المصري ، وأنه كان في موقع يسمح له بأن يفسر أحوال هذه الشخصية تفسيراً سليماً فإن نظره الى هذه الشخصية لم تكن نظرة موضوعية خالصة ، انها كانت نظرة اتر فيها منطق أهل المدن ، حتى يمكن أن يقال ان نظرة يحيى حتى الى أهل الصعيد أقرب ما تكون الى نظرة هؤلاء المستشرقين اصحاب القلوب الكبيرة العامرة بحب الانسانية التي تقبل طواعية أن تعيش في المجتمعات البدائية أطول مدة ممكنة ، بهدف انقاذ الانسان المتخلف ورفع مستوى حياته وحمايته من الجهل والاستغلال . . . الا ان يحيى حتى يمتاز على هؤلاء المستشرقين بأن بواعثه في الحذب على هؤلاء الفلاحين لا تقف عند حد الاشفاق والعطف خلال لفظة انسانية ، إنما تستند كذلك الى نوع من الغيرة الوطنية يحزنها ان ترى المواطنين على ما هم عليه من تخلف وشفاء . . .

وهكذا اكتفى يحيى حتى بأن ينفذ في أعماق الريف المصري محاولا أن يتسرب الى وجدان الفلاح المصري من خلال تصرفاته الخارجية التي يراها امامه ولا يقبلها منطق أهل المدن ليفسرهما من خلال علاقاته المتضاربة بين الفلاحين أنفسهم من ناحية ، وبين الموظفين من ناحية أخرى ناشدا فهم خبايا الريف وأسرار شخصية الفلاح المصري . . . ولكن هذا الفهم كان مفيدا كما ذكرنا بحدود امكانيات نشاته القاهرية في نطاق أسرة ذات اصلا بتركية . . .

ولا نعجب اذا ما اخذ يحيى حتى يشكو من مرارات الحياة في ريف الصعيد ، ويئن من فسوة عمله صارخا « طالما أرهقني واذاقني عذاب الجسد والروح اشكالا والوانا ، ثم يستدرك زاعما انه لولا معاناة مثل هذا النوع من الحياة ، وممارسة مثل ذلك انمط من العمل ما عرف يلوى أهله ومشاكله وشدة حاجته لمن يأخذ بيده من ابنائه ، يترنم بلهجه وطنية ناشدا ان هذا الشموخ قد انقذه من ( الضياع ) حتى وجد في اقامته بمنفوط ( السلامة وراحة القلب بتدريج ما في الدنيا من سلامة وراحة قلب ) ( ٣٠ ، ٣١ ) الا انه كثيرا ما كانت تستولى عليه مشاعر

( ٣٠ ) يحيى حتى : اشجان غسو منشوب : سيرة لائية .



النفور والرهق ، تصور له تلك البلدة على أنها راقدة بين الفيضان والنخيل .. حيوان مشوه .. جسم رابض على الأرض لا فكر له .. عيناه واسعتان ولكنه اعمى .. يتنفس ويحيا ويجد سبيله في الحياة بفضل غريزة قوية .. نومه وجوم .. استيقاظه تحفز .. سكوته بين هذا وذاك .. مخاونه . (٣١) وكم روعه ذلك الفلاح المعدم الذى يهوى القتل تحت بواعث الاخلد بالثار ، وكثيرا ما كان يتحسر لمجزه في التمييز بين الشابة والعجوز من النساء في مجتمع ينذر ان تظهر فيه المرأة ... واذا بالملل يستبد به في النهاية ويشعر بان يعيش حياة رتيبة كثيبة لا تسرى عنه سوى الجسنة المشابهة كل يوم في القهوة مع الاصدقاء ذاتهم يتحدث معهم في نفس الاحاديث التى لا تتغير ، وعادة تدور حول خبايا عائلات الرماء من الموظفين وخاصة حول تصرفات بعض الزوجات المنحرفات (٣٢) فأخذ يتشوق لعمل ينقله من تلك الحياة القاسية الكثيبة ، واذا بالامال تراوده في البحث عن مستقبل آخر يبعده عن هذا المكان بحرره من أسر الريف ، ويطلقه في عالم اكثر رحابة الى أن صادفه ذات مساء اعلان في صحيفة يومية .. فبينما ( كنت راقدا بعد العشاء على السرير بعد نهار أنك روحى وان له جسدى .. اقلب ولا اقرأ صحيفة يومية واذا بنظري يقع على اعلان لوزارة الخارجية بانها تستعد مسابقة معين الفائزين فيها بوظائف امناء المحفوظات اى سكرتيرين في القنصليات والمفوضيات » (٣٣) فتوقظت فيه كل الرغبات السابقة التى كثيرا ما شوقته للحياة في الخارج حيث تتوافر مختلف المتع الفكرية والثقافية والفنية وكذلك الحياة المتحضرة الراقية التى للمرأة فيه دور بارز وسرمان ما ( تقدمت للمسابقة ... ونجحت .. وان جاء اسمى في ذيل قائمة الفائزين .. صدر امر تعيينى امينا لمحفوظات القنصلية المصرية في جدة باعتبارها اسوأ المناصب الشاغرة وقتذاك ) (٣٤) ..

وهكذا حدث الانقلاب الخطير الثانى في حياة يحيى حقى بعد حدث هجرته من القاهرة للصعيد بعامين من الزمان .. فانتقل من حياة يفيض فيها العمل الرهق عن الزمن المحدود الى حياة يفيض فيها الزمن عن عمل موهوم .. (٣٥) فلم يتأخر يحيى حقى في تسلّم المنصب الجديد رغم أنه لم يحقق كل طموحه ويرضى تطلعاته ، الا أنه عبر عن رضاه بالعمل في جدة بقوله : سآزور الحجاز .. وأدرس المذهب الوهابى .. واعرف مشاكل الحج والكورنتينات ... وأرى جميع الشعوب الاسلامية .. وبعض كبار المستشرقين .. (٣٦)

---

(٣١) يحيى حقى : ام العواجل : قصة : ازالة ربعة .

(٣٢) يحيى حقى : خليها على الله .

(٣٣) المرجع السابق .

(٣٤) يحيى حقى : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(٣٥) يحيى حقى : خليها على الله ..

(٣٦) المرجع السابق ..

## - ٣ -

ويبدو أن حياته في جدة وهي تمتد من عام ١٩٢٩ الى عام ١٩٣٠ لم تكن أسعد حالا من حياته في منفوط . فلقد كتب لي أخيراً رسالة خاصة ذكر فيها شيئاً عن حياته في ذلك الوقت يقول « فقد عشت في جدة وعمرى ٢٤ سنة قرابه سنتين ... في جو حار رطب خائق ... بعوض وعرق .. كنت اتماطى حبوب الكينسا يومياً .. اناام على مرتبة ساخنة داخل ناموسية .. استحم في طشت بماء من صفيحة .. اشتغل بالليل على كلوب اثلغ عيني .. ومع ذلك قرأت مكتبة القنصلية كلها .. وتعرفت لأول مرة الى الجبرتي ، وكتبت عدة مقالات وقصص لا اذكرها .. اذ ( في تلك الاونة كان النشاط الدبلوماسي قليلا فرحت اقضى وقت فراغى في مكتبة القنصلية حتى قراتها عن آخرها - وفيها اكتشفت تاريخ الجبرتي لأول مرة وفتنت به اشد الافتتان .. فلم اعرف كاتباً او مؤرخاً استطاع ان يصور روح الشعب المصرى مثله » (٣٧) فلم يتوقف يحيى حتى وهو في جدة عن السعى من اجل تعميق مصريته ، فاذا به يعيش مع الجبرتي يحوم حول الروح المصرية ويكتب مجموعة من المقالات في **جريدة البلاغ** تحت عنوان **« الفكاهة في المجتمع المصرى »** وقمعا باسم **« عبد الرحمن بن حسن »** وهو اسم الجبرتي نفسه . لخص فيها كل ما ورد في تاريخ الجبرتي من فكاهة . بعد ان حصرها وبوبها وارجعها الى اصولها النفسية ، محاولا الكشف عن بعض نواحي الشخصية المصرية .

**ولعل اهتماماته بالشخصية المصرية وتعميق معرفته بها في تلك الفترة هي التي شغلته عما يدور في بلاد الحجاز من حياة .. فلم ير هناك سوى « المسلمين يأتون للحج من جميع أرجاء العالم ، فيكونون لوحة شاسعة كان لها اقوى الأثر في نفسى » (٣٨) ومع ذلك لا تكاد نعثّر له عن أى نوع من الكتابات الوصفية التأثرية الفنية التي عرف بها - تعطى لنا لوحة قلمية حول الكعبة الشريفة او الحرم النبوى الكريم رغم شغفه الزائد بوصف كثير من الآثار الاسلامية في القاهرة واستنبول « وان كل ما ظهر له من انعكاسات حياته في جدة لم يعتمد كتابة بعض المقالات عن المذهب الوهابى ومشكلات الحج والكورنتينات في مجلة الرابطة الشرقية ، وهو في هذه المقالات يكاد يسير على هداية هؤلاء المستشرقين الذين التقى بهم خلال العمل الدبلوماسى واعجب بعقليتهم الغريبة المنظمة .. »**

**وهكذا نجد يحيى حتى في جدة متزويبا في مكتبة القنصلية بعيدا عن المجتمع الحجازى .. يقرأ ويقرأ محاولا ان يجتر مدى ما توصل اليه من مصرية .. وان ذهب لمشاهدة المسلمين في ساحات الحج الا ان بواعثه كانت بواعث فضول - وما اقبل على دراسة المذهب الوهابى الا بدافع ثقافى يريد ان يتلمس مدى قدرة هذا المذهب على تطوير الفكر الاسلامى في الدين .**

(٣٧) يحيى حتى : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(٣٨) الرجوع السابق .

وما أن تم نقل يحيى حقى من جدة الى استانبول في عام ١٩٣٠ حتى اتاه الفرج .. فاذا كان قد حبس نفسه في جدة بمكتبة القنصلية فانه في استانبول خرج الى المجتمع التركي يتصل بالعائلات ، خاصة تلك العائلات التي تمت له بصلة قرابة ، ويزور الاحياء الشعبية ويتردد على مقاهيها وملاهيها ، ويصف آثارها الاسلامية ويعايش الحركة الكمالية .. لا شك في ان خروج يحيى حقى من جدة الى استانبول اعاد اليه بعض حيويته .. فان قلب يحيى حقى لم يفض بفكر جديد وهو في جدة ، وان عقله لم ينفعل بحياة اهل جدة ، وعاش على هامش المجتمع الحجازي يتصل اكثر ما يتصل بالمستشرقين الاجانب ، واقتصرت تحركاته على نطاق الاعمال الدبلوماسية .. ولعل ذلك يرجع الى ضرب من الحذر الذي شب عليه يحيى حقى في معاملاته مع كل من لا يجري في عروقه دماء تركية ، خاصة من هم من اصل عربى صرف ، الذين دخلوا معهم خلال التاريخ في صراع مرير على السلطة استمر اجيالا ، فتخوف من ان تظهر العقد القديمة اذا ما دخل في علاقات وطيدة مع الحجازيين ، او اذا ما حاول ان يتعمق في فهم المجتمع الحجازي ويتبين ايجابياته وسلبياته ، وفضل ان يكتسب انفاس فكره ويضيق الخناق على نبضات عقله حتى لا يتعرض لاتهامات التحيز .. ولكن بمجرد ان استقر يحيى حقى في استانبول حتى شمر انه يعيش في موطن اجداده الاول ، وانه عاد من المهجر الى بلد له فيه عدد عديد من الذين لهم به صلة رحم .. فلم يعد يحس بأن هناك ما يدعو الى الحذر ، وانطلقت تصرفاته في شتى المجالات يدخل بيوت الاقارب وغير الاقارب من الاصدقاء والمعارف ، ويزور المساجد ويتردد على الآثار الاسلامية .. ويحاول ان يصادق بعض المصريين المقيمين في استانبول ويدخل معهم في علاقات .. يندمج في المجتمع الدبلوماسي ويشاركه في كثير من تحركاته الاجتماعية .. ينفعل بثورة كمال اتاتورك ولا يتردد في تقويمها .. يقبل على تعلم اللغة التركية لان معرفته باللغة التركية لم تكن تسعفه في التفاهم مع اهله اذ « لم تكن اللغة التركية تستخدم في بيتنا الا للسباب في لحظات الغضب » ، (٣٩) وقد استطاع ان يتقن تلك اللغة للدرجة انه تمكن من تدوق الشعر التركي وان يتصل بشعراء تركيا ويتعرف عليهم .. ويتابع بوجه خاص تطورات الحركة الكمالية في عنفوانها يرقب محاولات كمال اتاتورك في تحويل تركيا من دولة شرقية اسلامية الى دولة علمانية حديثة ينفصل فيها الدين عن الدولة ، ويشهد مظاهرها تحول حكومة شعب مسلم متدين الى دولة تتجاهل دينه وتعاديه وتعتقد ان التمسك بالدين هو سرتاخر الشعوب ، وتحاول ان تزيل كل ما يمت للدين بصلة ... ويقرأ كل ما كتب عن كمال اتاتورك فاستطاع ان يصاحبه يوما بيوم يشاهده وهو يخطب ويجالسه عندما زار السفارة المصرية في انقرة ليسترضى المصريين بعد حادثة اهانة الطربوش .. واذا كانت شخصية مصطفى كمال قد بهرتة الا انه اخذ عليه دكتاتوريته ومصادرته للحريات الدينية ومعاداته لرجال الدين وتعطيله اداء فرائض الاسلام ومحاولته اعادة مسجد اياصوفيا الى الكنيسة التي كان عليها اول الامر. ولكنه رضي بحل وسط بأن يكون البناء مجرد

متحف لا هو مسجد ولا هو كنيسة تبطل فيه الصلوات الخمس ولا تعود اليه ترائيم الصلوات المسيحية .. (٤٠) ولعل محاولات مصطفى كمال لقطع صلة تركيا بالدين الاسلامي - رمز الحضارة العربية الاولى . تهدف الى ازالة كل ما اخذه الاتراك من العرب .. ولذلك اتخذ خطوات ايجابية من اجل تطهير اللغة التركية من الالفاظ العربية وهي تكاد تصل الى ثلث مفرداتها .. والزام عامة الشعب التركي بكتابة اللغة التركية بالاحرف اللاتينية بدلا من الحروف العربية ، بل امر بكتابة القرآن الكريم ذاته والاذان بالحروف اللاتينية كذلك .. وفضل ان يرتدى في احضان الحضارة الغربية املا في التطور والاصلاح والتقدم على ان يظل راكدا جامدا في تكايا حضارة العرب وثقافتهم المتكاسلة ، رغم انه حارب بشراسة الاحتلال الغربي في بلاده حتى طهرها من التدخل الاجنبي .

ولقد تصور يحيى حتى ان مصطفى كمال كره العرب وحضارتهم وثقافتهم كرها لم يعرف له مثيلا بلغ الحماسة ، اذ ليس هناك « احق من رجل يهاجم في العصر الحديث دين رجل آخر ، فما بالك بحماسة من يفعل ذلك بامتة على بكرة أبيها » (٤١) واذا لم يثر الشعب التركي ضد مصطفى كمال بسبب نزعة المعادية لدين الاسلام فليس ذلك « خوفا من بطشه انما اكراما له لانه انقلبه من التعزق والعبودية واستلاب الاجنبي لارضه . » (٤٢) واذا استجاب الشعب التركي لاوامر مصطفى كمال بهذا الصدد ، فان قلبه ظل يخفق بدين الاسلام وايمانه به لم يتزعزع وان كانت تصرفاته تجامل تعليمات الحاكم ... واذا تحسر يحيى حتى على عداء مصطفى كمال للدين الاسلامي وحرمان الشعب التركي من الحرية الدينية فانه تضايق الى حد الغضب لانه نوعا من العداء لعرب يبدو في اهماله لحضارتهم واعطاء ظهره لثقافتهم ، رغم ان تركيا ما استطاعت ان تحكم العالم العربي ويقبل العرب الخضوع لسلطانهم زمنا طويلا الا بفضل تمسكها بالدين الاسلامي ، حين اهتم سلاطين الدولة العثمانية بان يتولوا الخلافة الاسلامية ، لأن سلطات الخلافة الاسلامية تعطى لهم من النفوذ والتأثير الروحي ما يضمن ولاء الاقطار العربية للدولة العثمانية .. ولقد كان الدين الاسلامي دواما من أهم العوامل التي قربت العناصر التركية في مصر من عامة المصريين ، ودعمت المصريين الى حسن استقبال الاتراك كلما نزلوا بديارهم حتى لو بغرض الاستعمار والاستغلال .. ولقد ضحى مصطفى كمال بكل هذه الجذور التاريخية في سبيل اعتقاده بان حضارة الغرب هي حضارة المستقبل ، وان حضارة العرب آخذة في الدبول ولا حاجة لتركيا فيها وضررها يفوق نفعها ..

**ولكن ما هو الباعث الحقيقي لهذه الغيرة الدينية عند يحيى حتى ... ؟ هل هو باعث روحي صرف ، او هو باعث يحركه نوع من القلق يخشى انفكاك الارتباط الروحي بين تركيا**

(٤٠) يحيى حتى : دعة .. فابتسامة .

(٤١) المرجع السابق .

(٤٢) نفس المرجع السابق .

ومصر ؟ ان هذا الحرص على الدين لم يتسرنم به يحيى حتى وهو في الحجاز مسقط رأس الديانة الاسلامية حيث ولد رسول المسلمين عليه الصلاة والسلام .. وانطلقت منه دعوته الى العالم الخارجى .. وحيث الكعبة الشريفة اقدس المقدسات الاسلامية .. وحيث قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومقابر آل محمد والصحابه وشهداء الاسلام الاول .. فان كل هذه المواقع المقدسة لم تدغدغ حواس يحيى حتى الروحية كما دغدغ وجدانه مسجد اياصوفيا ومسجد الانصارى الصحابى باستانبول .. واذا كان ازدحام ساحات الكعبة الشريفة بالحجاج قد بهره واثاره الا ان ذلك لم يدفعه الى كتابات اشبه بكتابات عن ازدحام مسجد اياصوفيا بالمصلين في ليلة القدر .. **فالفرة الدينية هنا تكاد تكون غير ارتباط .. !! لا شك في ان يحيى حتى يعشق مصر عشقا مابعد عشق ، ولكنه يود كذلك لو تظل هناك علاقات وطيدة بين مصر وتركيا وخاصة العلاقات الروحية .. وان الدين الاسلامى كان على الدوام من اهم العوامل التى تولق الروابط بين الشعوب وتجدد حيويتها كلما اعترها فتور بين المصريين والأتراك ..** فاذا ما تخلت تركيا عن الدين الاسلامى وارتعت في احضان الحضارة الغربية فان الذى يقلق يحيى حتى في المقام الاول ان هذا التخلي يقضى على ما تبقى من روابط الوصال بين مصر وتركيا والعرب والأتراك .. ويعز على المصريين الذين تجرى في عروقهم دماء تركية ان يشهدوا المصراع الاخير لعلاقات تاريخية قاومت الفرون ، وأن يستشهدوا على فتور الروابط بين المصريين والأتراك الى حد العدم .. وكل ذلك يضعف من اتصالات المصريين بأقربائهم في تركيا ويمهد لقطع العروة الوثقى بوطن اجدادهم .. ولهذا السبب بالذات كان يحيى حتى ضد سياسة مصطفى كمال في معاداة الاسلام وكراهية العرب .. !!



الا ان اقامة يحيى حتى الطويلة بين الشعب التركي خلال فترة عنفوان الحركة الكمالية ، وما افارته من تقلبات فكرية ونفسية ، وما خاضته من تجارب اجتماعية وثقافية اتاحت له من الفرص ما مكنه من أن يدرس جوانب كثيرة من اتجاهات الشخصية التركية السلوكية والاجتماعية ، بينما يشاهد تصرفات الأتراك وانفعالاتهم وميولهم فتكشف له من المغارقات ما لفت انتباهه .. ولعل اهتمامه الزائد بتحليل الشخصية التركية يرجع الى حد بعيد لرغبته في فهم بعض اتجاهاته الداخلية .. ولعل نجاحه في فهم هذه الشخصية يعينه أولا وقبل كل شيء على فهم ذاته فهمًا يعبره بنفسه ... فوجد ان الشعب التركى « شعب غريب يجمع بين المتناقضات » تتسم شخصيته بسمات متعارضة تجمع بين « القوة والرقه » ورأى في الافراد « ميون بعد أن تبرق بلهب نظرة النمر الجائع تترقرق فيها السماح وحج الدعابة ... فرض الاعتداد بالنفس يفلو في مواسم التأدب الاغوائى .. شعب يتوه في الخيال وترفعه الموسيقى الى السماء ثم لا يحيد في نظراته عن الواقع العلى والمنفعة المادية ... شعب تنضج في افانيه الشعبية بدموع البكاء على الشهداء الذين سقطوا في ميدان الجهاد ضد روسيا وضد اليونان .. واشدها حزنا البكائيات على الشهداء

في حرب ابلغار .. ثم هو في الوقت ذاته يزدري الموتى والقبور ازدرأ شديدا .. لم اشهد طوال اقامتي اربع سنوات في استانبول جنازة واحدة .. تتم المراسم كلها في المسجد .. يتقبل العزاء ثم النصارى كل حى لسبيله (٤٣) ورغم أنه شعب فشا فيه التصوف وكثرت التكايا وتمددت الطرق الصوفية .. ومع ذلك فيس في استانبول قبر لولى من هذا الشعب يزار وتنسب له كرامة « ولذلك فلا نعجب اذا ما تقبل الشعب التركى الغاء التكايا .. ووجد يحيى حقى « بين الكتب الرائجة في استانبول تتندر برياء الدرويش الذى يزعم انه يلتزم المسجد واذا سئل عنه وجدوه في الخمار « وكان ذلك من بين الدواعى التى حثت الحكومة على حل الطرق الصوفية ومطاردة « المنتمين اليها مطاردتها للمجرمين المستحقين للشنق » وكذلك شجعت عامة الشعب على الاستهزاء بالدراویش والرماط « وما اكثر هوء نكاتهم الشعبية بالوعاظ ودعاة الفضيلة والكرم وبالوعود المحمولة على الفد لا اليوم « بل ان « مساجد استانبول كلها كانت لا تنطق بشيء عما تنطق به أحجارها .. كلها روائع معمارية فحسب .. مقامة على مقابر العظماء من سلاطين آل عثمان .. لا توحى بأية شحنة روحية .. ورغم ذلك لم أر مثيلا للشعب التركى في تبجيلة وتحيته واعزازه لشخص الرسول بشرا لانبيا فحسب « (٤٤) .. واذا انتقل يحيى حقى من واقع الحياة الدينية الى عالم الرجل والمرأة وجد ان « استعلاء الرجل على المرأة \* في تركيا لا يتمثل الا في اختطاف لفتاة من قريته والهرب بها الى الجبال ونوالها عنوة .. فهذا الاختطاف هو عنده البرهان الوحيد على الرجولة .. « (٤٥) وشد انتباهه كعادته احوال بائعات الهوى فيقول « لم أر مثل البغى التركية في ايمانها بأنها ضحية مجتمع الرجال الذى لا يرحم .. « وتحسر حين شاهد « في تلك المفاهى الشعبية الصغيرة في استانبول بين ربى التلال المخضرة المشرفة على البسفور أو مرمرية اعزازا وتصفيقا لفتاة لم تبلغ سن الرشد .. ولكن خدعا مداس للجميع » ثم رنى لظروفها القاسية عارضا لاحوالها المتضاربة « لم أر انسانا ضعيفا مثلها يجمع بين الابتسام والرعب وبين الصلف والمسكنة .. بين الافصاح والاختناق .. بين الطرب والأنين « وكم اغاظه مجتمع الرجال لانهم « تقنوا في تفصيل ثوب لها .. ثوب فنظرية اسمه اللل .. « (٤٦)

هذه هى الملامح الاساسية للشخصية التركية كما تكشف ليحيى حقى في ضوء تجاربه في استانبول .. ولا شك في أن اقامته الطويلة في تركيا التى بلغت ست سنوات على فترتين متباعدتين في استانبول وفى انقره قد مكنته من أن يتعرف على مدى التفاوت بين الشخصية

(٤٣) يحيى حقى : دعة .. لابتسامه .

(٤٤) المرجع السابق .

(٤٥) المرجع السابق .

(٤٦) نفس المرجع .

المصرية والشخصية التركية .. كيف ان تعميق معرفته بالشخصية التركية يعينه على حسن التصرف خلال شخصيته المصرية ، ويكشف له بعض ما خفى عليه من جوانب ذاته الموروثة من الاصول التركية ، فيتمكن من ان يتحرر من ازدواجية الاتجاهات وتضارب الانفعالات وتصادم القيم المصرية والتركية ، ويحقق شخصية واحدة متجانسة ترتاح لكل ما هو مصرى ولو رفضها طبعه التركى لسبب من الاسباب .. وان طول اقامته بين اهل اجداده لم يحدث فيه اية رجة نفسية ارتدت به عن مصر .. بل لم تفارقه احساسات الغربة وهو بعيد عن مصر .. فان انضحت له جذور مقوماته التركية فان ذلك لم يمنعه من ان يتعمق في فهم روحه المصرية في نفس الوقت الذى يتأسى فيه على هؤلاء المصريين الذين ينحرفون عن طريق التفكير المصرى الاصيل السليم .. !!

#### - ٤ -

ولقد قرأ يحيى حتى قصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم فاذا بالحنين الى مصر وشعب مصر يعاوده ، واذا به يبحث بمقال عنوانه « توفيق الحكيم .. بين الخشية والرجاء » لمجلة « الحديث » بحلب في آخر سنة له في استانبول عام ١٩٣٤ . وكانت من اولى مقالاته التى حاول فيها ان يحدد المسار الذى ينبغي ان يسير فيه الادب المصرى حتى يصبح المعبر الحقيقى عن كل ما يختلج داخله من الانفعالات وآمال .. فاستهل مقاله بانه « لعل الاغتراب هو وحده الذى حفزنى الى كتابة هذا المقال » (٤٧) وعاب فيه اتجاهات الادب المصرى التى تغلب عليها الميول الفردية من دون الميول العامة التى تعبر عن روح كلية هى روح الشعب المصرى بأجمعه .. ولذلك كانت اغلب الكتابات الادبية في ذلك الوقت مجرد صرخات شخصية تدور في واد لا تجد لها من صدى بين عامة النفوس ... ولقد ذهب توفيق الحكيم باتجاهاته الصوفية في مرحلة اهل الكهف يشيد بأن كل موجود هو من الله .. والله دائم .. فكل ما هو موجود دائم .. وينبؤه الى ان الزمن هو احدى خصائص عقل الانسان الذى لا يدرك الا بثلاثة مقاييس .. وبذلك حاول ان يمزج بين المواقف الصوفية والنظرات العلمية .. الا ان هذه المسرحية بملهها الصوفى العلمى لا تكاد تعبر من قريب أو بعيد عن مشاعر الجماهير ولذلك لم يكن لها اى صدى لدى عامة الناس ، ولم يتجاوب معها الشعب المصرى ككل ، ذلك الشعب الذى كان يمر بمرحلة تضال سياسى واجتماعى واقتصادى يحتاج اكثر ما يحتاج الى عوامل تقوى فيه نزعات الجهاد حتى يستطيع ان يتغلب على مختلف انواع المصاعب التى يضعها الاستعمار لمرقلة نهضته .. وليس في حاجة على الاطلاق لتقوية النزعات الصوفية التى قد تدعو الى نوع من الاسترخاء ، يستمرى الكسل والخمول ، ويتهرب من المسؤولية الوطنية بدافع من الانانية التى تحت على قطع صلة الفرد بكل ما حوله طلبا للظهور والخلاص ، في ظل وهم نظرية صوفية سطحية .. **ولذلك اعتبر يحيى**

حتى مسرحية « اهل الكهف » من المسرحيات الخطرة على شباب مصر ، اذ قد تستهوية بالمبول الصوفية، على حين انه لا خلاص لمصر من الاستعمار ولا نهضة للشعب المصرى من الفقر والتخلف الا على يد جهود شباب مصر الذى يجب ان يبذل كل فرد منه في تعاون ويشترك اقصى ما يستطيع من جهد ، دون نظر لاي نوعية من المنافع الفردية سواء اكانت مادية او روحية .. ولذلك فاذا كانت مسرحية اهل الكهف بمثابة نجاح كبير لتوفيق الحكيم كفناني في عالم الادب فانه لا يكاد يكون لها اى دور ايجابي في المجالات التى تدعم مقومات الشعب المصرى .. ولا نمجبا اذا ما شك يحيى حتى في قيمة مسرحية اهل الكهف بالنسبة لشعب مصر .

واحسب ان يحيى حتى هنا يكاد يكون متأثرا بالحركة الكمالية من جهة ، وبالنزعات التركبية العملية من جهة اخرى .. فان مصطفى كمال قد قاوم التصوف بكل صوره ليصرف جهود عامة الجماهير ويركزها في خدمة تركيا .. ويبدو ان يحيى حتى كان يتمنى في ذلك الوقت ان يظهر في مصر شخصية قيادية مثل مصطفى كمال تعطي لشعب مصر من الكرامة والحوافز المادية والمعنوية ما يلهب القوى الكامنة لتعمل على رفع قيمة الانسان المصرى .. دون ان تستغرقها قيم غيبية لا تساعد على رؤية افصاح الحقائق التى يعيش في قلبها المصريون ..

الا ان يحيى حتى تنبه الى أن نزعة التصوف التى تشوب قصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم تنسم بالحقية خلاف نزعة التصوف العالمية التى تنسم بها مسرحية « اهل الكهف » وهى قصة تقوم على ديانة الفرائضة تستوحى اسطورة اوزوديس وايزيس ، وتتخذ من ثورة ١٩١٩ الشرارة التى اوقدت الحياة في اشلاء مصر المتقطعة الاوصال المتفرقة المعزقة الجوانب ، واعادت اليها الروح التى وحدت جميع الصوف وشملت تحت راية مصرية واحدة .. وعرضت هذه الافكار تصرفات عائلة مصرية صميمة .. رغم انها كثيرة الافراد . فلقد كان يعمهم اتحاد ووصال ورد .. ولكنهم وقعوا جميعا في حب فتاة متلاعبة تسكن بجوارهم حاول كل منهم ان يتقرب اليها على غفلة من اخوانه .. فتوشك المصلحة المتضاربة ان تباعد بينهم .. واذا بالثورة المصرية تعصفهم جميعا وتكتسح حبهم التافة ، وتجمعهم على الوفاق من جديد داخل حب كبير هو حب مصر .. فعادت الروح الى مصر التى ظن الجميع انها ماتت ، حتي ان عودة الحياة الى هذه الروح لفتت انتباه اجنبى فرنسى .. ويرى يحيى حتى في هذه القصة صورة صادقة للمجتمع المصرى سواء في القاهرة او في الريف ، ولذلك لها قيمة واقعية يمكن ان تعود بشيء من النفع . لانها استمدت اصلا من التراث المصرى القديم من ناحية ، واتخذت من الحياة العالمية الحديثة سبيلا للتعبير عن عظمة الماضي وحيوية الحاضر .. الا ان يحيى حتى لم يجد في قصة « عودة الروح » ما يشفي غليله الوطني ويشبع اتجاهاته المصرية الصاعدة اشباعا قويا . فان القصة تريد بصدق وايمان الجمع بين الروح والجسد .. بين المعنى والرمز .. بين السر والتغير .. بل وتريد كذلك ان تبين لنا كيف تسري الحياة من جديد في جسد مصر .. ولكن القصة لم توضح كيف اسهم كل فرد من افراد الاسرة في الجهاد الثورى .. كما جاءت الخاتمة



باردة تافهة ليس فيها حرارة الباطن ولا عظمتة. فكانت صورة الثورة باهتة مقتضبة كما لو كانت دخيلة على القصة وثانوية بالنسبة لموضوعها .. لم تجد مصرى واحدا يلقي بأن تعلق على لسانه بأن مصر التى خال الجميع انها ماتت قد عادت اليها الروح واختارت اجنبيا فرنسيا لى يشهد على هذا التحول .. بينما جعلت جميع افراد الاسرة بصرهم المرض ، وتنتهى القصة وهم اشبه بالمتى ، كل منهم لائل بفراشه .. ورغم ان القصة توحى بأن مصر لا يمكن ان تحيا الا بطلمس الفراعنة . فلا شك في ان استلهم مجد الفراعنة بشير كثيرا من الاحلام الجميلة .. الا ان اسطورة اوزيريس ما زالت بعيدة من الوعي المصري العام ، وبذلك لا تستطيع ان تستفز روح مصر الحديثة استفزازا قويا فعلا ، مما أصاب القصة بنوع من عدم التوازن بين الباطن الفرعوني المقتبس والظاهر المعصرى المستمد من الواقع . فاذا كان الباطن عظيما فان الظاهر لا يوجه اليه العناية الكافية ، وتغلب عليه الوقائع الصيبانية التى لا تخلو من تصنع واستطراء .. فان الادب المناسب لشباب مصر فى هذه الايام ينبغي ان يكون ادب كتاب اقوياء يطو فيهم حرارة اليقين الذى لا يسلم من وسواس الخشية .. وتكون روحهم مزيجا من الكبرياء والتواضع وخليطا من الحلم بالآمال والشعور بالواقع المموس .. ينظرون الى السماء ولا ينسون ان أرجلهم على الارض .. (٤٨)



وهكذا أصبحت المصرية تشغل يحيى حتى أكثر من أى شيء آخر ، ويكاد يغلب المصرية على التركية بينما هو يعيش فى تركيا الوطن الاول لأجداده ، اذ لم تستطع الحياة للتركية بسريرا الحثيث نحو الاستقلال والتقدم ان تستهويه استهواء يجعله يتأفف من مصريته . بل أعطته دوافع قوية لى لا يالو جهدا فى سبيل ان يصل بالمصرية الى درجة من الشفافية والوضوح . حتى تهدأ روحه العاشقة لمصر .. ولقد ظهرت قوة حاسته المصرية درجة قوية من البصيرة الصادقة حين حاول ان يكشف الخلل في المصرية الكثيرين من المصريين خاصة اذا كانوا من بين المصريين المهاجرين ويشغلون بمسائل عامة تهم كافة المصريين .. فانه من المعروف عن نجيب الريحاني ان فنه « مصرى خالص صادق قد انبعث من قلب مصر ودل عليها وترحم عنها وأرخ لها .. وان الريحاني هو مصر ، ومصر هي الريحاني .. (٤٩) الا ان ازدواج شخصيته وجمعها وبين الاصل العراقي او الشامي والمصرى المصرى يراه يحيى حتى « مفتاح الفاز حياته وتفسير شخصيته .. عاش الريحاني طيلة حياته يشعر بفارق مكتوم بينه وبين المصريين .. وهذا سر وحدته الملحوظة فى حياته العامة والخاصة .. (٥٠) . ولن كان

(٤٨) الرجوع السابق .

(٤٩) نفس الرجوع السابق .

(٥٠) نفس الرجوع السابق .

الريحاني من أوفى طبقات المهاجرين الى الشعب المصري وأكثرهم فهما لعاداته وعجائب طبيعه فانه لم يسلك الطريق السوى الذى يخدم الفن المسرحى خدمة مصرية خالصة .. ونائر حد كبير بظروف مصر السياسية والاجتماعية دون أن يؤثر فيها ، وجارها دون أن يطورها .. عاليج ميوبها معالجة سطحية لم تنفذ الى الاعماق وتقتلحها من جذورها .. فلما فكر الريحاني فى تكوين فرقة مسرحية هزلية كانت فرقته تستمد موضوعاتها من هامش الحياة المصرية . ومسرحياتها الاستعراضية لا تكاد تخرج عن أنها مجرد مسرحيات « فرانكو آراب » تعتمد على رواد من الليفانين الاجانب ومن انصاف المتعلمين من المصريين الذين سحرهم الثقافة الغربية .. ويترددون بين الشرق والغرب وهم لا مصريون أو اجانب .. ولما حاول الريحاني ان يطور مسرحه ويعطيه صبغة أكثر مصرية لجأ الى شخصية « كشكش بك » عمدة كفر البلاحي الحديث الثراء بسبب ارتفاع اسعار القطن المفاجيء فاصاب انفاقه ضروبا من الاضطراب ، فآخذ يصرف أمواله بسخاء على اللهو والمتعة ، مما جعله موضع سخيرة سمسرة القطن واشباههم واستغلال الراقصات والفانيات .. فاتخذ منه الريحاني موضوع تسلية على المسرح يهزأ من تصرفاته وهو يعبث بين بائعات الهوى ينفق عليهن كل ماله بلا مبالاة ، دون ان يحصل منهن على شيء .. لكى يسرى على رواد المسرح ، واغلبهم من الطبقة الوسطى ، سواء من المصريين او الاجانب القيمين في مصر .. ولكن سرعان ما مل الجمهور شخصية « كشكش بك » لرتابة الموضوعات والحركات والكلمات ، فاضطران يغير من الشخصية الاولى لمسرحياته ويجارى التطورات الاجتماعية ، فاتخذ من شخصية « الافندى » - الذى أعده دنلوب فى المدارس المصرية واسلم اليه الانجليز شئون مصر الداخلية ، واخذ يكون طبقة وسطى نامية ينتمى اليها فى الغالب موظفو الحكومة واشباههم ليكسب جمهورا عريضا متزايدا من المصريين ، وحيث ان هذا الافندي لم يألّف بعد ليس البدلة او رباط العنق .. ممزق بين الشرق والغرب .. دخله متواضع لا يكاد يكفى مطالب الحياة الحديثة .. يعيش بين دسائس الديوان وتحكم الرؤساء وانتشار الوساطة .. فاتخذ الريحاني يعبر عن مشاكل هذه الطبقة حتى يبدو أكثر مصرية وأكثر تطورا فى معالجة حياة مصر الحديثة . تصور مسرحياته ، المقتبسة من المسرح الفرنسى الرخيص ، هذا الافندي على أنه انسان طيب القلب حسن النية وإن كان لا يخلو من مكر ودهاء .. لا يريد من الحياة الا السلامة ، ولكنه قادر على الدس والظلم دفعا عن النفس .. عواطفه حائرة بين حب الفتاة العفيفة المتخلفة والفتاة الحديثة المشكوك فى اخلاصها .. ولا يجد ما يتسلّى به الا النكت التى تسخر من خداع الناس ونفاقهم وتكشف خبثهم الاجتماعى .. ومع ذلك لا يتخلّى عن خلقه الشرقى الصميم الذى يسلم بالقدر والرضاء بما قسم الله .. الا انه عز على يحيى حتى أن يستمد الريحاني مواصفات هذه الشخصية من مسرحيات غير مصرية اعتمدت أكثر ما اعتمدت على المسرح الفرنسى الهابط واقتبست منها اكسد بضاعة بعد ان زوقت بلغائف من التدليس والخداع لا تكاد تخرجها عن أعمال الغش التجارى ، واستوردت لشعب مصر لكى تحبسنى نطاق هذا الفن المسروق وتفرض عليه ان

يعيش فقط في متاعب طبقة واحدة هي طبقة الأفندية .. « ولولا غلبة هذه الطبقة على المصرى ما توفرت أسباب هذا النجاح السطحي للريحاني » (٥١)

ولذلك كم آلم يحيى حقى أن يقتصر مسرح الريحاني على شخصيات منحرفة غير سوية .. لا تصور الا ما في المجتمع من تفكك وضعف وتخاذل وقراض .. تنحصر في شخصيات .. ابن الدورات التالف .. والفتى العبيط ... والخادمة الشرشوحة .. والبنت الدلوعة .. والمعلم لابس الملاساة .. والافندى العجوز الخبيث .. وامرأة تركية عجوز لاضحاك الجمهور على رطانتها العربية تشبها باضحاك الاتراك على شخصية باشا مصرى يقسم بالله بين كلمة وأخرى .. ورغم ان هذه الشخصيات هي شخصيات مجتمع السنوات الاولى من عشرات القرن العشرين الا انه حز في نفس يحيى حقى أن لا ترى مسرحيات الريحاني في المصريين الا اشخاصا طبيعتهم بلاهة ، وفزلهم تلعب حواجب ، غضبهم سريع واعصابهم مفلوثة .. يثورون للتافة من الامور . يستسلمون للحكم والمواظع الفارغة .. يميلون للردح والتشليق . اذ ان عرض الشعب المصرى يمثل هذه الصورة البشعة التي تبعث على اليأس من قدرة المصرى على النهوض والتطور والتقدم لا يمكن أن تكون الا خلال نظرة خاطفة متملجة لاجنبى تخدمه بعض المظاهر فينساق في الترويج لها والالاحاح عليها على انها هي كل شيء في الشعب المصرى شأنه في ذلك شأن الزائر الطارئ او المقيم الذى لم يندمج فلم تنح له فرص فهم مواطن الامور في الشخصية المصرية .. فاعافت مسرحياته الشعب المصرى عن فهم امكانياته فهما صحيحا: وبلبلت كثيرا من المعاني والقيم ، مما عرقل تطوره بما تبثه من ضعف وعجز ويأس ، ومن تشويه للواقع وتشهير بالحقائق .. وبذلك لم يقدم مسرح الريحاني خدمة تذكر للحياة المصرية ، ولا شك في ان ضرره تعدى كل ما سببه من ضحك وقهقهة .. واذا كان الريحاني فنانا عظيما لم يؤد خدمة عظيمة لمصر . وهذا هو عيبه الكبير الذى لا يمكن ان تغفره له الحماية المصرية ، ولا يرضى ان يسكت عنه كل من يعشق مصر ، ولا يفكر الا في دفع المصرية في المسار السوى الصميم .

- ٥ -

واذا لم يرض يحيى حقى عن اتجاهات الافكار الاجتماعية في مسرحية اهل الكهف : وتضايق من ضالة العواطف الوطنية في قصة « عودة الروح » .. كما عز عليه ان يشوه الريحاني ملامح الشعب المصرى ليسلى الاجانب قارة وانصاف المتعلمين من الطبقة الوسطى تارة اخرى .. فانه ايضا لم يغفل عن هؤلاء الاتراك الذين جرى في قلوبهم حب مصر ، ثم لم تستقم لهم الحياة بين المصريين لسبب او لآخر ، فتأوه أشد التأوه من المصائب التي نزلت

بالإسرات التركية المصرية التي ارتاحت الى العزلة والانعزالية ، واتخذت مواقف سلبية انانية من الحياة العامة في مصر ..

ولقد صور لنا يحيى حتى أبرع تصوير كثيرا من الشخصيات القلقة التي تعاني من عقدة الصراع بين المصرية والتركية في كتابه « دمة .. فابتسامة » وفي كتابه « ناس في الظل » ولعل تحليله لشخصية « علي بك فوزي » تعد من ادوع التحليلات واشملها لذلك المصري الذي يشعر بحنين ضائع لوطن يشعر في أعماقه انه اصبح غريبا عنه .. لقد سيطر الصراع بين المصرية والتركية على نفسية « علي بك فوزي » فلم يعرف الاستقرار أو الراحة ، وظل يقاسي من القلق حتى غاب عنه الهدف الرئيسي الذي ينشده من الحياة . واستولى عليه نوع من الضياع الروحي لم يسمح لمصريته أن تستفرقه استفرقاتا ولم يمكنه في الوقت ذاته من أن يستعيد تركيبته الاولى في صورتها النقية .. وعرض يحيى حتى كل ذلك في كتابه « ناس في الظل » في لوحة انتقادية رائعة حاول أن يحلل فيها احوال ذلك المصري الذي تجرأ في عروقه دماء تركية، ويعانى من اضطرابات ترجع لضرب من ازدواجية في الميول والرغبات والنزعات والعواطف والأفكار والمثل ... وبين كيف ان علي بك فوزي خاب في أن يوفق بين النزعات التركية ودوافع الحياة المصرية ، وبالتالي عجز عن الوصول الى تلك المواءمة التي تحقق له السلامة النفسية والاتزان العاطفي والاتسجام الفكري ، الذي لا يشتمل من قبول الواقع المصري على ما هو عليه والاندماج فيه قلبا وقالبا ، مشاركا الناس مشاركة فعالة ايجابية في كل ما يخطر على وجدانهم من آمال وآمانى ، وكل ما ينزل بهم من آلام ومصائب ، ولا يدع الاسى على فقدان الجاه والسلطان يشل ارادته ويدفعه لعزلة لا تقدم ولا تؤخر ، تعرقل نشاطه وتجعله يجترأ وهاما بائدة لا تنتهي ، ولن تعود عليه الا بأن تمنحه من أن يتطور مع تطور الاحداث الجارية ، فاذا به يقف عند حد التأفف من كل سلوك هابط .. والضيق من قبح الفباء وغلظة الحس وتبلد الشعور ، والتبرم من الكلمة النابية والنكته الباردة ، وكراهية الجلف والمفرور الذي يدوس على اقدام جلسائه دون أن يدري أو يبالي .. وهكذا لم يتقبل علي بك فوزي كثيرا من الاوضاع الاجتماعية السائدة بين عامة الناس ، ولم يرجع اليها على اعتقاد انها تتنافى مع المستوى الحضارى الرفيع المتمسك بالخلق الكريم الفاضل .. فوسع هذا الاعتقاد هوة التناقض بين الاتجاهات التركية والواقع المصري ، وأدى الى نوع من الانقسام يفصل الفرد عن المجتمع ...

لقد تخرج علي بك فوزي في مدرسة المعلمين العليا التي كانت تعتبره في ذلك الوقت أقل المعاهد العليا شأنًا ، خاصة بين الطبقات الشراكسية التي ينتمي اليها ، على اعتبار انه من سلالة المماليك ولما جاء ترتيبه الاول بين المتخرجين أرسل الى بعثة لانجلترا على نفقة حكومة مصر ، ليدخل مدرسة أكستر التي لا تصل الى مستوى جامعات كمبردج واكسفورد التي لا يدخلها الا ابناء القادريين من الايمان المصريين على نفقتهم الخاصة .. وكل هذا امتهان وظلم لابن من ابناء الانساب العريقة

التي كان لها الحكم والسيادة في يوم من الايام ... وما ان عاد من البعثة الى مصر واشتغل بالتدريس حتى اصطلح بتحكم « مستر دنلوب » الانجليزى مستشار وزارة المعارف والمهيمن عليها هيمنة تامة ... وتحركت في داخله كوامن السخط على الاحتلال البريطاني الذي ازال كثيرا من نفوذ العناصر التركية ونافسها منافسة خطيرة تهدد مستقبلها ، فاحس بأنه يقع تحت وطأة الظلم الاستعماري الذي اضاع هيبة العناصر التركية واطعن مكانتها بين المصريين .. في حين ان على بك فوزي رجل رفيق مهذب شديد الحساسية متمدن يتبع اساليب الحضارة .. ذكي الفؤاد غترف من الثقافات الغربية والعربية .. صاحب ذوق فني وادبي يعشق الطبيعة ويتحسس جمال الالفاظ .. وقف علمه وثقافته ومواهبه في اول الامر على تعليم تلاميذه لا المنهج فحسب ، بل كذلك معنى النخوة والرجولة والشهامة والاعتزاز بالوطن وامجاده .. ومعنى التبرى من التعصب والفروخ والصلف والكبر الفسارغ .. ومعنى الاستمسك بالعدل وكراهية الظلم حتى قدره تلاميذه تقديرا عظيما وخلصوا له الود والحب .. الا أنه لم يشعر بالسعادة لمثل هذا التقدير وذلك الحب ، لانه كان يحس على الدوام أنه مغلوب على أمره يعمل تحت ظل الاستعمار الذي تشخص امامه في شخصية مستر دنلوب الكريهة ، وان رضاه بالسكوت من استبداده دون مواجهة يناقض الدروس الاخلاقية التي يلقتها للطلبة ، فهرب من مهنة التعليم ودخل في مهمة الوظائف الادارية حتى بلغ منصب السكرتير العام لوزارة الزراعة وحصل على رتبة البكوية ... ولكن رق الوظيفة الادارية تحت الاحتلال قضى على كل ما تبقى من قوة الاحتمال ونفذ صبره ، فمال للعزلة والتبحر في دراسة التصوف ... لانه لم يكن عنده القدرة على ان يعلن الثورة ضد الاحتلال ويقاوم الاوضاع الفاسدة ويعترض على سياسة الحكام ويقوم تصرفات المحكومين .. بل لم يكن امامه الا ان يتخذ موقف الرفض ، وهو موقف سلبي يلجأ الى عزلة قد تشيع ميوله في التصوف وتمغيه من اللوم ، وتنفي عنه المسؤولية الناجمة عن الاشتراك في اى عمل من الاعمال ، وتقلده مما يتفشى بين الناس من احقاد وخسة ووضاعة ، الا انها حطمت كل جسر يربطه باهتمامات الناس ، وجعلته يعيش في امتعاض كامل لكل ما يدور حوله ، سواء من تسلط الانجليز او من استعلاء الاجانب على المواطنين ، او من تخبط سياسة الوزراء او من نهب الخديو للبلاد .. او من تفشى الفلظة واللجاجة والوقاحة والغش والمكر والخبث بين العامة .. فاذا بالشعور بعدم الرضا الذي ادى به الى العزلة يتحول الى سخط ، والسخط يصيح امتعاضا يشعره بأنه ليس له مكان في هذا البلد فترك مصر هربا من كل هذه الاوضاع التي لا يرتاح اليها .. ولكن ما ان خرج من مصر حتى وجد نفسه في مهب آلام ضاربة تعصف به من كل جانب .. فما استقر في بلد الا واحس بالفربة وماش في عذاب اشد من عذاب الحياة في مصر ، فلم يصبر على الاقامة في المانيا وسرعان ما هاجر الى استانبول لعله يجد في بلاد ينتسب الى اهلها ينسب من الاصل بعض الراحة بين آل اجداده ، ويحس بنوع من الامان والاطمئنان يخلصه من الشعور بالظلم والاضطهاد والمهانة .. ولكن ظل جيس عزله ومراعاته ، تبدو عليه مظاهر

الاعياء من ارهاق نفسي رهيب .. تشقيه الوحدة في الشيخوخة وتضنيه الهزيمة بعد أن ضاع  
الامل في كل شيء ، ولم يعد يبالي بالتقدم او التخلف بالحياة او بالموت فلا الحياة في مصر اعطته  
ما يريد ولا العودة الى الوطن الاول ردت اليه ما ظن انه فقدته في مصر .. وما أن اشتد به المرض  
حتى اضطر للعودة الى الوطن الذي نشأ فيه وتربى ليموت ويدفن في مقابر أسرته .. ولقد  
شيع جنازته خلق غفير من تلاميذه واصدقائه وكل من سمع عن مكانته وجهوده ليشهدوا العالم على  
أن مصر لم تبخل على هذا الرجل بالتكريم والتقدير ، ولا تنكر فضل من قدم لها خدمات  
جليلة ، حتى ولو تنكر لها واعطاها ظهره ليخفي معالم الغضب والضيق والرفض والامتناع. (٥٢)

الا ان يحيى حقى لم يكتف بان يعرض مشكلة تمثر العناصر المصرية التركية في تعميق مصريتها عرضا  
واقعيا من خلال مشاهداته وملاحظاته هنا وهناك في مصر وتركيا ، وفي مختلف الاوساط التي اختلط  
بها واجتمع فيها مع عناصر تتضارب في داخلها التيارات المصرية التركية من الاقارب والاصدقاء  
والعارف .. بل اهتم ايضا بمعالجتها كفنان القصص المتميل تاركا مطلق الحرية في العرض  
والوصف والتحليل لشخصيات موجودة فعلا في المجتمع المصري ، دون أن ينبه الى أصولها التركية  
الا بالإشارة او الرمز ، محاولا يبرز مجهوداتها المتواصلة من اجل الاندماج في المجتمع المصري  
اندماجا كليا خلال شتى مراحل تطور تفكيره . ونخص بالذكر هنا ثلاثة نماذج مختلفة تناولها في  
« قنديل ام هاشم » وهي شخصية « داود افندي » في قصة « السلحفاة تطير » .. وفي  
مرحلة « صبح النوم » وهي شخصية « القزم مع زوجته » .. ثم في مرحلة « الفراش الشاغر »  
وهي شخصية « فتى العائلة » .

١ - اما عن شخصية « داود افندي » في قصة « السلحفاة تطير » انه تصور لنا كيف  
ينزل المجتمع العقاب بكل من يعتزل الناس ويعيش بعيدا عنهم ولا يشاركهم في معارفهم وانفعالاتهم ،  
فيتعذر عليه الاندماج اندماجا ايجابيا فعلا في الحياة العامة ، فيجانب تصرفاته الصواب ، اذ  
كثيرا ما تختلط عليه الامور ويقع فريسة الحقد والمكر ، فيتصرف بحماقة قد توقعه في مشاكل  
تضيق عليه كل شيء وتفرض عليه ضربا من التألم تفقده مقومات شخصيته الاصلية المتوارثة ، دون  
أن يمتحها أصالة جديدة ويفرقها في تقاليد بالية متخلفة .. وبصر يحيى حقى على أن « داود  
افندي » شخصية خيالية ، الا أنه يؤكد من حين لآخر انه ليس شخصية خرافية بل لا ينفي احتمال  
وجوده بيننا حيا يرزق .. وداود افندي كما يصوره لنا يحيى حقى احد اولاد الدوات الذين  
ورثوا من وارثين من وارثين .. فكان من المعقول ان يفتقروا طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل  
« فاصبحوا كالحيوان البرمائي لا هو هنا ولا هو هناك .. فهم لذلك اسرع انقراضا » (٥٣) يتشبهت

(٥٢) يحيى حقى : « نس في القل » كتاب الجمهورية العدد ٢٨ يوليو ١٩٧١ القاهرة .

(٥٣) يحيى حقى : قنديل ام هاشم .. قصة السلحفاة تطير : دار المعارف - القاهرة مجموعة اقرا رقم ١٨ .

بأن يسكن في ملكه بدار قديمة في حارة مسدودة ، مع أن له استحقاقاً في وقف ورثة عن أم أمه أو جد جده ، يمكنه من أن يعيش في حى أفضل .. هو بالنسبة لجيراسه غنى ولكنه في الواقع فقير .. يعتز بأصله الذي يغنيه فيستريح ولا يسلكه في الفقراء فيريح .. ان هو ككل اولاد الدوات الذين تربوا في آثار عز سالف .. نجد فيه مع الكبرياء والانفة كثيرا من الاخلاق الصبيان وقلة الدراية بالحياة في معتركاتها .. بما في العالم الخارجى تمسكا بالماضى .. طيب كريم مع معاونه .. ينفر من الغريب .. أهل الحارة تجله لغناه .. وتستعبطه لنزوله الى مستواهم ، ويتعجبون كيف يجد لذة في أن تصافح يده الناعمة النظيفة يدا صلبة خشنة كيد العمال ...

ولما حدث ان استدعى لقسم الشرطة بسبب مخالفة القاء ماء قذر في الطريق وهو يجهل اسلوب التعامل في المجتمع الذي يعيش فيه - فاذا بعامل تعود الجلوس معه ويتظاهر بصدافته يستفزه ويسهل عليه اثارته ضد سوء معاملة رجال الشرطة لعامة الناس ، ويبيدي رغبته في الذهاب معه الى قسم الشرطة ليكون في عونه .. الا انه لم يف بهذه الرغبة .. وكان الجاويش فعلا من الغفظة وقلة الادب بحيث لم يستطع داود افندى ، بمافيه من الكبرياء وقلة الصبر ، ان يقبل ان يهزه الجاويش هزة توقع طربوشه على الارض أمام عدد كبير من الناس .. وصمم على أن يرفع دعوى تمويض بقرش صاغ واحد كرد شرف .. وما كان من هذا العامل الا أن سايره وشجعه على أن يستمر في مقاضاة الجاويش .. ولم يتأخر هذه المرة في الذهاب معه الى المحكمة . لما رآه وجلا مضطربا رغم انه اعتقد ان العدالة تقتضى ان يدفع داود افندى ثمن تعاليه وابتعاده عن محيط الحياة التى يعيشها المكودون المتعبون من عامة الشعب المتصببون هرقا في زحمة الحياة القاسية ، اذ ان قلبه رق له عندما اشتد به القلق .. ولكن سرعان ما اعتاد داود افندى المحاكم بعد أن تكرر تأجيل جلسة الدعوى مرة بعد اخرى .. واذا به يصاحب وكلاء المحامين الذين وجدوا فيه صيدا ثمينا يلتفون حوله ، يحتسون القهوة والشاي ، ويدخنون النارجلية على حسابه .. ويجد متعة تصل حد الهواية في عمل المحاكم دعمته الى ان يشارك وكلاء المحامين في احاديث القضاة ويدخل معهم جلساتها لمجرد الاستمتاع .. مما أغرى صديقه العامل بأن يعرض عليه بأن يتكلف برفع دعوى لقريب له معدم يستولي رجل ذو بطش وسلطان على ملك واسع له نظير اقتسام ما يحكم به مناصفة بينهما .. فوقع في المصيدة واذا بشهامته وطيبته وجهله تبسط له الامور ، وتدفعه لان يظهر كامل استعدادده ليصرف على هذه الدعوى حتى ولو رهن مصاغ زوجته .. وبورط نفسه في مشاكل الآخرين غرقته فيها هذا العامل عن حسن قصد او سوء نية ، اذ انه يدعى انه ما اراد الا خير الجميع بان يخدم الاثنين معا فيشغل داود افندى اوقات الفراغ في عمل يعود عليه بالنفع ويرجع الملك المكتسب لقريبه ... ولكن وكلاء المحامين تراحعوا حول داود افندى يستغلونه ويستنزفون امواله ، كأنهم يريدون أن يستردوا دينا بطريقة غير مباشرة او يستعيدوا اموالا كانت لهم سلبت منهم بطريقة او بأخرى ..

فكان داود افندي ضحية انتقام جيل مما سبق فعله اجداده بعامه الفلاحين واستغلالهم لكافة المصريين وخذاعهم لهم وسلب اموالهم .. وهو لا يدري كيف يتصرف بحكمة وقورة .. بل تستولى عليه كبرياء وانفة تجعله يمشى في الماضي اكثر من الحاضر .. وتدفعه لان يعتز بأصله الذي لا يفنيه ، ولكنه يتشبث به لجرد أنه يريحه ويرتاح الى المشاعر التي توهمه بأنه ما زال ابن عز من قمة رأسه الى اخمص قدمه ... « عجبت من همه التافه .. ولكن كثيرا من الناس الطيبين لا يسلمون في بعض الاحيان من الوهم والشك في براءة ماضيهم ... فتختلط في اذهانهم الرغبة بالحقيقة ... ام هم يستيقظون فجأة الى انه ليس هناك دليل واحد على أن الحياة غير مزدوجة .. لا يستطيع ان يكون واثقا كل الوثوق من أن ليس له في الوقت نفسه حياة أخرى كالاحلام .. لا يشعر بها كما لا يشعر بما حوله من ركب الدوار في حياة تتصل طي ضباب كثيف بحياة اشد غموضا لكائنات أخرى .. (٥٤) » .

ولكن سرعان ما طحنته الايام وضاع بين الاحداث وتاه في خضم المشاكل ، بسبب جهله بالمصريين وبعده عن الحياة المصرية وتفوقه داخل عادات واتجاهات تأبى عليه الخروج من داره القديمة بالحارة المسدودة .. ومسح ذلك اجبر في النهاية الى أن يندمج في الحياة المصرية وغما منه ولكن من الباب الخلفى دون ان يتحرر من مشاعر القرية .. وان بدا انه اخذ يجارى بعض المظاهر السطحية للحياة المصرية .. بخلاف جاره ذلك العامل الذي نشأ نشأة متواضعة ولا ينفك يعرض عليه خدمات لا ينجزها ، بل يورطه في مشاكل مدمية انه يقصد مساعدته ... يركز اهتماماته نحو التخلص من وسط عمال اليومية ليلحق بطبقة الافندية اصحاب المرتبات الشهرية .. واخيرا نجح في تحقيق رغبته بعد الحاج واراقة ماء الوجه وتخلص من ماضيه الكريه كله . حتى الحارة المسدودة تركها وسكن المنيرة .. بينما انحدر المال بدادود افندي .. واذا به يشاهد يجلس في مطعم امام طبق فول مدمس بجلاية وجاكيتته ، تجمع اصابعه بلقمة حبات الفول ويمسحها في الزيت ثم تحملها كتلة واحدة كالكرة الى فمه .. ويتجشأ برائحة البصل الاخضر والفجل .. وهو الذي تعود تذوق ضروب من الموسيقى الرفيعة يتأق في ملبسه ولا يأكل الا أخف انواع الطعام ، امعانا في اقهار احساساته بأنه يختلف حقا عن عامة الناس .. وما ان شاهده العامل وهو يأكل في مطعم الفول حتى اظهر انشراحه وسروره لهذا التحول في حياة داود افندي . اذ تأكد ان صحة داود افندي اخذة في التحسن ، وانه تخلص من امراض معدته التي يشكو منها .. ولكن ما ان تقدم اليه لتحيته حتى نظر اليه داود افندي نظرة تجمع اقصى ما تستطيع ان تستوعبه من الكراهية والتأفف والبغض ويصرخ شائحا بوجهه : « روح الله يخرّب بيتك زى ما خربت بيتى » (٥٥) .. وهكذا القى داود افندي مغبة كل ما وصل اليه

(٥٤) نفس المرجع السابق .

(٥٥) نفس المرجع .



يحيى حتى .. بين المبرية والتركبة

من حال على هذا العامل البسيط الذى أصبح أفنديا .. ولا يدري لماذا يكن له داود أفندي مثل هذه الكراهية وذلك العداوة ، مع أنه حاول أن يقدم له كل ما يستطيع أن يقدمه له من خدمات .. ولم يعرف ماذا فعله حتى يلقى منه مثل هذه المعاملة القاسية .. !!

ب - ان تفسخ شخصية داود أفندي لم تغادر ذهن يحيى حتى .. فما ان قامت ثورة ٢٣ يولية حتى دعت ما أحدثته هذه الثورة من تغييرات جذرية في المجتمع المصري الى وضع قصة « صبح النوم » ليحلل نماذج من الشعب المصري قبيل الثورة وبعيدها .. واذا به يتم بان يكون من بين الشخصيات المصرية الصميمة شخصية التركي المصري ، على اعتبار انه ظاهرة اجتماعية تعيش في المجتمع المصري تحتاج للوصف والتحليل والدراسة .. ويقع اختياره على قزم فوقاوي يتناول تصرفاته قبل الثورة هو وزوجته في لوحة من القسم الاول لصبح النوم سماه « كتاب الامس » كما تتبع تطورات هاتين الشخصيتين بعد الثورة في القسم الثاني من هذه القصة الذي سماه « كتاب اليوم » ، محاولا ان يكشف عن المزيد من ملامح الشخصية التركية المصرية في ضوء المتغيرات الجديدة ، لتتضح له خبايا داخلها من طريق ملاحظة كيفية تكيفها مع كل ما يقع من تغييرات اجتماعية ... ولعله في ذلك يريد ان يصل الى معرفة نفسه أولا وقبل كل شيء حتى يجنبها التخطي والتورط والارتباك ، ويحفظها من الضياع الذي ليس بعده ضياع .. !!

وكان يحيى حتى في عمره للقرم وزوجته اكثر صراحة في تحديد اصولها التركية .. لم يقف عند الرمز والاشارة ... واذا به يصور لنا رجلا بلغ من قصر القامة حتى كاد يكون قزما .. بعد نفسه من ابناء القرية بينما هو حفيد اميرة من براري آسيا ، تركوا الوطن وهاجروا الى مصر وتقرّبوا الى حاشية السلطان الذي اقطعهم ارضا فسيحة في تلك القرية التي يدعى انه من ابناءها ... بنت الاسرة في هذه القرية دارافخمة كان اثنائها وتحفها حديث الاهالي ودهشتهم .. ومع ذلك لا تقيم فيها الا حين تجيء مع جمع المحصول ، ثم تعود الى العاصمة بعد قبض ثمنه « وشاء ربك مالك الملك ان يخلف الآباء ابناء اضعوا ما ورثوا ، واخذت الارض تتناقص اطرافها ، ويد الخراب تمتد الى المنزل .. ولم يبق لسلالة هذه الاسرة في وقتنا هذا الا ثلاثة افدنة وحجرتان فوق مدخل الدار لم تهتدم جدرانها .. » (٥٦) ومن اجل هذه التركة بلل حفيد هذه الاسرة جهدا كبيرا ليفوز بمنصب امين مخزن السماد الهين ومرتبة الضليل ، حتى يستطيع ان يعيش هو وزوجته فيما تبقى من المنزل وبراقب ارضه وينتفع بخيراتها .. وحتى لا تردد زوجته ما لديه من انها تزوجت عاطلا .. كما يعيش في وسط اناس يعرفون قدره واصله .. فتم له كرامة وعمل وجاه .. لم يكن قد تبقى في اسرته من الرجال الا هو .. يلتف حوله عدد قليل من النساء بعضهن ارامل واغلبهن عوانس وكلهن مصابات بامراض شتى .. يعيش جميعا

في فاقة مستترة في منازل مختبئة في أزقة العاصمة .. ولما تزلت واحدة من تلك القرى وخلف لها زوجها المرحوم ثروة غير يسيرة قبل العزم ان يتزوجها بعد ان وضعت يدها على التركة رغم انها ضخمة الجثة ذميمة الخلقة بشعة الصورة .. وادعى انه ما تزوجها الا قياما بواجبه كزعيم للأسرة اذ ليس لها احد غيره .. وقبلت ان تذهب معه للقرية .. الا انها اقامت في دار حسنة جميلة في اطراف القرية يدفع لها اجارا يوازي مرتب الزوج .. ثم جاء باناث لا بأس به يدل على سعة العيش واستعان بخادم اسود ، وهو ترفلا تعرفه القرية ..

وما استقر القزم في القرية حتى اخذ يرتاد على الحان ويتردد على فتاة من بائعات الهوى في عاصمة الاقليم ، يبعثر نقوده التي يبتزها من زوجته بعد عراك وصياح ويواجه عقبها من اسرافه بغضب اشد ارهابا ، مدعيا بان الديون قد كثرت عليه وينبغي ان يسددها فلا تقوى على احتمال رؤيته مغموما فتجود عليه بما يسال .. ولكن جاء يوم ونفذ فيه صبر الزوجة وبشت من علاجه .. فاذا بها هي الاخرى تحاول ان تبعثر نقودها وتوزعها على جيرانها المازومين والمساكين ، قبل ان يستولى عليها ويصرفها على الخمر والنساء .. واخذت تتوسع في الاحسان فربت لاسر فقيرة اعانة شهرية لا تنقطع .. وتكفلت برعاية بعض ايتام القرية ، وتقدم لهم ما يحتاجون اليه من مأكول وملبس وتعليم .. وتهزل لمساعدة المرضى بالهدايا والمال .. فداع صيت كرمها بعد ان عم خيرها اهل القرية واحبها الناس حبا جما .. واخذوا يضربون بها المثل في النبل والعطف على الفقراء والمساكين وصارت دارها مقصد المحتاجين وملجأ المعوزين .. ولكن كثرة انفاق الزوجة خفف النقود في يد القزم واذا به لا يقدر على زيارة عاصمة الاقليم الا مرة واحدة كل اول شهر ، وان لم ينقطع عن الحان فانه اخذ يباعد بين الكأس والكأس ويكثر من التحدث عن نكته في تلك الزوجة المتلافة التي تبعثر نقودها على الغرباء وتبخل على زوجها ، رغم انها تعلم ان كثيرا من قصادها من النصايين والادعياء .. ومع ذلك احيانا يتجح في الوصول على مال منها بطريقة او بأخرى ، وسرعان ما يندفع الى الحان ويشرب حتى الثمالة ، ويجبر جميع رواد الحان على الشرب على حسابه ، وويل للذي يرفض .. انه يجمع بين المهابة والعريضة يمر على ان يحترمه اهل القرية حين يتسبط معهم .. ويثور اذا لم يتسبطوا معه حين يزور عنهم متعجرفا ..

وكان هذا بالامس .. ولكن ما ان جاء الاستاذ - ابن القرية المثقف - وتولى حكم القرية وبدأ اصلاحاته باغلاق الحان والزم الجميع بالاستقامة حتى تبدل حال القزم وزوجه .. فاذا به يحرم على الخروج من داره في الصباح بعد ان تاب عن شرب الخمر حرصا على النقود ، بل لم يعد ايضا يهتم بحسن هندامه ، فذهبت اناقته وتبدل مظهره بعد ان انصرف كل تفكيره الى استرداد الارض التي اضاعها الااء بعد ان ورثوها من الاجداد « كانت ارضنا مربعة الشكل .. خير ارضي القرية .. فانا الآن لا افكر الا في استرداد هذه الارض .. وان ارى ارضنا عادت

مربعة الشكل كما كانت .. كان الجزء الناقص مقطوع من قلبي .. اذا عادت لى ساكون اسعد خلق الله ... ومن اجل ذلك قررت انا وزوجتى ان نوفر كل قرش وكل مليم لشراء هذه الارض . وبذلك انتهى كل نزاع وخلاف بين الزوجين لما توحدت اهدافهما وخططهما .. واخذت الزوجة تدخر ابرادها كله حتى تمكن زوجها من استرداد ارض - اجداده .. وقبلت ان تتحمل في سبيل ذلك كل مشاق العمل المنزلي بعد ان استغنت عن الخادم ، ولم تعد تبالي بمساعدة احد .. لا يهملها سوى ترقب اليوم الذي تحلم به هي وزوجها .. وهو يوم تبيع الارض ..

فما الذي بدل الاندفاع والعجزة والتبذير والحماقة عند القزم الى حرص وتقدير واهمال المظاهر .. ؟ ولماذا انسأقت الزوجة وراء الزوج في مثل هذه التصرفات ، ورضيت ان تتخلى عن الإحسان والعطف على الفقراء والمحتاجين ، وقبلت العمل المنزلي الشاق دون عون خادم وهي التي نشأت على الترف والرخاء .. ؟ ولماذا هذا الإصرار على تبيع الارض .. ؟ **لاشك ان هناك انفعالات عميقة هزت شخصية المصرى التركي تنبه يحيى حقي الى تطورها القريب بعد قيام ثورة ٢٣ يولية التي نزلت نزول الصاعقة على كثير من العائلات المصرية ذات الاصلاب التركية بسبب ما أحدثته هذه الثورة من تغييرات اجتماعية واقتصادية فاذا بكثير من هذه العائلات تجد نفسها في العراء بلا ارض او مال بل بلا سند من السلطان بعد الغاء الملكية واصدار قوانين التأميم وتحديد ملكية الاراضي الزراعية ..** اذ احدث كل ذلك ضربا من الفزع الفكرى ما جعل مثل هذه الشخصيات تنكمش انكماشاً اجتماعياً مريضاً يتخلى عن القيم التي تتمسك بها وتعودت عليها، فتتركز للإحسان ومساعدة الآخرين وحسن معاشرته الذين يحيطون بهم ، وجبست انفاسها في احلام الماضي تحاول ان تحقق آمالا بالعرلة والحرمان من تلك المتع التي كانت ملك ايديهم في ذات يوم بدون مقابل من الجهد والعرق ...

الا ان يحيى حقي لا يترك قارئ « صح النوم » دون ان يشعره بانه ما زالت في جعبته تحليلات تخص الاسر التركية المصرية لم يفض بها بعد ... واذا به يفاجئنا بقصة « الفرائش الشاغر » فنجد فيها من الكآبة والبشاعة ما تشمئز منها النفس على غير ما تعودنا عليه ... فاذا كانت صراحته وسخريته لازمة فان عرضه للخراب الروحي الذي اصاب اسرة شارع الريحان يثير الفزع المخيف .. ويتعدى مرحلة الضياع التي كانت تعيشها اسرة القزم .. وتلدر بخراب يبعث على نفور انساني مروع من واقع حياة كريهة تشنه ، يشن في أعماقه من تاوهات تشكو من ظلم الانسان للانسان على مدى اجيال واجيال خلال احداث ومحن لا ذنب فيها للجيل الحالي المتخاذل المتواني ، الذى استسلم لوهم بان الاقدار هي التي شاءت وهو لم يشأ شيئا على الاطلاق .. !!

ولكن يحيى حتى لم يرد أن يكون واضحا كل الوضع في قصة « الفراش الشاغر » ولذلك لجأ الى الرموز الرهيبة التي تهول في إثارة القرف من مصير أسرة شارع لريحان التي هوت الى حضيض خلقى يحط من كرامة الانسان .. واستباح لنفسه بأن يستعين بشتى الصيغ البلاغية من تشبيه واستعارة وتورية وكتابة .. يخفف بما يتعمده ايهام واعمال فكر من وطأة البيان المباشر من الفحش والفسق والخسة في الانسان .. II

اذ تصور لنا قصة « الفراش الشاغر » مدى ما وصلت اليه أسرة مصرية - هي في الاغلب من اصل تركى كانت تسكن بشارع الريحان ، وهو أشبه بحارة في حي شعبي تتزاحم على جانبيه كثير من الدكاكين المتلاصقة الفقيرة .. من بينها دكان حانوتى يقع قبال بيت هذه الاسرة التي تتكون من اب وأم وولد ، وحين تعيش في سر وترف وسط أسر مطحونة وعمال فقراء ... ومع ذلك تركها الجيران واهل الشارع في حالها لما بدا لهم ان افرادها على قسط كبير من الحياء الذي يجعلها تفضل ان تعيش في عزلة وراء ستر .. الا انها لم تستطع ان تخفى ما ترتع فيه من سعادة ورفاهية وترف ، اذ تفيض مظاهرها في المواسم والاعياد بنور الفرح الذي يتدفق من النوافذ وما يصل الى اسماعهم من خلجة الضحك .. كما انه كثيرا ما تقف سيارة فاخرة من حين لآخر امام باب البيت وينزل منها رجال يتأسون لحاله لما يصدر عنه من تصرفات غريبة ..

الا ان هذه الاسرة في الحقيقة تميل الى « نفث اليدين من دنيا الناس .. هي عندهم زناير لا امن الا في تجاهلها .. » - وتمتد ان العيش ، ليس خطأ عموديا يرتكز جديده على قديمه ويتسع الافق كلما علا .. ولا قوس دوران فلك شروق ثم سمت فانحدار فمقيب بل تقف نظراتهم الى الحياة عند حد انها مجرد خط افقي ايض مستقيم ترسمه نقط سود متشابهة ضاع لونها من شدة تلاحمها ولذلك آثرت هذه الاسرة الانسحاب من دنيا الناس ، فأفرغت حياتها من كل مضمون ايجابي ... ومضت تحيا في السلبية ... انهم يخشون الجهد ... فيؤثرون حياة الشح والجبن لانها دائما مضمونة ... اما ان تكون كريما وشجاعا على الدوام فهذا ليس مضمونا « ( ٨٥ ) » بلخ ترقهم درجة ان « طعامهم تمضغه لهم قبلهم المغارم ويد الهاون .. يأكلون اللحم والخضروات كلها عجينة واحدة مهروسة ، ويجدن لذة مذاقها في ضياع طعم اجزائها .. فالشيوخ عندهم نجاة من مقابلة وجهها لوجه لنعمة مخلوعة العذار . ( ٥٩ ) » واذا كان الحق يقتضى ان يشكروا الله على هذه النعم .. الا انهم يتنكرون لها وينكرونها بما يوقعهم في وضع متعب ، يفتح على مصراعية كل ابواب الفكر ، رغم انهم اكثر من غيرهم معرفة بقيمة هذه النعم وينبغي ان يكونوا اشد امتنانا لها ... واذا زعموا انهم « كفوا عن الاعطاء خشية نوال عوض ينرفهم يجذب به او

(٥٨) يحيى حتى : الفراش الشاغر .. مجلة الكاتب .. ابريل - ١٩٦١ - القاهرة .

(٥٩) نفس المرجع السابق .

يمتصهم بفيضانه وادموا انهم بذلك امنوا التفجع وضرب الكف لدمامة العقوق من الآخرين الا انه بهذه الزام وتلك الادعاءات لا يخفون الا خسة ارواحهم هم انفسهم وهي تنهيب عن الاخطاء حتى تبقى على ما هي عليه من حنق الشح وخوره .. وتبعد عنها ما استطاعت سماحة الكرم وشجاعته .. ولذلك « اذا ما خلوا الى انفسهم يشعرون بان ايامهم قد سقت اسمائها » وتشابهت ولا ينتبهون الى ما بينها من فروق .. ولا يحسون بحياة حدث من الاحداث الا اذا اربط « بدوران ظل او بتريد صيحات الطيور المهاجرة (٦٠) » .

ورغم ما تعيش فيه هذه الاسرة من غربة تكاد تفصلها تماما - سواء اكان فكريا او عمليا - عن كل ما يحيطها ومن حياة اجتماعية مما يجعلها عاجزة على التجاوب مع كل ما يطرا عليها من تقلبات وتطورات .. فان هناك ايضا وباطا هشا لا يكاد يوطد العلاقات بين افراد هذه الاسرة .. ولذلك لا نعجب اذا ما اختلطت الاعمار باختلاط الايام ونادى الزوج امراته بيا امي .. وهي تناديه بيا ابني .. ويناديان ابنا الوحيد بيا اخانا .. ونادى الابن امه بيا عروستى .. في حين ان مناداته لابيه قد نسيها لانه اقلع عنها منذ سن الخامسة ، واصبح لا يتحدث اليه او عنه في حضرته ، ولا يشير اليه بضمير الغائب « هو » في حالة غيابه ...

ورغم ما تعيش فيه هذه الاسرة من سرور فاهية فانها رضية بان تقيم في شارع الريحان الشعبي الفقير المتواضع الذى كل اهله من الكادحين المكودين ... وقد يرجع ذلك الى نوع من الحب للشارع واهله ينبعث من ارياح افراد هذه الاسرة الى نظرات التقدير والانبهار التى يشاهدونها فى عيون الاهالى من حين لآخر ، ومغوضهم عما فقدوه من سلطان وقوة ونفوذ .. ولذلك فضلت السكنى في وسط هؤلاء القوم البسطاء السذج في نفس الوقت الذى تحيا فيه حياتها الخاصة حسب تقاليدها وما شئت عليه ، فهي وان كانت تترتاح للاقامة في احد بيوت شارع الريحان كمكان استيطان فانها لا تميل لمشاركة الناس والجيران وسكان الشارع سواء في حياتهم الخاصة او العامة .. بسبب فقدان الثقة المتبادلة ولا وقبل كل شيء .. وتوقع الغدر من الآخرين في اية لحظة بمناسبة وبدون مناسبة .. ولذلك خشى افراد هذه الاسرة تقديم المعروف حتى لا يقابلوا بالخسة وتكران الجميل ... بينما يشعر اهل الشارع بان هذه الاسرة ترفع في عز ليس من حقها لان افرادها لا يكادون يعملون شيئا ولا يؤدون خدمة ما تعود على احد ينفع .. في نظرهم لا تستحق حتى مجرد الحياة .. وان ما تنوهمه فيهم هذه الاسرة من خداع وغش وتكران للجميل ما هي الا ضروب من الاسلحة يتدربون بها ضد مواقف مثل هذه الاسر من عزلة وسلبية .. وتأتي التقرب بالزلفى والخضوع والطاعة لن يمتنع عن الاعطاء ويريد في مقابل بقايا ما يتساقط من الموائد المزيده من الشكر والعرفان .. ولذلك لا نعجب اذا ما انعدم التفاهم وتفككت الروابط ، وان كان الجميع يلتفون حول حب الشارع ولا يريدون به بدلا ويتعلقون به كل التعلق ...

وهذا التضارب في المشاعر يدعو الى ضرب من التخييط الانفعالي لا يعرف كيف ينسق بين تيارات هذه المشاعر المتعارضة ... فالعزلة لا تمنح الامان . . . والاختلاط لا يبعث على الاطمئنان . . . !! ان الكبرياء المجروح .. والتعالي العاجز والعنجهية المتداعية تشعر على الدوام بأن المشاركة والامتزاج والدوبان لا تخلو من انهزامية ، وتتم عن خيبة وفشل « واضمحلال فيزاد التمسك بالعزلة كستار يخفى العجز ويمنع الآخرين من كشف النقص والضعف والتخاذل ، ويكتفى ، بأن يعيش حياة سهلة ميسرة تخفف عنه وطأة ضياع النفوذ والسلطان ولا تشعر بالحاجة الى العمل الجاد النافع ، او تدفع لتحقيق مستقبل افضل ... لان المشاركة بمختلف الجهود لن توصل الى ما كان عليه الاجداد او ترجع مجد الماضي الذي ولى . . . فهناك نوع من اليأس ادى الى حالة من الرفض لا تقبل الاستسلام والرضوخ للامر الواقع ، فانساق اصحاب المجد الضائع الى العزلة السلبية والامتناع عن عطاء يعلنون بها عن سخطهم وغضبهم ... ولم يجدوا ما يمنعه من التمتع بالثراء المورث في لا مبالاة تقف عند حد الاستهلاك لهذا الثراء ، دون التفكير في استثماره استثمارا يعود على الجميع بالخير يدعون انهم يعيشون على موارد يحاول الاهالي نهبها وحرمانهم منها ، وليس امامهم الا زيادة الحرص الذي اضاف عليهم مظهر الشح الذي يتعرب من السخاء ، خشية مفبة تكاثر عدد المطالبين بالهبات والهدايا ... وهكذا تحول الخوف من نهب المال المورث والمصدر الوحيد للحياة الرغدة الى امتناع عن الاعطاء . . . !! ولا بد ان نتوقع انقطاع كل صلة نبيلة بينهم وبين عامة الناس . وضياع الثقة المتبادلة بين الجميع ... ولا تدري كيف يمكن تحمل مثل هذه الحياة التي تفتقد كل هذه المعاني لولا حب الكل للشارع . . . !! ان العزلة مهما كانت صارمة لا تستطيع ان تقطع كل الصلات بحياة اجتماعية يعيش الانسان في وسطها ، وتحيطه من كل جانب ، وتقايله رغماسه في أية خطوة ولذلك فان الانطواء الذي يلتزم بالعزلة الكاملة لا يمكن ان يصل الى حد الهروب الكامل الشامل من هذا المجتمع . . . بل ان العزلة في حد ذاتها لا تستطيع ان تحول دون اثر المجتمع المضاد الذي قد ينزل اشد ضروب العقوبة على كل من يقف منه موقفا سلبيا ولا يسهم اسهاما ايجابيا في تقدمه ويمتنع عن المشاركة والبلل والاعطاء .

لقد توفر لاسرة شارع الريحان حياة سهلة مترفة دون صراع او تراحم ، جعلها لا تبالي ببلل جهد او امعان فكر ، لانها لا تحس بالقلق على الرزق او تخشى من تقلب الفد . . . كما تعودت ان تتصرف بحرية دون قيد او ضغط . . . تتمتع بقدرة على التحرك دون ان تسمح بتدخل من احد . . . يوجد بين افرادها علاقات رقيقة لا عنف فيها ولا صخب ، تهتم بتبادل الاحترام والحرص على مظاهر المحبة . . . وتلتزم بتماسك لا يعترف بتسرب دخيل . . . الا انها في النهاية لا تكون مجتمعا قوى البنيان يحتمل مواجهة كل ما يحدث من تطورات في المجتمع الكبير . . . ولذلك غالبا ما تتخبط التصرفات وتضطرب التحركات اذا ما احتك احدهم بالمجتمع الخارجي . . . او اعترى هذا المجتمع اى تغير مفاجيء او تعديل غير متوقع . . . رغم ما يتمتع به من حرية تسمح بالانطلاق والتصدي لكل ما يستجد من مفاجآت . . . وتقوى على ازالة كل غشاوة تعوق وضوح

الرؤية وتطمس معالم الطريق السوى .. وذلك لأن أفراد هذه الأسرة رغم ما يرمعون فيه من مستوى حضارى متقدم فانهم يقضون ايامهم بلا آمال عريضة تقصد تحقيق هدف محدد ، ويسرعون بتلبية رغباتهم الطارئة دون اهتمام ببلوغ غاية مرجوة ... !

ولذلك لما أبدى الابن الوحيد رغبة في الالتحاق بكلية التجارة دون ان يبدى الاسباب لم يعترض احد ، وتركت له مطلق الحرية في الاختيار .. بل لم يندعش الوالدان حين عدل عن الدراسة في الكلية بعد ان امضى بها سنة كاملة .. اذ لم يخطر على بالهما أن يجبراه على دراسة أورثته كرها للعلوم التى تتعلق بشئون المال والتجارة والادارة والارقام .. لانهما لم ينتبها الى ان فقدان الهدف والبرنامج وضياع الامل في المستقبل هو الذى جعل الفتى لا يجد المتعة العقلية في هذه العلوم .. فلم يواصل دراسته في كلية التجارة .. ورغم أنه رأى باختياره ان يلتحق بعد ذلك بكلية الآداب ، الا أنه لم يرتح الى ما عرفه من نظريات ومذاهب ودراسات حثته على الجدل والثروة والسفسطة ، ولم ترب فيه تلوفاً للادب والفن ، ولم تقدر على تنمية احساسه بالجمال ... ولم يجد من يراجع له حين عدل عن دراساته في كلية الآداب بعد ان كرس لها سنة أخرى .. بل طأوعه والداه حين فضل ان يقطع صلته بالدراسة ويبقى في الدار عاطلاً بلا عمل سنة ثالثة ... ولكن الفراغ قلب حياته رأساً على عقب ، اذ أخذت تراوده أفكار الزواج .. الا أنه لم يشغل نفسه طويلاً في البحث عن زوجة تهون عليه مثل هذا الفراغ ... لقد كانت تزورهم فتاة ريفية في صحبة أمها ومع أبيها مستأجر اطيان نجم العائلة كلما حل موعد تسديد القسط الشهري او القسط الصيفي ... وسرعان ما استولت عليه نزوة حكمت بأن هذه الفتاة تصلح له « فهي فتاة خام ساذجة لها عيون سبالة لا تقوى على توجيه النظر .. وجهه لا تبرق بفكرة .. وجسد في حالة شيوخ تاهت فيه مقائن الاعضاء .. وشعر ملبد يرى من الآن مقدار سحره اذا غسلته وتهدل ضغائر مبتلة على جبينها وخديها .. » فلم يتردد ووقع عليها اختياره لتصبح زوجة له ، رغم انه عرف انها ارملة لزوج من اقربائها في الصعيد قتل في حادث اخذ بالثار بعد ايام معدودة من زفافها اليه ... اذ أحس وهو في طريقه اليها انه قد ارتد الى الطبيعة الام وتخلص من تقاليد الاجداد ، التي جرت على خوض المعارك من أجل الظفر بزوجة ابتداء من المطاردة واقتناص الوحش للوحش الى خطف ثم شراء وإثبات بطولة بعد نزال الحالى فيما ينساق اليه من متاهات الغزل والسر .. ولا يوجد ما يجبره على ان يجارى الشباب والتنهات .. وراقه ان يحصل على زوجة سهلة قد تولى غيره فك بكارتها ودكها كالطاجن .. وما عليه الا ان يشتريه مستويها ناعماً جاهزاً.

ولقد هيات له نزوته في الزواج من فلاحه صعيدية حالة نفسية جعلته يستغنى عن فرش المدينة ، ويهتم بأن يؤث حجرة العرس على النمط الريفي من حصيرة ترص عند حافتيها الشباب والشباب والقباقيب .. وسرير من الحديد لعملة شاءت العروس ان تكون من سلك هزاز ... وناموسية من حريق وودى ... وصندوق للعلبس مزين بالأحمر والأخضر .. وطشت

ودست للفسيل .. حتى يعيش في جو مصري ريفي خالص ... ولعله يكون قد توهم بأن اقباله على الزواج من صعيدية ، وثالث غرفة ريفية على خلاف عادة اسرته في الزواج داخل العائلة ذات الاعراق المتشابهة والتقاليد المتقاربة قد ساعد على تحقيق رغبة كامنة تنشد الامتزاج بعمامة الناس ولا تعرف السبيل الى ذلك ، ولكن النزوة والتوهم والرغبة لا تكفي لتحقيق حياة مستقرة ... لقد اختار الفتى زوجة فقيرة جاهلة ساذجة بسر لها كل ما تنشده في عش الزوجية ، وكفل لها كل سبل العيشة الطرية .. وتوقع ان تكون طوع بنانه .. فلقد اعطاها ما فيه الكفاية وهو لم يتعود الاعطاء .. وليس لها في ان تلزمه بأى نوع آخر من الاعطاء .. وغاب عنه ان هناك اعطاء تفرضه الطبيعة يعد في نظرها ونظر شبيها تهسا من أولى واجبات العشرة الزوجية ، لا تتحقق الا به ولا تتم أو تستمر الا في احضانه .. نفوجىء في الليلة الاولى ذاتها بأن يرى هذه الفتاة الخام الساذجة الطيبة في حياء قد انقلبت الى وحش ضار مفترس .. العيون المسبلة ابرقت وانبعث منها في جوف الليل نظرة مستعرة تلحس جسده .. والجبين الذى لا يلعب بفكرة أصبح سطورا عليه امر مستعجل نافذ الاداء على الفور .. الشفاه الرقيقة المطبقة انفجرت عن رعشت تلهث ... الغم يتلمظ ولا يستقر ... وانكشف أسنان تلالا جوعها فتطير من حولها الظلام مدعورا ... والاعضاء التى كانت تزعم انها فقدت فنتتها في شيوع الجسد استرد كل منها حقه ، بل واغتصب لنفسه فتنة الجسد كله .. « ولم يكن يتصور ان واجبات العشرة الزوجية تتطلب كل هذه الحدة والاندفاع وذلك النهم والالحاح .. والامر لا يحتاج لمثل هذه العجلة التى تفقد الشهية وتضيع المتعة .. انه اراد من الزوجة ان تكون مجرد دمية طيبة يتسلى بها ، او لعبة جامدة يلهو معها .. ليس لها حق المبادرة وهو غير ملتزم بأية مسئولية نحوها .. ولذلك لم يكن يتوقع ان تصدر مثل هذه الانفعالات المفرية عن تلك الفتاة السمراء .. ! !

ولكن كيف يتصرف معها ويعطيها ما تتمسك بطلبه .. ؟ كيف يرى ظمأها الفريزى الملتهب ويشبع جوعها الجنسى العارم .. وهى لا تقبل التسويف والمماطلة والمراوغة .. ؟ بينما هو سليل اسرة كفت عن الاعطاء من زمن طويل ، ولا تقبل على امر الا اذا كان سهلا ميسرا . ولا تقدم على عمل الا طواعية وبإرادة كاملة دون دفع .. ولا تلتزم بمسئولية او تكره على اداء واجب . ! !

وما كادت تختبره في أول واجبات العشرة الزوجية في نظرها حتى تعثر .. واذا بفحولته لما شعرت بانها وضعت موضع الاختبار والالزام تفقد حماستها ولا تسعفه .. فسقط امام العروس ورفضت ان تعيش في ظل حياة زوجية صورية لا جنس هائج فيها ولا غرائز ملتبة .. فتبين استحالة الجمع بين سليل الاسر الراقية وبين الفتاة الصعيدية الفقيرة سليله الاسر الكادحة المكدودة التى لا متعة لها في الحياة الممتعة التى وهبتها له الطبيعة ، وتضيع في جنباتها شتى المفارقات الاجتماعية والاختلافات الحضارية ، ويتساوى الجميع في اسلوب اشباع هذه الغريزة الاولى وينعدم مراعاة أى تمايز أو تمييز اذا ما كان شبق يلح في طلب الارضاء ... ولما تأكدت الفتاة ليلة بعد ليلة من عجز عريسها في مشاركتها جنسيا بعد ان عرت جسدها وكشفت له عن



نوع جنسى كانت تخفيه في سداجه وعباء ، واسباحات له نفسها تحت اعتقاد بان ذلك امر فرضته الطبيعة ولا تعترض عليه التقاليد والعادات واقرته الاديان ما دام يسلك الطريق الشرعى المتعارف عليه ... فاحسنت بالخدعة والمهانة بعد ان عرضت نفسها عرض العبيد ولم تجد غير الصد والابتعاد ... ففضبت لافتضاح شرستها الجنسية .. وثارث لغريزتها الجريحة .. ولم تتورع عن ان ترفس زوجها رافضة ان تستمر في عشرة رجل على ما هو عليه من احجام في فراش الزوجية .. وتصارحه بعرة ونخوة بان « نساء الصعيد خلقن لرجال الصعيد » ثم تمنع في امتنانه وتواجهه بفظلة في اباء وشمم .. « اننى ابول على نفودك واناقتك وكلامك الحلو » وتسخر منه مستهزاة .. « ابحت لك عن مومياء ملطخة بالابيض والاسود والاحمر » تليق بابن الاكابر وتستطيع ان تستثير فيه نوازه الجنسية المهيضة ...

لم يكن الفتى يتوقع ان يسقط هذا السقوط في اولى محاولاته الإيجابية للمشاركة الواقعيه التي تفر به بالفعل لبنت من عامة الصعيد وتمكنه من البدء في السير على درب الاندماج الكامل ... واذا بهذه المحاولة تتحول على مذبح الجنس الى دفع في تيار عارم لا يقبل التردد والتسويق .. مع ان تصوراته في انه اختار زوجا مطواعا لبنة العربية تستسلم في هواة لاوامره ، تطيعه في كل شيء وتلبى رغباته عند الطلب دون مبادرة منها ... ولما فوجيء بضراوة جنسية مصممة على نوال حقوقها المشروعة دون الاهتمام باى اعتبار آخر .. فلم يخطر على بالها ان ترمى ما بينها من فروق في الحسب والنسب والتحضر والتمدن والنشأة والتربية والثقافة ... ولم تستعمله وتأخذه على راحته حتى يتغلب على كل هذه الفروق ، ثقلها يمكنه من ان يجتاز ما رسبه من حواجز نفسية تحول دون مساعدته على تكوين نوع من اللفة والانسجام والمودة ، تضيف على العشرة الحلاوة لا افتعال فيها ولا انتهازية ، فيسهل عليه ان يستجمع ركائز رجولته ويشحذ فحولته لتكون على اهبة الاستعداد ... ولكن تمسك العروس بأداء حقها على الفور وفي اللحظة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضارية جعل العشرة الزوجية تقوم على مجرد نزوة طارئة طائشة عند الفتى في مواجهه زوجة جادة ففى التمسك بحقوقها المشروعة ، بينما لم يسبق هذه العشرة الرسمية محاولات لتحطيم الحواجز التي خلقت ظروفها نفسية جلعت الفتى يحجم عن اداء اولى الواجبات النوعية ، كان قوى داخلية اكبر منه دفعته رغما عنه ان يملأ نوعا من الرفض لمثل هذه الزيجة غير المتكافئة ، الخالية مما ينبغي ان تكون عليه من تقارب ومشاركة واندماج لا يمكن ان تتحقق الا ببدن جهود مسبقة متواصلة لم ينتبه احد من الطرفين ان يقدم على بذلها اولا وقبل كل شيء .. !!

ولكن الصعيدية كانت اكثر حسما للمشكلة .. وسرعان ما طلبت الانفصال .. اذ احسنت بانه ليس هناك ظل من أمل في حياة زوجية على أبسط أساس من العلاقات بين الرجل والمرأة .. في حين ألم الفتى ان يسقط في نظر هذه الصعيدية التي يسيطر عليها شبق جنسى متوقد وورغبه

ملتهبة تلج في الاشباع كأنها لا تجد ما تستطيع ان تعوض به كل ما تعانيه من ضروب الحرمان الا ما تريد ان تستمتع به من لذة في فراش الزوجية...!! ولم يكن أمام الفتى الا أن يرضخ لرغبتها في اطلاق ، ولم يعارض الانفصال ، ووجد فيه خروجاً من هذا المأزق العين .. وتركها تعود الى بلدها بعد زواج صوري دام اقل من اسبوع ...!! وهكذا انتهت هذه الزيجة في مدة وجيزة لانها قامت على مجرد نزوة طفل حاول ان يلعب دور الرجولة ... وانسحبت الصعيدة من بيت الزوجية اثنائي بارادتها غير آسفة .. الا أن هذا الانفصال جدد مواعج حسرتها على فقدتها لزوجها الاول الذي ضيعته عليها تقاليد الصعيد الصارمة في الاخذ بالثأر ، وتركها حيرى حتى اصبحت مطمعا لمن يريد أن يلهو ويلعب على حساب كرامتها وعزتها .. وفضلت ان تهجر حياة لا كيان لها فيها وعادت الى الصعيد لعلها تجد في قريتها من يعوضها عن عريسها الاول من بين رجال الصعيد الذين خلقت لهم نساء الصعيد ويطيب لهن الحياة معهم .. بعد ان فشلت في ان تلعب مع زوجها الثاني دور الدمية التي لا يريد عنها بديلا ...!!

ولكن اذا صعب على فتانا ان يحصل على دمية لبعض الوقت فانه يمكنه ان يصل الى ما اشبه بالدمية بعض الوقت متى دفع الثمن ... لقد أتاح له جو الحرية المطلق الذي تعيش فيه أسرته أن يلجأ الى العاهرات يشتري منهن ، ينفي عنه سبة العجز في فحولاته دون اذعان لالزام او اكراه .. ويبعد عن رجولته شبهة العنة دون المساس بمشاعره التي يخزيها ان توضع قدراته الجنسية موضع الاختيار ... اذ « ليس لواحدة منهن حق عليه ... فلا مسئولية عليه قبلها .. انه يريد ان يشتري بالنقد لا بمبادلة شيء بشيء... » (٦١)

وكان في أول الامر لا يفرق بين غانية واخرى .. ثم بدأ يتأنق في الاختيار .. لا تروقه إلا البائسة التي يتكاثر عليها المشترون حتى يضيع في الزحام ومع ذلك قلما يجد جنته المنشودة لانه « لا يزال يتوهم حتى في أكثرهن رواجاً وانشغالا : اشاحه وجه .. أو لوية خشم .. أو دفعة يد تفسد عليه طمأنينته .. وأصبح غاية ما يتمنى أن يجد من جمد وجهها فلا يتحرك ولو صيغ بلون الشمع .. ونعقد خشمها في قالب ثبت .. ولو تصلبت الشفتان كالخشب .. ومن شلت يدها ولو اصبحت باردة كالثلج . » (٦٢)

وهكذا — حتى في احضان بنات الهوى لم يجد فتانا المتعة المرغوبة التي تكفل له الاطمئنان والثقة وتمتحة التقدير الذي يرد له اعتباره ويؤكد وجود ذاته ويعز فحولاته ويكرم رجولته ... فلما لم يعثر على العلاج الشافي عند الغانيات انتكس نكسة اصابته بعرض غريب سلط عليه ميكروبا ضعيفا تستطيع ان تلتهمه الكرات الحمراء وتقضي عليه في الحال بكل يسر .. ولكن جسده المتخاذل عجز كذلك عن مقاومة هذا الميكروب الوافى لالعة فيه وانما لفقدان ارادته الرغبة في المقاومة ،

(٦١) يحيى حقي : الفرائض الشافرة .

(٦٢) نفس المرجع .

حتى اعياء الأطباء في علاجه مما دعا احدهم الى النصيح بعرضه على طبيب نفساني .. قد يكشف عن عورات داخلية ويعرى ذاته من كثير مما تستر وراءه .. ويفصح خباياه الباطنية ويظهر للجميع خوره وتردده وضياعة سواء بين الرجال او مع النساء ... ويكفيه ما اصابه مما كشفت عنه بنت الصعيد .. وما كاد فتانا يصل الى هذا الحال حتى بدا وجهه ندبا ينطق « بانصياح رضى وطبية حلوة » واذا بحركات اعضائه تتناسق ويشملها هدوء عجيب رماه بالبلادة والتراخي « ولكنه وجدته عز الاناقة ، فزاد اعتناؤه باظافره وربطة عنقه وانسجام هندامه » واخذ « يتحرك بخشوع فيه دلال مخنث .. ويتكلم بنبرات خفيفة فيما غننه .. وبدت في عينيه عذوبة كأنما كطها بعسل » اضفت عليه رقة مهذبة ارتاح اليها ، وان كانت مغرية تدعو الآخرين للتودد اليه معاً بشعره بأنه مرغوب فيه ولا ينفر منه .

وما كاد يشعر بشيء من الاستقرار النفسي حتى راودته الرغبة في مواصلة الدراسة من جديد .. واختار هذه المرة كلية الحقوق . وسرعان ما انتبه زملاؤه لاناقة ورقته ، واخذوا يلتفون حوله لا يدرون ما يجذبهم اليه « أهى اظافره .. ام اصابعه الرخصة .. ام هذا العسل الذي يسيل من عينيه .. وهذه الرقة في حديثه » وان اسعده هذا الالتفاف الا ان « احدا منهم لم تتقدم به صلته الى درجة الصداقة التي يفصل رباطها قلبين عن وسط الزحام » ولكنه « لم يشعر بالوحدة .. بل شعر بالراحة » مما اضاف على تعسيلة نظراته ابتسامة حلوة « حتى ازداد تعلق انتملاء به واخذوا « يضربون به المثل في الطيبة ونبل الاخلاق » على اعتبار انه ابن الناس الاكابر ... وهكذا استطاع فتانا بحسن علاقته مع زملاءه ان يكسب ارضية جديدة تمنحه ما يحتاج اليه من اعتياد وتقدير يعود عليه بالثقة التي تساند الارادة .. وبالأمان الذي يبدد الآمال والاماني .. رغم انه لم يسلم من أقوال السوء التي ترى ان مقالاته في الاناقة والرقة مقومة ورخاؤه هي اقرب الى الاثوثة منها الى الرجولة ، مما دعا البعض الى توهم انه يعاني من شذوذ جنسي هو منه براء .. !!

اقبل فتانا على دراسة القانون هو مرتاح البال فتوالى نجاحه حتى لم يبق على تخرجه في كلية الحقوق الا سنة واحدة « فقد اصعبه ان القانون نجا برقبته من شريعة الكون وربكتها وتناقضها ... وتسميتها للظلم على انه في بعض الاحيان عدل » ورأى ان « القانون يصطنع لنفسه منطقاً مستقبلاً جميلاً على الورق .. بارع التقسيم والتسلسل عاجل النفاذ » الا انه بدا له كأنه « هدم بناء الحياة واتخذ من انقاضها قوالب مرقومة اقام عليها صرحه : القاضي لا يحكم بعمله .. بل من الورق ... فالورق ابين من الحقيقة .. الصدق عنده كالكذب مرفوض ، الا اذا دعمه دليل لم يجد من يكشف زيفه .. الرذيلة عنده محددة .. والفضيلة مبهمه ليس لها حساب » (٦٢) فالتقانون قد يقضي لعقاب الزوج الخائن ولكن لا يكافيء الزوج المخلص ... كما ان نظرتهم متساوية للجميع دون تمييز بين العامل والجاهل والتطوع والمعدود . ولا يعطى اى اعتبار للقدرة وما ينزله

بالناس من محن ومصائب وما يستلزم بعض الرفق والرحمة والعطف... ولذلك فإن احكام القاضى مهما كانت نزيهة لا تصل الى مستوى العدالة الحقة... ومع ذلك فإن القانون المنطقى مهما كثر من مثاله افضل بكثير من شريعة عادلة بلا منطق مفهوم... وهكذا اختلطت الامور على فتانا واخذ ينقد تدريجيا الاحساس بالفروق بين الفضيلة والرذيلة... بسبب ما نوهه من وجود تناقض كبير بين منطق شريعة الكون الالهية وبين منطق القانون الوضعى... عجز عقله عن ادراك ما بينهما من تقارب ووقف عند ادراك ما بينهما من تفاوت...!! فان ارتاح الى دراسة القانون فى الامر لوضوح منطقته وتسلسل احكامه الا انه لم يجد فيه... ما ينصفه من قسوة القدر ويرحمه من شريعة الكون ويمكنه من الانتصار على ذاته وينقذه من مصيره المحتوم...!!

ولكن اذا لم تحقق دراسته للقانون ما كان ينشده من وضوح الرؤية وراحة الفكر... الا انها اتاحت لذهنه من فرص التأمل الحر المنطلق ما أدى به الى بلوغ « لحظة صفاء » غمرته بنقاء وسكينة خلصته من كل ما يكبله من قيود واغلال. وانقذه من شتى الاوهام والمخاوف وطهرته من الدنس والنجاسة وفاضت عليه بمشاعر لا حد لها من الحرية الرجبية... كان يستطيع ان ينتهز هذه الفرصة التى لا تعوض فى تدعيم احوال الصفاء والنقاء والسكينة والطهارة والنجاة والحرية وتعميقها فى الذات وتثبيتها بين جنبات الوجدان... الا ان ذلك يتطلب سلوك هدى طريق شاق لا يقوى على تحمل جهاده الا من عرف الندم والتوبة، والترم بطريقتهما وجاهد جهادا متواصلا لا ينحرف عن مزاولته شتى ضروبه من المجاهدات الجسدية والرياضات النفسية... ليقنع كل ما فى داخله من جدور الشر... ولذلك غفل كيانه الهزيل الهش المتخاذل عن ادراك جلال ما انتابه من لحظة صفاء، ولم ينتبه الى ان ما توصل اليه من نقاء يمهده له الاقتراب من حال التوبة... فغاب عليه ان يسير فى طريق الندم والتوبة... واذا به ينمى على ما غمره به الصفاء والنقاء من حرية بلغت من العنفوان ما زلزل قوامه زلزلة اعجزته عن ان ينهض ويصرع الرجس فى داخله ويصحح الخلل الذى اصابه، وينقذه مما هو مساق اليه من امراض مستعصية... ورضى ان يبقى على حاله فى مرحلة يتصارع فيها الخير والشر ويتنافس فى السيطرة على تصرفاته الملاك والشیطان... فوقع صريع دوامة الحق والباطل... الا انه فضل ان يعاني الصراع بين الفضيلة والرذيلة تستولى عليه بليلة تسوقه الى مناهات فريية شاذة على ان يترك هذه الحرية التى انته بدون جهد يذكر تطفى على كيانه وتحكم فى تصرفاته الهوجاء... فاذا باحساس ملل فظيع يستولى على كل وجدانه، ويعكس كيانه بمرارة مرة ما بعدها من مرارة ساقته فى تيه من التخبط والقلق... بينما لم يبق امامه الا اشهر قليلة ويتقدم لامتحان ليسانس الحقوق مما زاد من توتره... وتجمعت عليه شتى المواجه، ودفعته دفعا لتصرفات بلهاء حمقاء أبعد ما تكون عن الحكمة والرفق والنخوة الانسانية، وساقته سواقا الى حتفه فى هاوية سحيقة لا قرار لها بعد ان سمح للشيطان ان يلعب برأسه، ويترك للمعصية ان تفتسه فيغيب عنه الوعى الطاهر القويم، وينساق وراء اوهام حكمت عليه بالعار والاحتقار واثارت ضده مشاعر التقزز والاشمئزاز فاستحق اللعنة فى الدنيا وفى الآخرة...!!

فنجند الطالب الجامعى الذى عجز عن توطيد صداقة كريمة بزميل له فى كلية الحقوق يتمتع فى كنفها بما يرحمه من زحمة الحياة .. يقنع صريع صداقة مهينة غير متوازنة لا تكافؤ فيها بين الطرفين ، ويرضى أن يصاحب صبيا حائوتيا فى شارع الرياح ... وإذا بأقويل السوء التى كانت تهمز بالشذوذ تصبح فجأة حقيقة واقعة ... !! لقد تعود الصبى الحائوتى أن يراه على ما هو عليه من أناقة ونعومة ورقية ورخاوة فى نزوله وصعوده من البيت الذى يقابل دكانه ... ربما سولت له نفسه أمرا خبيثا فأخذ يتربص به حتى ينتهز فرصة ليؤلق علاقته به وينال منه مراده ... وحدث بينهما هو يضع ضيقا مما يعيث فيه من ملل أن وقع نظره عفوا ذات مرة وهو خارج متأخرا من بيته بغير عادة على صبى الحائوتى وهو واقف على سلم يعلق لافتة على دكانه ... فما أن تقابلت العيون ورأى فتانا شابا « مذكوك الجسم ككيس قطن .. قصير القامة والذراع .. ضخيم اليد .. ضيق الجبهة والعينين .. نظرتة ثاقبة لها لمعان ، فيها مكر وحنى وعكارة دم فاسد وجوع الوحش » (٦٤) فظن صبى الحائوتى أن الفرصة المرتقبة قد واثته « وقبل أن يشيح بوجهه رأى الصبى يبتسم له ويرفع يده إلى رأسه بتحيةة وسلام .. فمضى وهو يعلم أنه لا بد عائد إليه » .

ولا ندرى كيف توثقت عرى الصداقة بين شابين رغم ما هى عليه من تباين اجتماعى واقتصادي وثقافى وحضارى وكيف : « أصبح من عادة الفتى أن يعفى أمسياته فى صحبة صبى العلم أمام الدكان » لعله حاول بذلك الهروب من الملل والتحرر من الشقاء الذى يعانى منه الأمرين ... !! كان أول الأمر ينزل إليه مرتديا بذلته وحذاءه .. ثم « ثم لم يجد بأسا من أن ينزل إليه فى جلبابه وشبشبته » لما توطدت اللفة وزالت ما بينهما من فروق .. فلم يجد فتانا ما يحول دون مجاراة صبى الحائوتى ليس فى ملبسه فقط بل شاركه كذلك فى موضوعات الحديث بشغف زائد ، خاصة تلك الموضوع التى تتصل بعمل الحائوتى حتى أصبح « حديث الصبى عن الشغل ومواسمه وسابق مجده ولذته ومتاعبه وطقوسه وفنونه وحيله » (٦٥) ولما أحس صبى العلم بازدياد شغف فتانا بالاستماع إليه والاستفسار المتواصل من كل ما يتعلق بتفاصيل عمله فى عالم الموتى والقبور .. رغبة فى أن يحضر معه ليشاهد بنفسه عن قرب كل ما يستفسر عنه .. ومن الغريب حقا فى ألا يتردد فتانا فى قبول مثل هذا العرض فى التو واللحظة مجذوبا بسحر عالم الموتى الذى لم يكن يدرس عنه شيئا .. كأنه مساق وهو فى غيبوبة بعد أن فقد انطلاق الحرية وصفاء الطهارة واستكان لأفراء دعوات خبيثة تحت تأثير وهم مضلل بأن ما يتحكم فى مصيره المحتوم قدر لا يخضع لنطق أو قانون ولا يعرف الرحمة أو الشفقة .. فاندفع فى تيارات هوائيه الجديدة التى أصبحت لعبته المفضلة ، مع أنه لم يسبق أن رأى جثة ميت من قبل .. !!

(٦٤) الفراش الشافر .

(٦٥) نفس المرجع .

وما أن رأى أول جثة حتى وقف امامها مشدوها في حيرة ما بعدها حيرة لا يدري هل ما يراه امامه هو « استسلاما بلغ حد التعذيب به .. أم عذابه بلغ مذاه قذاب في استسلام » .. وما أن أدرك أن الذي امامه « لا شيء .. له صورة بنى آدم » حتى زالت عنه الرهبة من الموتى وأقبل بفصل الجثة برفق آمن مادام الميت « ما يشيح بوجهه .. ولا يلوى خشيمه .. ولا يدفع بيده » (٦٦) فطالب له هذا العمل الذي اطلق له حرية التصرف .. وأصر على أن يصحب صبي الحانوتي في كل طلب .. بينما ظن صبي الحانوتي أن تمسكه بمصاحبته يرجع أولا وقبل كل شيء الى شدة تعلقه به شخصا ، بحيث لا يستطيع له فراق ، خاصة وأن ابتسامته له أخذت تزداد رقة وعدوية .. وأن نظراته فاضت تمسيدا وحلاوة .. بينما استولى على جسده ارتخاء ورخاوة .. فطمع فيه ووسوس له شيطانه أن يتجرا عليه ويصارحه بما يريد منه ويطلب منه الا يتدلل عليه أكثر من ذلك ويستسلم له ما دامت هذه هي رغبته .. وحته على أن يتسربا داخل ظلام الدكان حيث يوجد نعش كبير يسعهما معا ويتيح لهما أن يقضيا مآرباهما في شوق زائد اليه ، ورغم أن الفتى رد صبي المعلم عن غيه .. الا أنه لم يظهر له أى نوع من الغضب او الضيق لمجرد توارده مثل هذه الرغبة على شهوة صديقه .. ولم يبد عليه أى نوع من التأفف من مثل هذه المهانة التي يريد أن يسوقه اليها هذا الرفيق المفضل .. لأن ذهنه التائه في غيبوبة يستولى عليه ملكوت القبور ولا يكاد يلتفت لأى شيء آخر ولو كان يتصل بكرامة رجولته .. ولذلك لم يمر أى انتباه لكلام صبي المعلم الذي لما لم يجد استجابة فورية لم يلح عليه وتركه في ملكوته فابتعد عنه بعد أن كان ملتصقا به وهو يناوله هذا الحديث حتى يوحى للفتى بأن ما طلبه كان مجرد نزوة طارئة ، وأنه تاب الى رشده ورجع عن رغبته .. وغير موضوع الحديث ودخل في كلام ليزيل ما يكون قد انتاب الفتى من انفعالات الرقص فيفقدته الى الابد قبل أن ينال مرامه منه ، وإذا بحديثه يذهب الى « الاستعباد ودم الزمام والتحسر على الماضي » ليشغل الفتى بكلام عام يتردد هنا وهناك بلا مغزى ولا هدف ...

ولكن صبي الحانوتي لم يتخل هدفه وتحقيق مآربه بطريقة أو أخرى .. وأن رفض الفتى غير الحاسم لم يدعه يئس .. ودفعه لأن يفكر في امادة المحاولة بطريقة أخرى أكثر فاعلية تفقده القدرة على المقاومة وتجبره على الاستسلام وهو غائب الوعي مشغوف عنه بمآرب آخر .. وهكذا يحاول كل منهما أن يلعب على الآخر لعبة الشيطان ... !! وإذا بصبي المعلم يقاوجه بنبا يشيره كل الاشارة بعد أن أخبره بوفاة مروس صغيرة السن قبل ليلة زفافها بيوم واحد .. هي عز الطلب ... وأخذ يزيناها له حتى يرغبه فيها ويحصل منه على ما يريد في مقابل تحقيق رغبته .. فلم يتورع عن استثارة تلك الرغبة بكل شدة والحاح ، وبين له كيف شيعت جنازتها بالموسيقى ونثرت الحناء على القبر ، وغطى جسدها بثوب الزفاف ، وأهل عليها بباقات الياسمين فاشعل هذا الحديث كل كوامن رغباته وإيقظ شهواته المكبوتة ، فاذا بها تطلب الاشباع وترأوده على أمر

لا يقره عرف أو قانون ولا يرضى عنه خلق أو دين وتآباه كل الآباء الكرامة الانسانية .. الا ان احساسا حادا استولى عليه يصور له ان امامه فرصة فريدة طالما تمنها وها قد واثته ولن تتكرر وليس امامه ان يقتنصها مهما غلا الثمن الفادح !!

وهكذا انهارت كل القيم التي شب عليها الانسان منذ الازل .. وضاع الفتى سليل الاكابر ابن الاصول في متاهات وضیعة تنم عن شراسة بشعة كامنة تريد ان ترد اعتبارها وتنقم لكرامتها بأساليب لا انسانية ولا اخلاقية ، لم تقال بما قد يصاب به الفرد من خراب روحى او دمار فكري فلا تستقيم له حياة سوية ... ولم يكن هذا الفتى أول من ضاع في هذه الاسرة .. ولن يكون آخر شخص يتعرض لمثل هذه الامراض المستعصية .. لقد سبقه نجم العائلة .. اذ بلغه مقب ارتكابه الفحشاء مع العروس الراقدة جثة هامة في قبرها لا حول لها ولا قوة انه هوى في المستشفى وهو يعالج من ادمان تعاطى مخدرات بلجا اليها ليعبد من مخيلته تصورات قاسية وتهيؤات ، خادعة توهمه بأنه محاط باعداد مجهولين يترصون ويريدون تحطم روحه ووعيه ومنطقه ... فتكرت نهايته فراشا شافرا في المستشفى تنذر بان هنالك نزلا جديدا يتوقع ان يحل مكانه الشافر قريبا .. لعله فتانا مما يهدد مصير هذه الاسرة المنكوبة ويؤدى بها الى الانقراض والفناء ... !!



لا شك ان قصة « الفراش الشافر » تشهد ليحيى حتى انه قد تحرر فعلا من الميول التركيبية ونزعاتها الموروثة ، ولم تقف حائلا دون الرؤية الصادقة لواقع الاعراق التركيبية المصرية وما وصلت اليه من حال .. وان تناول هذا الواقع تنقصه الصراحة الواضحة ، ولجا فيه الى دبلوماسية لا تخلو من حياء تستعين بصيغ بلاغية هي اقرب الى الرمزية منها الى الواقعية .. فانه ربما اراد تخفيف وطأة النقد الاليم الذي يفضح خبايا بنى اعراقه ويتقزز من مبادئهم ... ومع ذلك فان قصة الفراش الشافر يمكن وضعها في قمة نتاج يحيى حتى القصصى باعتبارها آخر فصل في ملحمة صراع الاصلااب التركيبية المهاجرة، تشهد مأساة المهاجر التركي الذى قاوم اللوبيان في المجتمع الجديد ، فتكالبت عليه نواجد المجتمع المصرى واعطاها فرصة لان تعضه بشراسة خلال سلبياته ، وتظهره بمظهر معين يثير الازدراء والراء على حال من فقد الجاه والسلطان والمجد وتخلى عن الشرف والكرامة والفضيلة ، وانساق في هاوية سحيقة من الدمار الروحي والخراب العقلى ..

ان قصة « الفراش الشافر » هي آخر لون نرى لجا اليه يحيى حتى ليحدد معالم الشخصية التركيبية المصرية، فلقد ابتدا بتحليل نماذج بشرية. ثم اهتم بتصوير لوحات أدبية .. الا انه لم يبرع البراعة الكاملة في عرض ما آلت اليه الشخصية المصرية التركيبية الا عند تأليف « الفراش الشافر »

الدرامية التي تمثل صراعا رهيبا بين الانسان وقدره وكيف أدى به الى مصر غاشم لا رحمة فيه ولا عدل ... الا أن قصة «الفراش الشاغر» أشبه باعلان رفض واستنكار .. يحذر وينذر .. بل يتوعد بسوء العاقبة التي تبدو في أبشع صور الانسانية المنحطة لكل من يعترض على سنة الحياة ، ويتعمد اعتزال الناس والابتعاد عنهم لا يشاركهم في حياتهم الخاصة أو العامة، ويفضل أن يظل كامنا داخل دائرة ضيقة يأسر كيانه تقاليد وعادات تمنعه من تكوين صداقات سوية ، وتحرمه من علاقات الوصال والود وتحول دون التضحية والاعطاء والبذل .. ولذلك تكاد قصة « الفراش الشاغر » تعوى بعواء كئيب نحيف يريد أن يروى كيف يؤدي الانفلاق الى العفن ويسوق بصرح الانسان الى الانحطاط ...

**ان قصة « الفراش الشاغر » ليست الاصرخة توجع غاضبة فيها حسرة واسى على ما وصلت اليه بمض الاسر المصرية التركية فاخذت تستعرض فاجعة نجوم اسرة شوارع الريحان وشبابهم وتبين ما أصابهم من خراب روحى ودماعلى وانهاى خلقى ، وتظهر ضيق أفق الأسر التي لا تراعى في تربية ابنائها ظروف المجتمع الذى تعيش بين جنباته ، ولا تعد شباب العائلة لخوض تياراته بكل قدرة وتمكن حتى لا ينشأ على العزلة ولا يشب على الشح وعدم الاعطاء .. ولا يبدو امام المجتمع أنه يرفض أن يطاوع عامة الناس ويتعالى على الدوبان فيهم بعناد يسوقه الى الدمار والخزى والعار وينزل بكرامته لعنة ملعونة لا أمل لها في رحمة الله ...**

ولا يخلو تصوير هذا الانتحار الروحى على مذبح التقاليد العاتية الراسخة الجذور من قسوة وعنف وإيلام .. فان يحيى حتى لا ينه أو يحذر فقط انما يهدد ويرهب كذلك بأسلوب مربع بشع لا يضع مجالا للاختيار الا بين اتجاهين لا ثالث لهما . اما الامتثال طوعية دون عناد أو تكبر للظروف الاجتماعية الجديدة التي آلت اليه حياتهم ، وقبول تعديل السلوك المتوارث عن رضا واقتناع ، تمهيدا لمشاركة الناس والاندماج فيهم أو الاختلاط بهم الى حد الدوبان عن طريق الود والتعاون والاتصال والوصال والتضحية والاعطاء والبذل والسخاء .. وذلك لمن اراد النجاة .. واما التجمد على ما هو عليه من عزلة وابتعاد والتحجر على ما شب عليه من شح وامتناع عن الاعطاء ، متهربا من الناس والمجتمع خشية التصادم بالجحود والكران ، ومتجنباً مواجهة الخسة في أي مكان .. فتتفشى في داخله اوبئة تبدد قيمه الانسانية ، وتصيبه بخراب يقضى على الادمية ويعرض سلالته لنهاية اليمة حقيرة ..

- ٦ -

لا جدال في أن محاولات يحيى حتى المتوالية لتحليل الشخصية المصرية التركية ، ونجاح جهوده في تحديد معالمها الاساسية لكنه من التحرر من ضغط النشأة والتربية الاولى مما عاونته على التخلص من قيود التقاليد وأغلال الوراثة ، وهيماله من الفرص الكاملة لاداء واجبه نحو بنى جنسه



بان حذرهم التحذير الشديد من مغبة ما قد ينزل بهم من دمار وخراب وهلاك .. الا انه لم يعرف المجتمع المصرى من مسئولية بعض ما اصاب آل سلالته من جمود وتدهور وانحلال .. وكيف ان فساد بعض جوانب المجتمع اصابه بالتعفن والتخلف الحضارى ، واضاع عليه كثيرا من القيم الانسانية واشاع فيه فوضى لا اخلاقية .. امتدأثرها بصورة او اخرى على الاسر المصرية التركية ويعكس على تصرفاتها سلوكا معيننا .. !!

فان بنت الصعيد لما اكتشفت في عريسيها ابن الاكابر .. من وهن جنسى يتوانى عن تادية ما عليه من التزامات ، ويتقاعس عن ان يهبها كل ما يملك من حيوية في الحال وبلا تردد ودون مقابل عاطفى ، ما دامت قد وهبته نفسها وعرضت عليه كل بضاعتها واباحت له ان ينال منها ما ينال ، حتى قبل ان تعرف من هو وتتوطد بينهما المحبة .. لم تستطع بنت الصعيد ان تقف موقفا سلبيا من هذا العريس ولم تجد داعيا لان تستمر علاقتها معه وهو على ما هو عليه من شح جنسى يمتنع من الاعطاء الحيوى فسارعت بمطالبة الفراق في اشمئزاز وعشرة .. ولم يكن امام عريسا الا الرضوخ لهذا الطلب وهو صاغر لانه وضع في ظروف لا يستطيع ان يعاند فيها او يكابر ، وانه لا يملك ان يعطى الا بقدر وحساب وحين يشاء او يريد دون املاء او اجبار .. فما كان منها الا ان نبلته في اباء وشعم ، وتخلصت من عشرته غير نادمة على ما يمكن ان يتيح لها من حياة رغدة .. ولا آبهة بما قد يؤول اليه من مصير .. فتركته حطاما هشيما لا يقوى على مصارعة الواقع المتربص به .. فاذا به يتسرب في حرية الظلام متسللا من الابواب الخلفية الى حياة رخيصة وضيفة هي اقرب الى الموت .. ورات ان سعادتها الحققة في العودة الى مسقط رأسها لتعيش بين من يقدرها من اهل الصعيد ويستطيع ان يمنحها ما تريد دون تخاذل او مراوغة ..

الا ان ابن البلد لم يستمهله ولم يتورع عن ان ينتقم منه شر انتقام ، وينهش عرضه وينذل رجولته وهو يجرى وراء رغبة حمقاء تريد ان تنال متعة خالصة لا يشوبها عائق ولا يفترها صد او منازلة ، وخاصة اذا ما كانت على مذبح بنت الصعيد فلم يبخل عليه ابن البلد بان يتيح له مثل هذه المتعة ولكن ليس قبل ان يسلبه كل عشرة وكرامة ، ويدفع به الى هاوية سحيقة لا نجاة منها .. لقد نشأ على الشح لا يعطى دون مقابل واذا به في النهاية يعطى كل حياته ويفقد انسانيته وادميته دون مقابل ، بعد ان رضى ان يضاجع الموتى وهو في غيبوبة من الحس والشعور والادراك والوعى .. فكان الخراب الروحى والدمار العقلى والانحطاط الخلقى ..

بمثل هذه التحليلات الواعية استطاع يحيى حقي ان يتطهر من قيود العقد التركية المتزمتة .. ولكنه يعيش وسط مجتمع يمسك عليه كثيرا من الانطباعات التى لا يرقح اليها وجدانه وتحدد من انطلاقاته الفكرية .. فاذا به يقف حائرا امام الاتجاهات المصرية غير المتوازنة لخضوعها لتيارات متصارعة يغلب عليها روح الانتقام ولا تتورع عن ان تلجأ للفنر والخداع وتخلط بين سفك الدماء

**والجريمة وبين العزة والكرامة ..** قد تحسّم المواقف بالعنف ولكن دون فاعلية ايجابية وتترك جذور المشاكل تستشري .. فاحس يحيى حقي بأنه مكبل بقيود تدخله في صراع جديد من أجل حريته - فاذا به يجاهد في سبيل معرفة الشخصية المصرية الاصيلة ويتكفل بتحليلها وعرضها خلال تطور خبراته الفكرية في صور ادبية متنوعة تشمل فحص النماذج البشرية واستعراض اللوحات الفنية وخلق القصص الدرامية .. ويبدو موقفه من الشخصية المصرية واضحاً في قصص «البوسطجي» و «قنديل أم هاشم» ولوحات «صح النوم» ويمتاز هذا الموقف بأنه لم يصل بعد الى حد اليأس ودرجة التشاؤم التي تلوح بصراحة من الضياع والخراب والهلاك .. وأنه ما زال هناك أمل يدعو الى الجهاد في سبيل تحرير المجتمع المصري من كل مخازيه ، ويسوق الشخصية المصرية الى السلامة الفكرية والسوية الحضارية .. بتعديل مسار انحرافات وترشيد اندفاعاتها بالتنسيق بين تياراتها المتداخلة ..

واحسب ان عرض موقف يحيى حقي من المجتمع المصري والشخصية المصرية ومدى توفيقه في التحرر من انعكاساتها على نشاطه وتربيته وتعليمه بما لها من ردود فعل تنبعث من مكمن النزعات التركية التقليدية المتوارثة .. يحتاج الى دراسة مفصلة تبحث مرحلة اخرى من مراحل صراعات يحيى حقي المستمرة من أجل الحرية .. بين حدود معاركه مع ذاته - اولاً وقبل كل شيء - سواء وهو يعايش المجتمع المصري ويختلط بالشخصية المصرية .. أو حين يتحرك من ميوله الصوفية الفتية الى خضم البوهمية الصاخبة المنطلق .. ويصارع بعقليته الشرقية تدفق أمواج الحضارة الغربية المتلاحقة .. !!

## النقد الروائي الانجليزي في دور التكوين

كثيرا ما عبر الروائي الانجليزي عن مخاوفه من الناقد المحترف الذي رأى فيه قوة معرفة تطور الرواية ولحرية الكاتب . فإشار سومرست موم ( ١٨٧٤ - ١٩٦٥ ) الى خطأ الاعتماد كلية على نقاد من غير الادباء المبدعين لان الناقد ، كما يقول موم « الذي لا يعمل بنفسه في حقل الادب الخلاق يحتمل ان تكون خبرته في صناعة الرواية بسيطة . ولذلك فهو اما يعتمد في نقده على انطباعاته الشخصية التي قد لا تكون ذات قيمة تذكر . . . او يصدر احكاما مبنية على اساس جامدة على الروائي ان يتقيد بها اذا ما أراد ان يحوز قبول الناقد » (١) . ونبه هـ.ج. ويلز ( ١٨٦٦ - ١٩٤٦ ) H. G. Wells ، قبل ذلك بربعين عاما ، الى عدم جدوى اصرار النقاد على قواعد ثابتة ، والى خطورة اللجوء الى النقاد المحترفين عند تقييم الرواية ، فقال :

اذا اردنا ان نعرف ان الرواية اكثر من وسيلة للترفيه فلا بد ان امتقادي من ان تتحرر من القيود التي يلج عليها اولئك الذين يرغبون في تحديد اطار عام لها . ان كل فن لهذه الايام يجد نفسه مضطرا الى ان يسلك طريقا ومرا بين

“The Art of Fiction”, Ten Novels & Their Authors (1954), 19-20.

( ١ )

صخور من المستويات النافذة المهنية وبين دوامة من النعد العشوائي اللامعقول . فعندما يصبح نقد أى فن من الفنون منحصرا ومحترفا ، وتظهر الى الوجود طبقة من الحكام على الادب ، يبدأ وضع قواعد ومقاييس علمية محددة ونماذج تطبق على الفن ... لقد تناول النقاد الرواية كما لو كانت ذات شكل فني لا يقل تحديدا عن شكل السونييتية (٢) .

وانخلت فرجينيا وولف (١٨٨٢ - ١٩٤١) Virginia Woolf الروائية التي اشتهرت بتجاربها في الرواية الانجليزية الحديثة ، موقفامضادا لموقف ويلز وموم عندما اسفست لانعدام النقد الروائي النظري تقريبا . ورات ان مشاكل الادب الروائي في ايامها ترجع الى عدم اهتمام النقاد بشكل الرواية ونظرياتها الفنية والجمالية، يقالت :

اذا كانت هناك صعوبات تواجه الرواية فلعل السبب في ذلك هو عدم وجود من يعالجها بشقة ويحدد معالمها بدقة . لم يقن احد للرواية ، ولم يولها الا القلة اهتماما جادا . وعلى الرغم من ان القوانين قد تكون مخطئة ويجب تعظيمها ، فان لها مزاياها ، فهي تضمن الوفاء والنظام على الرواية ، وتعترف لها بإمكاناتها في المجتمع المتحضر ، وتثبت حقها في التقدير والدراسة (٣) .

وايا كان موقف الروائي من الناقد فمن الملاحظ ان ناقد الرواية المحترف - باستثناء امثال برسي لابلوك (١٨٧٩ - ١٩٦٥) Percy Lubbock وف. ر. ليفيز (١٨٩٥ - F.R. Leavis) وتلاميذهم في القرن العشرين - لم يصل الى مستوى نقاد الشعر والادب المسرحي . فليس هناك ناقد روائي خلال القرون الاولى لظهور الرواية وتطورها يضاهي ارسطو وصموئيل جونسون (١٧٠٩ - ١٧٨٤) Samuel Johnson وكولردج (١٧٧٢ - ١٨٣٤) Coleridge في النقد المسرحي والشعري . ومما يسترعى النظران ماثيو آرنولد (١٨٨٢ - ١٨٨٨) Matthew Arnold عميد النقاد الفكتوريين لم يلتفت اطلاقا الى الادب الروائي الانجليزي الذي بلغ ذروته في ايامه .

بدت الرواية الانجليزية في اول نشأتها كماردجبار . ووصلت الى مستوى ادبي رفيع خلال السنوات التي تلت ظهور روبنسون كروزو (١٧١٩) رواية دانيال ديفو (١٦٦٠ - ١٧٢١) Daniel Defoe الشهيرة . وعندما نشرت اعمال الروائيين الكبيرين فيلدنج (١٧٠٧ - ١٧٥٤) Fielding وريتشاردسون (١٦٨٩ - ١٧٦١) Richardson اصبحت الرواية الانجليزية واقعا لا جدال فيه ، واحتلت المكانة الاولى عند هواة القراءة . ومع ذلك لم يصاحب نشأة هذا الشكل الادبي الجديد نقد يستحق الذكر . لقد اثرت روايات ريتشاردسون في عدد قليل من الكتيبات بعض التساؤلات عن اهدافها ، ومدى اضرارها بمستوى القراء الخلقى . كما بدا نفس الاتجاه الاخلاقي في مقال لمجهول بعنوان « دراسة لتاريخ توم جونز » (٤) (١٧٥٠) "An Examen of the History of Tom Jones" هاجم فيه الكاتب هجوما عنيفا مقلدا ما اعتبره انحطاط الاخلاقيات التي بنيت عليها رواية فيلدنج ، دون اية اشارة الى قيمتها الادبية ،

(٢) "The Contemporary Novel", An English Man Looks at the World (1914), 150-51.

(٣) The Moment & Other Essays (1947), 90

(٤) المقال المكتوب تحت اسم مستعار هو ( اوربيليوس ) Orbilius

وكانها منعقدة تماما . ثم ظهر اتجاه مماثل في الخلاف الذي قام حول روايات **لورانس ستيرن** (١٧١٣ - ١٧٦٨) [Laurence Sterne] في نفس العصر عندما ركز المتناظرون جدالهم حول مدى اللياقة في ان يكتب ستيرن ، وهو قسيس ، روايات على الاطلاق . ولم يعلق واحد من هؤلاء النقاد على التجديدات الفنية التي اشتهرت بهاروايات ستيرن فيما بعد ، والتي جعلته من اعمق الروائيين تأثيرا على تطور الرواية الانجليزية في عصرنا . وكان على ستيرن ان ينتظر حتى عشرينات القرن الحالي ليحتل المكانة التي تليق برائد الرواية الانجليزية الحديثة ، عندما اكتشفت فرجينيا وولف اهمية تجاربه الفنية . وان ما يدعو الى الدهشة في كل هذا هو فشل النقد في ان يلحق بركب الرواية في نشأتها وتطورها سنين طويلة .

استمر تجاهل انتقاد للرواية طوال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، اى خلال السنوات التي لاقت فيها الرواية شعبية لا مثيل لها اذاما قورنت بانواع الادب الاخرى . وأولى النقد الشعر اهتمامهم كما في **تراجم الشعراء الانجليز** (١٧٨١) *Lives of the English Poets* لصموئيل جونسون ، او الى نظريات النقد الجمالية في كتابات بيرك (١٧٢٩ - ١٧٩٧) *Burke* وريولدر (١٧٣٢ - ١٧٩٢) *Reynolds* . اما فيما يختص بالرواية فقد ظهرت في دوريات من مثيلات *The Monthly Review* (١٧٤٩ - ١٨٤٥) و *Critical Review* (١٧٥٦ - ١٨١٧) تعليقات على الروايات التي اخذت تتكاثر بسرعة فائقة . ولكن هذه التعليقات تمثلت في ملخصات للروايات وسرد لاحداثها ليس الا .

على ان الاوضاع قد تحسنت قليلا بالنسبة للدوريات الجديدة في اوائل القرن التاسع عشر، الا ان تجاهل المعلقين عامة لروايات **جين اوستن** (١٧٧٥ - ١٨١٧) *Jane Austen* التي ارتقت الى مصاف اعظم الروائيين الانجليز ، يشير الى حقيقة الامور فيما يتعلق بالنقد الروائي المحترف وكان الاستثناء الوحيد لافتقار النقد في ذلك العصر هو المقال (٥) الذي رحب فيه الروائي **سير والتر سكوت** (١٧٧١ - ١٨٢٢) *Sir Walter Scott* في بحارة برواية **اما** (١٨١٦) *Emma* لـ **جين اوستن** اما المحاضرة السادسة لوليم هازلت (١٧٧٨ - ١٨٣٠) *William Hazlitt* في محاضراته المنشورة بعنوان **الكتاب الانجليز الهزليسون** (١٨١٩) *Lectures on the English Comic writers* وتقليد ولتر سكوت في كتابه **تراجم الروائيين** (١٨٢١ - ١٨٢٤) *Lives of the Novelists* لا سبق ان انجزه صموئيل جونسون في مؤلفه **تراجم الشعراء الانجليز** ، فليست الا محاولات عقيمة في النقد الروائي .

ومضى وصلنا الى العصر الفكتوري وجدنا اتجاه النقد الملحوظ الى تجنب الرواية في دراساتهم . فالروائي الوحيد ، تولستوى ، الذي تناوله ماثيو آرنولد في مقال طويل (٦) لم يكن انجليزيا بل روسيا . وكان آرنولد في اول المقال صائبا عندما قال : « لقد ولى عهد الروائيين

Quarterly Review (1816)

(٥)

Essays in Criticism (1888) Second Series

(٦)

الانجليز العظام ، ولم يتركوا من بعدهم خلفا في مثل شهرتهم » . وفي هذا القول دليل على قدرة آرنولد على التمييز بين الجيد والردىء من ادب الرواية ، ومع ذلك فقد اولى ظهره لامثال ديكنز ( ١٨١٢ - ١٨٧٠ ) وذاكرى ( ١٨١١ - ١٨٦٣ ) Thackeray وجورج اليوت ( ١٨١٩ - ١٨٨٠ ) George Eliot وهم من اعظم الروائيين الانجليز في فترة انتاجهم الخصب وعصر الرواية الانجليزية الذهبى .

يبدو مما سبق اننا اذا ما اردنا ان نكتشف حصيلة من النقد الروائي الذى يعترف بالرواية كأدب رفيع يستحق الدراسة الجادة ، فعلى ان نوجه انظارنا بعيدا عن الناقد المحترف متجهين نحو الاديب الروائي نفسه وما جاء في كتاباته عن ادبه . وهنا نتذكر ما قالته اليزابيث بوين ( ١٨٩٩ - ١٩٧٤ ) Elizabeth Bowen الروائية الانجليزية فى الروائي الناقد ، وهو : « ان الكاتب الابداعي الذى يفتقر الى ملكة النقل لا وجود له . بل ان مهنته كروائي لا تتحمل مثل هذا الافتقار » (٧) . ومما يؤكد الدور الذى يلعبه الروائي الناقد بروز اسماء فيلدنج وجورج اليوت هنرى جيمس ( ١٨٣٤ - ١٩١٦ ) Henry James ود . ه . لورانس ( ١٨٨٥ - ١٩٢٠ ) D. H. Lawrence واسم . فوستر ( ١٨٧٩ - ١٩٧٠ ) E.M. Foster وفرجينيا وولف ، على سبيل المثال لا الحصر ، فى تاريخ النقد الروائي الانجليزى .

وباستثناء فيلدنج ليست هناك أية محاولة فى القرن الثامن عشر لدراسة الرواية على اساس نقدى جاد . ويبدو اسهامه فى هذا المجال فيما كتبه فى نقد الرواية ونظريتها بينما كان يحاول أن يفسر لنفسه ولقرائه تجاربه فى الكتابة الابداعية . ولا جدال ان فيلدنج هو رائد النقد الروائي فى انجلترا بغير منازع . بل لعله ليس مجرد رائد لان الرائد يتبعه آخرون ، وهذا ما لم يحدث فى حالة فيلدنج الذى سبق النقد الروائي بقرن من الزمان على الاقل . وتكون تسميتنا أكثر دقة لو لقبناه بمستكشف وحيد خاص فى نقده عالم الرواية البكر وتحسن معاملها المجهولة .

ونقد فيلدنج الذى احتواه فى ثلاث مقدمات لروايته جوزيف أندروز ( ١٧٤٢ ) Joseph Andrews وفى ثماني عشرة مقدمة ، واحدة لكل كتاب من كتب روايته **توم جونز** ( ١٧٤٩ ) Tom Jones ، محاولة فريدة فى اسهابها ترمى الى الرفع من شأن الرواية بتحرير بعض المقاييس النيو كلاسيكية وتطبيقها على الرواية . وايا كانت نتيجة هذه المحاولة ( وقد باءت بالفشل كما كان فيلدنج نفسه يعلم ) ، فان المحاولة فى حد ذاتها كانت مثالا مبكرا للنقد النظرى للتعريف بالرواية والتقنين لها .

كان الهدف الاساسى الذى سعى اليه فيلدنج اول الامر هو تعريف ماهية الرواية متخذا روايته **جوزيف أندروز** نموذجا لهذا الشكل الجديد . فوصف الرواية بانها « ملحمة هزلية

منشورة « (أ) ». وكان فيلدنج يعلم تماما مدى الابتكار الذي تتضمنه تلك الموازنة بين الرواية والملحمة ، كما كان يعلم أيضا ما يحتمل من اساءة فهم القراء له في مقارنته بين هذين الشكلين من الادب . فيقول في مقدمة **جوزيف أندروز** أن الرواية « تمثل ... نوعا من الادب لا اذكر انني رأيت حتى الآن أية محاولة مشابهة له في لغتنا » . ويستمر فيلدنج في شرح اوجه الشبه والخلاف بين الرواية والملحمة ، كما عرفها **هومير** ، مشيرا الى أن الملحمة مثل المسرحية ، منها ما هو هزلي ومنها ما هو مأساوي . وهو **ميريس** ، كما جاء في **ارسطو** ، ترك لنا ملحمتين ، احدها هزلية بعنوان **مارجيتيس Margites** وقد فقدت ، والثانية مأساوية وهي **اللياذة** . والملحمة قد تكتب اما بالشعر واما بالنثر ، وإن كان الشعر هو الاسلوب الغالب . ونبه فيلدنج الى عدم الخلط بين « الملحمة الهزلية المنشورة » وبين المسرحية الهزلية والرواية الرومانسية المنشورة الجادة . فالرواية عند فيلدنج او « الملحمة الهزلية المنشورة » كما عرفها تختلف عن المسرحية الهزلية من حيث ان « حركتها اكثر امتدادا وشمولا ، ودوائرها اكثر اتساعا ، وشخصياتها اكثر تعددا واختلافا » . وعندما انتقل فيلدنج الى توضيح الاختلاف بين « الملحمة الهزلية المنشورة » والرواية الرومانسية صادف صعوبات لا حد لها . واعتبران من اساس الاختلاف الاسلوب الهزلي والميل الى المحاكاة التهكمية burlesque للادب الجاد ، والمغالاة فيها ، وهي التي وجد فيها فيلدنج متعة بالغة .

وننتج عن تعريف فيلدنج للرواية وتفسيره لهذا التعريف كثير من الخلط . والسؤال الذي نطرحه هنا هو : هل الرواية كما عرفها فيلدنج اساسا مجرد « محاكاة تهكمية » للشكل الملحمي المأساوي ، ام هي رواية هزلية اخلاقية متكاملة في حد ذاتها ترمي الى تصوير المجتمع المعاصر ؟ ويعكس هذا السؤال الانشطار الواضح في **جوزيف أندروز** بالذات ، التي بنيت اول الامر على « المحاكاة التهكمية » لرواية **باميللا ( Pamela )** لريتشارد سون ، ثم تطورت واخذت شكل رواية « المفامرات » Picaresque التي تصور مساوئ المجتمع بأسلوب الهجاء الساخر ، مستندة الى المبادئ الاخلاقية . وليس في هذا الخلط الواضح بين اتجاهين مختلفين ما يشير الدهشة لانه موجود أصلا في نظرية فيلدنج النقدية .

لا شك ان فيلدنج قد تنبه الى عدم التناسق في تعريفه للرواية مما أدى به بعد ذلك الى تجنب أية محاولات لبناء نظرية في الرواية متكاملة . وقضت السنوات السبع التي فصلت بين **جوزيف أندروز** و**توم جونز** على الدور الرائد الذي لعبه فيلدنج في النقد الروائي . ولا يعني هذا انه احجم كلية عن النقد . فتوم جونز تحوى من حيث الكم نقداً اكثر مما تحويه **جوزيف أندروز** ، ولكنه نقد متناثر يفتقر الى الوحدة ، وحتى هذا النقد المتناثر في المقدمات يقل تدريجيا

طولا ومضمونا خلال الرواية . وان كان فيلدنج يشير من آن لآخر في **توم جونز** الى نظرية « الملحمة الهزلية المنشورة » ، الا انه من الواضح انه بدأ يفقد اهتمامه بالمسائل النظرية المجردة .

ان ميل فيلدنج الى الاحجام عن التحليل النقدي في **توم جونز** يشير الى اكتشافه ان النقد في انجلترا في عصره لم يسلك الطريق السليم ، وان الدور الذي لعبه النقد في سن القوانين وتطبيقها ما هو الا مهت ، لان القواعد التي اصر عليها النقاد النيوكلاسيكيون مستقاة من تراث ادبي غريب عنهم ولا تتناسب مع العصر . « والوحدات » التي ألج النقاد الكلاسيكيون على ضرورة اتباعها في المسرحية لم تكن في نظر فيلدنج الا اصطلاحا ضارا يردده النقاد دون تفكير . وقد عبر فيلدنج عن هذا الرأي ستة عشر عاما قبل ان يكشف صموئيل جونسون ، وهو من اعظم نقاد القرن الثامن عشر ، عن عقم هذا القانون في مقدماته لعمال شكسبير . كما انتقد فيلدنج رغبة نقاد عصره في تطبيق حرفية القوانين المستخرجة من روائع الادب الكلاسيكي دون الاهتمام بروح الادب نفسه . كل هذه احكام جريئة تدل على انها صادرة عن وعي نقدي صائب ، حتى ولو ان صاحبها قد فشل في التوصل الى اسلوب في النقد يحل محل النقد العشوائي السائد في عصره .

وعلى الرغم من فشل فيلدنج في بناء نظرية نقدية في الرواية فانه كان واعيا على الاقل ، باعتباره روائيا اصيلا ، باهمية هذا الشكل الجديد من الادب وما يستحقه من اهتمام وما يتطلبه من تثبيت اقدمه والاعتراف بمكانته ، ولعل محاولات فيلدنج النقدية التي كانت ترمى الى الارتقاء بالرواية الى المكانة الادبية اللائقة بها ، هي في حد ذاتها انجاز له قيمته في هذه المرحلة المبكرة من نشأة الرواية ، ونحن نطلب من اول روائي ناقد في انجلترا اكثر مما يستطيع اذا ما حملناه مسؤولية وضع نظرية متكاملة في تعريف ماهية الرواية .

وكان من الطبيعي انشاء نشأة الرواية ان يتلاحق اسئلة الروائي عن كيفية كتابة الرواية من الناحية العملية المحضة ، وهي اسئلة في الواقع لا بد وان يطرحها كل روائي في كل مرة يبدأ في خلق رواية جديدة . فكما يقول تولستوى « ان كل فنان عظيم لا بد وان يخلق الشكل المناسب لعمله » . وكلما ازداد الابتكار والاصالة تكاثرت الاسئلة التي هي من صميم عمل الناقد .

**وكان ستيرن من اهم التجريبيين في ادب الرواية ومن اعظمهم ابتكارا في رواية تريسترام شاندى ( ١٧٦٠ - ١٧٦٧ ) Tristram Shandy** التي قلب فيها الزمن رأسا على عقب . وبدلا من ان يقدم بطله كما كان متنبعا في اولى صفحات الرواية فانه لم يسمح له بالظهور الا بعد انقضاء اكثر من نصف الرواية . ومن هنا تظهر احدى المشاكل الفنية الاساسية في كتابة الرواية ، وهي : من اين يبدأ الروائي وكيف يعالج موضوع الزمن وتتابع الاحداث ، ماذا يختار وماذا ينحى جانبا ؟ وقد عرض ستيرن لبعض مشاكل الروائي الفني في **تريسترام شاندى** ، متخذا من التأليف احد موضوعاته . ومن اهم الاسئلة التي شغلت باله السؤال : الى اى حد يعتبر الروائي قد حاد عن جوهر موضوعه عندما يستطرد في تصوير ابعاد الشخص المحيطة ببطله ليحسمهم للقارئ ؟



وهذا سؤال لا بد وأن يجيب عليه الروائي قبل أن يبدأ في الكتابة ، كما لا بد وأن يطرحه الناقد أيضا عندما يتناول الرواية ، وهو نابع من الوعي بالشكل الفني للرواية .

وستين مثل فيلدنج لم يصل الى اجوبة واضحة في النقد الروائي . والاجوبة في هذه المرحلة من نشأة الرواية ليست في نفس مستوى اهمية الاسئلة ذاتها . فالذي يهم هو صحة الاسئلة وتنوعها واتساع الرقعة انى تغطيها في مجال الادب الروائي . ويتضح من الاسلوب الذي اتبعه هذان الروائيان في ادماج تطبيقاتهما النقدية في كتاباتهما الابداعية ، انهما لم يشعرا بالحرج في الجمع بين دور الكاتب الخلاق والناقد في آن واحد . فلا تناقض بين الابداع والنقد ، بل هما بالنسبة الى الروائي متكاملان .

وتتبع جين اوستن نفس الاسلوب في الجمع بين الابداع والنقد في بعض رواياتها ، الا انها نصهر آراءها كناقدة في موضوع الرواية وتصوير شخصياتها وتطوير حركتها ، بدلا من ان تعرضها ، كما فعل فيلدنج ، في المقدمات . ويبدو هذا في رواية نورث أنجر آبي ( ١٨١٨ ) Northanger Abbey التي تكشف عن قدرة جين اوستن على تقييم الرواية المعاصرة لها من خلال « المحاكاة التهكمية » . وقد كتبت نورث أنجر آبي في قالب ساخر يحاكي اسلوب « الرواية العاطفية » « ورواية الرعب » بهدف نقد هذين النوعين من الروايات التي انحدرت بالمستوى الادبي والفني للرواية بشكل ملحوظ . وجاءت هذه الروايات مجرد تكرار لا ابتكار فيه لما سبق ان كتب في مواضيعها . فكانت شخصيات الرواية من بطل وشرير صورة طبق الاصل لبطلات وبطلان وشرار مثيلاتها من الروايات ، وهذا صحيح أيضا بالنسبة للمواقف والاحداث والحركة والحوار الى غير ذلك من عناصر الرواية .

ويبدو دور جين اوستن كناقدة روائية عند افتتاح الرواية وتصوير البطلة كاترين مور كنقيض للبطلة المتفق عليها في الروايات الشعبية . فهي كما تقول الروائية ليست بطلة مثالية ، وليست من اسرة عريقة ، ولا تنصف في طفولتها بالجمال والنباهة والحس الرفيف والنبوغ في الموسيقى والتصوير ، الى آخر تلك الصفات المبالغ فيها . وانما هي طفلة عادية ، وتصبح عندما تنمو فتاة عادية أيضا . وتتضح سخريه جين اوستن اللاذعة في موقف كاترين لافتاة البسيطة الميالة الى تصديق كل ما تقرأ من « روايات عاطفية » و « روايات الرعب » التي تعطي البطلة صورة كاذبة عن الحياة . وتضع جين اوستن بطلتها في عدة مواقف تطابق المواقف المعروفة في « روايات الرعب » ، فتتصور كاترين ان الحياة انعكاس لمجموعة التجارب المثيرة التي تمر بها بطلات « روايات الرعب » التي استحوذت على تفكيرها وخيالها . الا ان مواقف كاترين تنتهي دائما بخيبة أملها ، واكتشافها للاخطاء التي وقعت فيها نتيجة لانها رأت الحياة من خلال قراءتها لتلك الروايات الرديئة المثيرة . والدرس الذي تتلمذه البطلة في نهاية نورث أنجر آبي هو ان الحياة لا هي « رواية عاطفية » ولا هي « رواية رعب » وان كانت لا تخلو في الواقع من العاطفية والرعب .

من الواضح أن نقد جين أوستن للرواية الشعبية المعاصرة لها يدور حول الهوة الشاسعة التي تفصل بين الواقع وتصوير الرواية له . وبسخرتها من الأثر الذي يتركه هذا الفصل بين الواقع والخيال المثير المبالغ فيه تنقد الكاتبة الرواية التي لا تنتمي إلى الواقع في شيء ، والتي تصور الحياة بجمود وتصنع . وتشير جين أوستن إلى الاحتقار السائد للرواية وخجل قرائها من الاعتراف بأدماهم لها ، مما يؤكد مستوى الرواية الهابط وشعبيتها في نفس الوقت . وفي الفقرة التالية تنكر القارئة هوائتها ، بينما تعلق جين أوستن على الموقف .

« أنا لست من قراء الرواية ، فقلما أصفحها . لا تظن أنني أقرأها كثيرا » . هذه هي التعليقات التي يكثر ترددها . « وماذا تقرأين أيها الأنسة ؟ » فيكون جواب الأنسة « أنها ليست إلا رواية » بينما تطرح كتابها أمامها بلا مبالاة مصطنعة ، أو في خجل مؤقت (٩) .

والامر الذي يهم جين أوستن هو ألا يتعدى هذا الاحتقار إلى الرواية عامة التي تستحق التقدير . وفي دفاعها المباشر عن الرواية كما صرفتها وكتبتها تبدو امكانيات الرواية في احسن صورها . ويلاحظ أن هذا الدفاع مكتوب على لسان الكاتبة نفسها موجهة قولها إلى القارئ ، وهذا أسلوب قلما تستخدمه جين أوستن في رواياتها ، مما يوضح الأهمية التي تعلقها على تلخيصها لمهمة الرواية الأدبية كما فهمتها . وتستمر الكاتبة في تعليقها الساخر على لا مبالاة القارئة التي هي في الواقع تقرأ ، كما تقول الكاتبة : « جود ما انتجه ذهن انسان :

إنها ( أي الرواية التي تقرأها الأنسة ) ليست الأسيميليا أو كاميللا أو بليندا ، أو بالآخرى ، أنها ليست إلا عملا من الأعمال التي تكشف عن أعظم قدرات العقل الإنساني ، التي تنقل إلى العالم في احسن أسلوب مختار معرفة وثيقة بالطبيعة البشرية ، ومعالها المختلفة ، وفكرها النكد ، وحضورها الذهني ، وروح الفكاهة التي تتصف بها (١٠) .

ويبدو من هذه الفقرة أن جين أوستن إنما تصف كتاباتها هي ، كما تصف الأدب الروائي في أرقى مستواه . وهي تحاول في هذا التعريف أن تضع أسسا ومقاييسا عامة للرواية .

وترى جين أوستن نتيجة للاحتقار السائد للرواية ضرورة وقوف الروائيين من أمثالها صفا واحدا ضد النقاد المحترفين ، الذين يحطون بتقديم الروائي المنشور في الدوريات من شأن الرواية ، فتقول :

فلندع الملقن النقاد يذفون الرواية ذات الخيال المنطلق بأقبح الأوصاف كما يحلو لهم ، ويتحدثون عن كل رواية جديدة بأسلوبهم الواهن ، مشيرين إلى السبب الذي تن من تحته دور النشر . علينا ألا يتغلب بعضنا عن بعض . إننا نحن معشر الروائيين هيئة مغبونة . فعلى الرغم من أن إنتاجنا قد وفر للقراء ترفيها لا حد له ، ولا يمكن لأي هيئة أدبية أخرى في العالم أن تصاهيها ، فليس هناك شكل أدبي آخر قبول بمثل الهجوم الذي قوبلت به الرواية (١١) .

( ٩ ) نورث انجر إبي ، الفصل الخامس

( ١٠ ) المرجع والفصل السابقان .

( ١١ ) المرجع والفصل السابقان .

في كل ما سبق أن جاء في نقد الرواية على لسان فيلدنج وستيرون وجين أوستن على ضلّته وتحسّسه في الظلام ، نجد محاولة الروائي توضيح ماهية الرواية ومهمتها ، مما يعينه عمليا في كتاباته الخلاقة ، كما يكتشف هذا النقاد رغبة الروائي في الارتفاع بالرواية الأدبية والرفع من شأنها .

وقد مهدت هذه الخطوات الأولى في نقد الرواية الطريق لاديب واثي آخر هو سير والتر سكوت ، الذي اشتهر في القرن التاسع عشر برواياته التاريخية ، فظهر مقاله « اما رواية » "Emma, a Novel" كمثل جيد للنقد الموضوعي . ويستحق هذا المقال مناهة خاصة لانه مثل مبكر لتقييم حاد للرواية سواء اكانت مجرد التسلية او انها تتضمن هدفا اخلاقيا واجتماعيا . والى جانب هذا فالمقال من اجود ما جاء في نقد ادب جين أوستن وفي التعرف على الاهمية الادبية لرواياتها في ايامها الاولى . وملكة النقد الموضوعي مند والتر سكوت تتضح على وجه التحديد في قدرته على تقييم عمل كاتبة مثل جين أوستن يختلف اختلافا تاما عن انتاجه التاريخي .

ويشير سكوت في مقاله الى نوع الروايات الهزيلة التي اكتسحت السوق في ايامه ، والى موقف القارئ منها ، الذي سبق ان اشارت اليه جين أوستن في نورث آنجر آبي - اي رفض القارئ الاعتراف صراحة بقراءته على الرغم من استمتاعه بها . وسكوت لا يحكم بقسوة قامة على هذا النوع من ادب الهروب الذي يساعد ، كما يعترف ، على التخفيف من كثير من آلام البشر مثل « الملل والقلق والالم وحتى الفقر » ، كما يخفف من وطأة حياة « المسنين والعزّاب المهجورين والوحيديين » . ونظرة سكوت المتسامحة الى رواية الهروب جعلته يشعر بالتزام اكثر نحو توضيح قيمة رواية في مثل مستوى اما الادبي ، فيقول :

ان واجب الناقد يصبح مأساغا حيال اعمال ... تكشف عن معرفة عميقة بقلب الانسان ، وتعبّر عنها بقوة وهزيمة تهدف الى وضع هذه المعرفة في خدمة للتفسيلا والشرف (١٢) .

واهم ما في نقد سكوت في مقاله هو التفرقة التي سبق ان اشارت اليها جين أوستن في نورث آنجر آبي بين روايات معاصريها ورواياتها التي تتطلب « اهتماما يفوق بكثير ذلك الاهتمام الذي يتطلبه انتاج معاصريها الزائل الذي يفلى مكتبات الاعارة ومشتريها من النساء » . فاعمال جين أوستن ، كما يقول سكوت :

تتنمي الى مستوى من ادب الرواية لم يكد يظهر الا في عصرنا الحالي ، وتصور الشخوص والاحداث المستقلة على نحو اكثر مباشرة من حياتنا العادية اليومية . وهو امر لم تسمح به القواعد السابقة للرواية (١٣) .

Emma ; a Novel, Quarterly Review, October 1815

( ١٢ )

( ١٣ ) المقال السابق

ان حكم سكوت الصائب كروائي ناقد لجميع الرومانسية والواقعية في رواياته التاريخية مكنه من تقدير مشكلة الروائي في عصره الذي تحرر من قيود المواضيع الرومانسية البعيدة عن الواقع دون ان يتحرر من التقاليد الرومانسية في اسلوب الكتابة . ويقول سكوت بهذا الصدد :

ان الرواية الحديثة في ظاهرها هي الطفل الشرعي للرواية الرومانسية ، وعلى الرغم من ان شكلها العام قد تغير ليتناسب العصر الحديث ، الا ان المؤلف استمر مقيد بكثير من العالم الخاصة بالرواية الرومانسية التي ظهرت عند نشأتها (١٤) .

من الواضح ان سكوت يشير هنا الى المعالجة الفنية التي لا تتماشى مع موضوع الرواية العصرية ، ويبدو هذا ايضا عندما يقول : « ويمكن متابعة ( هذا الاسلوب ) في تناول احداث الرواية وتطورها ، وفي المناخ العاطفي المحيط بالشخص الروائي (١٥) » .

وان كان اسهام جين اوستن في تطور الرواية الحديثة يتلخص في التحرر من المواقف والشخص والاحداث التقليدية كما جاءت في الرواية الرومانسية ، فان اسهام سكوت في نقدة يرجع الى معرفه على ما انجزته جين اوستن في كل من الموضوع والشكل الفني اللذان لا يفصل بينهما . ويقول في هذا :

اننا لا نعلم نداء ضئيلا على مؤلفة ما عندما نقول انها تلتزم القرب من الاحداث العادية والاشخاص العاديين . ومع ذلك فقد انتجت صورا مبتكرة ذات حيوية الى درجة اننا لنشعر انها تفتقر الى الالفة التي تعتمد على سرد احداث غير عادية ... ان احداث رواياتها مبنية على وقائع عادية لا تختلف عما تقع تحت اعين غالبية الناس . وتتصرف شخصياتها نتيجة لدوافع وعلى اساس مبادئ يسهل على القارئ ان يتعرف عليها ، لانها نفس الدوافع والمبادئ التي تحكمهم وتحكم غالبية اصداقناهم (١٦) .

وعلى الرغم من جميع هذه المحاولات النقدية التي ترمي الى النهوض بالرواية الادبية فانها لم تكن ذات اثر فعال . لقد بنيت على مناقشات جادة لبعض نواحي الادب الروائي مما يدل على وعي الروائيين الرواد بمشاكلهم الفنية والشكلية، ولكن نقدهم لم يفصح عنها باستفاضة ، ولا على نحو منظم يمكن ان نستخلص منه مجموعة من الاسس النقدية المتكاملة . والى جانب هذا فان دفاع الروائي عن ادبه وما يستحقه من احترام لم يات بالنتيجة المرجوة .

استمر الهجوم على الرواية حتى الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر على اساس ان هدفها الاوحد هو التسلية ، وان قراءة الروايات ليس الانوعا من الايمان والانغماس في اللذة . وليس في هذا ما يثير الدهشة ، لان الفكتوريين عرفوا بالتطهيرة والتزمت اللذين دفعا بكثير من الآباء الى حرمان اولادهم من تلك « التسلية الخطرة » ، كما سموا قراءة الروايات . ومنهم غير ذلك من الشروط العشوائية . وقد شبهت عادة قراءة الروايات نهارا بشرب الخمر في الصباح،

( ١٤ ) مقال السابق

( ١٥ ) مقال السابق

( ١٦ ) مقال السابق

من كان اقل صرامة فوضعوا قواعد لقراءة الرواية تبدو لنا اليوم مضحكة في شروطها . فحرم بعضهم قراءة الروايات صباحا او ايام الاحد ، وسمح بعضهم قراءة والتر سكوت وجرم دوماس الى كما شبهت العادة عامة بالاقبال المفرط على الحلوى الذي كانت لها شروطها ايضا في البيت الفكتوري . وقد استخدم كثير من الروائيين انفسهم هذين التشبيهين ، فقال *ترولوب* ( ١٨١٥ - ١٨٨٢ ) Trollope : « ان الناس تقرأ الروايات كما يأكل الرجال الفطائر بعد العشاء والشعور يداخلهم بأن المذاق في كلتا الحالتين زائل ان لم يكن ضارا » . واشار لاكري الى نفس المعنى عندما قال : « آه - تلك الروايات البديعة . كم اذكرها جيدا . انها حلوة ولذيذة مثل فطائر الفاكهة التي عرفتھا في صباي » . ومن عشاق الرواية في عهد فكتوريا هنري كراب روينسون Henry Crabbe Robinson الذي لم ينقطع عنها طوال سبعين عاما . وقد عبر عن ادمانه في مذكراته بقوله :

« ان الرواية بالنسبة لي مثل الخمر بالنسبة للآخرين » . ويقال انه كان يقرأ الروايات دون تمييز بين الجيد منها والردىء . وهذه هي علامة المدمن الحقيقي . وقد واصل القراءة حتى سن التسعين ، عندما اشار في مذكراته الى قراءته لرواية *Vanity Fair* ( ولم تكن للمرة الاولى ) وهو مستلق في الفراش ممسكا بشمعة لتنير له الصفحات .

كان من الصعب اذا القضاء على النظرة الترفيفية المجردة للرواية التي اشترك فيها الروائيون انفسهم في بعض الاحيان ، وهي احدى الاسباب التي يرجع اليها تأخر تطور النقد الروائي . ومع ذلك فالاستمتاع بقراءة الروايات الذي وصل الى حد الادمان في كثير من الحالات ، وان كان عائقا في سبيل ظهور النقد الروائي ، يمثل في الواقع نقطة الارتكاز في هذا النقد . فالروائي ، كما قال *ترولوب* ، « غير مسموح له بان يبعث الملل » . ان كاتب القصص لا بد ان يدخل السرور على قرائه . والا فهو لا شيء ( ١٧ ) وسأنده في هذا الرأي هنري جيمز الروائي والناقد الشهير ، وهو من اكثر كتاب الرواية وميا بشكلها الفني ، عندما قال : « ان الشرط الوحيد المسبق الذي ينبغي على الرواية ان تتقيد به هو اثارة اهتمام القارئ » ( ١٨ ) . وعندما يوضع ذلك الاهتمام تحت الدراسة الموضوعية في محاولة لتفسير ما الذي ادى في الرواية الى اثارة ذلك الاهتمام ، يولد النقد . ما الذي يدفع بالقارئ الى قراءة الرواية الواحدة عدة مرات بعد ان كشف عن تطور احداث الرواية والعلاقات بين شخصوها ومصيرهم من زواج ووفاء الى غير ذلك ؟ ان مهمة النقد هي الاجابة على هذا السؤال .

ولكن قبل ان يتجه النقد الروائي الى هذه الدراسة الموضوعية التي تركز على تحليل وتقييم لشكل الرواية واسلوبها ، اتبع طريقا آخر تناول من خلاله الرواية من حيث اخلاقياتها ودورها

Autobiography, ch. XII.

( ١٧ )

The Art of Fiction (1884)

( ١٨ )

الفعال في المجتمع . وهذا اتجاه لا غرابة فيه متى تذكرنا تطهيرة الفكتوريين وقلقهم العميق من أي اثر ضار قد يلحق بمجتمعهم . وقد بلغ هذا القلق ذروته خلال الستينات واستمر حتى الثمانينات . ففي عام ١٨٦٦ ظهرت في دورية London Quarterly Review ، التي اشتهرت بمبولها المتطهرة ، حملة ضد ما اعتبرتها روايات مثيرة كتبها تشارلز ويد ( ١٨١٤ - ١٨٨٤ ) وولكي كولينز ( ١٨٢٤ - ١٨٨٩ ) Wilkie Collins ، ومسز هنري وود Mrs. Henry Wood ووصفتها بأنها نوع من « السم الخفي » الذي سيؤدي الى انهيار المجتمع . ويتضح من الاسلوب الذي اتبع في هذه الحملة التي لم يكن لها أي اساس من الصحة ، هبوط مستوى النقد الروائي والا منطقية التي بنى عليها . فكان النقاد يقفون من اعتراضهم على لا اخلاقية رواية بالذات الى الحكم الشامل على طبيعة الرواية عامة وتأثيرها الفاسد على المجتمع .

وقد طبق كثير من النقاد المحترفين مقياس الفائدة الاخلاقية للرواية على نحو اكثر تفاقلا . فاشاد بعضهم برقى مستوى الروائيين الاخلاقي وطهارة تعاليمهم الاخلاقية . وبذلك اصبحت الرواية في نظرهم اداة للتعليم ووسيلة لتصحيح الاوضاع الاجتماعية الفاسدة المعبية ، ونشر الفضيلة . وتنعكس هذه النظرة المنفعية الى الرواية في السبعينات في الجدل الذي نشأ حول الرواية . وسرد المدافعون عنها امثلة تثبت ان الرواية تعمق من تجربة القارئ ، وتعمل على احياء المثل الفاضلة ، « وتوقظ قليلا من البطولة » وتعلم الفتيات « الايثار والطيبة والرقه » ( ١٩ ) . ولا تمتنع ، نفس الدورية ، من مهاجمة والتر سكوت لفشله ، كما تقول ، في تطوير الفائدة الاخلاقية التي رافعت الرواية الى مصاف الادب المحترم منذ ان كتب رواياته . وتعود مرة ثانية الى وصف رواياته بأنها روايات تسلية لا اكثر ولا اقل ، متسائلة كيف يتأتى لثل هذا الكاتب بما له من نبوغ وقوة وامكانيات ان يسقط من حسابه اهدافا عظيمة تفتى مع ما حياه الله به ، وتنتهي بالسؤال : « اليس هناك قضية واحدة حية تستحق الدفاع ؟ » ( ٢٠ )

وبذلك كانت معاناة الرواية ، في نهاية المطاف ، من اصدقائها الاخلاقيين المنفعيين لا تقل من معاناتها من اعدائها الاخلاقيين المتطهرين . ففي كلتا الحالتين لم يشر موقفهما عن الاعتراف بالرواية كشكل ادبي له كيانه واستقلاله الذاتي .

ومع ذلك فقد تقدم النقد الروائي على ايديهما نتيجة لا تفاهما على تقييم الرواية على اساس تأثيرها المنفرد على خيال القارئ ومشاعره . وفي مقال نشر عام ١٨٦٦ في Saturday Review اشار الكاتب الى هذا التأثير غير المباشر الذي اعتبره اعظم ما تنصف به الرواية فيما يتعلق بفائدتها العملية ، ويرجع الى الصلة الوثيقة بين « خيال الانسان المسرحي »

“The Uses of Fiction”, Tinsley's Magazine (1870), vi.

( ١٩ )

The Scott Centenary' العدد التاسع ( ١٨٧١ - ١٨٧٢ )

( ٢٠ ) نفس المرجع ،

ومجمل طبيعته الاخلاقية . ويعطي هذا النوع غير المباشر من الفائدة العملية لكل من الروائي والناقد النظري مجالا اوسع للعمل مما يعطيه النوع الآخر من الفائدة العملية المباشرة . وهذا النوع السابق هو الذي اعتمدت عليه جورج اليوت في تبرير أهمية عمل الروائي وجديته . وجاء فيما قالته :

ان اعظم فائدة ندين بها للفنان ، سواء اكان رساما أم شاعرا أم روائيا هو تأثيره على اتساع دائرة مشاعرنا وتعاظنا ... ان الفن هو اقرب شيء للحياة ، وهو وسيلة لتوسيع حلقة تجاربنا ، ولد صلاتنا ببشر البشر خارج حدود حياتنا الشخصية (٢١) .

ويتبين من هذه الفقرة ان جورج اليوت ، مثل جميع الفكتوريين العظام ، كانت تنظر الى دورها كمعلم او مؤثر على فكر الناس ومشاعرهم نظرة جادة ، كما تؤمن بمسؤولية الكاتب الكبيرة وقداسة عمله .

وقد ادى الاعتراف بأهمية الدور الذي يلعبه الروائي في حياة الانسان والمجتمع الى تأكيد جديد في النقد الروائي لاهلى اثر الرواية في السمو بالاخلاق ، ولكن على النواحي الفكرية والابداعية في الرواية . وفي مقال ظهر في *British Quarterly* عام ١٨٦٧ ارتفع الكاتب بالقائيس الفنية التي تتطلبها الرواية ، واضفى ثناء على الرواية لشمولها واحتوائها على الادوار المتعددة التي تؤديها كل من الملحمة والمسرحية والشعر الغنائي . ويتساءل الكاتب « ما الذي لا يستطيع الروائي عمله ؟ » . ان اسنى الحقائق في نظره - وهنا يميز وبين مجرد الدرس الاخلاقي والموعظة - يمكن التوصل اليها عن طريق الرواية ، وخاصة اذا كانت جورج اليوت هي كاتبة الرواية التي يقارن الكاتب بينها وبين جوته *Goethe* من حيث نظرتها الجدية وسمو مبادئها .

وتختلف جورج اليوت عن كثير من معاصريها في مفهومها للنظرية الاخلاقية للرواية ، فهي تعتمد في تأثيرها على القارئ لا على الموعظة المباشرة ( وان كانت رواياتها تحوى كثيرا من هذه المواقف ) ولكن على التأثير الخفى لا سلوبها في الكتابة الذي تخاطب به مشاعر القارئ وعقله وحواسه كاتسان متكامل لا يمكن الفصل بين عناصر انسانيته المتعددة . وتقول جورج اليوت في هذا الصدد مؤكدة العامل الجمالي في رواياتها لا العامل المذهبى المباشر :

ان مهمتي هي مهمة المعلم الجمالي لا المعلم المذهبى . وهي تهدف الى احياء ايل المشاعر التي تدفع بالانسان الى الرقية في العدل الاجتماعى ، ولا تهدف الى وصف الخطوات العملية اللازمة للهدنة التي قلما يستلج عقل الفنان الحكم عليها مهما حركه تعاطفه الاجتماعى (٢٢) .

اصبحت القضية هنا قضية فنية جمالية ، وليست قضية تلقينية هادفة مباشرة ، كما اصبح الشكل الجمالي او الفنى اساسا في تصوير الرؤية الاخلاقية الشاملة . اى ان الشكل الفنى في سبيله الى الارتقاء الى نفس مستوى أهمية الموضوع ، او على الوجه الاصح أهمية الرؤية .

"The Natural History of German life", Westminster Review, (1856), X

( ٢١ )

Letter, edit G. S. Haight, 1954-5, vii p. 44

( ٢٢ )

وهنا اعتراف صريح بالدور الفنى والشكلى للرواية الذى لم يتنبه اليه النقاد في غمرة دفاعهم عن اخلاقيات الرواية المتعلقة بالموضوع .

ولعل جورج اليوت في الرواية هو من اوجدوا قدر ما كتب في هذا المجال في العصر الفكتورى . ونظريتها - ان صح تسمية تعليقاتها المتفرقة بنظرية - مبنية على الاسلوب الواقعى الذى نادت به ، ودافعت عنه ، وطبقته عمليا منذ اول رواية نشرت لها . وقد اتخذت الالتصاق بالواقع القيد الوحيد للرواية ، وهاجمت في نقدها ، مستندة الى هذا المبدأ البسيط الروايات التى حادت عنه . فالبالغة والتقاليد الادبية البالية ، وكل ما يمكن وصفه بالتصنع الادبى لاقى منها نقدا لاذعا . وقد نشرت تعليقاتها ومقالاتها في دوريتى ليذر Leader ووستمنستر Westminster في خمسينات القرن الماضى . واهم ما كتبه في هذا الصدد مقالان بعنوان : « التاريخ الطبيعى للحياة الالمانية » "The Natural History of German Life" « روايات تافهة لنساء روائيات » "Silly Novels by Lady Novelists" وفي الفصل السابع عشر لرواية آدم بيد ( ١٨٥٩ ) Adam Bede شرحت نظريتها الواقعية موضحة البساطة والقوة اللتين بنت عليهما رأياها في تصوير الحياة ، وقالت :

وبذلك فاننا راضية ان احكى قصتي البسيطة دون ان احاول تصوير الاشياء على نحو افضل مما هي عليه فى الواقع . انا لا اخشى شيئا بالتاكيد الا عدم توخى الصدق ، لهذا فلم اقصى ما نبذله من جهد شئ يخشى منه . ان البعد عن الحقيقة سهل والصدق صعب . وفي صفة الصدق الرفيعة النادرة هذه ، التى تتصف بها صورى الواقعية ، واتى يحتقرها اصحاب النفوس المتعالية ، في هذه الصفة اجد متعة كبيرة .

ان الاحترام ، بل والتقدير ، اللذين تتميز بهما جورج اليوت في نظرتها الى انتاجها الروائى ساعدا في الجزء الاخير من القرن التاسع عشر على قيام حركة في مجالى الرواية والنقد الروائى اساسها الجدية والفكر والعقلانية . واصبح روائيون من امثال جورج ميريدث ( ١٨٢٨ - ١٩٠٩ ) George Meredith وجورج مور ( ١٨٥٢ - ١٩٣٣ ) George Moore وجورج جيسنج ( ١٨٥٧ - ١٩٠٣ ) George Gissing وتوماس هاردى ( ١٨٤٠ - ١٩٢٨ ) Thomas Hardy نقطة التقاء عاصف وجدال مستمر حول الرواية الادبية ، وما يجب ان تكون عليه . فكان رأى ميريدث انها يجب ان تتضمن « فلسفة » و « فكريا » و « فكرة » بدلا من ان تكون قالبا لاختلاقيات الطبقة المتوسطة ووسيلة لقتل الوقت . واتخذ جورج مور نفس الموقف مهاجما معاصريه عندما قال غاضبا : « ان اهتمامى لا يتجه نحو اولئك الذين ينظرون الى الادب وكأنه نوع آخر من رياضة ركوب الدراجات » ( ٢٣ ) . واصبح « الضمير الفنى » المصطلح الذى تعارف عليه الروائيون النقاد في حربهم لرفع المستوى الفنى للرواية ووضعه في المرتبة الاولى قبل اى اعتبار آخر . وكان يخشى عليه ، كما حدث في العصور السابقة ، من انتشار الرواية الرخيصة الشعبية واكتساحها السوق في اعقاب قوانين التعليم الجديدة التى استوعبت عددا كبيرا من المواطنين ، تعلموا القراءة والكتابة دون ان يحصلوا على اية ثقافة .



وكان جورج جيسنج من الروائيين النقاد الذين بهروا بانجازات الروائيين الفرنسيين والروسين ، الذين اتصفوا بامالهم بذلك «الضمير الفني» الحي الذي وضع الادب فوق اى اعتبار مادي ، مالا كان ام شهرة . وقارن جيسنج بين الرواية الفرنسية والروسية من ناحية وبين الرواية الانجليزية من ناحية اخرى ، فقال :

ان الروايات الانجليزية مادة بائسة بسبب بانس جدا ، وهو ان الروائيين الانجليز يخشون من انجاز احسن ما في مقدورهم لخوفهم من يفر ذلك بشعبيتهم ، ومن ثم يدخلهم... فليكن الروائيون صادقين مع ضمائرهم الفنية وسيتبعهم اللوق الجماهيري فيما بعد (٢٤) .

ساعد موقف الروائيين النقاد من الرواية في الربع الاخر القرن التاسع عشر على الانتباه الى الشكل الروائي ومناقشة جمالياته . وكانت هذه آخر مرحلة من مراحل تطور النقد الروائي في القرن الماضي واصعبها ، كما يبدو من تخطيط النقاد وترددهم ، وعدم توصيلهم الى ابسط المبادئ التي يمكن الاستناد اليها .

فانكرت فيرنون لي Vernon Lee الروائية التي عكفت على دراسة البناء الروائي ، جماليات الرواية . ان الرواية في نظرها ، متى قورنت بفن التصوير او الموسيقى ، ليست الا نصف فن . فهي تفتقر الى الوسيلة التي يمكن بواسطتها ان تحول موضوعها ذا الاهتمامات الانسانية الاخلاقية الى تلك الانطباعات الحسية التي منها يتألف كل ما هو جميل . ان جاذبية الرواية في نظرها غير جمالية ، بل تستند الى ميلنا المنطقي نحو النقاش والجدل واكتساب معرفة بالحياة ، والاثارة العاطفية ، والشعور بالرضا الذي تدخله علينا نماذج مركبة من الكلمات . وهذا العنصر الاخير هو الوحيد الذي يمكن اطلاق مصطلح «الشكل» عليه وهو عنصر ، كما تدعى فيرنون لي ، تستطيع الرواية الاستغناء عنه (٢٥) .

وظهرت نفس السلبية فيما قاله جورج بارنيت سميث George Barnett Smith عام ١٨٧٤ عن بناء الرواية . فبعد ان اثنى ثناء عظيما على فيلدنج واعماله الروائية ، قال :

ان تحظى الرواية ابدا بمكانة توازي في اهميتها مكانة المسرحية بسبب العيوب في بنائها (٢٦) .

ووقع سميث ، كما وقع كثير من معاصريه ، في نفس الخطأ الناجم عن الاعتقاد بانه يمكن الحكم على بناء الرواية المتفكك بالاستناد الى مقاييس تنتمي الى شكل ادبي آخر مثل المسرحية ، لا الى مقاييس تناسب اهداف الرواية .

( ٢٤ ) "The New consorship of literature", letter to the Pall Mall Gazette, XI, (December 1884)

( ٢٥ ) "The Aesthetics of the Novel", Literature, (1899), V 98-100.

( ٢٦ ) "Our First Great Novelist" Macmillan's Magazine, xxx (1874), 1.

وعلى العكس من ذلك اعتبر آخرون مرونة الرواية واحدة من مزاياها الجمالية . فقال احد المعلقين على الرواية :

ان الرواية من بين جميع الاشكال الادبية هي الشكل الوحيد الذى يستطيع ان يعبر بسهولة مطلقة من كل عاطلة يمكن تصورها (٢٧) .

غير انه عاد ثانية واعترف بمخاطر هذه المرونة فى البناء الروائي .

والمهم فى كل هذا ، سواء اجاءت التعليقات النقدية على الشكل الروائي ايجابية ام سلبية ، هو بدء ظهور الوعى بالناحية الجمالية للرواية ومناقشتها . وقد صاحب هذا الاتجاه الجديد فى اواخر القرن التاسع عشر ازدياد الوعى الفنى عند الروائيين انفسهم الذين وقعوا تحت تأثير فلوبير ( ١٨٢١ - ١٨٨٠ ) Flaubert الروائى الفرنسى الذى ساعد اهتمامه بالشكل الفنى للرواية على تطوير الرواية الحديثة ، كما ساعد على النهوض بالرواية عامة لما ابداه من جدية فى معالجته اياها .

ونتيجة لهذا ، اخذ النقاد الروائيون بالذات فى اواخر القرن ، يعبرون عن حماسهم المتزايد للرواية وعن ثقتهم فيها ، متخذين من الرواية الفرنسية مثلاً يحتذى لرفعة الفن . فى احدى المقالات الهامة التى ظهرت عام ١٨٨٤ بعنوان « فن الرواية » » "The Art of Fiction" اكد والتر بينزانت ( ١٨٣٦ - ١٩٠١ ) Walter Besant الروائى الانجليزى ، ان الرواية قرين تام لاشكال الفنون الاخرى ، محكمة مثلها بقوانين دقيقة يمكن ان تلقن كما تلقن قوانين الهارموني فى الموسيقى . وعندما نصل الى عام ١٨٩٠ نجد ان النقاش والجدال قد ازداد حول اهداف الرواية واساليبها ومبادئها ، حتى اصبحت ظاهرة من ظواهر الدوائر الادبية . وانصب هذا الجدل حول جانبي الشكل والموضوع ، وكان لكل منهما انصاره . فاصبحت الرواية محور اهتمام عدد من النقاد اعتبروها الان شكلاً ادبياً يستحق الدراسة .

• • •

كان الوقت قد حان لظهور ناقد يستطيع ان يجمع الخيوط المفككة فى شكل مترابط . وآلت هذه المهمة الى الروائي هنرى جيمز الامريكى الاصل الذى عاش معظم حياته الادبية فى انجلترا وتجنس بالجنسية البريطانية . وقد ارتفع جيمز الى مصاف الروائيين العظام كما اصبحت رائد النقد الروائي فى العصر الحديث .

كانت الثورة فى النقد الروائي التى قامت على اكتاف جيمز مفاجئة وساحقة وكاملة . ففي عام ١٨٨٤ جاء على لسان جيمز ، وهو ما زال فى منتصف العمر ، ان الرواية الانجليزية ليست

"Novels & Novelists", Saturday Review, xxxiii (1872), 722-3.

موضوعا « لدراسة » ( ٢٨ ) ، ومبر عن اسفه العميق لافتقارها الى النقد لاهميته في تطور الادب . وبعد عشرين عاما ، كان جيمز قد درس الرواية وحلها بدقة لم يسبق لها مثيل في مقدماته الثماني عشرة التي كتبها لطبعة نيويورك « لرواياته وقصصه » ( ١٩٠٧ - ١٩٠٩ ) . ولعلنا لا نخطيء اذا ما قلنا انه ليس هناك في تاريخ النقد ثورة في مثل شمول الثورة التي ادت الى مقدمات جيمز . وينفرد النقد الروائي في هذه الظاهرة المفاجئة ، يمس النقد الشعري الذي نما وتطور في انجلترا ببطء وصعوبة طوال ثلاثة قرون منذ ايام الشاعر درايدن . واذا ما استثنينا المحاولات الراهنة المتفرقة التي سبق ان ذكرناها ، فاننا لن نكون مخطئين كل الخطا اذا قلنا ان النقد الروائي في اواخر القرن التاسع عشر في انجلترا ولد من لا شيء . وايا كانت الاهمية التي نضيفها على نقد جورج اليوت وزميلها جورج هنري لويس George Henry Lewes فمن الواضح لنا اليوم كما كان واضحا لجيمز انها كتبت دون استناد الى مبادئ فنية مألوفة بها ، بدون التاكيد من ان الجمهور القارئ يتمتع بنفس الثقة في الرواية . اما في حالة جيمز ، ففي استطاعتنا ان نقول انه لأول مرة منذ ايام فيلدنج ، الرائد الاول في النقد الروائي ، يتحدث روائي عن فنه بمعرفة وثيقة ، كما يكتب عن اعمال غيره من الروائيين بنفس الاسلوب الواثق .

ان نشر مذكرات Note books جيمز عن رواياته عام ١٩٤٧ اثبت بما لا يدع مجالا للشك ان جيمز كان فنانا ذا وعي عميق استطاع ان يعبر عنه منذ البداية . فمن سن الخامسة والثلاثين حتى وفاته لم يتوقف عن شرح الاسباب والظروف التي دعت الى اختيار موضوعات بالذات ، موضحا في مذكراته نواة رواياته ، والخطوات التي مرت بها ، وكيفية تطورها . ان كل رواية من روايات جيمز وكل قصة من قصصه ظهرت الى الوجود بارادة واعية افصح عنها الكاتب باسهاب لا يكاد يكون له نظير في تاريخ الرواية . في هذه المذكرات اذا ، التي بدأ جيمز يكتبها عام ١٨٧٨ ولد النقد الروائي كما نعرفه اليوم . اما مقدمات رواياته الثماني عشرة التي كتبها في نهاية حياته الادبية فهي فتوح لجيمز انجازاته . ويجب ان تشير هنا الى ان الاعتقاد السائد بان النقد كثيرا ما ينشأ نتيجة لفشل الكاتب في اعماله الخلاق لا ينطبق اطلاقا على جيمز ، حيث نجد التوؤم التام بين النقد والخلق . ويلاحظ ايضا ان جيمز لم يكتب معتبرا او مدافعا عن بعض او كل ما جاء في عماله . ان مجموع نقده يتصف بطابع الثقة المتواضعة ، كما يتصف باحترام الكاتب العميق لذلك القموض الذي لا بد ان يكتنف كل عمل ادبي خلاق .

واذا ما تركنا مذكرات جيمز جانبا لاختلافها العام عن بقية نقده من حيث هي توضح وتفسر لعملية الابداع عنده ، فان نقده يقع في ثلاث مراحل يتناول الناقد عبرها كتابا معاصرين له وفالبيتهم من الروائيين الانجليز والفرنسيين والامريكيين . وتغطي المرحلة الاولى مقالته المنشورة ابتداء من سن الواحدة والعشرين في مجلة Nation وغيرها ، وهي تعليقات على كتب من مختلف الانواع ، من

بينها مقال ( ١٨٠٥ ) هاجم فيه رواية صديقنا المشترك ( ١٨٦٥ ) Our Mutual Friend لتشارلز ديكنز . اما المرحلة الثانية فهي تلك الفترة الوسيطة المثمرة التي بدأت بنشر مقال ( فن الرواية » ( ١٨٨٤ ) " The Art of Fiction " ، وهو تعليق على محاضرة والتر بيوان المنشورة تحت نفس العنوان ، وبيان في نظرية الرواية . ثم تلتها مقالاته الهامة عن الروائيين ترولوب ( ١٨٨٢ ) وستيفنس ( ١٨٨٨ ) وموباسان ( ١٨٨٨ ) Maupassant و زولا ( ١٩٠٣ ) Zola و بلزاك ( ١٩٠٥ ) Balzac ويمكن ان نضيف الى هذه المقالات مقالة عن هوثورن ( ١٨٧٩ ) Hawthorne اعطى فيه الروائي الأمريكي حقه في الثناء كاملا ، ثم مقالة عن كونراد Conard و آرنولد بينيت Arnold Bennett وهيو والبول Hugh Walpole بعنوان « جيل الشباب » " The younger Generation " . واخيرا تجيء المرحلة الثالثة التي ظهرت خلالها مقدماته ( ١٩٠٧ - ١٩٠٩ ) التي تتضمن مجموع ما جاء في نقده الروائي ، وتمثل عمق وفنى اهتماماته النظرية في النقد . واعتبر جيمز هذه المقدمات في مجموعها مرشدا لمن يصبوا الى مهنة الرواية الشاقة ، كما سماها . ولا يمكن ان ننكر ان هذه الاشارات لا تتبع نظاما معينا ، فكل رواية وكل قصة كانت تطرح اسئلة نقدية خاصة بها لا تنطبق على غيرها ، ولا تستند الى خطة واضحة الهدف . ومع ذلك فمجموع ما جاء فيها ذو طابع متنوع تشمل جوانبه العديدة اهم اوجه النقد الروائي عند جيمز .

وكان جيمز في هدنه طموحا ، فرمى الى خلق تقليد انجليزى في النقد الروائي من لا شيء . وكان مصيبا في شكواه من افتقار الرواية الى النقد عندما قال :

كان الاعتقاد السائد الى وقت قريب على ما يبدو ، هوان الرواية الانجليزية ليست على حد قول الفرنسيين مجالا للدراسة . ولم يد عليها انها تستند الى نظرية او اقتناع او مدى بنفسها ، او انها تعبير عن عقيدة فنية نتيجة اختبار ومقارنة ... لقد كان هناك شعور عام مريح منسبط بان الرواية هي رواية كما ان « البودنج » هي بودنج ( ٢٩ ) ، وان مهمتنا الوحيدة هي ان نبتلعها . ( ٣٠ )

وقد سبق ان لاحظ جيمز في مقاله عن ترولوب ان « من الخطورة بمكان » في انجلترا « ان يكون المرء فنانا صريحا او واميا ، وان يتبع نظاما او مذهباً » . وقد اخذ جيمز على عاتقه مهمة اصلاح الوضع بان جعل الرواية الانجليزية موضع « الدراسة » الجادة لأول مرة تقريبا في تاريخها الطويل .

واساسا النقد عند جيمز هو التعاطف والتوحيد بين الناقد والعمل الادبي . ويعرف النقد بانه « مبدأ تفهم الاشياء » ومهمته « الالحاق في المطالبة بحاجة جميع الاشياء الى التفهم » ( ٣١ ) . ولا فائدة من ان يضجر الناقد من موضوع المؤلف ، كما سبق ان حدث مع المتطهرين والنفعيين ، لان

( ٢٩ ) « البودنج » نوع من الحلوى المائلة الشكل ويقصد باستعمال الكلمة هنا افتقار الرواية الى الشكل المحدود .

"The Art of Fiction"

( ٢٠ )

Views & Reviews, (1908), 94

( ٢١ )

الموضوع هبة تعطي عن طريق مؤثرات وعمليات هي في نهايتها غامضة . واهتمامات الناقد يجب ان تنصب على المعالجة الادبية التي لا يستطيع ان يلم بها الا « بالانغماس في عبقرية الكاتب » ، وتتبع خطاه ، والتعرف على كنهه « ( ٢٢ ) . ومع ان جيمز في مقدماته كان في وضع يحسده عليه للنقاد من حيث انه كان يلعب دور الناقد لاعماله الخلاقة، وبذلك كان ناقدا مكتمل المعلومات عما يكتب ، فانه كان يلعب دور القارئ ايضا الذي تفوته اشياء كثيرة ، وخاصة فيما يتعلق بالاعمال التي انتجها منذ زمن بعيد . ولذلك فعندما تناول رواياته اقترب منها في تواضع الناقد الذي لا يستطيع مهما حاول ان يتعرف على كل ما يكنه العمل الخلاق . فكان مثلا للناقد المثالي كما تصوره جيمز، الذي عليه ان يقبل حدود معلوماته ونقائص قدراته عندما يقف وجها لوجه امام السر الفاض الذي يكتنف كل عمل ابداعي . ان الناقد المحترف يستطيع ان يتعلم الكثير من موقف جيمز من العمل الفني ، واعترافه باستحالة التوصل الى كل الحقائق التي تؤول في نهاية الامر الى ما نسميه فنا . وقد عبر جيمز عن هذا بقوله :

ان التاريخ الخاص لاي عمل مخلص مهما كان متواضعا ، يبين في مجموعه على جو الرواية الفني المحاط بالغموض ، مما يضفي وقارا على العمل (٢٣) .

ويقول ايضا :

ان السطح المغمور هنا وهناك يرفض الاستجابة ، بلاشك ، فالاسرار والنوايا الخفية مدفونة الى درجة لا تسمح لها بالظهور ثانية (٢٤) .

وفي موقف جيمز هذا بعض الشبه بنظريات النقاد المحدثين الذين يؤكدون عدم جدوى تتبع نوايا الكاتب . ولكن الشبه لا يمدد كونه سطحيًا ، اذ ان جيمز يملك من البصيرة ما يمنعه من القول بان الاستحالة تعني عدم المحاولة . ان جيمز يعلم تماما انه ليس هنالك نقد مهما تعمق ، يستطيع ان « يستحوذ ذهنيا » على العمل الفني . وانما النقد انواع ، فمعه ما يقترب قليلا من العمل ، ومنه ما يبعد عنه كلية .

وفد كتب جيمز قصة قصيرة في موضوع الكاتب والناقد بعنوان **الصورة في السجاد** (١٨٩٦) *The Figure in the Carpet* . ويشير العنوان الى السر المدفون في العمل الفني الذي ينبغي على الناقد والقارئ ان يكتشفاه . ويلاحظ ان السخرية في القصة لا تصدر ، كما ظن البعض ، عن الاعتقاد بان « سر » فيريكر » ، الكاتب الابداعي ، لا يستحق الاكتشاف ، ولكنها تصدر عن خطأ لاعتقاد بان هذا السر يمكن التوصل اليه دون اللجوء الى قراءة متعمقة ومتفهمة للعمل الادبي نفسه . وكل محاولة لاكتشاف سر « فيريكر » الكاتب العبقري الذي يموت حاملا معه هذا السر الى القبر ، كما تظن شخصي القصة ، كل محاولة جديدة تلقي بالباحث بعيدا عن الجواب ، لانه يعتمد في بحثه

( ٢٢ ) "Notes on Novelists with Some other Notes" (1914), 259.

( ٢٣ ) "The Art of the Novel", edited by R. P. Blackmur (1934), 4.

( ٢٤ ) المرجع السابق . ص ١١ .

على الآخرين وليس على « تحليل دقيق مبنى على التقدير » للأعمال الإبداعية ذاتها . والقصة تعبير عن احتجاج جيمز على افتقار إنجلترا إلى النقد الروائي الجاد ، وعلى « جمود الحسن العام » فيما يتعلق بالرواية . وقد لخص هذا في قوله :

« ان ما نسميه نقدا بعيد عن الاحساس بحقيقة الاشياء » ( ٣٥ ) .

ويرمى جيمز في هذه القصة إلى الارتقاء بالرواية إلى مكانة الفن الرفيع المركب الذي يصعب على الناقد ان يحلل جميع تركيباته ، وان يستخلص منه بالتجريد رؤية الكاتب أو « الصورة في السجاد » ، كما سماها جيمز في قصته . فجوهر العمل الخلاق سر غامض لا يمكن الاستمتاع به وتقييمه ، إلا عن طريق القراءة المتعاطفة . ويعنى هذا ان مهمة الناقد شاقة . فيجب ان يتصفه بالقدرة على النظرة المركبة والاحساس المرفه ، وعلى بلل كل مشامره وانتباهه . ان النقد عند جيمز هو « آخر الفنون وأكثرها تركيبا ، آخر ما يؤهل له الانسان ، وآخر ما يصل إليه . وهو أكثر الفنون حاجة إلى النضوج والفهم والمقارنة » ( ٣٦ ) .

وجيمز في نظرية للرواية التي تناولها في مقاله « فن الرواية » يصوغ بعض العبارات المحددة في مفهوم الرواية والرؤية الروائية التي ينفرد بها هذا الشكل الأدبي ، كما يوضح نقائصها ومزاياها التي لا جدال فيها . ونقطة الابتداء عنده ، كما كانت عند فيلدنج وجين أوستن وجورج اليوت ، هي تصوير الرواية للحياة . فيقول :

ان السبب الوحيد لوجود الرواية هو أنها تعاول تصوير الحياة . ومتى أقت هذه المحاولة جانباً ... تكون قد وصلت إلى وضع غريب عنها ( ٣٧ ) .

ويقول في مكان آخر : « ان الرواية تتصف بالشمول والعمق في مطابقتها الرائعة للحياة » . ( ٣٨ ) وهناك فقرات عديدة في نقد جيمز تشير عامة إلى تقبله للأسلوب الواقعي وأعجابه بكتاب هذا الأسلوب من الروائيين العظام من أمثال بلزاك وفلوبير وموباسان ودودييه وجورج البوت وتورجينييف . وبينما يعبر عن استيائه من أسلوب جورج صاند ( ٣٩ ) ( ١٨٠٤ - ١٨٧٦ ) George Sand لافتقاره إلى « الدقة » - أي أسلوب الحقيقة ، فإنه يثنى على « الدقة في تصوير التفاصيل » إلى حد « التشبع » في روايات بلزاك وفلوبير .

وعلى الرغم من تأكيد جيمز لعلاقة الرواية بالواقع فإنه لا يخلط بينهما . فالرواية ليست مرآة ولا هي محاكاة للحياة بالمعنى الضيق لأن الفن ، في نظر جيمز ، لا يمكن ان يكون مجرد

( ٣٥ ) المرجع السابق ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

( ٣٦ ) "The Art of Fiction".

( ٣٧ ) "The Art of Fiction".

( ٣٨ ) Partial Portraits (1888), 378.

( ٣٩ ) French poets & Novelists (1878)

« شريحة من الحياة » كما ادعى زولا . بل الرواية مختارات من الحياة ، يحورها الروائي ويشكلها ويخفقها من جديد . والاختيار ضروري لان الحياة كلها شمول وفوضى ، والفن كله تمييز واختيار » ( ٤٠ ) .

وقد شبه جيمز الفن بالمفاعل الكيميائي الذي يصهر مواد الحياة حتى تظهر في قالب جديد لتؤدي عملها . واستخدم نفس الصورة في وصفه للفنان عندما قال : « انه الكيميائي Alchemist الحديث الذي يبعث اللحم القديم في البحث عن سر الحياة (٤١) » .

الرواية اذا تعطى القارئ صورة واهمة بالحياة ، ويكون نجاحها بالقدر الذي يستطيع الروائي بأسلوبه اقناع القارئ بهذه الصورة . وهنا تظهر مشكلة الصدق الفني التي شغلت بال جيمز كما كانت موضع اهتمام جورج اليوت التي اكتشف في رواياتها « ذلك الدليل القوي الكامن بالصدق » (٤٢) . فـ جيمز احتار في تحديد ما كان يعنيه بالصدق والحقيقة فيما يتعلق بالاسلوب الواقعي . ولم يستطع « تثبيت » درجة الواقع الذي يتطلبه العمل الفني . ووجد صعوبة في قبول شخصياته خيالية مثل دون كيشوت ومسترميكوبه لان « حقيقتهما » كما قال « مسالة في غاية الدقة ، مصبوغة برؤية الروائيين الى درجة تتردد معها في تقديمها كنموذج يحتذى . مهما وضحت معالم الشخصيتين وحيث » (٤٣) . واتخذ جيمز موقفا مماثلا حيال رواية ديكنز صديقنا المشترك ، فقال عنها انها تحفل بشخص ممسوخة تثير الضحك ، مشوهة في مظهرها ومسلكتها دون سبب مقنع ، الى درجة قضت على انسانيتهما .

فالواقع اذا ذو اهمية اساسية في الرواية ، ولكن ليس من السهل اعطاء فكرة واضحة ووصف كامل لما يعنيه الواقع ، كما يتضح من قول جيمز :

لا جدال لي انك لن تستطيع ان تكتب رواية جيدة الا اذا كان لديك الاحساس بالواقع ، ولكن من الصعب ان اعطيك وصفا مفصلا للعناصر التي تعمل على خلق هذا الاحساس ، ان الانسانية شاسعة والواقع ذو اشكال لا حدود لها ( ٤٤ ) .

وهنا يتساءل جيمز لماذا يحاول الروائي ان يخلق صورة « واهمة بالحياة » ؟ وما هي وظيفة الفن ؟ والسؤالان متداخلان والاجابة عليهما تكاد تكون واحدة . ووظيفة الرواية في نظر جيمز هي اعطاء القارئ « عالما آخر » ، تجربة تشبه في مفعولها الاثير الذي يستخدمه طبيب الاسنان ، فكلاهما يسكن من « آلام الواقع » . ويضيف جيمز : « ان مانراه طبعا هو واقع آخر ، واقع اشخاص آخرين ، ويتوقف ما نراه على القدر الذي تحتويه الصورة من الحياة » (٤٥) . غير ان جيمز لا يدعى انه يعرف كنه هذا الشعور بالسكون ولتخفيف من الآلام الناجم عن قراءة

“The Art of Fiction”

( ٤٠ )

Notes on Novelists, 275

( ٤١ )

Views & Reviews, 4.

( ٤٢ )

“The Art of Fiction”

( ٤٣ )

( ٤٤ ) المرجع السابق

Notes on Novelists, 436

( ٤٥ )

تجارب الآخرين في الرواية . وكل ما توصل الى ملاحظته هو أننا بعد القراءة نعود الى واقعنا ، وقد ازدادنا قوة وصلابة . وتبين ان الروائي الذي يسمح لنا بأن « نحيا حياة الآخرين » لا يعمق من تجاربنا فحسب ، بل كذلك رؤية جديدة للحياة ومعرفة صادقة بانفسنا . اننا نشترك في رؤية الروائي ونتشكل هـ . وفي هذا الراى امتداد وتطور لنظرية جورج اليوت في الواقع والصدق الروائي وتأثيرهما الخفى على القارىء .

ان الرواية تستطيع ان تكشف للقارىء عن حقائق نفسه وعالمه بنسبة اكثر من اشكال اخرى فنية في نظر جيمز . فالروائي ، كما يقول جيمز ، يمكن القارىء من ان يختار ويقارن ويفهم ، حتى يصل في نهاية المطاف الى نوع من التكامل الذي لا ينتمى الى الوضاعة والنفاق مهما كانت سطحيتها ونفرائه » (٤٦) . وهذا التكامل الذي يعتبره جيمز اثارا رائعا من آثار الرواية يفترض مسبقا الشمول في هذا الادب والابتعاد عن النظرية الجزئية للواقع . فعلى الروائي ان يعبر من خلال ادبه عن كل نواحيه الانسانية . وهنا يجد جيمز مكانا للاخلاقيات والضمير في نظريته ومقاييسه الادبية . ويرى على هذا الاساس ان الرواية يجب الا تكون عملا وصفيا محليا ، مجرد صورة للسطحيات . بل يجب ان يكون لروح الانسان وجوهه مكان في الرواية خليق به حتى لا يظهر مجزأ ممزقا بل متكامل روحيا وعقليا وجسميا .

وينتقل جيمز بطبيعة الحال من هذه الفكرة الى تناول موضوع العلاقة بين الرجل والمرأة في الرواية فعبّر عن اعتراضه على الرقابة المستترة في انجلترا تلك التي حرمت على الروائي معالجة نواحي هامة من الحياة ، كما عبّر عن اسفه للقيود التي وضعتها الميول المتظهرة والاحتشام المتكلف في ذلك الوقت على العمل الروائي . ونادى جيمز بضرورة التحرر من هذه المعوقات للرواية في سعيها نحو الرؤية الكاملة .

ولكن لم يطل دفاع جيمز من فكرة التحرر هذه التي استلهمها من الروائيين الفرنسيين وتراجع عنها نتيجة تطهره هو ونفوره من الناحية الفريزية في الانسان ، واقباله على الناحيتين الروحية والاخلاقية ، اى ما اعتبرهما اكثر انسانية وشمولا . وقد وجد ، رايه ، ان غالبية الروائيين الفرنسيين يفتقرون الى الرؤية الاخلاقية . فهم على حد قول اساتذة في الفن والشكل ، وفي تصويرهم لسطحيات الحياة : الاحساسات والفرائز والرغبات ، ولكن ينقصهم تصوير « الشخصية في حركتها ، وامكانيات سلوكها ، والدور الذي تلعبه الفكرة في الحياة . . . وعندما يضعون ايديهم على حياة الانسان الروحية تتبدد مهارتهم » (٤٧) . ويقارن جيمز مقارنة فاصلة على هذا الاساس بين الروائيين الانجليز والفرنسيين .

فالانجليز ، في نظره ، كتاب تملأ كتاباتهم العيوب ، وينقصها الشكل ، ويميلون الى معالجة الامور معالجة نفسية اخلاقية باحتشام متكلف . اما الفرنسيون فهم اساتذة ضحل لا اخلاقيون في تصوير سطح الحياة . وكان جيمز يرمى الى تحقيق التوازن بين الميول الانجليزية والفرنسية

Selected letters, ed. Leon Edel, (1956), 157

( ٤٦ )

Essays in London & Elsewhere (1893), 183

( ٤٧ )



فى الرواية بكتابة الرواية النفسية الاخلاقية ذات الشكل الفنى المتناسق ، اى الجمع بين المعنى الاخلاقى والناحية الجمالية .

ورأى جيمز ان مثل هذا التكامل امر شخصي محض وثيق الصلة بالعقل الذى يصدر عنه . وقال فى هذا الصدد :

ان اعطق ما يسر عنه العمل الفنى هو عمق العقل الذى انتجه ... فالرواية الجيدة لن تصدر ابدا من عقل سطحي . هذه حقيقة لغوى ، بالنسبة للفنان ، المسمى الاخلاقى الذى يحتاجه (٤٨) .

فعقل الفنان بالمفهوم العريض هو الذى يشكل رؤيته وكلاهما محور اهتمام الناقد الروائى وقد شبه جيمز ادب الرواية بالبيت و « بيت الرواية » (٤٩) ، له واجهة عريضة تتخللها نوافذ عدة ، كثيرا ما تكون مجرد ثقب و وراء كل واحدة من هذه الفتحات اسس ذات عيني أو نظارة مكبرة - اى اداة ملاحظة فريدة تضمن لصاحبها « انطبعا يميز على كل انطباع اخر » . فقد يرى المشاهدون نفس المشهد ولكنه يكون دائما مختلفا لان الرؤية تتوقف على المشاهدة وزاوية الرؤية . والمنظر هنا هو مشهد الحياة ، والفتحة او الثقب هو الشكل الادبى والمشهد الذى نفت الحياة فى كلها هو وعى الفنان المتكامل . هذه هى الصورة اللافتة التى استخدمها جيمز فى احدى مقدماته الاخيرة لوصف فن الرواية ، الذى لا وجود له الا بوجود « المشاهد من الناقد » .

وقد ركز جيمز اهتمامه على ناحية الخلق عند الروائى التى تعكس الخيال اثناء عملية الابداع ، وتكشف عن عملية نسج مشاعر الكاتب وانطباعاته ، اى ذلك الوجه الذى يعكس ذاتية الفنان الدقيقة . وكل روائى يستحق المراجعة النقدية فى نظر جيمز « حالة خاصة » . وجمع هذه « الحالات » فريدة فى نوعها . ويكون الحكم على مستوى الناقد وقدراته بقدر ما يستطيع ان يصل الى اعماق « الحالة » التى يدرسها . ويلخص جيمز بعض تلك « الحالات » التى درسها فى نقده على النحو التالى : ففلوير هو « المثل والصورة للحالة الفكرية » ، وزولا هو الشخصية التى « تسود وتهيمن فى النهاية » ، اما موباسان « فحالاته » مميزة لانه يكتب عن طريق الاتصال الجرىء المباشر بحواسه . وجيمز فى نقده هذا يكتب كالعطبيب الذى يحاول تشخيص « حالاته » لا وصفها . والشئ الذى يبحث عنه فى « تشخيصاته » المستندة الى اسلوب العمل الادبى ونسجه ، هو مزاج الروائى الفريد ، ومدى رؤيته ، وحركة مشاعره وحواسه . انها تلك الاشياء التى سماها جيمز ب « لون الهواء الذى يشبع به الفنان ، ايا كان ، صورته للحياة دون وعى » . فالنقد عند جيمز لا يقل ابداعا عن العمل لخلق ، والناقد مثله كمثل الروائى يجب ان يتشبع بالعمل الذى يتناوله ويتفاعل معه كما يتشبع الاديب بالحياة المحيطة به ويتفاعل معها . والهدف فى نهاية الامر هو الوصول الى الجوهر .

وقراءة الرواية على هذا النحو معناها دراسة الروائى نفسه والعيش من جديد فى جو حياته الدقيقة . ومع ذلك فان جيمز فى نقده لا يخلط بين الروائى وعمله . ويقول فى هذا الشأن :

« ان الحياة والاعمال شيان مختلفان ، والمعرفة الوفيقة باحدهما ليست ضرورية اطلاقا للاستمتاع العام بالآخرى » . ولكن على الناقد ان يتعلم « ان يقرأ ما بين السطور » .

وجيمز لا يقع ابدا في الخطأ الذي وقع فيه كثير من النقاد من بعده ، وهو محاولة استنباط حياة الكاتب من خلال عمله . انه لا يرمي الى مجرد الترجمة عندما « يقرأ السطور » وإنما يرى الى مسائل أكثر أهمية بمراحل تكشف عنها حياة الكاتب ، مثل الأسلوب الذي من خلاله اختبر الحياة والناس ، والأشياء التي سلط عليها اهتماماته ، وتلك التي اشاح عنها بوجهه ، والمواقف التي تنبأ بها في رواياته وكيفية حلها . وعلى رأس هذه القائمة تقع قيمة الاخلاقية المستقاة من تجاربه . فالمطلوب من الناقد عملية تقترب من المنهج النفسي . ويؤكد هذا مقالات جيمز في نقد الروائيين التي تستند الى الملاحظة النفسية ، والاستنباط والاهتمام بالمعاني الخفية ، والعلاقات الانسانية ، والظروف المحيطة بها ، والدوافع السلوكية .

وجيمز في تأكيد هذه الأهمية المشاعر والاحساسات عند الناقد يمكن اعتباره الى حد ما ناقدا رومانسيا تنصب اهتماماته على عملية الخلق عند الاديب ، مثله في ذلك مثل كوليردج الشاعر والناقد الإنجليزي . وهناك شبه ملحوظ بين نظرة جيمز الى العمل الخلاق ونظرة كوليردج ، فكلاهما يتعرف على عضوية العمل الحيوية التي تضافى عليه استقلالاً مثل استقلال اى من الكائنات الحية . وفيما قاله جيمز عن شخص روايته صورة سيئة (١٨٨١) *The Portrait of a Lady* دليل على استقلالها الذاتي ، ووجودها المنفصل عن وجود المؤلف . فيقول جيمز انه بينما كان يكتب روايته اخذت شخصها تصرف على انفراد وكأنها هي بدورها تبحث عن مؤلف آخر يطلق لها العنان . وكان انطباع جيمز اثناء عمله انها تقول له « لو انك اعطينا ثقتك فسنرشدك الى الطريق الذي يجب على البطلة ازابيل آرتشر ان تسلكه » . وفي مقدمته لرواية *The Ambassadors* (١٩٠٣) نصح جيمز قراءه الا ينتقصوا من قيمة « القوة الدافعة التي تولدها الرواية لنفسها » والتشبيه الذي يستخدمه جيمز ليوحى بالحياة التي تتخلل العمل الخلاق يبعث الى الازدهان ما قاله كوليردج ايضا عن الوحدة العضوية للقصيدة الشعرية . واليك نص ما كتبه جيمز ، وهو الاقتباسات المشهورة في النقد الروائي :

( الرواية ) كأن هي وحدة مستمرة ، مثلها في ذلك مثل اى عضو حي ، وبقدر ما فيها من حياة سنجدها ، كما اعتقد ، ان كل جزء من اجزائها يحتوى على بعض مما في اجزائها الاخرى (٥٠) .

وتؤدي هذه الفكرة الى وجه من اهم اوجه النقد عند جيمز ، وهو اهتمامه الملح بالشكل الفني وعلاقته بالموضوع . وفي تأكيد جيمز لاهمية الشكل ، الراجع الى تأثير الرواية الفرنسية والحركة الجمالية في نهاية القرن الماضي ، اسهامه الاساسي في النقد الروائي . وتتركز مقدماته حول قضية الشكل التي كان يعلم جيمز مدى تعقيدها وتركيبها . لقد كان يعي انها مبنية على تناقض لا يمكن حله . فهدف الرواية والشكل النهائي الذي يأخذه لا يتقابلان

ولا يتواءمان كما يحدث للماء في الوعاء ، والعلاقة بين الشكل والمضمون علاقة مختلفة تماما عن علاقة الوعاء والماء . ولم يحاول جيمز تبسيط القضية ، بل حاول ان يعيها في ابعادها المتعددة .

ولقد لخص جيمز أهمية « الشكل » بالنسبة للرواية في قوله « بدون الشكل تكون الرواية مجرد « بودنج مائع » . وهذا ما وصف به روائع روايات تولستوى ودوستوفسكي . وبني اعتراضه على روايات تولستوى لما اعتبره افتقارا الى الشكل ، وان كان لم يسعه ، وهو الناقد ذو البصيرة النفاذة ، ان يضيف عليها ثناء عظيما . فروايات تولستوى كما قال جيمز : كتلة رائعة من الحياة . واقعة عظيمة - حدث عشوائي هائل ، وحش فيد لوضوحه الكبير هو الحياة باجمعها (٥١) .

ان اعجاب جيمز بهذه الاعمال الرائعة لا تنكر ، لقد وصفها بانها « بودنج » حقا الا انه اعترف ان عبقرية الروائي الروسي جعلتها طيبة المذاق . ومع ذلك فجيمز يؤكد عيوبها وهي : « الافتقار الى التكوين ، وتحديها للاقتصاد والشكل البنائي » ( ٥٢ ) . اما اساس اعجابه بالرواية الفرنسية ، على الرغم من نفوره من اخلاقياتنا ، فهو اهتمامها بالشكل والوعي الفني الذين انصف بهما الروائيون الفرنسيون .

وقد يبدو من تعليقات جيمز على اعمال تولستوى ان نظرتة الى الشكل في الرواية نظرة ضيقة تفصل بينه وبين المضمون ، ولكننا اذا ما معنا النظر في نظرية جيمز في الرواية وجدنا وعيا كاملا بالوحدة بينهما . فهو يشكو من الاعتقاد السائد بان الموضوع والشكل في العمل الفني مختلفان ومتفرقان . ويحاول اقتناعنا بان ذلك التمييز الخطير بين المضمون والشكل في العمل الفني الرفيع يجب القضاء عليه . وبين ايضا انه من المستحيل وضع حد فاصل بينهما وتحليل التكامل الذي هو جوهر العمل . وقد اثبت جيمز على مدام بوفاري Mme Bovary لفلوبير لهذا التوافق الكامل بين الشكل والمضمون ، فقال :

والشكل في حد ذاته لا يقل باى حال من الاحوال من جوهر الموضوع او الفكرة في النارة الاهتمام وفي الفاعلية . ومع ذلك فهو مطابق للمضمون لا يمكن فصله عنه الى درجة اننا لا نستطيع ان نستخلص الشكل في اية لحظة على انفراد . (٥٣) .

وهذه الوحدة بين الشكل والمضمون هي احد متطلبات جيمز الاساسية في الرواية ، فالشكل وحده ، كما يقول « ياخذ المضمون ويمسك به ويحفظه » ( ٥٤ ) .

وبالاضافة الى تحليل جيمز الدقيق لوجه الرواية الفنية المختلفة ولانجذابه نحو المشاكل الشكلية المتعلقة « بوجهة النظر » والاداة المصطلح عليها « الوعي المركزي » البنية على

“The future of The Novel” Essays on the Art of Fiction, ed. Leon Edel (1956) 228 ( ٥١ )

Selected Letters, 171. ( ٥٢ )

Notes on Novelists, 80. ( ٥٣ )

Selected Letters, 171. ( ٥٤ )

تصوير الفعل من خلال وعي شخص ذي حس مرهف وذهن متقن قريب من المؤلف نفسه ، بالإضافة الى كل هذا فان اسهام جيمز في تطور النقد الروائي يظهر ايضا في مفهومه العضوى لكل عمل خلاق ، ذلك المفهوم الذى على اساسه رفض الاشتراك في جدال النقاد حول ما سمي « برواية الحدث » « ورواية الشخص » . فجميع عناصر الرواية كما رآها جيمز متداخلة ومندمجة ، ومهمة الناقد تقييم الشكل الذى هو جماع هذه العناصر . ويقول جيمز في هذا الشأن :

يكثر الناس الحديث عن هذه الاشياء ( الوصف - الحوار - الحدث - الشخص ) كما لو كان كل منها يتميز عن الآخر بشكل قاطع ، بدلا من ان يلوب بعضها في بعض في كل لفظة من الانفاس ، وتشكل مجتمعة في علاقاتها المتداخلة وحدة شاملة مبررة . انا لا استطيع ان اتصور شكلا مكونا من سلسلة من الكتل ، او ان تكون هناك في اية رواية تستحق الدراسة على الاطلاق فترة وصفية لا يكون السرد من مهمتها ايضا ، او فترة من الحوار لا ترمى في نفس الوقت الى الوصف ، او لمسة من الحقيقة ايا كانت لا تلعب دورا في الحدث ، او حدثا يستحق الاهتمام من اى مصدر غير المصدر العام لنجاح الرواية ، وهو قدرتها التصويرية . فما هي الشخصية اذا لم تكن تحديدا للحدث ؟ وما هو الحدث اذا لم يكن تحديدا للشخصية ؟ واين هي العمود او الرواية التي لا تتناول الشخصية (٥٥) .

بهذا يؤكد جيمز طبيعة الرواية العضوية ووحدةها . ولكن بما ان الوحدة تتصف بالعضوية فانها وحدة مبنية على التعدد والاختلاف . وجيمز يعلم جيدا ان هناك تناقضا في محاولة احتواء الحياة التي لا شكل لها في اطار الرواية المصطنع الذي لا بد وان يكون له شكل ومجرد « فكرة تثبيت » ( تلك الكلمة التي يردد ها جيمز مرارا في مقدماته ) الحياة هي في حد ذاتها تناقص للحياة . وعندما يأخذ جيمز في ادلاء النصيحة الى الكاتب الروائي قائلا انه يجب ان يبدأ من نقطة تجارية ، يجد نفسه يتحدث بشكل عام دون تحديد ، ويعترف بان نصائحه ان تغيد الروائي كثيرا . ويقول :

هنا نوع من التجارب نعني ؟ واين تبدأ واين تنتهي ؟ ان التجربة لا حدود لها ولا هي مكتملة ابدا . انها نوع من الحساسية الهائلة تشبه بيت منكبوت ضخم بنى من ادق الطيوف الحريية المعلقة في غرفة الوهم ، وتمسك في نسجها بكل دقة تطير على اجنحة الهواد . انها مناخ الفعل : وعندما يكون خياليا ، بل عندما يكون عقل مبقري ، فانه يعتغل باوهن ما يوحى بالحياة ، ويحول نبضات الهواد نفسها الى زؤى (٥٦) .

ويعرف جيمز مشكلة الروائي بانها مشكلة الاختيار من تجارب الحياة الغنية وتركيزها وتشكيلها لايهام القارئ بالحياة . فعليه ان يختار ، كما يقول ، من فوضى الحياة « العديدة الشكل والنظام » ، من الواقع « العديم الهدف » بحيث يشكل اختياره هذا معنى ويكشف عن قيم . وبدلك فالرواية في نهاية الامر تتضمن - حتما - نوعا من الخداع . ولكن جيمز اصر على ان يكون الخداع مكيفا ومشكلا ومصنما بمهارة المحترف التي تتطلب المعالجة الدقيقة الواعية . فالحياة ، كما قال جيمز ، مستحيلة التحديد لا تعرف اين تنتهي ، اما الرواية فيجب ان تعلم حدودها . وعلى الرغم من ان جيمز يؤكد اهمية الاختيار والتركيز والاقتصاد ، فانه يصر ايضا على ان الهدف هو جعل الرواية « مثلية للحياة شاملة عليها » ، ولكن دون ان تخلف

فيقدر ما نرى الحياة بدون تنظيم جديد من خلال ما تقدمه لنا الرواية يكون شعورها باننا نلمس الحقيقة .  
ويقدر ما نرى الحياة وقد اتخذت لنفسها نظاما جديدا ، يكون احساسنا باننا امام بديل للحياة ، حل وسط ، وتقليد لها . (٥٧)

لا بد وان الروائي الانجليزى العادى قد استرعى نظر الناس بافتقاره الى الشجاعة الادبية ، ونفوره من مواجهة الصعوبات التي تتأرجح حول معالجة الواقع - انه يميل الى الجبن الى اقصي الحدود ... ويتميز عمله ، في اغلب الاحيان ، بالصمت الحريص فيما يتعلق بمواضيع بالذات ... ان جوهر الطاقة الاخلاقية هو مسح الحياة باجمعها. (٥٨)

يحب ان نعطى الرواى حقه فى موضوعه ، فى فكرته ، لى اما نقولنا فينطبق فقط على ما يصنعه من مادته . (٥٩)

ويبدو مما سبق ان الرواية في نظر جيمز اقل الاشكال الادبية جمودا . لقد اشار الى « روعة هذا الشكل » الذي يمثل « قليلا جدا من القيود ومريدا من الامكانيات » . وفي استمرار تأكيده لحرية الشكل الروائي تحدث عن شرط واحد فقط ، كما هو واضح من الاقتباس التالي :

وبهذا فالناقد الذى رمى - فيما يبدو - الى بناء نظرية نقدية فى الرواية ، لم يطوقها بآية شروط الا شرط الصدق . انه لم يرفع من شأن الرواية فحسب بتناوله لها فى اسهاب وجدية لم يسبق لهما مثل ، بل صورها وفتح لها المجال لتعاق الحياة بأسرها ، وتصورها فى انسب شكل

( ٦٠ ) نفس المرجع

يطابق رؤيا الفنان . وهو في هذا يقارب روائيا ناقدا آخر هو د. هـ. لورانس ، يختلف تماما عن جيمز ، وانما يتفق معه في تأكيد ضرورة استمتاع الروائي بالحرية الكاملة ليحقق رؤياه بشرط واحد ، وهو ان يكون صادقا ومخلصا في هذه الرؤيا بما يرضي ضميره الفني . وقد قيم لورانس الرواية في مقالة « الاخلاقيات والرواية » ( ١٩٢٥ ) ( Morality & The Novel ) واعتبرها ارقى وسيلة لتصوير الحقيقة ، وكان يعنى بذلك الحقيقة التي تنتمي الى سلوك الحياة . كما الح على انه ليست هناك قواعد لبناء الرواية ، وان القواعد يمكن تطبيقها فقط على الروايات التي هي مجرد نسخ من روايات اخرى لا اصالة فيها . وفيما عدا ذلك ، فالرواية الحية التي تصور « الإنسان الحي » لا تحكمها الا الحياة . لقد تقدم لورانس كثيرا عن جيمز فيما يتعلق بتحرر الروائي في كتابه ، وان كان هناك صدى للورانس عن كيفية كتابة الرواية حين يقول جيمز : يجب ان تكتبها كما تستطيع .

ومهما نقل عن الثورة التي حققها جيمز في النقد الروائي فلن نكون مباغين . فغالبية المبادئ التي تستند اليها في النقد الروائي الحديث والتي اغنته بالمصطلحات المعروفة اليوم هي من آثار جيمز . انه هو الذي نبهنا الى المعنى الشامل الموحد في الرواية ، وهو الذي كشف لنا عن الوحدة العضوية بين اجزاء الرواية وعناصرها ، وهو الذي عرف الدور الذي تلعبه الاخلاقيات بالمعنى العريض في الرواية ، وليس بالمعنى الضيق المبني على السلوك الاجتماعي المتفق عليه ، وهو الذي اشار الى عامل الخداع في الرواية ، وفي نفس الوقت أكد جوهر الصدق فيها . وفوق كل هذا ، فجيمز هو اول ناقد انجليزي بحث في اسباب المسائل الجمالية والفنية في الرواية . ومع ذلك فقد انجز كل هذا دون اللجوء الى شروط مسبقة . وفيما قاله ليون اديل Leon Edel الناقد المشهور بابحاثه عن جيمز وترجمته لحياته ، اشارة الى عدم مذهبية الاديب والناقد الكبير :

ليس هناك كاتب حجة اقل مذهبية من جيمز . انه يتحدث الينا بفضاحة حتى اليوم ... معرفا بنفسه ، وبذلك الفن الذي احترفه بالاخلاص . (٦١)

ومنذ وقت بعيد مضى قال برسي لابلوك الناقد الروائي المعروف الذي تتبع خطى جيمز في نقد الرواية ، قال انه الناقد الحقيقي الوحيد في فن الرواية .

وكان جيمز مثالا للاديب الذي وهب حياته لفنه وعاش ليصور في رواياته قيما انسانية ، ليمتد بالحياة ويتعمق فيها حتى تصبح دقيقة في وعيها وغنية في مسئوليتها . اما النقد الروائي بالنسبة اليه فهو اداة ترمي الى تفهم ذلك النوع من الادب الذي انتجه . ومن الطبيعي ان تكون الاداة في نفس مستوى رقى الادب ، ما دام كلاهما وليد نفس العقل والروح . ان النقد عند جيمز لا يقل ابداعا عن العمل الخلاق ، بل يصح ان نقول انهما وجهان لعملة واحدة ، ومظهران متكاملان لعبقريته جيمز الابداعية التي تركت تراثا في النقد الروائي لا يقل في كثير عما تركته في الادب الروائي . وبانجازات جيمز في النقد بدا الطريق امام الناقد الروائي المحترف من بعده اكثر وضوحا ، وانتقل النقد الروائي الى مرحلة جديدة تتميز بالثقة والتقييم المتزن .

## آفاق المعرفة

تكنولوجيا العصر والمجال الطبي  
للعالم العربي سنة ٢٠٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ .  
ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً لِيُفِيَّ قَرَارَ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا  
النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا  
الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ  
خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ  
سوره الله العظيم

للدكتور : مصطفى كمال محمد

الوسطى ، بل تتعداه الى العصور القديمة حيث قامت وازدهرت حضارات مصر وبابل وآشور . ونفضل هذه الحضارة على العالم والذي لازال يدين لها بالشكر والعرفان . فالعرب امة علوم واختراعات ، وامة ادب وشعر، وهم الذين اسسوا الاسس الاولى في شتى النواحي العلم والمعرفة . ان جابر بن حيان مثلا هو الرائد الاول في ميدان البحث العلمي التجريبي ، والكندي اول من اثبت كروية السطوح المائية ، والادريسي الذي اكتشف

فما من شك ان عقل الانسان العربي يحمل في تقدمه سمات ماضية ، فالحضارة العربية سلسلة متعاقبة لتطور هذا العقل العربي وكشفه عن اسرار هذا الكوكب الذي يعيش فوقه والكواكب المحيطة به ، وفي الكشف عن مختلف القوانين الفيزيائية والكيميائية والرياضية والطبيعية وتذليلها لغاياته ، واصبح هذا العقل المستنير يحمل شعلة الحضارة من عصر الى عصره، فمبقرة الحضارة العربية لا تقف عند حدود العصور

من هنا جاء اهتمامي بتناول العلاقة بين التقدم الحضارى في مجالات العلم والتكنولوجيا وبين التغير الاجتماعى الذى يمس نظم المجتمع وقيمه الاجتماعية . وان درجة النمو الاقتصادى تتوقف على درجة ثقل واستيعاب التكنولوجيا الراقية الموجودة في المجتمعات الصناعية المتقدمة .

البلاد المتقدمة تعيش في نهضة علمية وثورات تكنولوجية مستمرة وذلك منذ منتصف القرن التاسع عشر . كذلك فان القدر الاكبر من النمو الاقتصادى في هذه البلاد يدين الى التقدم العلمى والتكنولوجى الذى تحقق في هذه البلاد .

فلكى نعيش هذا العصر ونصل الى سنة ٢٠٠٠ بسلام ، فاننا يجب ان ندرك تماما اهمية التكنولوجيا المعاصرة وتطبيقاتها في شتى المجالات كقوة ثقافية ديناميكية عصرية ، بمعنى ان نصيد اى دولة من رجال العلم والتكنولوجيا بمعاملهم او اجهزتهم ومعداتهم ، هو الذى ينقل المعاصرة اليها . والتكنولوجيا في هذا البحث لا يقصد بها المعرفة بمعناها العام وباختلاف فروعها بل اعنى هنا المعارف العلمية التي قد تنوع في مجالاتها التخصصية . ولكن، لا ننكر ايضا انها تشترك وتتركز على المنهج العلمى السليم والذى يعتمد بصفة رئيسية على التحقيق الموضوعي والتجريب التطبيقى ومدى الانتفاع منها ومدى الحدود التي تتيح استخدامه . بهذا البحث اود ان اوضح مساهمة تكنولوجيا العصر في المجال الطبى وكيفية الاستفادة منها في بناء العالم العربى سنة ٢٠٠٠ ، وكيفية التركيز على خلق وتنمية ائمن ما نعتز به ، وهو الطاقة البشرية القادرة على الاسهام بالعلم في صنع المستقبل . هنا ايضا لا اطمع الى جعل الانسان العربى خالداً، ولكن كل ما اريده هو اعطاء اشباههم ولادة بدون حادث، ونموا عاديا ، وحياة بدون عيوب وامراض وآلام . وان طريق العلم يؤدى دالما في نهايته الى تحقيق الفايات المرجوة وتوفير

منايع النيل والاسطرلاب - ثم ابن سينا وبحوثه العظيمة في المجرات وتكوين الجبال والمعادن ... ثم ابن يونس الذى اخترع البندول ... وكذلك الرازى وكشوفاته الطبية العديدة ... ولا نستطيع ان نتجاهل اسهام كل من ابن الهيثم والبيرونى وابن النفيس والبوزجاني وابن رشد والجاحظ وابن البيطار وغيرهم في مجال العلوم والمعرفة كالجبر والهندسة والفلك والطب والتشريح والصيدلة والكيمياء والفيزياء والنبات والحيوان والمعادن وغيرها .. كما ان القيم الاسلامية لا تتعارض مع العلم ، بل هي روح العلم نفسه ، والتقدم التكنولوجى طالما يستهدف في النهاية خير الانسانية وسعادة البشر .

لا جدال في ان اقامة مجتمع الرفاهية هو الهدف الاسمى الذى تسعى اليه كافة الدول المعاصرة، وهو العيار الذى يقاس به مستوى تقدم الشعوب . 'مجتمع الرفاهية هو المجتمع الذى يتحقق فيه اكبر قدر من الرفاهية الكلية .. اى اكبر قدر من الاشباع من المنافع والسعادة لمجموع افراده .

فاللدول النامية تخوض الآن على الصعيدين الوطنى والدولى حريا ضد الجهل والفقر والمرض وسيطرة الدول الاقوى عليها . فالعالم العربى في اشد الاحتياج الى استراتيجيات علمية مدروسة لتنمية موارده الطبيعية والبشرية . لان الدولة الحديثة التى تريد بناءها تعتمد بالدرجة الاولى على الانسان العربى صاحب الحضارة العريقة ، وحامل القيم الشريفة ، وهذا يتطلب تحقيق تغيرات جذرية في انماط السلوك الاجتماعى ومحاولة احداث تغيير في تركيب وخصائص البيئة المحيطة بالانسان العربى ...

فان العلم والمجتمع يكاد يكمل كل منهما الآخر . فنقدر حاجة المجتمع الى النتاج العلمى لتنميته وازدهاره ، فان العلم في حاجة الى التقبل الاجتماعى لتدعيمه وتثبيته .



العصر في المجال الطبي ، ومدى الاستفادة منها للعالم العربى سنة ٢٠٠٠ .

✽ تكنولوجيا انتاج العناصر الالكترونية والمفناطيسية وعلم الانفورماتيك في المجال الطبي : اشار العالم لوكلائش رئيس اكاديمية الطب بفرنسا الى الاهمية المتزايدة التى يحتتها الالكترونىك والانفورماتيك في مجال العيادة الطبية . فمئذ فترة قريبة جدا كان العلماء يعتقدون ان مخ الانسان يتكون من ١٢ - ١٤ مليار نيرون ، متحدة مع بعضها بأعجب الطرق ومتصلة بخيوط عصبية مع اعضاء وانسجة الجسم . كما يوجد نيرون الجسم الحى عادة في حالتين اما هادئة واما مثارة . ويقول الخبراء ان وظيفتى النيرون هاتين يمكن مقارنتهما ، في التصوير المبسط بعنصر راديو الكترونى ذى وضعين يعمل بنظام « انوصل والقطع » ويمكن أن يكون ذلك صماما أو مرحلا أو ترانزستورا . ومن النيرونات « تبنى » الاعصاب التى تعتبر بالنسبة للجسم بمثابة الاسلاك ، او خطوط المواصلات بين الجسم ككل وبين بعض الاجهزة او القطاعات على حدة . وبعبارة أخرى فان الاسلاك - الاعصاب تربط الجسم بالمحيط الخارجى : فنجد مثلا المخيخ وحده وهو غرفة التحكم في الجهاز العصبى المركزى - يضم حوالى ١٠٠ مليار خلية . والخلية هنا ليست مجرد « نواة الحياة » بل مؤسسة متعددة الفروع ذات قطاعات عمل واقسام مختلفة ، ونظام للتغذية بالطاقة ووسائل نقل . ففى الجسم الحى يجرى باستمرار تنسيق العمل بين مختلف الاجهزة ، وتتجمع المعلومات عن حالة النظام وعن ظروف الوسط الخارجى ، ويحافظ على درجة حرارة ثابتة وضغط ثابت . من هذا المنطلق وعلى أسس علمية قوية توغلت تكنولوجيا العصر وعلم السيبرنييتيكافروعها بثقة في المجال الطبي لخدمة الانسان البشرى واصبحت انتصاراتها في هذا المجال أكثر اهمية وبذلك نجد أن المجال الطبي استفاد ، وسوف

السعادة المنشودة لبنى الانسان العربى في كل زمان ومكان .

وواجب الانسان العربى ان يتعلم وأن يسعى الى مجالس العلماء ليتفقه ويتعظ بالعلم النافع الموصل الى رضوان الله تعالى ، لان الله عز وجل يسائل الناس عن تقصيرهم في طلب العلم ومجالسة العلماء الصالحين .

وان خطة عملنا لا بد أن تستهدف الوصول الى تكنولوجيا عربية عصرية ، وان نلتزم بشعار ( العلم للمجتمع ) مع الحرص الشديد على توفير كل أسباب الدعم والنجاح للبحث العلمى . فمن جانب يرى أيضا ان يتركز عمل العلماء في المجال الطبي على تحسين الاداء من خلال علاج المرضى والوقاية منه بمتابعة واستخدام احدث الاساليب التى تكتشف في الدول المتقدمة . كما يرى ان يخصص البحث العلمى والتكنولوجى جهدا خاصا موجهها لمساندة صناعة الدواء المحلية الوطنية ، بحيث يكون ذلك من خلال :

- نقل التكنولوجيا الخاصة بانتاج الكيماويات الدوائية التى تصنع منها المستحضرات والمقاقير الطبية اقتباسا وتقليدا .

- استكشاف مصادر جديدة للدواء في النباتات الاقليمية .

- التركيز على الرعاية الطبية وابحاث القضاء على الامراض الوبائية والمستوطنة واعتبار مشروع القضاء على البلهارسيا مشروعا قوميا عربيا يشترك فيه علماء الداخل والخارج

- استخدام الاجهزة الحديثة والعقول الالكترونية في المجالات الطبية بشتى فروعها .

وبالتالى سوف اتعرض هنا في هذا المقال لبعض تطبيقات الهامة والابتكارات والخدمات الفعلية التى تقوم بها تكنولوجيا

### ❖ الأوتوماتون

جهاز يمثل نظام آليات وتركيبات (الالكترونية كهربائية ، ضغط الهواء ، هيدروليكية ) تجري عمليات استقبال وتحويل ونقل واستخدام الطاقة والمادة بطريقة ميكانيكية اوتوماتيكية اى بدون مشاركة الانسان .

### ❖ المنطق الرياضى

تأسس هذا العلم بفضل المفكر الاغريقى ارسطو ، الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد ويرجع الفضل أيضا الى فلاسفة العصور الوسطى مثل عالم اللاهوت والكيميائى راييموند لوليا ، والعالم الرياضى والفيلسوف الالمانى تفريد ولهم ليبنتس وهو مؤسس أيضا المنطق الرياضى . وهو الذى حاول فى القرن السابع عشر ان يؤسس اول حسابات منطقية حسابية وجبرية حرفية ، والعالم الرياضى جورج بول وأبو الكتابة المعروف فوينتس صاحب رواية « الذبابة » . وقد قام ارسطو بتحليل التفكير الانسانى واشكاله مثل المفاهيم والحكم والاستنتاج العقلى . وبالتالي علم المنطق هو علم الاستنتاجات السليمة الذى يتناول اشكال وقوانين التفكير . وبدأ هذا العلم يتوغل بسرمة الى عصرنا هذا فى شتى المجالات ويعمل فى كل مكان وكل شئ تعمل فيه الحاسبات الالكترونية . فكل مسألة تحلها الآلات انما تحلها على أساس قوانين المنطق الرياضى الصارمة .

وينبغى هنا ان نوضح كيفية تحويل الاحكام المنطقية الى صيغ رياضية . فنجد فى العبارات البسيطة التى يستخدمها الانسان انها ترتبط ببعضها بواسطة احرف مثل : لا - أو - و . وهذه الاحرف الثلاثة تستطيع ان تفعل فى المنطق كل شئ . ولقد اتفق العلماء ( علماء المنطق ) على علامات معينة للدلالة على هذه الاحرف - مثلما نفعل فى علم الرياضيات فنستخدم الاشارات الرياضية الآتية (+) ،

يستفيد كثيرا ، من وجود نظام للمعلومات - نظام يمكن ان يجمع المعلومات ، ويحلل المواد رياضيا ، ويجد بسرمة الحالات المرضية المماثلة وستكون هذه بمثابة « ذاكرة » طبية ضخمة . من هذه الحالة يكون بإمكان أى طبيب من أى مكان ومن أى دولة من بلدان العالم ان يتلقى الاستشارة من هذه « الذاكرة » الطبية الموجودة .

وبذلك دخلت السيبرنييتيكا الآن غرفة العمليات الجراحية وهى تشارك بشكل مباشر فى العمليات وتتحكم فى الوظائف الحيوية للأجسام ، فتتابع عمل القلب ، وتضبط ضغط الدم فى الشرايين وتراقب عمق التخدير .

من هنا يأتى تعريف علم السيبرنييتيكا : هو علم يدرس طرق ادارة المجتمع البشرى ، وهى كلمة اغريقية قديمة « سيبرنييتيس » وتعنى « ماسك الدفة » أو « الربان » بمعنى القائد . حيث كان علم قيادة السفن فى اليونان القديمة يسمى « سيبرنييتيكا » أى علم التحكم والاتصال فى الأجسام الحية والآلات . وبالتالي نرى أن العناصر الهامة فى علم السيبرنييتيكا تتناول العناصر الآتية :

### ❖ نظرية المعلومات :

حيث ان كلمة معلومات Information لاتينية الاصل وكان معناها فى البداية تصور ثم تطورت الى أخبار أى نقل الاخبار او نقل معلومة ما . وقد وجد العلماء فى السنوات الاخيرة ان المفهوم العام لكلمة « معلومات » مطاط للغاية فحددوا معناها على ان يصبح « معيار التحدد فى الخير او المعلومة . وبذلك تعتبر مفهوما علميا جديدا يعطى للباحثين منهجا جديدا ، نظريا - اعلاميا ، يمكن بواسطته التغلغل فى كثير من العلوم التى تدرس الطبيعة الحية وغير الحية ، والمجتمع والادراك .

من الدراسة العميقة والشاملة لمجالات التحكم والتوصل الى القوانين التي تخضع لها عمليات التحكم . وفي كل مكان نجد أن تنفيذ عملية التحكم مرتبطة بنقل وتجميع وحفظ معالجة المعلومات التي تحدد الشيء المتحكم فيه ومسار العملية والظروف الخارجية وبرنامج العمل . وبالطبع فمن الممكن أن تكون ناقلات المعلومات في النظم المختلفة ، مختلفة أيضا من حيث طبيعتها : فقد تكون اشارات صوتية أو ضوئية أو ميكانيكية أو كهربائية أو كيميائية أو واثائق أو افلاما تلفزيونية ، ولذلك ، ومن المهم في المجال الطبي الحديث انشاء اجهزة الكترونية لجمع المعلومات عن العمليات الجارية في الجسم . لهذا الغرض اخترعت وابتكرت اجهزة مدهشة ، حساسة للغاية ودقيقة جدا ويكفي أن نذكر منها واسمات القلب الكهربائية التي تدرس نشاط القلب ، ورأسمات الدماغ الكهربائية ، والتي تفحص في اسرار نشاط الدماغ ، ورسمات العضلات الكهربائية والتي تسجل عمل العضلات ، والاقراص الدقيقة التي هي عبارة عن مجسات لاسلكية لدراسة المعدة ، والامعاء ، والمجهر الالكتروني بأنواعه والمجهر التلفزيوني والتلفزيون الملون في الطب وما الى ذلك من أنواع مختلفة متطورة للغاية . لذلك يعتبر علم الالكترونيات والانفورماتيك من الفروع الهامة والاساسية من فروع العلم والتكنولوجيا . وتبين هذه الفروع مدى أهمية علم الكهرباء وتطبيقاتها في المجال الطبي - ابتداء من السمكة التي ترسل تيارا كهربائيا حتى آلة تقوية القلب . يشمل علم الالكترونيات اساس وتصميم وتركيب الاجهزة الكهربائية المفرغة ، والاجهزة المصنوعة من اشباه الموصلات مثل الجرمانيوم والسيليكون .

فالاجهزة الكهربائية المفرغة من الهواء واشباه الموصلات تستخدم بنجاح في الاجهزة الاوتوماتيكية واللاسلكية والتلفزيونية والتي تشترك في رحلات الفضاء ولخدمة الطب الفضائي ، واجهزة الراديو الالكترونية الحديثة

( - ) ، ( x ) ، ( ب ) وذلك على أن تحل محل الكلمات المستخدمة مثل « زائد » ، « ناقص » ، « في » ، « على » على الترتيب . فقد اتفق بالفعل على استخدام الرموز الآتية ولاستخدامها في علم المنطق الرياضي فمثلا الرمز « الاشارة » الموجبة ( + ) للدلالة على كلمة أو والرمز اى علامة الضرب في ( x ) للدلالة على كلمة ( و ) ومع استخدام بعض الاسس البسيطة في علم الجبر نستطيع أن نصل الى حل بعض المسائل المنطقية المعقدة . وتستطيع الآلة الاوتوماتيكية ان تقوم بالشيء نفسه .

### ✳ الاغوريشمات

علم حيوى ضرورى لحل مختلف أنواع المسائل ويتضح لنا ان الرياضة في الطب ، وأخص علم الوراثة ، لا نستطيع الاستغناء عن تكنولوجيايتها . ان العملية التكنولوجية لحل أعقد المسائل تتكون من عدد كبير من العمليات البسيطة ، من الخطوات البسيطة الاولى . ولقد اكتسبت كلمة الاغوريشم اى القاعدة معنى واسعا للغاية في الوقت الحالى . فهو دليل لحل المسائل . ومن الممكن أن تصوغه في شكل أوامر قصيرة ينبغي تنفيذها بدقة ودون أى اعتراض ، وعندئذ يكون الاغوريشم مرشدا لنا لجميع حل المسائل المعقدة .

ويقول الاختصاصيون انه في الوقت الحالى الذى تتطور فيه الرياضة الآلية بسرعة وتصبح الحاسبات الالكترونية واقعا ملموسا . فإن الحاجة تصبح أكثر إلحاحا لايجاد الاغوريشم الذى يساعد على حل المسائل المعقدة .

الهدف الاساسى من علم السيبرينيتيكا والذى يسعى علماء الرياضة والفيزياء والهندسة والطب من مختلف بلدان العالم اليه هو الوصول الى اقصى قدر من اتمنه عمليات التحكم في مختلف مجالات النشاط الانسانى وزيادة انتاجية العمل . ومن أجل ذلك لابد

أجهزة القياس ، الدوائر النبضية - الآلات الإلكترونية الحاسبة كما توضح أيضا في أجهزة خاصة داخل كبسولة يبتلعها المريض فترسل اشارات عن حالة المعدة والامعاء . كما تفضل أجهزة اشباه الموصلات عن الصمامات الإلكترونية بالميزات العامة التالية:

- الوزن الخفيف والمقاييس الصغيرة .

- انعدام استهلاك الطاقة على تسخين الفتيلة المستخدمة في الصمام .

- طول مدة الخدمة ( يبلغ عشرة آلاف ساعة )

- لأجهزة اشباه الموصلات المختلفة في المضخمات ، أجهزة الاستقبال ، أجهزة كفاءة عالية . إذ أن فقد الطاقة في نفس الأجهزة قليل .

- متانة ميكانيكية عالية ( تتحمل الاهتزاز والصدمات والمؤثرات الميكانيكية الأخرى )

- تحويل الصورة الضوئية الى تيار كهربائي ذي شكل خاص .

- توجد دائما تغذية مرتدة داخلية . والسبب هو وجود اتصال كهربائي مباشر بين دائرتي الخروج والدخول .

- تعمل بجهد تغذية منخفض .

#### \* مصنع لأدوات تقوية القلب

توجد أدوات تقوية القلب منذ خمسة عشر عاما ، وقد عرفت تحسينات متوالية مع تطور فنون تكنولوجيا صنع أدوات تقوية القلب . حيث أن هذه الأدوات تعمل بشكل نبضات كهربائية فوق عضلة القلب مما يجبرها على متابعة عملها بانتظام .

- وفي الآلات الإلكترونية الحاسبة وأجهزة الطب بفروعه والبيولوجيا والفيزياء وفي فروع هندسة القياس المختلفة وغيرها ، فالمضخمات والمولدات والمقومات ومرسمات التدبيلات وأجهزة القياس وغيرها من الأجهزة الإلكترونية أصبحت سلاحا فعالا للبحوث الطبية ولتنظيم العميات الجراحية وأجهزتها . وهكذا فإن علم الإلكترونيات زودنا بإمكانات غير محددة مثل الترانزستورات بشتى أنواعها . حيث أن الترانزستورات تشغل مكانا هاما بين أجهزة اشباه الموصلات الكهربائية التي تستخدم لتقويم وتضخيم وتوليد وتغيير تردد التيارات الكهربائية المختلفة ، وكذلك لرسم تدبيلات الظواهر الكهربائية وغير الكهربائية . وتكون دوائر الترانزستورات عادة دائرتان : دائرة الدخول أو التحكم ودائرة الخروج أو الدائرة المتحكم فيها . وفي دائرة الخروج يوجد الحمل . وتصنف الترانزستورات حسب طريقة التصنيع والمواد المستعملة وخصائصها للعمل ، ولها ثلاثة مخارج أو أكثر ، وتبعا لعدد المخارج تسمى بصمامات اشباه الموصلات الثلاثية أو الرباعية وهكذا .

وفي أجهزة اشباه الموصلات الحديثة تستخدم بكثرة اشباه الموصلات الآتية : جرمانيوم ، سيليكون ، سيلينيوم وجاليوم زرنيخي وغيرها من مواد اشباه الموصلات . واشباه الموصلات هي المواد التي تحتل موصلتها الكهربائية النومية أي « المقدار الذي يميز التوصيلة الكهربائية للمادة » مكانا متوسطا بين الموصلات والعوازل . ويجب هنا أن نميز بين التعبيرين « التوصيلية الكهربائية » و « الموصلية الكهربائية النوعية » فالتوصيلية الكهربائية تعرف بخاصية تمرير المادة للتيار ، فنجد الفرق واضحا بين التعبيرين .

وتستخدم الترانزستورات الآن بنجاح في المضخمات ، أجهزة الاستقبال ، أجهزة الإرسال ، المولدات ، المستقبلات التلفزيونية،

يجرى التحقق من موقع الشريط كى لا يحدث انقباضات في حاجر القلب ، وهو يعتبر جيدا عندما يكون مستوى التقوية منخفضا. عندئذ يجرى ربط السابر بالوريد ، كما توضع العلبة داخل تجويف يجرى اعداده لهذه الغاية فوق الجرح . اما العملية الجراحية التسمى تجرى بواسطة التخدير الموضعي فتتابع بالاشعة وتعتبر عملية بسيطة .

تمثل الادوات المقوية والحارسة للقلب حوالى ٨٠ الى ٩٠ في المائة من الادوات التى جرى تركيبها خلال السنوات الاخيرة ، وهى مزودة بمجرى اضافى بحيث يراقب السابر حركة القلب ويسير عمل الآلة فور ظهور الحاجة . في بعض الاحيان يجرى صنع العلبة من مادة التيتانيوم النقى ، وهو معدن قوى وذو جودة خصائصية عالية . وبشأن البطاريات ، يبدو ان الليثيوم سيحل محل بطاريات الزئبق مع زيادة العائدات وفترة العمل .

في الوقت الحاضر يقدر ان هذه الآلات ستملك استقلالا في العمل خلال فترة تمتد من ٥ الى ٨ سنوات . ومع ذلك ، فان مقويات القلب بنسق محدد ، او المحركات الكهربائية لاتزال تحافظ على مقدرتها . كما ان هناك مؤرجح يرسل نبضات بمعدل سرعة محددة سابقا ، وهى توازى ٧٠ نبضة في الدقيقة مع عدم مراعاة البطيئ ( القلب ) حامل هذه المحركات . واخيرا فهناك آلات تقوية القلب النظرية مع اشرطتها الكهربائية اى البطاريات العاملة بالبلوتونيوم . تدوم هذه الآلات اكثر من الماضى ، ولكن ذلك لا يقضى على الرقابة الفعلية للمريض .

تجرى ابحاث عديدة لتحسين ادوات تقوية القلب ، وللحصول على مواد جديدة لتصنع منها هذه الادوات . وبالرغم من ذلك فان هناك عيوب بسيطة في اجهزة ادوات تقوية القلب الموجودة في وقتنا الحاضر . حيث نخشى دائما من عطل يصيب المعدات . وهو

في القرن التاسع عشر ، درس ايرلنديان وهما روبرت ادامس ( ١٧٩١ - ١٨٧٥ ) ووليام ستوكس ( ١٨٠٤ - ١٨٧٨ ) المرض الذى حمل بعد ذلك اسم ستوك - ادامس ، وهو مرض يجمع بين ببطء النبض والاعماء . وفي عام ١٩٥٢ ، خطرت للعالم الدكتور بول زول فكرة اعادة تحريك قلب متوقف بواسطة شريطين كهربائيين فوق صدر المرض .

ومنذ عام ١٩٥٨ ، تخيل العالم فورمان تدريب القلب بواسطة سابر . وابتداء من هذه الابحاث التجريبية السابقة واعتمادا على نتائجها ، تناولت ادوات تقوية القلب انتاج تيار كهربائى بواسطة البطاريات . ولقد ساعد تطور الالكترونىك وتطور علم السيرينيتيك في ظهور هذه الآلات الالكترونية والترانزيستورات في صنع ادوات تقوية القلب وسهولة انتشارها .

من المعروف ان كل عضلة لها المقدرة على ان تنقبض ، بالتالى تنقبض عضلة القلب ، كما تسبق الانقباضات مظاهر كهربائية تولد وتنشئ تغييرا في القوة . اما الرسومات والتدليلات التى يحصل عليها عند التسجيل فيمثل التسجيل رسم انقباض عضلة القلب وذلك نتيجة مرور التيار الكهربائى . وفي افضل الحالات يقدم موجات متتابعة ومتشابهة تظهر باستمرار . وفي كل من الاجزاء ، تجيب موجة موازية لانقباض اذين القلب وموجة اخرى صادرة من بطين القلب تصادف عودة الاستقطاب قمة اخرى وبعد ذلك تبدأ الدورة من جديد .

تتألف ادوات تقوية القلب خاصة من علبة دائرية ذات سمك ضئيل للغاية ، كما يكفى حجمها لاحتواء البطاريات ، كما تحتوى على سابر بشكل شريط . اصبح السابر الآن وحيدا ، وهو يمثل الشريط الكهربائى الذى يجرى ادخاله في الوريد الايمن او الايسر للراس ، ويصل بدقة حتى البطين الايمن .

رأى الحاسبة الالكترونية « أورال » مع رأى الأطباء . وعند اجراء العمليات ثبتت صحة تشخيص الآلة . كما وضعت نظريات ونظم التشخيص الطبي التى يستطيع الاطباء بواسطتها فى العيادات ان يحددوا لا تشخيص عيوب القلب فحسب ، وانما كذلك امراض الكبد والمعدة وبعض الامراض المعوية والاورام المختلفة ، بما فيها اورام الدماغ .

### ✽ اذن الكترونية للصم والبكم

خلال المؤتمر الحادى عشر للحديث عن امراض الاذن والانف والحلق ، وقد عقد فى يونس ايرس « الارجنتين » ذكر الدكتور كلود شوارد انه حقق مع مساهمة ومساعدة علم الالكترونيات « اذنا الكترونية » يمكن ان تقدم مساعدة هامة للصم البكم . اوضح كيفية وصوله لدمج عقل الكترونى ( اورديناير ) صغير فى الاذن الداخلية ، ومع تحقيق الاتصال مع اطراف عصب السمع ، وضعت هذه الآلة اللاقطة نهائيا تحت الجلد ، ويبلغ قطرها الفعلى سنتيمترين مع سمك يبلغ سنتيمتر واحد ، كما تتلقى النبضات الكهربائية المعقطة للدياع متنقل ، بحجم آلة تسجيل صغيرة . يعتبر الدكتور شوارد اخصائيا فى امراض الاذن والانف والحلق ، وقد سبق له أن وضع بنجاح خلال عام ١٩٧٣ اشربة كهربائية فى الاذان الداخلية لثلاثين شخصا من المصابين بالصم . تتصل هذه الاشربة الكهربائية بالآلة غير متنقلة ، وقد سمحت للمرضى بالاتصال مع العالم الخارجى ، تمثل هذه الطريقة صعوبات سائدة ، اذ تفرض على المرضى الخضوع كل اسبوع لمعالجة لتجنب اخطار التهابات . اما الآلة التى اعدت اليوم فقد تحققت فى اقل من عامين بين سبتمبر ١٩٧٤ ونهاية عام ١٩٧٦ وحتى الآن ، واقيمت « الاذن الالكترونية » لدى ثلاثة اشخاص أو أكثر من الصم والبكم ، وقد سمحت لهم بالاستماع والحديث بعد عدة اشهر من التدريب .

يقع فى مختلف الطبقات سواء كانت الآلة ضعيفة او البطاريات فارغة او الاشربة مقطوعة او السابر متنقلا من مكانة . وبالتالي ومن المستحسن ان يساهم المريض فى مراقبة ساعة الاسعاف المرافقة . ومن ناحية اخرى ، لا يهمل الطبيب المعالج مريضة ، وهو يراه فى مواعيد محددة ، كما انشئت مراكز لمراقبة هذه الآلات . كما ان دراسات تردد النبضات يعتبر حاسما ، ويحصل على ذلك بوسائل عديدة : فحص النبض كل اسبوع - الفحص الهاتفى واشارات « بيب بيب » التى تكشف وتحول الى اشارات صوتية ، وكل ذلك لا يبعد عن مصلحة المريض بشكل مناسب ، كما لا تثير هذه التدابير خوف المرضى ، بل على العكس ، تثير فى نفوسهم الاطمئنان ، كما تسمح لهم بالحياة فى ظروف معقولة . وبشكل خاص يتعلق الامر بالذين يشكون من عدم انتظام عمل الاذنين والبطين ، ومهما كان اصل هذه الشكوى . بإمكان امراض اخرى ان تستفاد وتعالج بواسطة هذه الآلات . وطالما لا يوجد حل كامل لقضايا الانسجة والمناعة التى تحد من عمليات تطعيم القلب . فان هذه الآلات تبقى وسيلة الاسعاف الحقيقية لمرضى القلب . ومن هذا المنطلق اقيمت فى الدول المتقدمة مصانع لادوات تقوية القلب لمضى حاجة المرضى لمثل هذه الادوات لتساعد القلوب المريضة .

### ✽ الحاسبة الالكترونية « أورال »

هى حاسبة الكترونية ذات تشفير برنامجي . وتعتبر الاجهزة الالكترونية هى العناصر الاساسية فيها ، وهى قادرة على اجراء ملايين العمليات واكثر من ذلك فى الثانية الواحدة . وهذه الحاسبة الالكترونية « أورال » تستخدم لتشخيص الامراض . فهى تضع فى السنة حوالى ٢٠٠٠ تشخيص لعيوب القلب الوراثية ، وليس هذا فحسب بل انها احيانا تكون اكثر دقة فى التشخيص عن الطبيب المعالج ، فقد حدث اكثر من مرة ان اختلف

تطبيق العلاج بواسطة المياه المعدنية . اذاع كل من الدكتور روبرت كوفيلير والعالم كلود لاروش والأطباء الباحثين جود لويسكى وجون دى لاتور ما برهنته الاختبارات والابحاث التجريبية التى تمت على الغنران فى مختبر المياه بمستشفى فيشى بفرنسا عن فعالية العلاج بواسطة المياه المعدنية ، وقد تبينت فائدتها خاصة فى علاج التهاب الشرايين فى الاعضاء السفلى وأمراض الاوردة وأمراض اجهزة التنفس العليا . وسجلت النتائج ان ٦٠٪ من النتائج كانت مرضية ، ٢٠٪ من النتائج غير مرضية ، ٢٠٪ من النتائج فاشلة .

وبصورة عامة ، تبين ان المرضى الذين يحصلون على افضل نتائج العلاج بواسطة المياه المعدنية هم دون الخامسة والستين .

اما لدى المرضى الذين هم دون الخامسة والاربعين ، كانت ٨٪ من النتائج المدهشة ، ٦٠٪ جيد جدا ، يعتبر النجاح سريعا وعميقا بقدر معالجة المريض منذ ظهور اعراض المرض فى البدء .

#### ❖ الاجهزة الاتوماتيكية فى خدمة المعجزة :

ان عالم الاجهزة الاتوماتيكية فى ايامنا هذه شديد التنوع . وهو دائم التوسع والتعميد ، وتعتمد الاجهزة الاتوماتيكية على تحديد مايسمى باستقرار النظام وبذلك يمكن مقاومة مختلف انواع الانحرافات فى العمل ، وعلى حساسية الاجهزة الاتوماتيكية . فساهم هذا الفرع من التكنولوجيا بتقديم خدمات هامة للمعجزة لاعطائهم فرصة المشاركة مع الآخرين بالحياة العادية .

فقدمت لهم آلة تدعى « هانديكار » أى عربية اليد الكهربائية ، وهى تسمح للعاجز بالجلوس امام المقود والتنقل بشكل مستقل بدون مفادرة مقعدة .

#### ❖ تكنولوجيا النفخة غير المنتظمة للتحركات الموجبة الصوتية لمعالجة امراض الاذن والانف والحلق .

يحدث عادة ان امراض الاذن والانف والحلق تسبب انسداد قناة تسمى بقناة اوستاش وتقع بين الفم وطبلة الاذن . تعتبر هذه القناة يصعب الوصول اليها لمعالجتها حيث يتراوح قطرها بين ملليمتر واحد وملليمترين . وبصورة عامة تصيب هذه الامراض غالبا الاطفال وخاصة التهاب الاذن الداخلية ( حيث يصاب ٢٪ من الاطفال فى سن الدراسة بالالتهابات فى قناة اوستاش ) وفى حالة تكرارها أى تكرار اصابة الطفل بهذه الالتهابات ، تعتبر هذه الاصابات سيئة بالنسبة لقناة اوستاش الواصلة بين الاذن المتوسطة والجزء الداخلى لطبلة الاذن .

ونتيجة الالتهابات الحادثة فى الاذن المتوسطة يتسبب خلل فى توازن الضغط بين جانبي طبلة الاذن ، ومن المحتمل ان يحدث الصمم . عندئذ يتلقى الانف والحلق افرازات تسيل من القناة المسدودة . وعند تجمع هذه الافرازات ، تحدث التهابات وتلف المخاط . كما يعود ٤ الى ٥٪ من هذه السدود الى الحساسية . ولذلك أعدت طريقة تكنولوجية تعتمد على اساس علم الصوت فى الفيزياء وهذا التكنيك تم انجازه بواسطة المختبرات البحرية لتحديد الضغط اللازم الذى يسمح بمساعدة « نفخة الصوت » بفتح القناة عند الابتلاع . كما استنكر ايضا اطباء امراض الاذن والانف والحلق استخدام الادوات القاضية على الجراثيم مثل المضادات الحيوية وذلك بشكل دائم لان ذلك يحدث زيادة فى عدد اصابات الالتهابات الجلدية بالمقابل .

كما اشاروا الى محاسن العلاج بالمياه المعدنية لامراض الاذن والانف والحلق حيث انه نتيجة للدراسات والاحصاءات حول

والصفات التقنية للهاندكار تتناول  
الآتي : -

- دراجة كهربائية ذات اربع عجلات .  
عجلتان اماميتان للتحريك والتوجيه، وعجلتان  
مستقلتان في الخلف .

- هيكل الدراجة من مادة البوليستر القوي  
وتنوع لشخصين ، اما قاعدة حمل الدراجة  
فهي من انابيب الفولاذ الملتحمة .

- فرامل هيدروليكية وتوجه بواسطة  
رافعة امام القائد .

- محرك كهربائي بقوة ٩٦ فولت و ٤ كيلو  
وات وهو يحرك العجلات الامامية .

- الاستهلاك ، ١٠ كيلو وات ساعة للتعبيث  
الكاملة مع استقلال للتنقل بين ٥٠ ، ٧٠ كيلو  
مترا .

- اقصى سرعة : ٥٠ كيلو مترا في الساعة .

- مجموعة الكترونية او كهربائية ميكانيكية  
توجه بواسطة مقود دائري له تأثير على  
تموين المحرك الكهربائي .

وبالتالى نجد ان هذه العربة الكهربائية  
تسمح للعاجز بالجلوس امام المقود والتنقل  
بشكل مستقل بدون مفادرة مقعدة اذ يكفى  
الضغط على زر كي يهبط حتى مستوى الارض  
ويسمح ذلك للعاجز بالدخول الى المركبة من  
الخلف بواسطة الدفع ، كما يفعل ذلك عادة  
بواسطة عجلات عربته . يضغط مجددا  
على زر يرتفع مستواه كما يفلق الابواب في  
نفس الوقت . وهناك نظام اوتوماتيكي لتجميد  
المقعد للسيار .

#### ✽ جهاز للمواليد قبل الموعد

حققت المؤسسة الاوروبية للابحاث  
والتطبيقات الطبية معدات بسيطة تسمح بنقل

المواليد «الخدج» الذين وضعوا قبل الموعد الى  
مركز العناية اللازمة في ظروف جيدة تشمل  
عدم الحركة والعزلة الحرارية اى الابتعاد  
من تغير في درجة حرارة الوسط والمراقبة  
وهذا تحت عنوان ايزوكوك . درست هذه  
المعدات الجديدة ونظمت بالاتصال مع قسم  
المساعدة الطبية للحالات المستعجلة في باريس،  
ويديره العالم الدكتور كارا . وقد استخدمت  
حتى الآن للنقل ١٥٠٠ مولود جاءوا قبل  
الموعد . ويتراوح وزن المولود بين ٦٠٠ جرام  
الى ٥٢٠٠ جرام، لقد أعد شكل من البوليسترين  
المتعدد ( مواد بلاستيكية تبدو بشكل خلوى  
وتدعى كذلك « رغوة » بلاستيكية ) وهى  
تتألف من هيكل وغطاء يسمح باطلاق حرية  
رأس الطفل ، ويسمح الهيكل الفارغ باقامة  
المولود وعدم حركته بواسطة رداء وغطاء  
عازل ومقحم . . . بعد وضع المولود بهذا  
الشكل يؤمن الغطاء بعزلة حرارية مع السماح  
باعطاء الاوكسجين للطفل لتسهيل عملية  
التنفس . اما المميزات الرئيسية للايزوكوك  
فتتناول الآتي :

- الوزن حوالى ٩٠٠ جرام ، اى خمسين  
مرة اقل من المعدات الكلاسيكية .

- لا يحتاج الى اى مصدر خارجي للطاقة .

- حجمه ضئيل ( ٧١٠ × ٤١٠ × ٢٢٠  
ملليمتر ) .

يسمح كذلك بتحقيق جميع فنون التنشيط  
- اعطاء الاوكسجين ومد الانابيب - التنفس  
- اعطاء الدم . . . الخ وذلك في ظروف ثابتة  
مطلق بسبب عدم وجود آلة كهربائية .

#### ✽ الاسعاف الطبى السريع .

في باريس يؤمن قسم « المساعدة الطبية  
والاسعاف السريع » اعمال تنسيق الاسعافات  
السريعة ، وقد اقيم في مستشفى نيكر ويديره  
العالم كارا . حيث يؤمن عدد من عمال المختبرات



منخفضة ، وتملك أيضا دقة في القياس الحرارى ( درجة الحرارة للمريض ) بمعدل عشر الدرجة بين ٣٥٥ ، ٤٠٥ درجة سنتجراد . أما المجموع فيوجد داخل وعاء بلاستيكي مرقم يبلغ طوله ثلاثة سنتيمترات بعرض سنتيمتر وبالإضافة الى مقبض . ترتفع جميع مقاييس المواد بنسبة حرارة الجسم وتحول من الحالة المتبلورة الى الحالة السائلة كما يتبدل لونها بفضل اضافة مادة تلوين .

تعود فائدة هذا الترمومتر الطبى الحديث الى سهولة اكثر في قراءة درجة الحرارة بالنسبة للمريض ، كما تعود الى دقة اكثر وسرعة عطب اقل وسلامة صحية اكثر عند استخدامه ( يستخدم مرة واحدة ) ويبلغ ثمنه حوالى فرنك فرنسى) بالنسبة لموازين الحرارة الكلاسيكية .

### ✽ تكنولوجيا الفيزياء النووية وأهميتها

#### في المجال الطبى :

سمحت تكنولوجيا الفيزياء النووية باقامة اول سيكلترون طبى للخدمات الطبية فى القارة الاوربية وذلك فى مستشفى فريدريك -جوليو باورسيه بفرنسا ، ويسمح ذلك باستخدام الاشعة النظائرية وسيخصص من ناحية لعلاج امراض السرطان بواسطة النيوترونات. وضع السيكلترون داخل جدران سميكة من الاسمنت وذلك بجوار معامل الكيمياء وغرف فحص المرضى . وذلك لتسهيل نقل العناصر المشعة المستخدمة ، حيث انه تكفى ثوان معدودة لنقل هذه العناصر المستخدمة والتي تتجاوز فترة نصف حياتها اقل من نصف ساعة أى أن مدى الحياة لها قصير - وذلك بواسطة الضغط الهوائى داخل اثابيب خاصة للنقل . يجرى انتاج العناصر داخل غرفة يتحقق فيها العمل بشكل أوتوماتيكي الى اقصى حد وهنا نجد أهمية الأتمتة حيث

ستندرديست وطبيب على الاقل سرعة الاتصال الاذاعى والهاتفى الدائم ، وقد وضع ذلك تحت تصرف القسم المتنقل مع خمس سيارات الاسعاف ، كما يمكنه الاستعانة عند الحاجة بطائرات الهليكوبتر التابعة لرجال الامن والحماية المدنية .

اما دوره الرئيسى فيتناول خاصة نقل المرضى بين مختلف المستشفيات . كما تتصل سيارة الاسعاف المجهزة بطبيب التخدير عن طريق الاذاعة بسيارات الاسعاف التابعة للشرطة ، كما تتصل بقسم المساعدة الطبية والاسعاف السريع .

يحقق المساعدة الطبية السريعة ونظام الاسعاف السريع مايلى :

— اعداد بيان يومى بشأن لائحة الاسرة الشاغرة فى قاعات الاسعاف .

— تأمين النصائح الهاتفية .

— اداة القسم المتنقل للاسعاف السريع ، حيث يهتم هذا القسم بشكل خاص باسعاف المرضى وعند الحاجة ينقلهم بواسطة سيارات الاسعاف والهليكوبتر او الطائرة .

### ✽ طريقة جديدة لتسجيل حرارة المريض

قدم العالم الصيدلى مارسيل جيو طريقة جديدة لتقدير الحرارة خلال الاجتماع الذى عقد فى اول يونيو سنة ١٩٧٦ امام اكاديمية الطب الوطنية الاوربية - ويعتمد الميزان الحرارى ( الترمومتر الطبى ) الذى عرضه العالم جيو على قوانين انصهار المركبات الكيميائية وهى فى الحالة السائلة . كما انها مقررلة لتسجيل حرارة الفم ( تحت اللسان ) يتألف ميزان الحرارة الجديد أساسيا من خمسين قطعة بلاستيكية صغيرة يحتوى كل منها على كمية من المواد المتبلورة عند درجات

وإذا كان لهذا التكنيك فوائد عديدة في مجال الأبحاث التطبيقية فله أهمية أيضا في مجال الأبحاث الأساسية . وهذا التكنيك لا يزودنا فقط بإمكانية الحصول على مقاطع رقيقة من العينات المطوب فحصها ودراساتها « مثل الطرق المستخدمة في فحص مقاطع رقيقة جدا من المواد الأخرى » ولكنه أيضا يزودنا بمنافع أخرى وعديدة الأغراض نتناول منها الآتي :

— رؤية المظهر الخارجى للخلايا .

— رؤية الغطاء البلازى مع إمكانية رؤيته بسهولة بواسطة النزج الجزئى لغطاء الخلية .

— رؤية المظهر الخارجى للنواة ، والفجوات الصغيرة ... الخ .

— دراسة الاسطح الممزقة لهذه الاعضاء الحية . كما لهذا التكنيك فوائد أخرى ، فانه يسمح بإزالة تكوين الشوائب غير المرغوبة والتي من الصعب مراقبتها عند التكوين . ويتم هذا التكنيك Cryodécapage تحت فراغ كامل . ويفهم بالخلاء ( الفراغ ) الغاز ، وخاصة الهواء المخلخل بدرجة عالية . حيث يتم التبريد وطريقة قطع العينة المتجمدة تحت هذا الفراغ . كما يزود هذا التكنيك بترموتر الأزواج الحرارى وذلك لمراقبة درجة الحرارة . وبعد اتمام الحصول على السطح الممزق والمنتج اثناء قطع العينة المتجمدة والتي تم لها عملية Cryodécapage تبدأ الخطوة التالية وتسمى الطبع أى يتم تبخير جزئيات من الكربون على العينة المقطوعة ، ويتم كل هذه الخطوات تحت الفراغ . وبعد ذلك من السهولة التامة فصل الطبقة المتبخرة والتي ترسبت على العينة والمميزة لتكوين الخلية بواسطة الميكروسكوب الالكترونى . ومن المميزات والفوائد الأساسية لاستخدام الخلايا المتجمدة في الحالة الحية وذلك لفرض فحصها ودراساتها ، فانها تحتفظ بحيويتها عند

انها مرحلة من مراحل الانتاج الصناعى تتميز بتحرير الانسان من الاداء المباشر لوظائف ادارة العملية الانتاجية ونقل هذه الوظائف الى الاجهزة الاوتوماتيكية . أعدت هذه الآلة النموذجية والصغيرة الحجم من قبل شركة س.ج.ر.م.د.ف والمرتبطة مع شركة تومسون س.اس.اف — وذلك لحساب مفوضية الطاقة الذرية . وبإمكانها العمل مع فريق من الفنيين المتخصصين في هذه المجالات . أما استقلالها بشكل واسع فيفرض وجود عمل فريق بحثى هام من علماء الكيمياء الذين يعملون على توسيع واستخدام الوسائل الجديدة والسريعة لتخليق الجزئيات المرقمة . وقد تطورت هذه الفنون بفضل برامج الأبحاث التى تتعلق بالفيزياء النووية ، وقد وجدت تطبيقات هامة على الصعيدين البيولوجى والطبى وخاصة الالكترونىك والميكانيك والتحليل الكيمائى او فنون تخليق المواد الجديدة ، وأجهزة الحس الالكترونى وتطبيقات المجرى الالكترونى الماسح . فنتيجة ذلك تطور الطب النووى تطورا سريعا وتحقق سيكلوترون طبى لمعالجة الامراض السرطانية بواسطة النيوترونات .

### ❖ طريقة تكنولوجية حديثة لفحص الخلايا والأنسجة الحية بواسطة استخدام الميكروسكوب الالكترونى .

يقدم هذا التكنيك إمكانيات رائعة وحديثة لفحص المواد البيولوجية والطبية ويطلق على هذا التكنيك اسم Cryodécapage ( تبريد — Cryo ، إزالة — décapage ) والتطبيقات الشائعة في هذا التكنيك تتناول الآتى :

— دراسة الخلايا النباتية .

— فحص الميكروبات الحية غير المرئية بالعين المجردة .

— فحص الأنسجة النباتية .

أعدت شركة فرنسية - انجليزية للأشعة آلة تستخدم أشعة اكس وقد أطلقت عليها اسم دانسيكوم . يتعلق الامر بطريقة تحدث ثورة في ميدان استخدام تكنولوجيا الاشعاع . يمر شعاع دقيق من أشعة اكس فوق المخ وذلك بشكل طبقة بعد طبقة . تجمع المعلومات بشكل اشارات كهربائية وترسل الى العقل الالكتروني ( أورد يناتير ) ليعيد تركيب الصور .

وهكذا يمكن مشاهدة مالم يسبق تحقيقه بواسطة التصوير بالأشعة - الاورام الرخوة - تشوهات اوعية الدم وكل امر هام يجب اكتشافه بسرعة لانقاذ المريض .

وتتناول هذه الطريقة كالآتي :

يمتص المخ الأشعة عند مرورها ، كما يقيس جهاز الكاشف أهمية هذا الامتصاص للأشعة . أما المحول المستخدم بالجهاز فيحول الفرق الحادث الى أرقام حتى يمكن دراستها ومعالجتها بواسطة استخدام العقل الالكتروني . تم تغير اسطوانة الفيديو هذه الارقام الى صور واضحة على شريط مغناطيسي لتسجيل صور التلفزيون . كما يأمل الذين يستخدمون الأشعة توسيع تطبيق هذه الآلة في اجزاء اخرى من الجسم .

#### \* علاج المرضى المصابين بسرطان الرئة :

ان الجراحة في الوقت الحاضر هي العلاج الوحيد الذي يستطيع شفاء عدد من من المرضى المصابين بسرطان الرئة .

في مركز جراحة ماري - لا نيولونج في باريس، أجريت عمليات لالفي مصاب بالسرطان البدائي في الرئة وقد شفى ٢٣٪ من الذين أجريت لهم عملية منذ خمس سنوات على الأقل . أجريت عمليات اخرى لمئة وستة مرضى مصابين بداء السرطان الثانوي « ميتا ستاز » وقد شفى ٣١٪ من الذين

التحضير تبعا لهذا التكنيك - كما اثبت هذا التكنيك من الامكان وبدون اى مصاعب دراسة هذه العينة المحضرة والمنتجة بهذه الطريقة Cryodécapage بأنها تعطى صورة حقيقية للخلايا والأنسجة الحية . وبهذا يثبت بأن العينات لم يحدث ولا يطرأ عليها اى تعديل أثناء التحضير بطريقة Cryodécapage ونحصها باستخدام الميكروسكوب الالكتروني . وهنا أود أوضح ان الميكروسكوب الالكتروني عند تشغياله يستخدم الشعاع الالكتروني بدلا من الشعاع الضوئي كما في الميكروسكوبات الضوئية .

#### \* تكنولوجيا الاشعاع وعلم الكيمياء في

#### معالجة الامراض السرطانية وغير السرطانية .

تستخدم طريقة تكنولوجية لمعالجة بعض الحالات الشاذة لوعية المخ . وهذه الطريقة التكنولوجية الجديدة لا تحتاج الى ضرورة اجراء عملية جراحية للمريض . حيث أن هذا التكنيك العلاجي بواسطة الفحص الاشعاعي يتم عن طريق اعطاء فرصة للأشعاع كي يتخلل الى الاوعية المصابة مستخدما ساير الكترونيسك مغطى بغطاء على شكل بالون . ينفخ بعد ذلك الغطاء ويكون بمستوى جرح الاوعية التي تحت العلاج مما يحدث سدا للقرح مع المحافظة على امتداد الشريان ، وهذا يسمح بتأمين وصول الاوكسجين بشكل جيد . كما أن هذا التكنيك الحديث مخصص حاليا لمعالجة الشقوق الفانجة عن رضوض الوجه وعدد من اشكال القروح التي تصيب شريان القلب والتي لم تكن لوقتنا الحاضر قابلة لاجراء عملية بواسطة جراح الاعصاب ، وعملها غير قابلة للعلاج باى طريقة اخرى . ومع ذلك فبالامكان توسيع نطاق هذا التكنيك في حالات عديدة قبل اجراء عملية جراحية من اجل البحث عن افضل مكان لاجراء العملية بمستوى اوعية المخ وذلك لعدم اتلاف مرور شريان القلب .

دعت هذه النتائج الايجابية الى محاولة استخدام هذا العلاج مع المرضى الذين استؤصلت الاورام لديهم مع المحافظة والعناية على العضو المصاب والمزود ببسطة عظيمة للحماية وتحل مكان قسم الورم المقطوع . كما تدل ملاحظات أخرى تتناول معالجة اورام المبيض والامعاء الفليضة والمعدة والرئة لدى عدد محدود وخاص ، تدل على اتجاه أطباء السرطان حالياً وهو اتجاه يهدف الى عدم الاقتصار على العلاج المحلى بواسطة الجراحة والاشعة ، وانما للاستعانة ايضا بعلاج كيميائي عام لمهاجمة المرض عندما لا يمكن ادراكه وهو موجود . كما سيسمح هذا الشكل الجديد لمكافحة السرطان الثانوى بمساهمة المريض مساهمة فعالة وحقيقية في علاجه ، كما يمكن بهذه الطريقة ان تعطى فرصة طبية لاجراء عملية تعديل كاملة وتحسين العلاقة بين المريض وأطبائه .

قدم كل من الطبيب دوبراك وديكولكس تقريراً يبين التقدم التكنولوجى الحديث في مكافحة السرطان الثانوى ( ميتاستاز ) للعظم . يمثل السرطان الثانوى والمعروف بالتكوين البدائى السرطانى انتقالاً او مراكز ثانوية للأورام الخبيثة التى تبدو في موقع بعيد عن المنظمة في البدء .

يقدر الطبيب دوبراك والطبيب ديكولكس أن عشرين بالمائة تقريباً من الأشخاص المصابين بالسرطان قد عرفوا الاصابة بظهور السرطان الثانوى للعظم .

تؤلف الخلايا السرطانية مجموعات بمستوى العظم وتسفر عن تحطيم تدريجى للنسيج العظمى والذي يترجم بشكل كسور . بين عام ١٩٦٠ وعام ١٩٧٠ أدخلت الفنون التقليدية لجراحة النسيج العظمى هذا العلاج الجراحى في حالة ظهور علامات السرطان الثانوى العظمى ولم يكن يعرف قبل ذلك غير العلاج بواسطة تنظيم التشويه عن طريق تجميد العضو

أجريت لهم عمليات تعود الى ثلاث سنوات على الأقل . اما الوفيات خلال العمليات فلا تتجاوز ٣٥٪ . يعود التقدم الذى تحقق في هذا الميدان خاصة الى معرفة المرض باكراً كما يعود الى مراقبة عدد من انواع السرطان التطور والى علاج كيميائى أكثر فاعلية وأخيراً الى تحسين طاقة العلاج بواسطة الكوبالت الاشعاعى .

شدد العالم بويار ( باريس ) على ضرورة الجمع بين عدد من الادوية التى يعتبر تأثيرها المشترك له فاعلية أكثر من تناول كل علاج على حدة . وبهذه الوساطة يمكن للعلاج الكيميائى ان يامل القضاء على الخلايا السرطانية بشكل أهم . كما تبين ان العلاج بواسطة الاشعة يمكن ان يستخدم بين مرحلتين من العلاج بواسطة الادوية الكيميائية . . . ومع ذلك ، يجب ان يستخدم في البدء عندما تسد القرحة شعبة الرئة وتسبب الى التنفس ، من ناحية أخرى ، يعتبر العلاج بواسطة الادوية الكيميائية مفيداً بعد انتزاع القرحة السرطانية . اما النتيجة فتتحسن بمعدل خمسين في المائة وبإمكانها كذلك استدراك أو تخفيف الانتكاس .

### \* معالجة سرطان العظام :

يسفر هذا النوع من السرطان عن ظهور مرض الرئة . ولفتت الانظار خاصة للأعمال التى يقوم بها العالم جافية وفريقه في الولايات المتحدة ، وهى تناول استخدام العلاج الكيميائى بالادوية الكيميائية في البداية وذلك لوقف نشاط ظهور المرض الذى لا يزال في حالة بسيطة . وهكذا يبدو ٦٠ الى ٨٠ في المائة من المرضى الذين يعالجون بهذا الشكل في حالة مرضية ( طبية ) بعد مرور اربع سنوات من اجراء العملية الجراحية ، ولا تبدو لديهم علامات ظهور المرض ، بينما تبلغ هذه النسبة ٢٠٪ لدى المرضى الذين يعالجون بالجراحة فقط .

الموضوع بطريقة مركزية داخل قالب استوائي من الصلب اللين ومن الضروري بعد ذلك ان يجرى اجراء البلمرة تماما لمركب الاسمنت الاكريليكي وذلك لزم من يراوح ما بين ٢٠ دقيقة او اكثر .

### ❖ أمراض الثدي

نجد هنا مدى اهمية تكنولوجيا العصر في التوصل السريع والكشف عن الجروح في انسجة الثدي حيث ان امراض الثدي « الطفيفة » نجد لها اهميتها وخطورتها . لان مضاعفة الاورام غير السرطانية والتي تعتبر في البداية ليس لها اهمية يمكن ان تؤدي الى استئصال الثدي بشكل كامل . لذلك من المهم ان نتجه الى علماء تكنولوجيا العصر لخدمة هذا المجال . اشار اطباء امراض الثدي الى انه من المهم الكشف سريعا عن الجروح في انسجة الثدي . وهنا تتدخل تكنولوجيا العصر لتجد الطريق السليم لانقاذ المرضى . يجرى جمع المعلومات المتعلقة باستخدام وسائل تكنولوجيا العصر للفحص وذلك للحصول على خلاصة نتائجها بغية الكشف عن اصفر ظاهرة مرضية .

اعدت طريقة للفحص ولا تزال في مرحلة الاختبار ، وهي تناول تسجيل ومقارنة تبدلات القوى الكهربائية البيولوجية بمستوى الثدي ، وسمح ذلك بتحديد الثدي الطبيعي والثدي المريض ، وذلك تبعاً لاهمية التقرير المحفوظ في السعة . كما أمكن تحديد اصل عدد من الاورام الصغيرة التي تبدو في الثدي على سبيل المثال ، نذكر منها ان الاكياس لا تتطور اطلاقاً نحو السرطان ولكن يعود اصلها الى عوامل نفسية وجسدية . نتيجة ذلك ادت الى الاهتمام بدراسة وفحص خطوط الجلد والاصابع واليد بكاملها لدى ثلاثة آلاف امرأة فقط لوحظ ان عددا من هذه الخطوط يدل اتجاه « تجسيد » للعواطف والاجهادات على الصعيد الجسدي . وفي الوضع الحالي لهذه الاعمال ، قدر ان بعض الحالات الخاصة من الامكان ان يشار اليها وهي قابلية الإصابة

المصاب بالجص . في الوقت الحاضر - تطورت فنون تكنولوجيا التحطيم التدريجي للنسيج العظمي او البدلات الخاصة بكسور العظم . وهي تحمل املا جديدا للمرضى . يكمن هذا الامل بامكانية الانتقال بحرية وبدون خطر يهدد انكسار العظم . يحل هذا الفن فوائدا جديدة كما يبين اهمية تكنولوجيا علم البوليمر في العلاج الطبي الحديث والتي ساعدت هذا الشكل الجديد للعلاج .

وهناك اولا استخدام الاسمنت الاكريليكي ، حيث يجرى حفر العظم المصاب ويملا الفراغ بالاسمنت . وبالامكان كذلك استخدام مسمار في عظم المصاب ، وتجرى تقويته كذلك بالاسمنت الاكريليكي .

وبالامكان كذلك بالاستعانة « بالتحطيم الشامل » الذي يؤمن صلابة فورية ويسمح بالحصول على تقوية العظم بحيث يستطيع المقاومة فورا وطوال فترة طويلة امام الحركات الميكانيكية التي يخضع لها . اما جراحة استبدال الاعضاء فتتمثل شكلا آخر للعلاج ويوصى بها : ان تقوية البدلات بواسطة الاسمنت الاكريليكي هي عبارة عن عنصر اساسي لنجاحها . ويعتمد الاسمنت الاكريليكي الجراحي على مادة بولي ميثيل ميثا اكريلات وتستخدم كمادة اساسية لمركبين ، في احدى المركبين تكون جزئيات سلفات الباريوم منتشرة داخل المادة الاساسية . وتخلط كمية معلومة من جزئيات سلفات الباريوم ببودرة البولي ميثيل اكريلات ويضاف بعد ذلك سائل الميثيل ميثا اكريلات للخليط بالنسبة الآتية :

جزءان من بولي ميثيل ميثا اكريلات  
وزنا .

١ - جزء من سائل ميثيل ميثا اكريلات  
وزنا .

وبعد ذلك يخلط خلطا جيدا وان يكون في حالة رخوة ويضغط حول قضيب من الصلب

لامراض الشدي الطفيفة نتيجة للاعراض السابق ذكرها .

في نطسا... المحادثات التي تمت بفرنسا ( باريس ) بشأن مرض السرطان والمصابين بداء السكر وبناء على طلب العالم ماتيه حاول اخصائيان وهما جاكين فابر وهينريكا أونج تحديد نفسية المصاب بداء السرطان وقد وضحا على التوالي مختلف المراحل التي يتعرض لها المصاب بداء السرطان .

عندما يكشف المصاب بداء السرطان حقيقة مرضه ، فانه سيواجه مرحلة انهيار عصبي قبل ان يتمالك نفسه . عندئذ من الضروري تخفيف حدة مخاوفه والحديث عن علاجه والحديث مع غيره من عائلته . لانه في حاجة للثقة بالطبيب الذي يقوم بعلاجه وان يحصل على طمأنينة فعلية من طبيبه . وتحت هذه الظروف في الامكان ان يتعاون مع الطبيب لمكافحة المرض . وبالتالي عندما يتأكد ويعرف ان جميع التدابير قد اتخذت للتخفيف من الالم الجسدية والنفسية، عندئذ يقل قلقه ويأسه . كما السح كثيرا كل من الطبيين جاكين فابر وهينريكا أونج بضرورة التحدث بين مرضى السرطان وعائلتهم وكذلك الاطباء ايضا وذلك لتخفيف حدة المرض لديهم . والواقع ان المرضى بداء السرطان ينتظرون من الهيئة الطبية وكذلك من الدين يجاورونهم وعائلتهم قوة الكفاح معهم .

كما اوضح كل من السادة تشوبرتسكي، لورانت ، دردين وتوتان ضرورة تعليم المصابين بداء السكر منذ البداية ما هية مرضه وكيفية معالجته . كما من الضروري والواجب ان يتخذ هذا التعليم شكلا جديا وعمليا وعلميا . وهو يحتاج الى عشر ساعات تقريبا . وتكمل هذه الدراسات بتوزيع منشورات خاصة على المرضى بداء السكر . وبالنسبة للمرضى الذين يحتاجون لاستخدام الانسولين ، يجب ان يتلقى المريض الاشراف بنفسه على احواله

ومع مراقبة طبية سليمة ، ليستطيع الحياة بشكل عادى على قدر الامكان .

### ✽ التكنولوجيا وميدان طب الاسنان :

اقيم في عام ١٩٧٤ المؤتمر الثاني الوطني لجمعية طب الاسنان الفرنسية في قصر المؤتمرات بباريس وتناولت اكثر المذكرات العلمية نزع اللثة من الاسنان واصابتها بالقروح وبنسبة هامة . توازي اصابة الاسنان بالقروح كمية استهلاك السكر . كما لا يوجد اى لقاح ضد قرح الاسنان ، ومن اجل تجنب هذا المرض ، لا بد من المحافظة على الانظمة الصحية والاساسية لتنظيف الاسنان مرارا كل يوم وذلك لمنع ظهور طبقة تتراكم فوق الاسنان . كما يعتبر نزع اللثة عن السن مسئولا عن استئصال عدد كبير من الاسنان .

واذا عني بالاسنان باكرا بالامكان شفاؤها وذلك بفضل جراحة تسمح بالقضاء على رسوب الطرامة فوق اللثة . اما افضل وقاية لهذه الظاهرة فهي نظافة الفم . وبهذا الشأن ايضا اسفرت عدة ابحاث عن اعداد بدلة الانسان اى جهاز صغير يقوم مقام عمل السنن واوضحت النتائج باننا الان نشهد نهاية اسطورة الذهب . الواقع ان هذا المعدن الثمين يستبدل اكثر فاكثر بمزيج يتركب من اساس يعتمد على النيكل والكروم - تملك هذه السبيكة مميزات مماثلة ولكنها اصعب اعدادا لانها اقل ليونة . ومع ذلك يعتبر سعرها اقل ، مما يسمح بتحقيق توفير هام عند اعداد بدلة للأسنان . تمكن حوالي سبعمائة طبيب اسنان بكلية جراحة الاسنان بجامعة باريس من اجراء دراسات تكتيكية ترافقها بيانات واقعية عن تأثير الطبقة الصفيحية الشكل التي تغطى السن والتي تحدث التسوس والنخر وتجريد الاسنان . كما انه من السهولة ان يتمكن الانسان من مقاومة تسوس الاسنان والنخر وذلك بالعناية الصحية على الاسنان . كما ان تنظيف الاسنان

دوليا شهيرا في ميدان امراض الفم والاسنان ، وتناول قسم هام من ابحاثه كيفية تركيب السن . وقد كرس أحدث أعماله وتجاريه العلمية البحثية لحركة انتقال المواد الكلسية بمستوى مختلف اطراف السن . كما تناولت أبحاثه بعد ذلك بواسطة استخدام المجهر الالكتروني الماسح ( التصوير بالأشعة ) . تحققت هذه الاعمال في أسنان القط المولود بعد حقن شرايينه بالكلس المشع من نوع (Ca 45)، وبرهن العالم فرانك عن وجود طريقتين لمسور الكلس ( الكالسيوم ) من شعب الدم الى الانسجة التي يقويها الكالسيوم المشع . يعر الطريق الاول بين خلايا النسيج والثاني عبر الخلايا المسؤولة من تركيب العظم . اما قوة وطرافة هذا العمل فتعود لاثباته ان الطريق الثاني هو اهم من الطريق الاول . بتحقيق هذه الاعمال والأبحاث بواسطة الحيوانات المولودة ، وهي تقدم معلومات ثمينة حول تركيب الاسنان .

والتطبيقات العملية لمثل هذه الاكتشافات من الامكان ان تتضاعف وخاصة في ما يتعلق بألية ظهور وعلاج تركيب السن والانسجة الخاصة التي تعتمد عليها السن عند الظهور .

كما تحدث أيضا العالم بيار فوهر عضو الاكاديمية الوطنية لطب الاسنان بفرنسا عن طريقة جديدة تتناول استخدام اكسيد الكالسيوم الثقيل او الهيكسوكاليكس، اكتشفت هذه المادة الجديدة عام ١٩٧٢ من قبل العالم بيار برنار من باريس. وقد درسها فريق يتألف من ستة باحثين تمكنوا من تنظيم استخدامها بشكل علمي . وقد استخدم الهيكسوكاليكس لمعالجة ١٦٠٠ شخص تقريبا . سمح له ذلك بالقول ان هذه المادة يمكن أن تستخدم بشكل فعال في جميع حالات معالجة الأسنان .

ان امكانيات هذه المادة ليست ضئيلة ، وهي تشمل القضاء على جميع الادوية وتخفيض استخدام الادوات اليدوية ، وكذلك تخفيض

بانتظام يكفى في الحقيقة لمنع ظهور هذه الطبقة الصفحية فوق الاسنان . وهي تتألف بنسبة ٨٠٪ من جراثيم . وفي الواقع هذه الجراثيم تنتهي بمهاجمة الانسجة التي تسند السن ، وبالتالي تحمي هذه الانسجة وتصبح غالبا مقرا للعدوى قبل ان تفقد الطاقة الكلية التي تسند السن قبل الوقوع .

ومن اهم الاستنتاجات التي اسفرت بهذا الاجتماعي العلمي التكنولوجي في ميدان طب الاسنان :

— مواد جديدة للاجهزة التي تقوم مقام السن وذلك للحماية وتسمى بالبدلة وملء السدود . كما هناك اصماغ جديدة لها قدرة الالتصاق بالسن بشكل افضل ومن اهم مميزاتها بأنه ليس من الضروري عمل اعداد خاص . وقد اوصى باستخدامها .

— زرع الاسنان ، ويعتبر من التجارب التكنيكية الحديثة، ويمثل ذلك جلدور صناعية حقيقية كما تستخدم كاساس للجهاز الذي يقوم مقام السن او عديد من الاسنان (البدلة) ويوضع على جانبي العظم ويثبت في مستوى سمك العظم ، ويبدو ان الاتجاه السائد نحو استخدام الفحم الزجاجي .

كما توصلوا بأنه يوجد تأثيرات جانبية اخرى وذلك لالتهاب الاسنان ، وبالإمكان أن يكون هذا التأثير على القلب واوعية الدم والعظام والكلية والعين أو الجلد .

في الوقت الحالي — ولمثل هذه الحالات — لا بد من العمل بحذر شديد وعدم انتزاع الاسنان بدون تبصر . وبناء على ذلك يجب تحديد الموقف بدقة سواء لانتزاع الاسنان أو حفظها تبعا للخطر الذي يمكن أن يكون حيويًا.

يعتبر الاستاذ دكتور روبرت فرانك مدير كلية جراحة الاسنان في ستراسبورج ، اخصائيا

استعمال المواد الكيميائية قبل استعمال المواد المطهرة .

— وجد ان اى مادة كيميائية تستعمل يجب الا تتعدى حدود قناة العصب حتى لا تسبب اى ألم للمريض فى بادئ الامر .

— كما نستطيع القول بأنه لم يستقر الامر بعد على شكل وضع هذه المواد عند استعمالها اكلينيكيا . ان استعمال كمية هذه المواد في التجارب العملية كانت اكثر بكثير من كمية المادة اللازمة عند استعمالها اكلينيكيا، ولكن هذه الكميات يمكنها ان تعطينا فكرة عن التغيرات التي ستحدث في عاج السن .

ومن التحليلات الاحصائية ومقارنة حامض الخليك ١٠ في المائة ، ٢٠ في المائة وثلاث مواد اخرى متداولة مثل :

EDTA - ENDOSOLVE - LARGALULTRA

وجد انه يفضل تكرار استعمال حامض الخليك كمادة كيميائية لعملية التوسع الكيميائي الميكانيكي اللازمة في قنوات السن .

#### ❖ الصحة العامة وطب الأطفال

عرفت ابحاث الكلية خذل السنوات العشر الاخيرة تقدما خاصا فيما يتعلق بامراض الكلية والضغط . اذا كان قد تحقق في الواقع تقدم مدهش للعلاج بواسطة الكلية الصناعية وتطعيم الكلية . ولا تزال هذه الوسائل مسكنة كما تمثل حولا مؤقتة . ان الوقاية من امراض الكلية ترجع عامة لفضل الدراسات والابحاث المتعلقة بالوراثة خاصة ، كما انها ستسمح بتخفيض نقص عمل الكلية لدى الطفل وبالتالي لدى البالغين .

اوضح العالم جون هامبورج عضو اكاديمية العلوم ومدير مركز ابحاث امراض الكلية في مستشفى نيكر باريس وذلك كان خلال المؤتمر الذي عقد بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيس

نسبة اجراء العمليات الجراحية ، ومن شأنها كذلك ان تضاعف نمو العظم من جديد .

ايضا اسفرت عدة ابحاث عن التغيرات الحادثة في تركيب ودرجة نفاذية العاج الخاص باقنية جذر السن بعد تعرضه للحوامض الضعيفة والمواد المطهرة بالنتائج الاتية :

— ليونة عاج جذر السن بواسطة المواد الكيميائية يقلل الوقت اللازم لعملية توسيع قناة الجذر ميكانيكيا . كما وجد ان درجة ليونة العاج تتناسب طرديا مع وقت الانغماس ولذلك يجب استعمال اى مادة من مواد البحث لمدة ١٥ دقيقة فقط .

— ليست عملية تحديد الوزن المفقود طريقة دقيقة لمعرفة تأثير المادة على علاج جذر السن، ولكن قياس ايونات الكالسيوم الموجودة في خلايا الكالسيوم المترسبة تعطى ضوءا افضل لتحديد تأثير المواد المستعملة في البحث على عناصر العاج غير العضوية . ومن الواضح من نتائج البحث ان كل المواد المستخدمة تعطى زيادة في ايونات الكالسيوم بعد مضي ٢٤ ساعة مع تغير بسيط فيها بعد مضي ٤٨ ساعة — ومن ضمن النتائج ان تحديد وضع استعمال اى مادة يعطى تفاعلا محدودا .

— منحنيات ونتائج تحليل حيود الاشعة السينية ( اكس ) اعطت اجابة واضحة عن التفاعلات والمركبات الجديدة الناتجة بين عاج جلد السن وبين هذه المواد .

— كما وجد ان اساس كل المكونات الجديدة الناتجة هي خلايا الكالسيوم ، وان التغيرات في فوسفات الكالسيوم القاعدية ( اساس تركيب السن ) تغيرات بسيطة وكل التغيرات تمت في مركبات اخرى مثل هيدروكسيد الكالسيوم .

— درجة نفاذية الصبغة تتناسب طرديا مع وقت الانغماس وهذا يعطى ضوءا جديدا على



المرض ، وبالفعل ظهرت فعاليته بإيقاف الوباء الأخير الذى حدث فى البرازيل .

ذكر العالم تريو من مؤسسة ميريو انه اذا كانت الاويضة الكبرى المعروفة مرتبطة بالجراثيم من نوع 1 ، س ، فلا يمكن التأكد بأن الجرثومة من نوع ب تعتبر مسؤولة لوحدها . فى فرنسا جرى احصاء كل عام وذلك من الالف الى الالف وخمسمائة اصابة ، كما لا يمكن التاكيد بأنها لن تتخذ يوما هذا الشكل من الانتشار . فى الوقت الحالى لم يتمكن التحقيق وتصنيع الطعم المقابل . واما فيما يتعلق بمرض الانفلونزا وذلك خلافا لالتهابات الاغشية المحاطة بالمخ ، لا يوجد حاليا أى علاج .

يقضى داء الانفلونزا فى فرنسا كل شتاء على ٨ - ١٨ الف شخص وبينهم ٩٠ ٪ من الذين تجاوزوا الستين عاما . اما التطعيم فيبدو افضل الاعمال . ذكر العالم هاتون من مؤسسة باستير ما يلى :

اذا كانت حماية التطعيم ضد الانفلونزا فى البداية غير كاملة ( جرعة التطعيم ) قبلية مع عدم معرفة سلوك تطور الجرثومة التى تعتبر اصل الوباء . اما اليوم فيفضل تطور فنون تكنولوجيا التقنية سمحت لنا باستخدام جرعات منتجة وذات فعالية قصوى مع اختفاء كل الاضرار تقريبا التى كانت سابقا تنتج عنها .

منذ شهر نوفمبر ١٩٧٥ ولان يجرى بقسم الامراض المعدية فى قسم البحث الطبى الاجتماعى ، وهو تابع للمؤسسة الوطنية للبحث الطبى لاوروبا ، تحقيق يعتمد على نسبة تفيب الطلبة عن حضور الدروس وتعتبر هذه النسبة من التفيب كدليل على اهمية انتشار وباء الانفلونزا . من اجل هذا التحقيق ، جرى اختبار تلاميذ الصف الاول والثانى فى المدارس الابتدائية . وتراوح اعمارهم بين السادسة والثامنة ، وهو السن الذى تصيبه عادة امراض الاطفال المعدية ( الحصبة

المؤسسة الوطنية لصحة العامة والبحث الطبى ، فان زيادة نسبة البولينا فى الدم ليست ناتجة عن تجمع المادة البلورية من البولينا نتيجة ضعف الكلية لدى الانسان السليم فقط بل انها تقضى على هذه المادة ايضا . وان كثيرا من ذلك برهنت الابحاث التجريبية خلال سنوات عديدة على أن عجز وظائف الكلية يؤدي كذلك الى سلسلة متوالية من الخلل او عدم الاتزان فى المواد الهامة والتى يعتمد عليها اساسا الوسط الداخلى لجسم الانسان مثل الماء والصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والمغنيسيوم وغيرها من المواد الثابتة . وبرهنت الابحاث التى تتعلق بامراض الكلية والتى حققها عدد من الفرق العملية البحثية من العلماء الفرنسيين والمتخصصين فى هذا الفرع على ما وراء « أزمة الكلية الحادة » من امراض خطيرة تؤدي فى النهاية لوفاة المرضى . وهذه الامراض المختلفة تهاجم الكلية وتحدث فيها اصابات . وان معرفة كل من هذا الخلل وعدم الاتزان فى المواد الاساسية فى تركيب جسم الانسان بشكل اوسع وكذلك البحث عن اسبابه ( يتعلق الامر غالبا بالمناعة ) يعتبر لازما للعلاج وكذلك للوقاية من هذه الامراض . ويحاول علماء الكيمياء عزل المواد السامة واحدة بعد الاخرى وهى التى تجرى مع الدورة الدموية وتعتبر مسؤولة عن الخلل القاتل . ان الكلية الصناعية وحدها هى التى تستطيع حاليا تحقيق عملية التنظيف .

اما فيما يتعلق بامراض التهاب الاغشية المحاطة بالمخ ، نجد حاليا ان يعاد استخدام المضادات الحيوية والسولفاميد لعلاج مثل هذه الامراض ، وبالتالي نتج عن ذلك ان نسبة الوفيات تناقصت من ٨٠ الى ٢٠ فى المائة ومع ذلك لا تزال هذه النسبة مرتفعة ، ولكن ذلك يعود جزئيا الى قدرة الجرثومة المدهشة والتى تسبب هذا المرض واصرارها على الحياة والتطور بسهولة لمقاومة العلاج . فاهتم الباحثون بتصنيع طعم خاص للوقاية من هذا

الطفل . ولا يوجد مثيل لهذا المركز في فرنسا نفسها او الخارج ايضا ويديره العالم الاجيل .

اسفر وجود هذا المركز ، نتيجة تعاون بين الخدمات المتخصصة بالمستشفى ، عن دراسة التشخيص والاسباب لامراض الكبد لدى الطفل ، وبين وحدة أبحاث امراض الكبد لدى الطفل . وقد أنشئت هذه الوحدة من الأبحاث التي تتعلق بامراض الكبد بالمؤسسة الوطنية والبحث الطبى عام ١٩٦٩ .

عقد القسم الاول من هذا الاجتماع الدولى تحت رئاسة العالم روبر دى برو في قصر اونج شامب حيث يوجد هناك مقر المركز الدولى للطفولة . وفي هذا الاجتماع الدولى اجتمع خمسة عشر امريكا وخمسة عشر اوروبيا . اما المرحلة الثانية فقد عقدت داخل مقر وحدة أبحاث امراض الكبد لدى الطفل . سمح مؤتمر المؤسسة الوطنية للصحة والبحث الطبى لعدد كبير من الاطباء والباحثين بالمساهمة في أعمال القسم الاول .

ترتبط احدى الأعمال الجديدة لهذا اللقاء بتنوع الأبحاث العلمية . كما ضم الاخصائيين في الكيمياء الحيوية وفي علم المناعة وعلم الجراثيم وكذلك الاخصائيين في علم التشريح - والامراض او الاطباء المتخصصين في امراض الكبد لدى البالغين او الاطفال - وفي هذه المناسبة قامت فكرة السباق الاساسية للتقدم التكنولوجى ودورها الهام في البحث الطبى .

واشار العالم جوى جود لويسكى الى موضوعين حديثين يتعلقان بالعلاج بواسطة المياه المعدنية : التهاب الكبد الجرثومى والانفعالات الفذائية للطفل ، وبالإمكان يؤدى موضوع الانفعالات الفذائية لدى الطفل الى انشاء مستشفى خاص لاجل معالجة اضطراب الهضم لدى الطفل .

التقى حوالى عشرة الاف طبيب من جميع بلدان العالم لتبادل معلوماتهم وخبرتهم في

- التهاب لوزتى الاذنين . . . الخ ) في فرنسا مثلا اختيرت ١٢ مدينة . من بينها نانت ، بوردو ، مونييليه ، ليون وغيرها من المدن . وفي هذه المدن اجرى مراقبة ستة آلاف طفل تقريبا . وفي كل صف يحدد يوميا عدد الفائزين وما سبب التفيب عن الدراسة . وعندما تتجاوز نسبة الفائزين ١٥ ٪ يتوجه شخص مكلف بالتحقيق الى المكان الذى يقع فيه الغياب من اجل تحديد ومعرفة ما اذا كان الامر يتعلق بوباء الانفلونزا . وفي حالة تحديد المرض ويشخص على انه بالفعل وباء الانفلونزا يتناول الخطوات الهامة الآتية :

يجرى التقاط بصاق الحلق لدى الاطفال المرضى وكذلك كل من يجاورهم من العائلة ، ترسل جميع هذه الآثار الى مؤسسة باستير في باريس او الى مركز مراقبة وباء الانفلونزا او الى المختبرات الوطنية للصحة العامة وهى مختبرات تضم قسم الاوبئة . وبالتالي تقوم جميع الفحوصات اللازمة لعزل عدد من انواع جراثيم الانفلونزا ودراستها دراسة بناءة . ونتيجة لهذه البحوث العميقة سمحت النتائج بمعرفة انشاء هذه الجراثيم الى نوع ا - فيكتوريا او نوع الثانى من ب . .

وبالتالى استطاعوا ان يحددوا نوع الجرثومة التى ينتمى اليها وباء الانفلونزا ، ومن هذا المنطلق بدأت المؤسسات الصحية في صنع الطعم الخاص لوباء الانفلونزا واستخدام العلاج الكيمائى السليم للقضاء على هذه الانواع من وباء الانفلونزا .

### امراض الكبد لدى الاطفال

عقد في أوروبا اجتماع دولى خصص للحديث عن امراض الكبد ومجارى الفدة الصفراء لدى الطفل وكان مقره في باريس بمستشفى الاطفال بالضاحية الجنوبية . حيث اقيم خلال السنوات العشر الاخيرة مركز أبحاث لدراسة امراض الكبد ومجارى الفدة الصفراء لدى

في الحقيقة ، يعود أكثر حوادث التهابات مجرى التنفس لدى الأطفال والرضع، كما تعود تقريباً كل إصابات الأنف والحلق ورأس الحلق وشعبة الرئة إلى أصل جرثومي . وبالتالي تكون المضادات الحيوية والتي تخفف الحرارة ( الحمى ) ليس لها تأثير على هذه الأمراض بشكل عام .

بالنسبة لإصابة الأطفال بارتفاع الحرارة لمدة طويلة غير معروفة السبب . في هذه الحالة يخشى أن تعطى المضادات الحيوية للطفل لأنه من الاحتمال ان تعطى نتائج خاطئة أو سلبية بالنسبة للفحوص البيولوجية اللازمة للعلاج السليم . اما فيما يتعلق بإجراء عملية جراحية قادمة أو طفل يتناول أدوية كورتيزونية أو ممانعة للالتهاب العصبى ، يعتبر تطور التدابير الصحية الشديدة ، وخاصة في المستشفى ، أكثر فعالية وأقل خطورة من العلاج الوقائي بواسطة أدوية المضادات الحيوية .

حقق فريق مؤسسة باستير بفرنسا بإدارة العالم فرانسوا جاكوب الحائز على جائزة نوبل الطبية - والعالم روبير فور اكتشافاً هاماً في علم الحياة . سمح هذا الاكتشاف بإدراك سبب عدم تأثير مناعة الجسم على الجنين لدى المرأة الحامل وكذلك على السرطان في الجسم ، بينما تعتبر هذه المناعة سبب لفظ الطعوم لأعضاء خارجية . وبالمقابل لم يحن الوقت للقول ما إذا كان هذا الاكتشاف يمكن أن يساهم في معالجة السرطان . وقد تركزت البحوث التجريبية الأخيرة على صعيد البحث الطبى على موضوع الخلايا التي بدلت نظريات الوراثة والفسولوجيا وعلم الأمراض بكامله . كما أشار البحث إلى علم المناعة مع الاكتشاف الهام إلى علم الاجنة مع تخمين الأمراض في ذرات الخلايا قبل الولادة ، وكذلك إلى علم الهرمونات مع الوسائل الحديثة لمنع الحمل .

نطلق الميدان الطبى والعلاج والجراحة والاختصاصات التكنولوجية العصرية وأمراض الفم والأسنان . وتم نقاش أربعة أبحاث حول مواضيع السامة ( المسؤولية الطبية ، ومنع الحمل - حوادث منزلية لدى الطفل ، مراقبة وصف الادوية وعدم الإفراط في تناولها - المصابون بداء المفاصل الروماتيزمية ) . كما تناول النقاش أيضاً جميع ميادين الجراحة العامة والصحة العامة والاختصاصات، وخاصة طب الأطفال، والتوليد وأمراض الفم والأسنان اما في مركز المستشفى الجامعى - بيتيه - سالبترير فقد جرى نقاش حول الإفراط في استخدام المضادات الحيوية لدى الطفل . حيث انه بعد ثلاثين عاماً من اكتشاف هذه الادوية، تبدو باستمرار ضرورة تعلم استخدام هذه الادوية بطريقة منتظمة وبدون إفراط . لأن الاستخدام غير المنتظم والإفراط في استعمالها لا يؤدي فقط إلى الاستهلاك المادى ( المالى ) ، بل يؤدي أيضاً إلى المضاعفات المتزايدة والخطيرة لبدور المقاومة المختارة والبارزة من الإنسان ، وهي تبعد عن كل مشروع علاجي . هذه السعة من المقاومة للمضادات الحيوية تعود إلى الأحماض المحتوية على « طفيليات » في النواة للخلايا الحية أو ( بلاسميد ) وبصورة عامة - من الضروري أن تستخدم المضادات الحيوية بطريقة سليمة والتي تستخدم بدون تمييز على سبيل الوقاية أو قبل معرفة ما إذا كانت هذه الجرثومة هي المسؤولة عن المرض ، وكذلك نوع هذه الجرثومة . يقدر علماء الجراثيم انه لا يصح استخدام المضادات الحيوية - أى الادوية المقاومة لحرارة الجسم - « للتغطية » كما يجب عدم استخدامها على سبيل الوقاية، إلا في حالات محددة بعد معرفة نوع الجرثومة المطابقة للمرض والمقصود مكافحتها . كل هذا يعنى عدم اللجوء إلى المضادات الحيوية قبل معرفة الجرثومة ونوع حاسبتها النسوية للمرض نفسه .

الدهنية والسكرية بشكل مبالغ فيه يؤدي كل هذا الى الاضطرابات الخطيرة بجسم الانسان . وبالتالي لابد من تنظيم تربية حقيقية للتغذية تسمح بالمحافظة على التوازن الغذائي للانسان . بمعنى انه منذ الطفولة ، لابد من بلل تربية غذائية صحية للطفل ، مع دراسة دور الفيتامينات وتأثيراتها سواء كان الامر يتعلق بوجودها في العناصر الطبيعية او حفظها في المواد الصناعية او تأثيرها بواسطة المنتجات الصيدلانية .

عقدت اجتماعات في أوروبا وكن مقر هذا الاجتماع في باريس لدراسة أبحاث القضايا المتعلقة بالصحة الغذائية . وقد نظمت أخيراً من جانب اللجنة الوطنية للطفولة والمركز الوطني لتنسيق الدراسات والأبحاث المتعلقة بالتغذية خلال ثلاثة اجتماعات شدد المشاركون على ضرورة تعديل السلوك الغذائي للأطفال والبالغين ، وذلك بتحقيق تطور في تناول الغذاء الصحي وكمية السعرات اللازمة للطفل . حيث انه من الملاحظ أن الأطفال في سن الرابعة قد اعتادوا أكل الطعام المالح أو الحار على كثير من السكر مع عدم شرب الماء .

أشار العالم روسيه رئيس أطباء مستشفى سان فانسان دي بول بباريس خلال اجتماع اللجنة الوطنية للطفولة وذلك لدراسة تغذية الشباب ، ذكر أن تلك حالات البداية والضعف يبدأ منذ الطفولة ، وأن عدداً من العادات الغذائية العائلية السيئة تمهد لبداية الطفل . كما أضاف قائلاً : يخشى من تضخم الشحم بشكل غير قابل لتقص لدى الأطفال ويحافظ على ذلك عدم انتظار هرموني . لذلك يجب على طبيب الأطفال أن يراقب كل زيادة في الوزن .

كما أشار العالم دويان خلال اجتماع المركز الوطني لتنسيق الدراسات وأبحاث التغذية الى العادات السيئة منذ الأشهر الأولى وخلال العامين الأولين من الحياة . قال : « خلال الأشهر الأولى ينمو الطفل ويزيد وزنه جرماً

ذكر العالم مينكوفسكي أن مكافحة الوضع السابق لاوانه ، وهو يمثل السبب الأول للوفيات لدى المواليد الجدد يجب أن يتخذ الأفضلية في ميدان الصحة العامة . من أصل ٨٠٠ ألف ولادة في فرنسا خلال عام ١٩٧٣ ، تحقق ٨٠ ألف ولادة قبل الأوان . ومن أصل هذا العدد ، توفي خمسة عشر ألفاً ، كما أن عدداً شبيهاً يصاب بعاهات تتعلق بالدكاء والحركة ، ومن ناحية أخرى لاحظ العالم مينكوفسكي أن التقدم الهام في ميدان العلاج لا يجب أن ينسبنا أن الكشف عن الحمل الذي يمثل « خطراً كبيراً » والوقاية منه لا يزالان يعتبران السلاح الأكثر فعالية ضد الولادة السابقة لاوانها . وأن زيارة الحامل للطبيب أربع مرات خلال فترة الحمل تعتبر من الأصل غير كافية . تبين أنه في حالة فحص الحامل مرة في الشهر من الأماكن تجنب حالات الوفاة للمواليد بنسبة كبيرة . كما يمكن تجنب إصابة ستين ألفاً بالعاهات خلال خمسة عشر عاماً . أشارت الطبيبة جنيفيف بارييه المختصة بالتخدير وإعادة تحريك المولود أشارت الى الاخطار التي تصيب الحوامل اللواتي يتلصص جميع أنواع الادوية بفرض الوقاية والتقوية . فان عدداً من أنواع الادوية المدرة للبول يمكن أن تكون سبب عدم التوازن الأيوني لدى المرأة والجنين ، كما تسبب في نقص كمية الكالسيوم لدى الأم . أن الادوية المسكنة والمهدئة للأعصاب تسرب أكثر الى الجنين بالنسبة للأم . لذلك يجب الامتناع المطلق عن كل علاج عند الاقتراب من مرحلة الوضع .

### ❖ أبحاث تتعلق بالصحة الغذائية

أن الحياة الحديثة قد عدلت بعمق كثير انفعالات الجسم البشري ، الذي سيحتاج من جديد لأشياء عديدة يجب على أدوية ألفد أن تقدمها بمساهمة تكنولوجيا العصر .

يلاحظ في الواقع أن أكثر مساوئ التغذية بدون تعقل وحكمة والتي تسبب الزيادة الفائضة في السعرات والامتصاص الزائد للمواد

تنظيم الغذاء أن الاخطار الواقعية للاضطرابات والتي تسبب الحوادث انما تبدو خاصة عندما يبدأ تناول العلاج ، وذلك قبل ان يعتاد الجسم عليه . ومن هذا المنطلق عكف الاخصائيون على العلاقات التي تنشأ بين الاجهاد العصبي وظروف التغذية ، وقد اتفقوا على أهمية الغذاء المعقول والمناسب . ومن اجل تمتع بانتباه كامل وسرعة استجابة ، لابد من تجنب نقص نسبة السكر في الدم مما يخفف نسبة الاوكسجين وحتى البروتين في خلايا الاعصاب . وكذلك تناول وجبات الطعام الفنية وهي تحدث عادة رغبة في التعاس . فنجد من المستحسن بالفعل احترام السعة المنتظمة للانتباه المفروضة على السائق والتي عادة تنقص بعد ساعتين من قيادة السيارة وذلك نتيجة للارهاق . بالتالي يجب هنا على السائق الوقوف بانتظام لتناول وجبات صغيرة من الطعام والمواد السائلة . تسمح هذه التدابير للسائقين بالمحافظة على انتباه أقصى وتجنب جميع الحوادث التي تعود الى تعب الجسد والاعصاب .

انشىء فريق بحثي لدراسة التعب والاجهادات العصبية ، وهو يضم الاطباء والباحثين في المجالات المختلفة - الأمراض والفسولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والطب العام والطب المهني والاطباء الشرقيين على الصحة الرياضية (الطب الرياضي) والغدد والتنفس ... وكانت غاية هذا الفريق البحثي هي تناول المواضيع التالية :

- تحديد الاسباب والمظاهر والعناية بالاجهاد وضعف القوة الناتجة غالبا عن عجز عصبي أو نفسي .

- جمع ودراسة نشر جميع المستندات المتعلقة بهذه المواضيع .

- اعداد وتطبيق التدابير الصحية والوقاية بالنسبة لجميع علامات الاجهاد .

في الساعة ( حوالي ٢٥ جراما يوميا ) اما وزن الدماغ فيزيد جرامين يوميا ، وبعد ١٢ شهرا يزيد وزن الطفل ثلاث مرات بالنسبة لوزنه عند مولده ، كما يبلغ طوله عندما يبلغ عامين نصف الطول النهائي لبلوغه « . وهكذا برهن على أهمية قضايا التغذية لدى الرضيع، وشدد على الأخطاء التي تتردد في الغالب :

- تجاهل الأم للمميزات المختلفة لأنواع الحليب وزيادة الكمية .

- استخدام باكر للغذاء المالح او الكثير السكر .

- لم يعد الاطفال بين الرابعة والسادسة يعرفون شرب الماء . كما يعطون مشروبات كثيرة السكر والالوان .

ونظمت ايضا مؤسسة تنظيم الغذاء في كلية الطب الباريسية مؤتمرا تناول دراسة الموضوعات المرتبطة بالصحة العامة والصحة الغذائية لسائق السيارة . توجد في الحقيقة علاقة وثيقة بين نظام الغذاء والانتباه . حدد عدد كبير من الاخصائيين التابعين للهيئة الطبية والمنظمات المسؤولة عن سلامة السير ، حددوا تأثير الكحول وعدد من الادوية بصورة خاصة على نوع رد الفعل العصبي . كما دلت الاحصاءات بوضوح على ان نسبة الحوادث تزداد مع زيادة نسبة الكحول في الدم . وان سلامة السير تعتبر أفضل طالما نسبة الكحول لا تزداد عن ٣. جرام ، ويوازي ذلك كمية امتصاص ضئيلة وخاصة اذا جرى ابتلاع عدد كبير من الادوية دفعة واحدة قبل تناول الطعام فهناك عدد من الادوية المسكنة واللازمة لحالات الصرع والمنشطة والفاقة للشهية « القاطعة للجوع » وهي تؤثر مثل الكحول وتحدث زيادة في الوقت اللازم لحدوث رد فعل في الاعصاب ، كما تحدث نقصا في قدرة تنسيق اعصاب البصر واضطرابات في التمييز والانتباه . كما وضحت الابحاث التجريبية التي اجريت من قبل مؤسسة

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا  
وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَرْتَشِقُونَ . ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ  
الشَّجَرَاتِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذَلِكَ يُخْرِجُ مِنْ  
بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ  
أَنْ يَفِي ذَلِكَ لَا يُبَدِّلُ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

صلى الله عليه وسلم

المؤلف . . . ان العسل فوائد عديدة ونافعة وله آثار نافعة اذا استنشق صباحا فهو يساعد على سهولة التنفس وقاتل للجراثيم ، بالإضافة الى انه مقو عام لجميع امضاء الجسم . . . والدليل على ان العسل له فوائد كثيرة ، خاصة للجهاز التنفسي ، فقد انتجت المانيا القريبة دواء للسعال يدخل في تركيبه نسبة ٥٠ في المائة من العسل الابيض .

### علم النفس الهندسي والفسولوجي

اثبتت الابحاث التجريبية الحديثة ان تطور تكنولوجيا الاجهزة الاوتوماتيكية والالات والمعدات انها غيرت تفكير البشرية ، فكان الانسان في الانتاج يصنع كل شيء بنفسه ، اما الآن فهو الذي يتحكم في عملية الآلة اى اخذ يتحول اكثر فاكثر الى قائد يصدر اوامره للاجهزة الاوتوماتيكية . رغما عن ذلك التقدم ، فهذه الاجهزة الاوتوماتيكية فرضت على الانسان ان يكون منتبها قوى الذاكرة ، حاضر البديهة ، سريع الاستجابة . فتتطور الدراسات البيولوجية لخدمة الانسان فاستطاع العلماء نتيجة لدراساتهم وابحاثهم ان يحددوا الوظائف السيكلولوجية العليا للانسان اى صنع معدات مهيأة للاتصال والتعامل مع الانسان ومتناسقة مع قدراته وطاقاته . حيث انه

اشارت تحقيقات حديثة الى اهمية وتكرار الاجهاد وضعف القوة الناتجة غالبا عن عجز عصبي او نفسي . وقد تبينت الاحصائيات للاطباء داخل المستشفيات ان مريضا من أصل اثنين يشكو من التعب والاجهاد العصبي . وعلى صعيد العيادة ، يشمل الضعف جميع مظاهر المرض ، وان كل مرض جسمي او عقلي يسبب ضعفا . وعلى الصعيد النظري ، اقتضت الدراسات الفسيولوجية الاساسية الكلاسيكية في الغالب على تعب العضلات ، وهى غير كافية لابرار مجموع مايتعلق بالاجهاد الناتج عن ضعف القوة وتأثيره على الحياة النفسية والاجتماعية .

### عسل النحل شفاء للناس

بدلا من استخدام العقاقير والادوية يوجد علاج جديد وقديم عرفه الانسان منذ القدم - انه عسل النحل الذى ذكر في كتاب الله عزوجل . . الهاما من هذا قدم الطبيب الروسى الاصل «روش» في كتاب تحت عنوان « النحل صيدلية مجنحة » يقول في كتابه ان العسل افضل علاج للأمراض الناتجة عن البرد . . . اما ان يخلط بالحليب الساخن او عصير الليمون او مع الشاي الساخن . . . هذا العلاج عرفه العالم منذ مئات السنين . انه يقضى تماما على البرد او الزكام . ويستخدم ايضا في ايقاف النزيف الرئوى مع خليط مع عصير الجزر ، ويضيف

### ✽ مكافحة التلوث والأضرار الصناعية :

في المجتمعات الصناعية والمجتمعات المجاورة، نجد الهواء يحتوى على ادخنة كثيرة . وكما ان مياه الانهار تحتوى على مركبات كيميائية ، حتى البحر يحتوى على البترول اى ملوث بالبترول . . . الخ ، وهذا ما يسمى بتلوث الهواء والماء والبحر والاضرار التى تعود من هذا التلوث تسمى الى الصحة العامة للانسان . فتجرى مباحثات عديدة في نطاق مكافحة التلوث والاضرار الصناعية ومكافحة الضوضاء . في الوقت الحاضر يجرى بناء شكل جديد لجدار من الاسمنت ضد الضوضاء وذلك على الطرق السريعة والمزدحمة والتي تكثر فيها الضوضاء بشكل خاص . فامكن تحقيق ستار مصنوع من الزجاج والالونيوم وهو يندمج تماما مع الموقع، كما يشرب نسبة كبيرة من الارتجاجات التى تحدثها السيارات مما يخفف قليلا من انزعاج السكان المجاورين لهذا الطريق المزدحم . اما التصنيع والتلوث البيئى فهما عنصران متلازمان تتناسب العلاقة بينهما تناسباً طردياً فكلما ازداد التصنيع ازداد التلوث البيئى معه بما قد يؤثر على الصحة العامة وعلى نوع الحياة . في نطاق المعرض الدولى لتكنولوجيا الآلات لمكافحة التلوث والاضرار الصناعية والذي اقيم بين ٧ ، ١١ ديسمبر عام ١٩٧٦ في باريس وذلك برعاية ومساهمة وزارة نوع الحياة .

قدم هذا المعرض الدولى الاول لمقاومة التلوث والاضرار الصناعية المعدات والمنتجات والوسائل والخدمات المقررة لفنون الهواء والماء والضجيج والنفائى الصناعية ونفايا المدن ومكافحة التلوث والاضرار . حيث ان هناك نصوصا تشريعية عديدة تلزم كل من يسبب التلوث على استخدام تجهيزات لمكافحة التلوث والاضرار . تحققت أخيراً دراسات لحساب اللجنة الاقتصادية الأوروبية في بروكسل ، افادت ان اسواق صناعة مكافحة التلوث ستعرف تطورا بمعدل ١٤ في المائة في السنة حتى عام ١٩٨٠ . سترتفع هذه النسبة الى

لبيت عمليا باننا نرى أكثر مما نتذكر في كل خطوة نخطوها . وبذلك يدرس علم النفس الهندسى الطبى باهتمام شديد « السعة » للانسان بوصفه قناة معلومات وقناة اتصال وايضا تحديد وتنمية المواهب المهنية لدى الانسان ورفع مستواها الى مستوى متطلبات التكنولوجيا العصرية المتزايدة .

وفي الابحاث التجريبية وعلى مدى واسع يجرى في هذا المجال وتقدم للانسان عدة مسائل متزايدة الصعوبة . ويقوم العلماء بعد ذلك ، وبواسطة أجهزة خاصة ، بتحديد ما يسمونه « معامل التقدم » اى القدرة على تنمية المواهب ، وتساعد هذه الطريقة على معرفة ما اذا كان الانسان يستطيع أن يعمل في اية مهنة من المهن التى تتطلب رد فعل دقيق وسرعة بديهية . وضبط اعصاب واسترشاد في المواقف غير المتوقعة ، وفحص العاملين قبل توزيعهم على الورش والتخصصات والمناصب . ويحدد العلماء الخصائص الفطرية لكل شخص وقدرته على تنميتها . وهذا يساعد على معرفة العمل الذى يناسب كل انسان ، وعلى عدم تضيق الوقت والمجهود في تعليمه عملا يناسبه او حرفة لا تتفق مع استعداداته . ويفضل تطور علم البيونيكا يقوم العلماء بوضع علاقات جديدة أكثر ارتباطا بين الانسان والآلة .

وعلم البيونيكا هو علم يدرس استخدام العمليات والمناهج البيولوجية لحل المسائل الهندسية الحيوية . ويمكن تعريف علم البيونيكا ايضا بأنه نظرية مناهج اقامة النظم التكنيكية التى تقترب مواصفاتها من مواصفات الاجسام الحية . يأخذ هذا العلم تسمية من الكلمة الاغريقية « بيون » اى « خلية حية » . وكم من أبحاث تجرى في ميدان علم البيونيكا ! ان العلماء يبحثون بجهد عن وسائل بيولوجية للوقاية من الاشعة الخطرة ويأملون ان يتمكنوا من بناء مرشحات حية لتنقية الماء والتربة من النشاط الاشعاعى .

وبفضل ما أصبح يملك من مقومات وقدرات على التطور وبفضل ما حققه وسيحققه من تقدم تكنولوجى .. وبفضل الاكتشافات ذات المستقبل الكبير فى البيولوجيا الجزيئية وفى الكيمياء الحيوية والعضوية والفيزياء الحيوية والفيزياء النووية والإشعاعية وعلم الخلايا وعلم الوراثة، وبفضل ظهور اتجاهات جديدة فيها وغير متوقعة مثل الإحصاء البيولوجى والرياضيات البيولوجية ونظرية النظم . فوجدنا وتحققنا ان التكنولوجيا المعاصرة الآن قد دخلت بالفعل فى المجال الطبى بشتى فروعه ، والاستخدامات الطبية للأجهزة الصوتية وغيرها فالعقل هو الطريق للإيمان ... ونحن نقبل على الإيمان بعقولنا .. وإن التقدم أمر لا يمكن الرجوع عنه ، ولا يمكن إيقافه لأن العقل دائم البحث والاكتشاف والابتكار . وبجانب هذا العرض أود أن أكرر اهتمامى والتركيز بالنبوض بالارتقاء الفكرى والثقافى ( السمو الفكرى - المآثر الثقافية ) فى العالم العربى ونرتفع به إلى أسمى مكانة والاعتناء أيضا بانماء ملكاتنا العقلية وتعميق ثقافتنا حيث انها تقدم لنا قوة فكرية تقدمية فى جو مكيف المناخ . كما يسمح الارتقاء الفكرى والثقافى للطفل بتعليم ما لا يستطيع ان يتعلمه فى الكتب، وبالتالي فان مهمتنا هى دراسة ما يمكن ان تقدمه المآثر الثقافية للعلم والتكنولوجيا ومع دولة العلم والإيمان ومزودا بطاقة الاصاله الحضارية التى تملكها الأمة العربية .

١٥٪ فى السنة فيما يتعلق بمعالجة المياه الصناعية ، كما ستبلغ ٥٥٪ بالنسبة لتنفيذ الهواء . اما ميدان أدوات القياس ومراقبة التلوث الجوى فسيزيد بشكل اكيد حوالى ٢٥٪ فى السنة وذلك حتى عام ١٩٨٠ . اما فيما يتعلق بأجهزة العزل الحرارى ، أجهزة الحماية ضد أى تغير فى درجات الحرارة ستقارب الزيادة السنوية حتى عام ١٩٨٠ ، ١٥٪ ، بينما سيزيد بيع آلات القياس بمعدل ٢٥٪ . بإمكان قطاع جمع النفايات والقضاء عليها ، سواء كانت تتعلق بالنفايات المنزلية او الصناعية ، بإمكانه ان يعرف زيادة بيع الادوات والمعدات بمعدل ٢٠٪ فى المائة فى السنة ، وذلك بسبب بدء تطبيق قانون النفايات الصادر فى يوليو عام ١٩٧٥ .

اليوم بوسعنا ان نقول اننا نشهد اليوم ميلاد مجال طبى جديد حيث تقف معه كلمات التكنولوجيا بمدلولها العلمى جنباً الى جنب مع هذا المجال وتسلح هذا المجال الطبى الذى يعد من أقدم العلوم ، والتي ولدت كعلم وصفى وتجريبى ، باحدث الوسائل فى ترسانة العلوم ، الا وهى طرق التحليل السليمة ، والتفكير الدهنى والحساب الدقيق . ولقد حطمت التكنولوجيا الحديثة الخرافات القديمة والشعوذة والقيم البالية فى المجال الطبى . وأصبح تقدم العلماء المؤثر الذى يوضح اتجاه الانسان الحديث ... وبفضل قدرة العقل الانسانى المعاصر الخارقة والمجددة



### المراجع العلمية

- الموسوعة الصغيرة في علم السيبرنتيك - فيكتور بيكيليس
- ٢ - اسي الالكترونيات - ا. جريبتسوف
- ٣ - L'ASSOCIATION POUR LA DIFFUSION DE LA PENSEE FRANCAISE
- ٤ - مؤتمر امراض الاذن والانف والحلق - لوشون - مدينة المياه المعدنية بفرنسا سنة ١٩٧٦ .
- ٥ - المؤتمر الثالث والسيمون الفرنسي لامراض الاذن والانف والحلق والرقبة - باريس كلية السنان بير - سبتمبر سنة ١٩٧٦ .
- ٦ - فوائد العلاج بالمياه المعدنية - الاستاذ شاول دوبيره - فيشي فرنسا - مغتبر المياه التابع لمستشفى بيشا .
- ٧ - A New Freezing - Ultramicrotome  
H. Moor' Ph.D, K. Mühlethaler, Ph.D., H. Waldner,  
A. Frey, - Wyssling, Ph.D  
The Journal of Biophysical and Biochemical  
Cytology, 1961, Vol. 10, No. 1
- ٨ - Dijon - France 6<sup>e</sup> Congrès de la Société européenne de neuroradiologie  
„Etude radiologique des Vaisseaux anormaux dans les tumeurs cerebrales” Sept. 1976.
- ٩ - L'exposition „Biocapt 75” (l'électronique au service du malade) BNF n. 1327  
du B-12 75
- ١٠ - الأيام الوطنية لعلم الاشعة - باريس - ١٦ - ١٨ فبراير/ ١٩٧٦ بمستشفى امراض الاطفال .
- ١١ - الانسان والآلة - فرنسا - تولوز - ٢٥ - ٢٦ نوفمبر/ ١٩٧٦ .
- ١٢ - المؤتمر الدولي لجمعية امراض القلب الفرنسية - ٦ - ٨ ديسمبر ١٩٧٦ باريس ٧٥. ١٩ .
- ١٣ - المؤتمر الفرنسي للجراحة - معالجة سرطان العظم - باريس ١٩٧٦ .
- ١٤ - Le Professeur Charles Gros, MM. Quennville et Gautherie, Chercheurs à l'Institut National de la Santé et de la Recherche Médicale de Strasbourg France 1976.
- ١٥ - Charles Gros: Fondateur de l'école de "Sénologie" Strasbourg - France.
- ١٦ - Professeur Debrun. L'Hospital Henri - Mondor de Creteil - Paris - France.
- ١٧ - P.W.R. BEAUMONT, JOURNAL OF MATERIALS SCIENCE SEPTEMBER 1977 p. 1485 part I
- ١٨ - P.W.R. BEAUMONT AND B. L. PLUMPTON  
JOURNAL OF MATERIALS SCIENCE SEPTEMBER 1977 p. 1853 part 2.
- ١٩ - ROBERT FRANK, DIRECTEUR DE L'ECOLE DE  
CHIRURGIE DENTAIRE à STRASBOURG. FRANCE.

٢٠ - التفحرات العادية في تركيب ودرجة نفاذية الحاجز الخاص بالفتية الجذر بعد تعرضه للحوامض الضعيفة والمواد الطهرة - رسالة دكتوراه ١٩٧٧ جامعة القاهرة - كلية طب الأسنان .

اشرف على الرسالة الدكتور سلسيل محمد محمود ابراهيم الاستاذ المساعد بكلية طب الأسنان - جامعة القاهرة - والدكتور مصطفى كمال محمد المدرس بكلية العلوم جامعة المنصورة . . وصاحبة الرسالة السيدة الطيبة سلمى حسن العشري .

٢١ - Le Professeur Hannoun - l'institut Pasteur - 25<sup>e</sup> Journees Pharmaceutiques internationales - Paris 1975.

٢٢ - الذكرى العاشرة لتأسيس المؤسسة الوطنية للصحة والبحث الطبى - ١٩٧٥ - فرنسا .

٢٣ - مؤتمر امراض الكبد لدى الاطفال - باريس ١٩٧٥ .

٢٤ - اجتماع الركن الوطنى لتنسيق الدراسات وابحاث التغذية باريس - ١٩٧٥ .

٢٥ - مؤسسة تنظيم الغذاء - مؤتمر لدراسة موضوع القضايا المرتبطة بالصحة الغذائية لسائق السيارة - كلية الطب - باريس ١٩٧٤ .

٢٦ - ايام الجمعية الفرنسية الوطنية للطب ما قبل الوضع وما بعده - مدينة تور - ١٩٧٤ .

٢٧ - Tables rondes - les Entreiens de Bichati :  
CHU Pitié - Salpêtrière, 105, Boulevard de l'Hôpital, 75013 Paris 0 Septembre et Octobre 1976.

٢٨ - مؤتمر علماء الانفعالات الكيميائية للمواد الحية في باريس يوليو - ١٩٧٥ .

٢٩ - Groupe d'etudes de la fatigue - Docteur Pierre Burgard, 2, Square du Croisice - 75015 Paris.

٣٠ - La 2<sup>e</sup> Semaine internationale de l'Environnement  
du 7 au 11 decembre - Paris - 1976.

٣١ - التكنولوجيا الحديثة في المجال الطبى للتنمية وبناء المجتمع لعام ١٩٧٧/٢٠٠٠ لسنة ١٧ العدد ٥٥٦ - جريدة الشباب العربى - مصر . للدكتور مصطفى كمال محمد .

٣٢ - Journees Pharamaceutiques internationales  
de Paris (26<sup>e</sup> Journee Pharmaceutiques, Francaises)  
"Le Pharmacien et le 3<sup>e</sup> âge" Paris Sep. 1976.

٣٣ - 73<sup>e</sup> Congres Francais d'oto - rhino laryngologie  
et de pathologie cervicofaciale. Paris Sept. 1976.

٣٤ - 22<sup>e</sup> Réunion européenne d'information  
en Epileptologie et en Electroencéphalographie Marseille France Sept. 1976.

٣٥ - 5<sup>e</sup> Congres international de médecine Psychosomatique - société française de psychosomatique "La place du corps dans la relation PSYCHOSOMATIQUE et Médicale.  
Paris - sept - 1976

٣٦ - Colloque "Biomedica" 11<sup>e</sup> - TRIA "Homme/machine" Toulouse - France  
Novembre 1976.

٣٧ - Congres international de l'Association dentaire Francaise - Decembre - 1976.

٣٨ - Journées nationales de radiologie novembre - Paris - 1976.

٣٩ - Dr. Coucazon Jacques Spécialisé en Urologie, Academie de Moutpéllier, France.

## الدافعية بين النظرية والنمذجة

دراسة تحليلية مقارنة

### طلعت منصور \*

ارتباطا بمتطلبات العصر الخاصة بتحقيق الاداء  
الافضل والتوظيف الامثل لامكانيات الفرد  
وطاقاته النفسية ، ومن هنا ، كان الاهتمام  
المتزايد بعلم النفس الدافعي ( Motivational  
Psychology)؛ او بعلم الدافعية (Motivology) (١)

وتصور الدافعية - كما يقرر «بول توماس  
يونيغ» ( ١٩٦١ ) - على انها مصطلح عام «لكل

لعبت الدافعية دورا متمما في  
نظريات علم نفس القرن العشرين ، فمفاهيم  
وفروض الدافعية تؤلف اجزاء متكاملة مع  
الكثير من نظريات علم النفس بعامة ، والتعلم  
والشخصية بخاصة . كذلك شهدت العقود  
الثلاثة الاخيرة من هذا القرن بناء نظريات  
للدافعية اكثر تخصصا ، وترتبط هذه الحركة  
بطبيعة الحال ، بتزايد مقدار النشاط التجريبي

(\*) دكتور طلعت منصور مدرس الصحة النفسية بكلية التربية جامعة عين شمس ، اسهم ببحوث منشورة في بعض  
المؤتمرات الدولية ، عضو الجمعية المصرية للدراسات النفسية ، والمجمع المصري للثقافة العلمية ، والجمعية  
الامريكية للتقدم والعلوم .

( ١ ) مصطلح اقترحه « ر. س. وودورث » ( ١٩١٨ ) .

مادسن ( ١٩٥٩ ) ، هول ( ١٩٦١ ) ، براون ( ١٩٦١ ) ، يونج ( ١٩٦١ ) ، رتلينجشاسفر ( ١٩٦٣ ) ، اتكنسون ( ١٩٦٤ ) ، كوفروآيلو ( ١٩٦٤ ) ، توماي ( ١٩٦٥ ) ، بولز ( ١٩٦٧ ) وغيرهم . وقد ظهر أول مسح للميدان في الكتاب السنوي لعلم النفس المعروف بـ  
Annual Review of Psychology  
في عام ١٩٥٢ ، وكتبه « ماورر » .

كان ميلاد علم النفس كعلم مستقل نتاج « التهجين » بين الفلسفة والفسولوجيا التجريبية . وفي علم النفس التجريبي « الكلاسيكي » هذا . الذي نشأ على أيدي فخر وفونت وإبنجهاوس وغيرهم من السيكلوجيين الألمان ، لم يكن ثمة مجال أو استخدام للمفاهيم أو الفروض الدافعية . ويمكن أن نعزى أسباب هذه الحقيقة التاريخية إلى أن السيكلوجيين التجريبيين الكلاسيكيين قد استأثرتهم دراسة العمليات المعرفية - خاصة الاحساس والإدراك . كما تملكهم الطريقة الاستبطانية في هذا الصدد . وفي نفس الوقت كان هناك اتجاه صاعد آخر في البلاد الأنجلو - سكسونية .

**سيكلوجيا وإيثولوجيا الفرائز ، في الوقت الذي كان فيه علم النفس التجريبي أخذا في النمو في ألمانيا ، كانت هناك ثورة علمية ذات دلالة بالغة تتقدم في إنجلترا بنشر « دارون » لكتابه « أصل الأنواع » ( ١٨٥٩ ) ، وهو الكتاب الذي أثر في علم النفس تأثيرا بالغ العمق . لقد جعلت نظرية دارون عن التطور البيولوجي في الأماكن تفسير السلوك الإنساني بتطبيق المبادئ ذاتها التي طالما استخدمت في تفسير سلوك الحيوان . ومنذ فجر التاريخ**

محددات السلوك » ، يتطلب منا في هذه الدراسة أن نضع في الاعتبار تلك النظريات التي تتضمن مصطلحات أساسية مثل الدافعية الدافع ، الحافز ، الحاجة ، الغريزة ، القوة . الباعث ، القيمة الذاتية ، وغير ذلك . ونرجو أن نكون قد وقفنا في انتقاء تلك النظريات التي أثرت في البحث السيكلوجي وفي تطور التصورات النظرية إبان العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة ( ٢ ) .

وهدفنا لا تقدم أهم نظريات الدافعية واحدة تلو الأخرى ، ولكن أن نعرض لنتائج الدراسة المقارنة لنظريات الدافعية وفقا للموضوعات التالية :

- ١ - تطور التنظير في الدافعية .
- ٢ - مفاهيم الدافعية
- ٣ - ملحة الدافعية .

#### ( ١ ) تطور التنظير في الدافعية

لعد قيل عن علم النفس ، كما يفر « إبنجهاوس » ، أن « له ماضيا طويلا ولكن تاريخا قصيرا » . ولعل هذا يصدق بصفة خاصة على سيكلوجية الدافعية . فقد شكلت فروض ومفاهيم الدافعية جزءا هاما من التصورات الفلسفية والسيكلوجية خلال تاريخها الطويل اعتبارا من فلاسفة الإغريق . لكن الكتاب الأول الذي تكرر تماما للدافعية قد ظهر في عام ١٩٢٦ ( يونج - ١٩٣٦ ) ، ولم تظهر المراجع الأولى التي تغطي ميدان علم النفس الدافعي إلا في العقد الأخير . كتب المرجع الأول عالم قد آخر هو ( وودورث ١٩٥٨ ) ، ثم تبعه آخرون ، بندرا ( ١٩٥٩ )

( ٢ ) يمكن الرجوع ، لمن يريد معلومات أعمق وأوسع عن نظريات الدافعية ، إلى الدراسات المسجلة لمجموعة من العلماء المبرزين في هذا الميدان ، مثل : اتكنسون ( ١٩٦٣ ) ، بولز ( ١٩٦٧ ) ، توماي ( ١٩٦٥ ) ، ميلجارد ( ١٩٦٢ ) ، كوفروآيلو ( ١٩٦٤ ) ، كيش ( ١٩٥٩ ) ، مادسن ( ١٩٥٩ ) ، يونج ( ١٩٦١ ) ، بالإضافة إلى المصدر البالغ القيمة Jones, M.R. (ed.) Nebraska symposium on motivation. Lincoln : Nebraska Univ. Press, 1953-1963.

انفعال التعجب ، غريزة الهرب - انفعال  
الخوف ، الغريزة الاجتماعية - انفعال الميل  
للتجميع ، غريزة السيطرة - انفعال ازهو ،  
الغريزة الوالدية - انفعال العطف والحضانة ،  
وغير ذلك من الفرائز .

**ويتضح من التعريف السابق ان «الغريزة»  
في نظرية ماكدوجل مصطلح تفسيري حصري  
يتضمن :**

( أ ) المكونات المعرفية التوجيهية ( « ان  
يدرك » ، « ان ينتبه الى » ) .

( ب ) وكذلك المكونات التنشيطية الدينامية  
( « الاستثارة الانفعالية » ، « ان يخبر  
اندفاعا » ، « ان يسلك » ) . وتصور مكوجل  
للفرائز على هذا النحو ، يعنى في نفس الوقت  
انها مصدر لنظام الدوافع . واذ تتحدد هذه  
الوظائف التوجيهية والدينامية باستعدادورائى  
يصير مفهوم الغريزة عند ماكدوجل مفهوما  
تفسيرا كاذبا Pseudoexplanatory concept  
تماما ، خاصة وانه لم يقاوم غواية  
ابتداعه لفرائز كثيرة للغاية . لقد قدم في كتابه  
( ١٩٠٨ ) فقط اثنتى عشرة غريزة ، ثم اوصل  
هذا العدد فيما بعد الى اربع عشرة غريزة  
لتنتهى بما يعرف بالثمانية عشر ميلا بطريا  
Propensities ، وهذا التحول في المصطلح  
كان نتيجة للجدل النقدي الطويل الذى شغل  
علماء النفس في العشرينات من هذا القرن .  
ويتعزز ما يعرف بالجدل حول الغريزة في  
عالم النفس « جون واطسون » ، الذى ادرك  
- وغيره من السلوكيين - الخاصة التفسيرية  
الكاذبة لمفهوم الغريزة بعد ما صار من الواضح  
ان الكثير من علماء النفس والانثروبولوجيا  
كان يلجأ الى ابتداع غرائز جديدة في كل مرة  
يحتاجون فيها الى مفهوم تفسيري للظواهرات  
التي يدرسونها ، وقد استبقي ماكدوجل في  
مفهومه عن الميل الفطري Propensity  
concept فقط تلك المكونات الاكثر دينامية

كان المفهوم الاساسى المستخدم في تفسير سلوك  
الحيوان هو « الغريزة » للإشارة الى « القوى  
الدافعة » وكذلك « الميكانزمات المحركة » في  
سلوك الحيوان . وقد صار ايضا مفهوم الغريزة  
بعد نشر نظرية دارون ، شائعا بين علماء  
النفس ، خاصة في الدول الانجلو سكسونية .  
لذا قدم وليم جيمس ، وهو اول عالم نفس  
امريكى ذي شأن كبير ، غرائز متعددة لتفسير  
السلوك الانسانى ، لكن موازية لمفاهيم تفسيرية  
اخرى مثل « العادات » و « الانفعالات »  
و « الإرادة » .

كان وليم ماكدوجل ( ١٩٠٨ ) ، عالم  
النفس الانجليزى - الامريكى ، هو الذى  
اعتبر « الغريزة » على انها مفهوم اساسى في  
تفسير السلوك الانسانى . وجوهر نظريته  
محاولة لاقامة علم النفس استنادا الى مبادئ  
التطور . وفي كتابه « مقدمة في علم النفس  
الاجتماعى » ، الذى كان له تأثير بالغ على  
الفكر السيكلوجى بحيث صدرت منه اكثر  
من ثلاثين طبعة منذ نشره في عام ١٩٠٨ ،  
يعرف « الغريزة » على النحو التالى :

« يمكن ان نعرف الغريزة ، اذن ، على انها  
استعداد نفسي - جسمى موروث او فطري ،  
تهى صاحبها الى ان يدرك وينتبه الى  
موضوعات من فئة معينة ، وان يخبر استثارة  
انفعالية من نوع معين عندما يدرك ذلك الشيء ،  
وان يسلك وفقا لها بطريقة معينة : او ، على  
الاقل : ان يخبر اندفاعا نحو ذلك السلوك »  
( ص ٢٥ )

وفي نظريته عن الفرائز ، يقابل ماكدوجل  
الغريزة بانفعال معين ، مؤكدا بذلك نأثره  
بالتوازية Parallelism كاتجاه مسيطر على  
علماء النفس في هذه المرحلة المبكرة من تاريخه ،  
ومن ثم فهو يربط بين قائمة الفرائز وما يوازيها  
من انفعالات معينة . مثل غريزة المساواة -  
انفعال الغضب ، غريزة حب الاستطلاع -

لمفهومه السابق عن الفريزة ، كما يتضح من التعريف التالي :

« الميل القطري استعداد ، وحدة وظيفية لتنظيم الكلى للعقل . وهو استعداد ، حينما يستثار ، يخلق ميلا نشطا ، سعيا ، اندفاعا ، أو حائزا نحو هدف معين » ( ١٩٣٢ ، ص ١١٨ ) .

ويحدد مصطلح الفريزة فيما بعد على النحو التالي :

« الفريزة هي ذلك الجانب الخاص من تنظيم الكائن الحي ( وحدة وظيفية ) يعبر عن نفسه في تنابع للاداء الفريزي ( ص ٤٩ ) .

بهذا التعريف الاخير للفريزة يكون ماكدوجل اكثر اتفاقا مع استخدام المصطلح لدى علماء الايثولوجيا المحدثين الذين حللوا المفهوم القديم للفريزة ، وهو مفهوم حصري غامض ، الى عناصر متعددة تحمل معانيا محددة اكثر .

يعتبر « ك . لورنز » مؤسس علم « الايثولوجيا » ( Ethology ) ، ( ٣ ) بينما يعتبر « ن . تنبرجن » منظره المنهجي . ويلخص « تنبرجن » نظريته عن الفريزة في هذا التعريف :

« سوف اعرف الفريزة بطريقة اختبارية على انها ميكانيزم عصبى منظم بطريقة متدرجة هرميا ، تستهدف لجوانب معينة مهية

للاستشارة ( Priming ) يطلق ويوجه بالاندفاعات ( impulses ) ذات الاصل الداخلى وكذلك الخارجى ، ويستجيب لهذه الاندفاعات بواسطة حركات متسقة تسهم في بقاء الفرد والنوع ( ١٩٥١ ، ص ١١٢ ) .

يعرف « تنبرجن » الفريزة ، كما يوضح هذا الاشتقاق على انها ميكانيزم ينشط بالاندفاعات التى تعرف في موضع آخر كما يلى :

« يحدد تأثير هذه العوامل الخارجية الدافعية لدى الحيوان ، التنشيط والاستشارة لفرائزه » ( ص ٥٧ ) .

هذا الفارق بين الميكانيزم والدافعية يوجد ايضا في النظريات الاخرى التى نمت في هذا القرن موازية للنظريات « الايثولوجية » .

ورغم ما لنظريات الفرائز من آثار عميقة على علم النفس ، الا ان مصطلح « فريزة » قد استخدم بمعاني مختلفة . فاذا كان التعريف التقليدى للفريزة كنموذج منظم ومركب للسلوك يميز النوع الواحد في موقف معين ، كنموذج غير متعلم ، وغير من بدرجة او باخرى ، فان الفرائز المحددة على هذا النحو غير موجودة بين الكائنات الانسانية ، ولم تتضح اى فريزة علميا . ففى الكائنات الانسانية تتأثر كل النماذج المركبة للسلوك بالتعلم ، بل حتى لدى الحيوانات الدنيا ، بتأثر النشاط الفريزي بالبيئة .

( ٢ ) يشيع تعديد « الايثولوجية » على اساس وصف « فريلانك »

Verplank, W.S. (1957) Aglossary of some terms used in the objective science of behavior. Psychol. Rev. 64, No. 6, Part 2, pp. 1-42.

للعلم السلوكية الموضوعية ، التى يحدد فيها العالم الايثولوجي على انه « .. عالم سلوكي يلقى تدريبه في علم الحيوانات ، ويدرس عادة سلوك الحشرات والاسماك والطيور اكثر غالبا مما يدرس الثدييات والمجموعات الاخرى ... انه دارس للسلوك المقارن .. عالم سلوكي يحب حيواناته » ( ص ١٤ ) . اما السلوكى فهو : « ذلك العالم الذى يبحث في سلوك الحيوانات بطريقة موضوعية والذى يحاول ربط ملاحظاته معا في نظام نظرى لا يتضمن مفاهيم مستعارة من الاستبطان والفلسفة العقلية » ( ص ٦ ) .

١٩٤٠) الذين وجدوا ، بعد قطع الاعصاب من المعدة الى المخ ، ان مفحوصيهم كانوا يستجيبون كما لو كانوا في حالة من الجوع . اى ان الانقباضات المعدية ليست حدثا داخليا ضروريا لدافع الجوع ، لكنها أحد المتغيرات المعدية التي عادة ما تتضافر لاحداث الجوع .

**وتوضح البيئة التجريبية أن تأثيرات الجوع على السلوك تتغير مع الخبرة بدرجة كبيرة .** ولذا ، حينما اخضعت الفيران لجدول منظم من الحرمان مع اطعامها في نهاية كل فترة من الحرمان ، وجد أنها - بعد عدة مرات قليلة - اخذت تتناول كمية ثابتة من الطعام في كل مرة ، بدلا من التهام اكبر قدر ممكن من الطعام وتبين احد هذه البحوث ( لاورنس : ماسون ، ١٩٥٥ ) انه اذا ارتبطت فترة الاطعام التجريبية مع الفترة المعتادة لتناول الطعام ، فان الحيوانات سوف تاكل اكثر مما لو كان الاطعام غير مرتبطا بالفترات المنتظمة لتناول الطعام .

وهكذا ، توضح حقائق علم النفس الفسيولوجى Psychophysiology والمقارن Comparative Psychology ، ابتداء من دراسات بافلوف الشهيرة ودراسات التعلم الحيوانى . ان الكثير من جوانب السلوك التي تبدو انها تعتمد على الجوع البيولوجى يمكن ان تستمدى بالثيرات الخارجية المرتبطة بالهدف فبعض هذه الجوانب فطرى ، وراثى ، بيولوجى والاخر متعلم ، وكثيرا ما تتداخل في علاقات متشابكة مع نظام الدوافع .

وبالنسبة للانسان ، ثمة فارق كبير بين وجهة النظر التي تذهب الى ان الحاجات الاجتماعية لدى الانسان ، وكذلك حاجاته الجسمية ، جزء من الطبيعة الوراثية للنوع الانسانى ، ووجهة النظر التي تذهب الى ان الحاجات الاجتماعية متعلمة من الثقافة التي نشأ فيها وانه حتى اشباع حاجاته الجسمية

وتوازي نظام الفرائز عند ماكدوجل مع نظام للعواطف ينطوى على اثر الخبرة والتعلم على السلوك الغريزى ، وان كان ماكدوجل لم يتنبه الى ذلك . يطلق « ج . ميرفى » ( ١٩٤٧ ) على ذلك عملية الجدولة canalization

فالدوافع الاساسية لا تتبدى بنمط غريزى محض ، ولكن مختلطة ومتداخلة مع التجربة والتعلم . واذا اغفل ما كدوجل ما تتصف به الدوافع وما يعتريها من تبدل وتحول ، عنى فرويد بهذا الجانب المميز للدافعية لينتهى الى ان علم النفس مطالب ، ليس برصد الافعال الى مصادرها الغريزية ، وانما بالكشف عن هذه التفسيرية في الحالات الدافعية .

فما جرى من اعتباره سلوكا قائما على الغريزة والفترة والتكوين البيولوجى للنوع ، لم يكن منعزلا عن آثار الخبرة والتعلم . وتلك حقيقة ايدتها دراسات متعددة .

مثال ذلك ، في حالة حرمان الكائن الحى من الطعام لفترة طويلة ، تحدث عدة تغيرات جسمية :

( ١ ) انقباضات معدية .

( ٢ ) تناقص معدل السكر في الدم .

( ٣ ) تزايد نشاط الجهاز العصبى المركزى ويشيع الاعتقاد خطأ بان الجوع يتسبب عن الانقباضات المعدية . لكن يصف بعض الباحثين مريضا خضع لعملية استئصال للمعدة gastrectomy ، الا انه كان يقرر بعدها انه يشعر كالعادة باحساسات الجوع (وانجنستين) كارسلون ، ١٩٣١ ) . واستجابت الفيران ، التي تعرضت لاستئصال المعدة ، للحرمان من الطعام بنفس « سلوك الجوع » مثل فيران المجموعة الضابطة التي لم تخضع للاستئصال ( تسانيج ، ١٩٣٨ ) . هذه النتائج قد ابدتها بحوث ( باش ، ١٩٣٩ ، مورجان ومورجان ،

يتأثر بثقافته بدرجة واضحة. ولعل الدراسات **الإنثروبولوجية** قد أوضحت أن ما يقرره بعض العلماء من وجود غرائز معينة لا توجد في بيئات أخرى كالثقافات البدائية مثلا، ومن ثم لا يوجد اتفاق على نوع الغرائز وعددها، وبالتالي يبدي بعض الباحثين ميلا إلى رفض نظرية الغرائز.

ويفضل بعض العلماء المحدثين عدم نبذ مفهوم الغريزة، بل أن يعدلوا من التعريف. فعلى سبيل المثال، يذهب «إرنك» إلى ما يسميه بـ «الحاجات المتفرزة»

Instinctoid needs، وهي حاجات ذات أساس غريزي، ولكن الطريقة التي تشبع بها تعتمد على التعلم بدرجة كبيرة.

في الحقيقة، بدلا من تغيير تعريف الغريزة وإضافة مزيد من الالتباس إلى هذا المفهوم النظري، من الأفضل نبذ هذا المصطلح كما يتعلق بالسلوك الإنساني. فالتفكير في ضوء هذه «الثنائية» بين الغريزة والتعلم يؤدي بنا إلى نفس المنعطف المفلق الذي أعاق التقدم لفترة طويلة في قضية الوراثة - البيئة بالنسبة للدكاء.

ولعل من الأجدي أن يكون تفكيرنا في ضوء التركيب الوراثي للكائن الحي في تفاعله مع بيئته وثقافته. وهنا تؤكد الأهمية البالغة لطبيعة التركيب الوراثي. فالقطة، مثلا، ترث نوع التركيب الذي يهيئها لمناشط معينة وفي نفس الوقت يحدد ما تستطيع أن تفعله (أن تمسك الفأر، وتسلق الشجرة، لكنها لا تستطيع أن تتكلم أو تقرأ كتابا). والكائنات الإنسانية ترث نوع التركيب الذي يمكنها من أن تمشي، ومن أن تسوق السيارة، ومن أن تتعامل بالآخرين عن طريق الرموز والكلمات

والمعاني، ومن أن تخطط للمستقبل. لكنها لا تستطيع أن تنمو طولا إلى خمسين قدما، أو أن تعيش على الحشائش، أو أن تحل المشكلات التي تتعدى حدودها.

فسلوك الكائنات الحية يتحدد بطبيعة التركيب الوراثي والبيئة التي تعيش فيها. ومن ثم، فإن وصف ذلك السلوك على أنه سلوك غريزي أو متفرز يعتبر تبسيطا زائدا.

• • •

في الوقت الذي خرج فيه ماكدوجل بنظرية الغرائز، ظهر اتجاهان آخران في علم النفس، تأثرا بدارون أكثر من تأثرهما بفونت. ويمثل هذان الاتجاهان النموذجين لنظامين جديدين في علم النفس:

(١) سيكولوجية التعلم أو ال (Manthanology: {)، وهو المنحى البيولوجي (Biotropic) لعلم النفس الدافعي الذي جرى داخل علم النفس الفسيولوجي وسيكولوجية التعلم.

(٢) سيكولوجية الشخصية أو «علم الشخصية» (Personology) (٥). وهو المنحى الاجتماعي (Sociotropic) لعلم النفس الدافعي الذي جرى داخل سيكولوجية الشخصية. وما حدث بين هذين المنحيين من تفاعل يتضح من شكل (١).

ولا يزال علم النفس الدافعي يرتبط بقوة بهذين الميدانين. كما أن الكثير من التصورات والفروض المعاصرة عن الدافعية يمكن فهمها

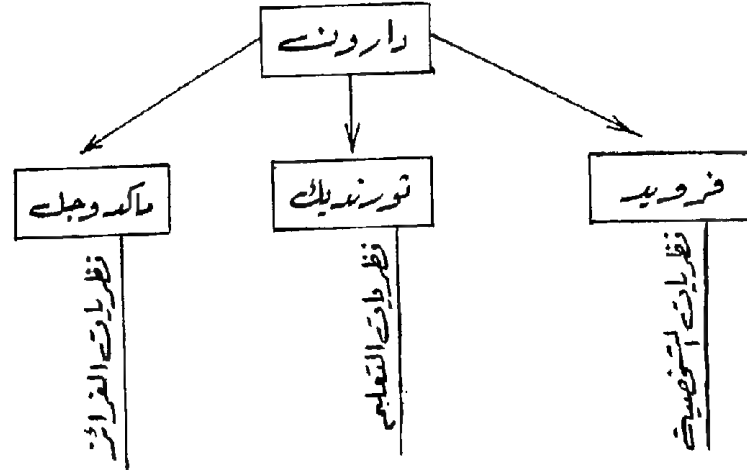
(١) هذا المصطلح مأخوذ عن اقتراح قدمه «كلايد نوبل»

(Clyde E. Noble), Contemporary Psychology, 1968, 13, p. 10.

(٥) مصطلح اقترحه «ه. موراي» (١٩٢٨).



شكل ( ١ )



سوف ترتبط بدرجة اوفق بالموقف ، بحيث انها حينما تعاود الوقوع ، تكون اكثر احتمالا للوقوع ، اما تلك التي تصاحب او تتبع بعدم ارتياح للحيوان ، مع بقاء الاشياء الاخرى متعادلة ، تضعف روابطها بالموقف ، بحيث انها حينما تعاود الوقوع ، تكون اقل احتمالا للوقوع . فيقدر ما يكون الارضاء او عدم الارتياح ، تكون قوة او ضعف الرابطة » ( ١٨٩٨ ، ١٩١١ ) .

وقد جعل « قانون الاثر » هذا من التدييم الموضوع الرئيسي في سيكولوجية التعلم لثنى قرن . بتقديم مفاهيم « الارضاء » او « الاشباع » Satisfaction « وعدم الارتياح » discomfort كمدعمات ايجابية وسلبية ، جعل ثورنديك من المتغيرات الدافعية العوامل الاكثر اهمية في سيكولوجية التعلم . مثلما صار خفض الدافعية (الارضاء) وعدم الخفض للدافعية (عدم الارتياح) الشروط الاكثر اهمية للتعلم ( خاصة في اعمال ثورنديك بعد عام ١٩٢٩ ) .

فحسب ارتباطا بهذه الحلفية التاريخية ، كما يتضح من شكل (١) :

#### المنحى البيولوجى لعلم النفس الدافعى : سيكولوجية التعلم وعلم النفس الفسيولوجى :

بتأثير الدارونية نما الاهتمام بالتعلم الحيوانى فى اواخر القرن التاسع عشر . ومن بين من استلهم بنظرية التطور عالم النفس الأمريكى « ادوارد لى ثورنديك » ، الذى كان الرائد العظيم فى خلق علم نفس تجريبى للتعلم . فى عام ١٨٩٨ نشر تجاربه المشهورة على القطط فى صندوق - متاهة ، ووصف التعلم « كمحاولة وخطا » او « تعلم انتقايا » (Selective Learning) ولكى يفسر اتعلم اقترح عدة قوانين ، من بينها القانون المشهور المعروف بـ « قانون الاثر » :

« من بين الاستجابات العديدة لنفس الموقف فان تلك التى تصاحب او تتبع تماما بارضاء للحيوان ، مع بقاء الاشياء الاخرى متعادلة .

وقد استخدم ثورنديك المصطلح الشائع « الغريزة » كدلالة على المتغير الدافعي الاساسى لكن حينما احتدم « الجدل حول الغريزة » استبدل مصطلح « غريزة » في نظريات التعلم بمصطلحات اخرى للمتغيرات الدافعية الاولى مثل « الحوافز » ، « الحاجات » ، « المطالب » وغير ذلك .

وقد كان « وودورث » ( ١٩١٨ ) هو الذى قدم مصطلح « حافز » ( drive ) لتعيين المتغير الدينامى الذى يحرك او ينشط ميكانزمات السلوك لكن اعظم ادخال للمتغيرات الدافعية فى سيكولوجية التعلم كان على يد « ادوارد تولمان » . لقد قدم كتابه الدائع الصيت « السلوك الفرضى لدى الحيوانات والانسان » ( ١٩٣٢ ) المتغيرات الدافعية كالحوافز والمطالب على انها اكثر المحددات السلوكية او المتغيرات الوسيطة أهمية جنباً الى جنب مع المتغيرات المعرفية : « استعداد الفأية - الوسيطة » ( means and-readiness ) و « التوقعات » ( expectations ) . لم يكن

تولمان صاحب نظرية فى التدعيم ، لكن الدافعية بالنسبة له ، لعبت دوراً هاماً كمحدد للاداء ، الذى يرشد او يوجه ايجابياً بالمحددات المعرفية .

لم يهتم تولمان ابداً بالنمو الشكلى لنظريته ، وعمد الى تغيير مصطلحاته خلال سنوات بحثه فاذ بدأ بـ « المطالب » و « الحوافز » ، تحول الى « الحاجة » ليعود فى النهاية الى « الحافز » (٦)

الان تولمان قد اثر فى المنظر الفلد لسيكولوجية التعلم : « كلارك هل » ، الذى تمثل اعماله الرئيسية ( ١٩٤٣ ، ١٩٥٢ ) اعظم نظرية متطورة فى السلوك ، فى هذين الكتابين ( ١٩٤٣ ، ١٩٥٢ ) طور هل قانون الاثر عند ثورنديك

الى نظرية للتدعيم ، منظمة ومحكمة . وقد استبدل فى هذه النظرية ، « الارضاء » عند ثورنديك بـ « اختزال الحاجة » وفيما بعد بـ « اختزال الحافز » وحدد المصطلحين الدافعيين الهامين ، « الحاجة » و « الحافز » ، على النحو التالى :

« حينما ينشأ موقف يكون فيه الاداء من جانب الكائن الحي لازماً للاحتماالية الأمل للبقاء سواء بالنسبة للفرد او النوع ، يقال انه توجد حالة حاجة . ولما كانت الحاجة ، سواء فعلية أم كامنة ، عادة ما تسبق وتصحاح اداء الكائن الحي ، غالباً ما يقال ان الحاجة تدفع او تحفز النشاط المرتبط . وبسبب هذه الخاصية الدافعية للحاجات ، فانها تعتبر كمنتجة لحوافز حيوانية اولية » .

« ومن الاهمية بمكان ان نلاحظ فى هذا الصدد ان المفهوم العام للحافز يميل بقوة الى ان يكون له الوضع المنظم لتغير وسيط او (X)، لا يمكن ملاحظته ابداً بطريقة مباشرة » ( هل ١٩٤٣ ، ص ٥٧ ) .

« الحاجة » ، اذن ، متغير مستقل يحدد المتغير الوسيط « الحافز » « ف » ، الذى بدوره يتحد مع متغيرات وسيطة أخرى فى تحديد السلوك .

ومن بين المتغيرات الوسيطة الاكثر أهمية ، بالاضافة الى الحافز (D) متغير دافعية - الباعث incentive - motivation variable (K) الذى يتحدد بمقدار ونوعية الاثابة وقوة العادة M ع س . وهذه المتغيرات الوسيطة تتحد بطريقة تضعيفية فى جهد استدعاء رد الفعل reaction evocation-potential (sEr) السلوك = دالة (sEr) = دالة (Dx K x sHr)

(٦) ارجع الى الاعمال الرئيسية لتولمان ( ١٩٤٢ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٩ ) .

للتعلم ( يمكن تطبيقه على الحافز ، ثانياً ، « ان الميكانيزم الاساسي للدافعية ( الاستثارة : القوة ) واحد بالنسبة للحوافز الاولى والمتعلمة ، وان الميكانيزم الاساسي للتدعيم ( خفض في الاستثارة القوة ) واحد بالنسبة للاثابات الاولى والمتعلمة » ( ميلر ، ١٩٥٩ ، ص ٤٤٠ ) . وقد قام « ميلر » بتجارب هامة كثيرة عن الدافعية والتعلم .

وقدم « ماور » ، بالتعاون مع ميلر ، مفهوم « الخوف » كحافز مكتسب ، الذي قد يعتبر الاساس لكثير من الحوافز المكتسبة الاخرى ( ماور ، ١٩٥٠ ) . وبمثل هذا المفهوم الاساس لما اضطلعنا به من تجارب . وقد غير « ماور » في سياق تطور تجاربه نظريته من « نظرية التدعيم ذات العامل الواحد » One-factor reinforcement theory

الى ما يعرف « بنظرية العاملين » two-factor-theory التي عدلها مرة أخرى فيما بعد ، بحيث أصبحت في الواقع هي نظرية العامل الواحد ، تقوم على « التجاور » (contiguity) على انه العامل الاساسي في التعلم - وهي بالتالي لا تختلف كثيراً عن نظرية سبنس . وربما يمكن الاختلاف في ان المتغير الدافعي الاساسي هو دافعية « الباعث » في نظرية سبنس ، و « الخوف » في نظرية ماور .

اما « براون » ( ١٩٦١ ) فقد بلور نظرية الدافعية الراسخة في النظرية السلوكية العامة عند هل . وجعل من الواضح ان المتغير البالغ الاعمية ( « الحافز » ) هو متغير وسيط ، تنشيطي (activating) عام ، لا توجيهي (non-directing) ، ويعبر هذا بوضوح مفهوم الحافز عند هل وبراون عن مفاهيم الحافز الاخرى ( مثل مفاهيم تولان وفرويد ) ، وبالإضافة الى ذلك ، اتى براون بنظرية أكثر وضوحاً واتساقاً وقابلية للتحقيق

لقد اثرت نظرية هل بعمق في تطور نظرية التعلم . « فبين نظريات التعلم المعاصرة يسمح بناء هل مهيباً بروعة بنباته ، جميلاً بتناسب اجزائه ، فريداً في تناسق تفاصيله ( سيد عثمان ١٩٧٤ ) . فمن بين زملائه وتلاميذه النجباء كان : « ك . سبنس » ، « ن . ميلر » « ماور » ، « ج . براون » .

يتمثل اسهام « سبنس » في نمو مفهوم « الباعث » (incentive) بين المتغيرات الدافعية . لقد غير مفهومه من نظرية تدعيم خفض الحافز

drive - reduction - reinforcement theory

الى ما يعرف بقانون الاثر التجريبي

Empirical Law of Effect

، الذي فيه تلعب الدافعية وخفض الدافعية فحسب دوراً في الاداء ، بينما يفهم التعلم على انه تشريط كلاسيكي يتبع « مبدأ التجاور » Contiguity principle ( ١٩٥٦ ، ١٩٦٠ ) .

ام « ميلر » ، بالتعاون مع « دولا رد » ، فقد طبق شكلاً مبسطاً لنظرية هل على التعلم الاجتماعي ( ميلر ، دولا رد ، ١٩٤١ ) وعلى نظرية الشخصية والعلاج النفسي ( دولا رد ، ميلر ، ١٩٥٠ ) وبجانب ذلك ، طور نظرية شكلية عن السلوك الصراعي ( ميلر ، ١٩٥٩ ) ، واكثر المفاهيم اهمية في نظرية ميلر : « الحافز » ، « الامارة » cue ، « الاثابة » ، « الاستجابة » .

يتحدد الحافز على انه « مشير قوى » : ولكل مشير قوى « وظيفة الحافز » drive - function تستثير الاستجابات وتنشطها . وبالإضافة الى ذلك ، يمكن ان يكون للمثيرات « وظيفة الامارة » cue-function

التي توجه السلوك . اما « الاثابة » فهي ذلك الشيء الذي ينتج « خفض الحافز » ، الذي بدوره يدعم الاستجابات للمشير . وتعريف الحافز كنوع من المثير ينطوي على مزايا كثيرة : اولاً ، ان قانون التعميم ( والقوانين الاخرى

التجريبي ( الامبيرقي ) عن «الدافعية الثانية»

Secondary motivation

فليس ثمة « حوافز » مكتسبة او متعلمة ولكن هناك « مصادر متعلمة »

learned sources الحافز ، التي كلها -

بنفس الطريقة مثل المصادر الاولية

Primary sources ( الحاجات ) - تحدد الحافز

العام ذاته او تؤثر فيه . ويشير براون ، مثل ماورر وميلر ، الى الخوف على أنه الاساس

لكل « الانساق الدافعية الثانوية »

secondary motivational systems ( ١٩٦٨ ) .

علاوة على ذلك ، يتقبل براون امكانية توحيد « الحافز » مع « الاستثارة » في « المنظومة

الاستثنائية الشبكية »

reticular arousal system (RAS)

بهذا التفسير الفسيولوجي للحافز نلتئم خطأ آخر للنمو في سيكولوجية التعلم . فاذا تتبعنا الخط الاساسي اعتبارا من ثورنديك ، هناك اتجاه مواز هام آخر يبدأ مع بافلوف .

ولعل من المعروف ان نظام بافلوف لا يتضمن اية مفاهيم دافعية في نظريته الاصلية كما قدمها في عام ١٩٢٧ . وربما يعزى ذلك الى انه قد أجرى تجاربه على الحيوانات في ظل شروط اكثر سلبية وتقييدا . فبدون قيام الحيوانات بأفعال حرة ، ليس ثمة حاجة لتفسير تنشيطي في النظرية . لكن هذا يمثل بالطبع تفسيراً سطحياً لأعمال بافلوف . فاذا تفحصنا نظريته بدقة نجد ان عملية التشريط وسلوك الحيوان في الموقف التجريبي يحددهما تفاعل دينامي معقد بين عمليتين اساسيتين : « الاستثارة » و « الكف » . وبين هاتين العمليتين ، تعتبر « الاستثارة » على الاقل عمية تنشيطية ، تحريكية . وبالتالي متغيراً دافعيًا بالمعنى التقليدي للدافعية . وبالإضافة الى ذلك تدخل الدافعية في المثير غير الشرطي الذي يدعم الاقتران الشرطي اذا تبع المثير الشرطي .

وغالبا ما يرتبط المثير غير الشرطي بشيء ما ، هو . وفقا لنظام هل ، اما خفض الحافز drive-reducing ( مثل الطعام )

او استدعاء الحافز drive-inducing

( مثل الصدمة الكهربائية ) . وفوق ذلك ، يشير بافلوف الى ما يعرف بـ « الفعل المنعكس

الانتظامي » Orienting Reflex (OR)

كعامل حاسم في تكوين اي رد فعل شرطي Conditioned Reaction (CR)

وقد خضعت مشكلات « الفعل المنعكس الانتظامي » ( ع ظ ) والنشاط الانتظامي «نظ»

Orienting activity (OA) لفيض من

الدراسات المتعمقة : الفسيولوجية والنفسية وفي الحالات السوية والمرضية في الاتحاد

السوفييتي في الثلاثين سنة الاخيرة ( ب .

انوخين ، ١٩٥٨ ، ش . سوكولوف ، ١٩٥٨ ،

١٩٥٩ ، ١٩٦٤ ، ١٩٧٠ ، فنوجرادوفسكا ،

١٩٦١ ، الخ ) .

والفعل المنعكس الانتظامي ( ع ظ ) . ونقا

لهذه الدراسات ، هو استجابة الكائن الحي الى ظهور مشيرات جديدة او الى اي تغيير في الوسط المحيط ( اطلق عليه بافلوف كذلك الفعل

المنعكس الاستقصائي exploratory reflex ، ويمثل الفعل المنعكس الانتظامي

استجابة مركبة تسهم فيها تقريبا كل منظومات الاورجائزم : يدخل فيها استجابات

حركية ( مثلا ، حركة الجسم والراس والعين في اتجاه المثير ) ، حشوية ( تغير دفع الدم في

اجزاء الجسم ، تغير النبض والتنفس ) ، بيوكهرية ( تغير تيارات الاداء ، الفعل المنعكس

الجلفاني - الجلدي Skin - Galvanic Reflex

وكذلك التغيرات في بنية المحلات Analyzers

وفي استثنائية أعضاء الاستقبال الحسي receptors

ويتموضع التركيب الفسيولوجي - العصبي للفعل المنعكس الانتظامي في المنظومات للحالية

وتحت للحالية cortical, subcortical systems

خاص للدافعية . حيث سلم بأن الدماغ يكون دائما نشطا . وليس نمة حاجة الى مفاهيم خاصة لتفسير تنشيط السلوك واستثارته . بل تكون الحاجة فقط الى مفاهيم عن توجيهية وتنظيمية السلوك . الذي يتحدد بما يعرف بتجمعات الخلايا cell-assemblies

وتتابعات الاطوار Phases - sequences

وقد غير « هب » فيما بعد من نظريته عن الدافعية واكد على دور « المنظومة الاستشارية الشبكية » في الدافعية . وقد احكم « هب » نظريته بانقائا اكثر في مقال ( ١٩٥٩ ) ، وفي مرجع ( ١٩٦٦ ) . وعلاوة على برلاين ، اثر هب كذلك في « جيمس اولدز » ( ١٩٥٦ ) الذي برز في تجارب الاستشارة داخل الجمجمة

( intracranial stimulation ) ( ٨ ) ، انني

اكتشف فيها الوظيفة التدمجية الحاجز septum

واهمية دور « المنظومة الاستشارية الشبكية » بالنسبة للسلوك عامة والدافعية خاصة قد اقراها العلماء منذ ان اكتشف الفسيولوجيان « موروزي » و « ماجون » وظيفة هذه المنظومة . كما قدمها لاول مرة في عام ( ١٩٤٩ ) . وبرزها « ماجون » على نحو

( وخاصة التكوين الشبكي reticular formation ) الذي يباشر تأثيرا تنشيطيا على لحاء المخ ) . ولتعمل المنعكس الانتظامي اهمية بالغة الحيوية : فهو يضمن الشروط الامثل للادراك والتحليل الاولي للمثيرات الجديدة ، وكذلك استعداد الاورجانزم للاستجابة لها ( ٧ )

وقد ادى منطق نمو البحث الرصين في هذا الصدد الى علماء النفس في الشرق والغرب الى نتائج متقاربة . فهناك تشابه كبير بين نظريتي العالم السوفيتي « ي . سوكولوف » والعالم الكندي « د . برلاين » ( ١٩٦٠ ، ١٩٦٧ ) ، حيث يؤكد كلاهما على دور « المنظومة الاستشارية الشبكية » ( RAS ) في السلوك الاستقصائي .

تأثر « برلاين » بالعلماء السوفيت وبجان بياجيه الذي عمل معه ، وخاصة بدونالد هب . يعزى الى « هب » صيغة خاصة ، في عمله الرئيسي ( ١٩٤٩ ) ، وصل علم النفس الغربي بالتقليد البافلوفي الاصلي ، كما ينسب اليه الفضل في بحث نهضة في التنظير الفسيولوجي في ميدان علم النفس . لقد كشف « هب » في الطبعة الاولى لنظريته ( ١٩٤٩ ) ، عن تصور

( ٧ ) تمثل الدراسات السوفيتية في الفعل المنعكس الانتظامي « ع ظ » والنشاط الانتظامي « ن ظ » اسهامات مهمة في الفكر السيكلولوجي العالمي المعاصر . وهي تختلف مكانا بارزا كاتجاه مسيطر على كثير من البحوث النفسية السوفيتية ، وبخاصة في كلية علم النفس بجامعة موسكو ، ورائدها « يوجين سوكولوف » ، « الكسمندر لوبيا » ، « اولجا فينوجرادوفا » وغيرهم . نظمت « جامعة موسكو - كلية علم النفس » بالاشتراك مع « اكااديمية العلوم السوفيتية » سلسلة من البحوث ظهرت في مجلد بعنوان Orienting Reflex and Explorator Behavior في عام ١٩٥٨ ، وتوهم الى الانجليزية في عام ١٩٦٥ تحت اشراف ( L. Voronin ) ، ويتضمن ٨ دراسة في هذا الصدد . كما اجري العديد من البحوث ( ٢٨ بحثا ) تحت اشراف « سوكولوف » و « فينوجرادوفا » ظهرت في عام ١٩٧٠ ( بالروسية ) تحت عنوان

( E. Sokolov, O. Vinogradova (pds.) è Neuronal mechanisms of orienting reflex, Moscow Univ. 1970;

وبحوث فيها ( ٢٤ بحثا ) تحت اشراف « سوكولوف » قدمت امام مؤتمر ( ١٩٦٩ ) عن « الميكاتومات الثيرونية للتعلم » ، نظمه قسم علم النفس العصبي والسيكولوجي بكلية علم النفس - جامعة موسكو وقسم فسيولوجيا النشاط العصبي الراقي باكااديمية العلوم الطبية بموسكو ، ونشرت في كتاب ( بالروسية ) تحت عنوان ( E. Sokolov (pd.) : Neuronal mechanisms of learning, Moscow Univ., 1970).

( ٨ ) : علم الجماجم craniology

التعلم الحديثة ، ولاقى نظامه القائم على التجريب تطبيقاً على مشكلات عامة ( ١٩٥٣ ) . فقد طبقت نتائج بحوثه على العلاج السلوكي وخاصة على التدريس ( ١٩٦٨ ) . ومن الانتقادات الممنوعة لاتجاه سكرت المعادي للنظرية antitheoretical orientation

تلك التي قدمها « ن. ميلر » ( ١٩٥٩ ) ، الذي أشار الى الفائدة « الاقتصادية » لادخال متغيرات وسيطة في تلك الحالات التي يكون فيها أكثر من متغيرين مستقلين وتابعين خاضعين للملاحظة في تجربة .

ومما يجدر الإشارة اليه هنا ، أحد الرواد المبرزين في علم النفس الدافعي ، « يول توماس يونج » ، الذي يعتبر اتجاهه أقرب الى سيكولوجية التعلم والاتجاه السيكونسيولوجي في الدافعية منه الى سيكولوجية الشخصية . اضطلع يونج بتجارب كثيرة على الحيوانات عن مشكلات تفضيل الطعام . وقد بنى ، استناداً الى هذه التجارب ، نظرية وجدانية (hedonistic) (٩) موضوعية للدافعية ، تتمثل مسلمتها الاساسية في ان البواعث (مثل الطعام) تحدد الاستثارة الوجدانية affective arousal وهذه العملية تحدد السلوك وتؤثر في التعلم . ولا يفصل يونج المصادر الاخرى للدافعية (مثل الحاجات ومثيرات النفور) ، لكنه يؤكد ان الانفعالات الوجدانية الايجابية positive - hedonic affects

قد اغفلها علم نفس الدافعية التجريبي الحديث وقد نظم يونج ( ١٩٦١ ) كل نتائج البحوث في علم النفس الدافعي الحديث في نظامه الوصفي او اطاره المرجعي ، الذي يعرف بالاتجاه «متعدد المنظور» multi-perspective او «الاتجاهي» attitudinal ، او «النسبي» relativistic ، هذا النظام ، الذي يبعث

محكم في عام ( ١٩٥٤ ) ، وقد يسر هذا الاكتشاف عمل علماء النفس في هذا الصدد ، خاصة في اعمال « دونالد لندزى » ( ١٩٥٧ ) . وتكامل دور « المنظومة الاستثنائية الشبكية » في نظرية الدافعية عند « اليزابيث دوفي » ( ١٩٦٢ ) التي أكدت ، كما شاع في الثلاثينات ، دور مفهومين اساسيين في وصف السلوك وتفسيره : « التنشيط » (Activation) و « التوجيه » (direction) . وغني عن القول ، انه قبل اخضاع هذه الوظيفة الدافعية للمنظومة الاستثنائية الشبكية للبحث ، ساد الافتراض بأنها نتيجة نشاط الجهاز العصبي التلقائي alitonic nervous system ، الذي يعتبر الان نظاماً جانبياً وثانوي الأهمية مقارنة بالمنظومة الاستثنائية الشبكية .

وأهمية دور المنظومة الاستثنائية الشبكية قد تأكدت ، بالإضافة الى ذلك ، في نظرية « دالبير بندرا » ( ١٩٥٩ ) الذي يقرر انه قام بالجمع بين اتجاهي « هب » و « سكرت » .

لعل ارجاء الإشارة الى « ب. سكتو » من قبل يعزى الى ان نظريته - او بعبارة ادق ، نظامه الوصفي - لا يتضمن اية مصطلحات تفسيرية تشير الى متغيرات وسيطة او تكوينات فرضية . ومن ثم ، لا يتضمن نظام سكرت اية متغيرات دافعية بالمعنى التقليدي - حتى اقل من بافلوف . لكن سكرت يستخدم مصطلحات لمتغيرات مستقلة امبيريقية ، ترتبط بالمتغيرات الدافعية . وأكثر هذه المتغيرات المرتبطة بالدافعية أهمية في نظام سكرت : « الحرمان » و « التدعيم » . يحدد الحرمان الدرجة العامة للتنشيط ، بينما يحدد التدعيم « قوة الاستجابة » او احتمالية حدوث الاستجابة . ويرفع سكرت في الوقت الحاضر على موقع من اكثر المواقع تأثيراً في سيكولوجية

(٩) Hedonism : فلسفة اللذة ، مؤداها ان غاية الحياة سعى الانسان الى اللذة وتجنب الألم .

مثل جهد *impetus* . هدفه : موضوعه ،  
مصدره .

« نعى بجهد الفريزة منصرها الحركى ،  
مقدار القوة او الطلب على الطاقة التى تمثلها .  
وهدف الفريزة هو فى كل حالة الاشباع ،  
الذى يمكن الحصول عليه بإبطال حالة الاستشارة  
فى مصدر الفريزة . أما موضوع الفريزة فهو  
ما يمكن ان يتحقق فيه او من خلاله هدفها .  
انه الشئ الأكثر تغيرا بالنسبة للفريزة ولا  
يرتبط بها فى الأصل ، ولكنه يصير متعلقا بها  
فحسب بسبب ملاءمته خاصة لتوفير الاشباع  
ويعنى مصدر الفريزة تلك العملية الجسمية  
فى عضو او جزء من الجسم ينشأ منه مثير  
يتصل فى الحياة العقلية بفريزة من القرائن  
( فرويد ، ١٩١٥ ) .

بعد ان قدم فرويد هذه المسلمات والتعريفات  
الاساسية ، مضى الى مناقشة المشكلات الهامة  
المتعلقة بعدد وانواع الحوافز الفريزية :

« اقترح انه يمكن تمييز مجموعتين من هذه  
الغرائز الاولى ، غرائز حفظ الذات او غرائز  
الآنا ، والغرائز الجنسية . لكن ليس لهذا  
الاقتراح ثقل المسئلة الضرورية ، مثل افتراضنا  
« للفرض » البيولوجى فى الجهاز العقلى ،  
انه مجرد تكوين مساعد تعتمد عليه فقط طالما  
يثبت فائدة ، ولن يكون هناك الا فارق ضئيل  
فى نتائج عملنا للوصف والتصنيف او استبدالنا  
بتكوين آخر » ( فرويد ، ١٩١٥ ) .

لقد غير فرويد تصنيفه للحوافز الفريزية  
مرتين : من الحافزين الفريزين المذكورين الى  
حافز غريوى واحد ( الطاقة الجنسية  
« الليبيدو » ) ، ثم مرة اخرى الى اثنين :  
غريزة الحياة ( الايروس Bros ) وغريزة الموت

على الاثارة والالهام فى هذا الميدان : هو صيغة  
حديثه لأعماله الفذة المبكرة ( ١٩٣٦ ، ١٩٤٣ )

### النحى الاجتماعى لعلم النفس الدافى ، ديناميات الشخصية :

فى نفس الوقت الذى ابتدع فيه بافلوف  
وثورنديك وماكدوجل نظرياتهم ، كان  
« سيجموند فرويد » يرسى اساس التحليل  
النفسى . لقد كتب ، بعد ان حاول بناء نظرية  
فسيولوجية ( ١٨٩٦ ) ، عمله الرئيسى الاول  
عن الاحلام ( ١٩٠٠ ) . وقد كانت نظرياته ،  
منذ البداية ، دينامية من حيث انها قد ركزت  
على « الطاقات » و « القوى » النفسية ،  
و « الصراعات النفسية الداخلية » كمحددات  
للسلوك السوى والمرضى . الا ان فرويد قدم  
اول صياغة منظمة لنظرية الدافعية فى عام  
١٩١٥ ، حيث حدد متغيره الدافعى الاساسى  
الفريزة ، او بالاحرى الحافز ( ١١٠ ) :

« يمكن ان نخلص الى نتيجة بان الغرائز  
وليست المثيرات الخارجية هى القوى الدافعية  
الحقيقية فى التقدم الذى رفع الجهاز العصبى  
بكل كفايته الهائلة الى مستواه الراقى الحالى  
من النمو . .

« واذا شئنا الان اعتبار الحياة العقلية من  
وجهة نظر بيولوجية ، تبدو « الفريزة » لنا  
كمفهوم محايد بين ما هو عقلى وما هو جسمى  
ليكون كلاهما الممثل العقلى للمثيرات المتولدة  
من داخل الاورجانزم والمنسابة الى العقل ،  
وفى نفس الوقت المقياس للطلب على طاقة  
العقل بسبب اتصاله بالجسم .

« والآن نحن فى موقع لمناقشة مصطلحات  
معينة تستخدم للإشارة الى مفهوم الفريزة ،

( ١٠ ) اشار علماء عديدون الى ان الترجمة الصحيحة للمصطلح الالمانى Trieb ينبغي ان تكون « الحافز » ،  
وليس « الفريزة » كما شاع ترجمتها ويقترح « دابابورت » ( ١٩٦٠ ) تسمية المصطلح الدافعى الفرويدى بـ « الحافز  
الفريوى » Instinctive drive .

( ثاناتوس Thanatos ) . ولنترك تفاصيل  
نظرية فرويد في الدافعية ، حيث يمكن للقارئ  
الرجوع إليها في مصادر عربية عديدة .

لقيت نظرية التحليل النفسي في الدافعية  
تغيراً ونمواً بعد فرويد ، وقد قدم « كينيث  
كولبي » ( ١٩٥٥ ) تحليلاً عميقاً لنظرية التحليل  
النفسي في الدافعية وأبرز أن « الطاقة »  
energy و « البنية » structure هما  
المفهومان الأساسيان والمتناميان في نظرية التحليل  
النفسي في الدافعية ( وربما في أي نظرية ) .  
واقترح « نموذجاً بنيوياً دورياً - دائرياً »  
cyclic - circular structural model

ليحل محل النموذج الثلاثي القديم  
الذي قدمه فرويد : الهى ، الأنا ، الإنا الأعلى .  
أما « دافيد رابابورت » ( ١٩٦٠ ) فقد قدم  
تحليلاً متعمقاً شاملاً لنظرية التحليل النفسي  
في الدافعية ، وفيه أشار إلى الفارق  
بين الأسباب والدافعية ، حيث يعتبر الدافعية  
نوعاً خاصاً من الأسباب . وميز بين « الحوافز  
الغريزية » والأنماط الأخرى للدوافع . وأكد ،  
مثل كولبي ، التفاعل الهام بين الحوافز  
والتركيبات ( ميكانيزمات الدفاع ، وغيرها ) .  
وبالإضافة إلى ذلك ، قدم مقارنات باللغة القيمة  
بين نظرية التحليل النفسي عامة والنظرية  
التطورية عند بياجيه ونظرية التعلم .

ومن النظريات الفلة نظرية « كورت ليفين »  
في الدافعية ، وهي النظرية الوحيدة في الدافعية  
التي ترتبط بعلم النفس التجريبي الكلاسيكي  
بينما كان يدرس ليفين مع « فريدمر » مؤسس  
مدرسة الجشطلت ، وإرافقه كيولروكوفكا ،  
استلهم ليفين الشاب للقيام بأولى أعماله  
التجريبية عن ( الميول المسيطرة ) determining  
tendencies التي اعتبرت بمثابة نقد  
لأعمال « آخ » ( ١٩٠٥ ) التي تناول مشكلة  
الإرادة داخل إطار مرجعي ارتباطي كلاسيكي  
أوضح « ليفين » ( ١٩٢٢ ) أنه توجد ميول  
مسيطرة أخرى بجانب الارتباطات ، وأن هذه

العوامل المسيطرة هي القوى الدافعية الأولية  
بجانب « الميكانيزمات الارتباطية » . وقد واصل  
ليفين مع زملائه تجاربه وتحليله التصوري  
للميول المسيطرة ، أو « الحاجات »  
( Bedürfnis ) كما سماها فيما بعد ( ١٩٢٨ )  
لم يكن ليفين هكذا مهتماً بالحاجات البيولوجية  
بقدر ما كان مهتماً بأشياء الحاجات - quasi  
needs ، التي هي ميول محتملة بالقرارات  
( Vorsatz ) والحالات الأخرى ( Einstellungen )  
لقد أحكم ليفين وزملاؤه باتقان نظرية  
عن الدافعية الإنسانية ( كما تتمايز عن نظرية  
الدافعية الحيوانية التي أحكمتها نظريات  
التعلم ) . وقد طوقت أعماله تلك المشكلات  
الكلاسيكية مثل « مستوى الطموح » ، « النشاط  
البديل » ، « استدعاء الاداءات المبتورة »  
( ظاهرة زيغارنك ) ، وغيرها . وقد ظهرت  
نتائج هذه الأعمال في فترة إقامة ليفين بألمانيا ،  
وقد جمعت وترجمت إلى الإنجليزية في عام  
١٩٣٥ .

أما في فترة إقامته بأمريكا ، فقد أحكم  
ليفين نظاماً كاملاً ، معروفاً بالنظام الطوبولوجي  
لوصف تركيب الشخص « ش » والبيئة  
( المدركة ) « ب » . وقد الحق بهذا النظام  
الوصفي ( ١٩٣٦ ) فيما بعد نظاماً تفسيرياً  
( ١٩٣٨ ) ، حيث فسر السلوك « س » كدالة  
للشخص والبيئة : س = دالة ( ش ، ب ) .  
ويعمل مفهوم القوى النفسية أكثر المتغيرات  
الدافعية أهمية . ويتحدد هذا التكوين  
التفسيري بحالة التوتر في الشخص ( المرتبطة  
بحالة الحاجة في الأورجانيزم ) وبالقيمة الدانية  
Valence لموضوع أو نشاط معين في البيئة  
( المدركة ) . وازتعتبر « نظرية المجال » عند  
ليفين متفنة ومتسقة للغاية ، إلا أنها قد  
خضعت للنقد الشديد من حيث ارتباطها تماماً  
بالأحداث الملاحظة ( أي ، تعريفات إجرائية  
قليلة للغاية ) ، واهتمامها - وفقاً لمبدأ المعاصرة  
contemporacity - أساساً بالقوى العاملة في  
اللحظة الراهنة ، وانغفالها للسياق التاريخي



أو - حينما يدخل في مواجهة - الى الانتباه والاستجابة لأنواع معينة من الضغط . وحتى قد تولد الحاجة ادراكات وهمية وتعقلات هذائية ( اسقاطات لضغطها المتصور *imagined press* على موضوعات غير ملائمة . وتصحب كل حاجة على نحو مميز بشعور أو انفعال خاص وتميل الى استخدام اساليب معينة ( الحاجات الفرعية *sub-needs* ووسائل الاداء *actones* لمساعدة اتجاهها . وقد تكون الحاجة ضعيفة او قوية ، وقتية أو دائمة . لكنها عادة ما توجد وتؤدي الى نشأة سياق معين للسلوك الظاهري ( أو الخيال ) الذي ( اذا كان الاورجانزم مقتدرا والمقاومة الخارجية ليست مما لا يمكن التغلب عليها ) يغير الظروف الحافزة بطريقة تصل بالموقف الى الغاية بما يؤدي الى تهدئة ( سلامة أو ارضاء ) الأورجانزم » ( موراى ، ١٩٣٨ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ) .

يتضح من هذا الاشتقاق ان « الحاجة » عند موراى تختلف عن الحاجة عند هل وأصحاب نظريات التعلم ، حيث تقتصر عندهم على حالة الحرمان في بعض الاعضاء الطرفية *peripheral organs* او في الاعضاء الحشوية *viscera* الحاجة عند موراى ، من ناحية أخرى ، حالة رئيسية ( فرضية ) ، أكثر شمولاً واحاطة من « الحافز » عند هل ( أقرب في الواقع الى جهد استدعاء رد الفعل *ser* عند هل ) ، ومن « الحافز الفريزي » عند فرويد . تتضمن نظرية موراى تقريباً اربعين حاجة ، مقسمة الى « الحاجات » حشوية الاصل *viscerogenic* *needs* ( وعددها ثلاث عشرة ) و « الحاجات نفسية الاصل » *Psychogenic needs* ( وعددها عشرون على الأقل ) . وتمثل هذه الثروة من المتغيرات الدافعية وكذلك المتغيرات التفسيرية الاخرى جوانب القوة والضعف في نظرية موراى على السواء . تكمن القوة في امكانية عمل اوصاف متميزة لشخصيات

للظاهرة النفسية ، فنظرية ليفين «لاتاريخية» وفي ذلك تكمن نقطة الضعف الكبيرة في نظامه الشاهق الذي اقامه . ورغم ذلك ، فقد اهتم نظرية ليفين أعمالاً تجريبية عديدة ، سواء في علم نفس الطفل أو ( بخاصة ) في علم النفس الاجتماعى . كما اثر في نظرية التعلم من خلال « تولمان » وفي نظرية الشخصية من خلال « هنرى موراى » .

يرى « موراى » نظريته كشكل حديث لنظرية التحليل النفسى في الدافعية ويقدر بدينه لكل من ماكندوجل وليفين . ويبرز في كتابه « استكشافات في الشخصية » ( ١٩٣٨ ) تكامل الطرق التجريبية والاكلينية ، بم يكشف عن اول امثلة حقيقية للعمل بروح الفريق في علم النفس . ومن أبرز معالم نظرية موراى محاولة اقامة تكامل للجوانب القيمة من نظرية التعلم مع اساسيات نظرية التحليل النفسى . لذا ، يتتبع موراى تصنيفاً محكماً على الاصول التطورية *genesis* للشخصية لوصف السلوك ، لكنه في تفسيره للسلوك يؤكد - خاصة اهمية احداث الطفولة المبكرة و « ديناميات الشخصية » . وفي اطار ذلك ، يقدم موراى المتغير الدافعى « الحاجة » :

« الحاجة تكوين ( وهم مقنع أو مفهوم فرضى ) « يكمن وراء القوة (الطبيعة الجسمية - الكيميائية) في منطقة المخ، قوة تنظم الادراك وانفهم والتعقل والنزوع والاداء بطريقة يتم بها تحويل موقف قائم غير سار الى وجهة معينة . وفي بعض الاحيان تستثار الحاجة مباشرة بعمليات داخلية من نوع معين (حشوية *viscerogenic* ، غددية *endocrinogenic* أو تتعلق بسرير المخ *thalamogenic* تنشأ في سياق التفاعلات الحيوية ، لكنها تستثار اكثر ( في حالة الاستعداد ) بحدوث احد الضغوط الفعالة ( أو بصور توقعية لذلك الضغط ) . لذا ، تتبدى الحاجة عندما تؤول بالأورجانزم الى السعى أو الى تجنب المواجهة

الأفراد ، والضعف في المخاطرة بتفسيرات كاذبة قد يقع فيها بعض السيكولوجيين . ومما يجدر ذكره ، أن موراي قد عدل نظريته عدة مرات ( ١٩٥١ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٩ ) ليستقر به الأمر أخيراً إلى استبدال مفهوم « الحاجة » بمفهوم أكثر دقة وتضييقاً يعرف بـ « الاستعدادات للموضوع » thematic dispositions

« لقد أصبح من الواضح لنا أكثر وأكثر أنه يمكن تحديد مكونات الطاقة في الشخصية كاستعدادات للموضوع أفضل من تحديدها كاستعدادات عامة للاداء general actional dispositions ( ١٩٥٩ ، ص ٣٤ ) .

ولقد استمر موراي في ابتداع مفاهيم وصفية وتفسيرية جديدة ، وكان له فضل بالغ الأثر على سيكولوجية الشخصية لما قدمه من تصورات نظرية وابتكارات منهجية ( من بينها اختبار تفهم الموضوع « التات » ) ولما توصل إليه من تجاربه إلى نتائج قيمة . ولعلنا لا نجانب الصواب إذا اعتبرنا موراي القوة الدافعة في نظرية الشخصية ، حيث يمكن أن نعد الرجل الثاني فقط بعد فرويد .

ولا غرو ، فقد اقتفى ماكلياند خطى موراي وأخذ يسمى إلى استكمال الشوط إلى أقصى مداه ، حيث واصل البحوث الأمبيريقية مستعيناً باختبار تفهم الموضوع « التات » وأثناء نظرية في الدافعية ، لذا قد أعد صورة جماعية لاختبار التات ، وحاول هو وزملاؤه قياس مضمون الخيالات في قصص التات التي يرويها المفحوصون في مواقف مختلفة جديدة ، حيث يمكن خلق دافعيات مختلفة ( دافعيات مثل الجوع ، الجنس ، العدوان ، الخوف ، التواد القوة ، والانجاز ) . وعن طريق الجمع بين الطرق التجريبية وطرق الملاحظة الميدانية توصل ماكلياند وزملاؤه إلى تصورات خلاقة للدافعية . كما حققوا كذلك نوعاً من التقنين لمنهج تحليل المضمون لقصص التات ، الذي

طور إلى الحد الذي يمكن معالجته بالحاسبات الآلية . ومن المعالم المميزة أيضاً لعلم النفس الحديث أن زمرة ماكلياند قد ركزت بحوثها وتطورها النظري أساساً على متغير دافعي واحد ، المعروف بدافع الانجاز ( ماكلياند وآخرون ، ١٩٥٣ ) وقد أوضحوا ببخوتهم أن الفروق الفردية في قوة دافع الانجاز كما يقاس بالتات تتوقف على البيئة - خاصة حينما تدعم أساليب تربية الطفل الاستقلال والاعتماد على الذات لديه . وقد أوضحت زمرته في أعمالها اللاحقة أيضاً قيمة التات في قياس الدوافع الأخرى ( ماكلياند ، ١٩٥٥ ، أتكينسون ، ١٩٥٨ ) . وقام ماكلياند نفسه بدراسة تأثير دافع الانجاز على النمو الاقتصادي في المجتمعات المعاصرة والقديمة ( ١٩٦١ ) .

ومن ناحية التصور النظري ، قدم ماكلياند مساهمة بالغة القيمة بالانتقال من تصور محتوم بالحاجة need-determined conception لدافعية إلى تصور وجداني محتوم بالتوقع hedonistic, expectation determined

للدافعية ( متأثر بنظريات يونج وتولمان ، أو على الأقل مواز لها ) ، ويتضح هذا من الصياغة الأولى لنظريته :

« يصير الدافع ارتباطاً وجدانياً قوياً ، يتميز برد فعل توقعي للهدف ويقوم على الارتباط السابق لعلامات معينة مع اللذة والألم » ( ١٩٥١ ص ٤٤٠ ) .

ويحدد ويلخص المسلمات الأساسية لنظريته على النحو التالي :

« تعريفنا للدافع كما يلي : الدافع هو تمييز redintegration بواسطة علامة أو أمانة cue لتثير في موقف وجداني . ويقصد بكلمة تمييز في هذا التعريف أن تتضمن التعلم السابق وكل الدوافع ، في نظامنا ، متعلمة . والفكرة الأساسية هي ببساطة كما يلي : تكون مشيرات أو مواقف معينة متضمنة بتباينات بين التوقعات

و يدخل التوقع - او الاحتمالية الذاتية «لح»  
(Ps) - في علاقات متبادلة مع الحافز في  
مواقف الانجاز بهذه الطريقة :

شرح ا ب ل ح

وتوازيًا مع هذا الدافع الإيجابي لاحراز  
النجاح ، يسلم اتكنسون أيضا ب « الخوف  
من الفشل » او « الدافع الى تجنب الفشل » :

٣٠٠ ش ج ح ش د ش ع ش ف ش ز ش ح ش ط ش

و واحد من المسلمات الاساسية لنظرية  
اتكنسون ان السلوك نتيجة التفاعل بين دافعين  
على الاقل . ففي مواقف الاستشارة بالانجاز  
يكون السلوك ( س ) نتاج دافعين متصارعين :

س = ٣٠٠ ش ج ح ش د ش ع ش ف ش ز ش ح ش ط ش

لذا يضمن اتكنسون نظريته أيضا بعض  
الفروض المستعارة من نظرية ميلر في السلوك  
الصراعى .

وفي الفترة الاخيرة عمل اتكنسون مع « نورمان  
فيزر » ، وجعما اعمالهما وما قام به زملاؤهم  
في مجلد جديد ( اتكنسون ، فيزر ١٩٦٦ ) .  
في هذا الكتاب يوضحون قيمة نظريتهما  
المعروفة ب « النظرية المصغرة » (miniature -  
theory) للدافعية الانجاز ويتلمسون  
السييل الى امكانية توسيع النظرية الى نظرية  
عامة في الدافعية الانسانية تجمع بين نظامين  
في علم النفس العلمى : علم النفس الفارقى  
( الاختبارات ) للشخصية وعلم النفس العام  
( التجريبي )

يصف « فيزر » ( ١٩٦٧ ) تطبيق نموذج  
« التوقع x القيمة » على سلوك البحث عن  
المعلومات information-seeking behavior

( المستوى التكيفى ) ولادرا كمصادر للوجدان  
الاولى غير المتعلم ، سواء الايجابى او السلبى  
بطبيعته . ومن شأن العلامات او الامارات التى  
تكون متزاوجة مع هذه الحالات الوجدانية ان  
تغير في هذه الحالات الوجدانية ، وتصبح  
الشروط التى تنتجها قادرة على تمييز حالة  
مشتقة من الموقف الوجدانى الاصلى ، لكنها  
ليست متحدة معها ( ماكيلاند وآخرون ،  
١٩٥٣ ، ص ٢٨ ) .

ومن الواضح ان تصور ماكيلاند للدافعية  
ينحرف الى حد ما عن تصور اسلافه .

وقد لقي هذا المنحى في اتجاه نظرية « التوقع  
x القيمة » ( "expectation x value" theory )  
مزيدا من التطور على يدى « جون اتكنسون » ،  
احد رفاق ماكيلاند الاقربين ، اهتم « اتكنسون »  
خاصة بسلوك المخاطرة risk-taking behavior  
واعتماد على دافعية لانجازه . وقد  
وقد طور من نظرية دافعية الانجاز الى طراز  
مثمر للغاية كنظرية للدافعية الانسانية (١٩٦٤)  
تأثر اتكنسون بقوة بليفين وتولمان ، كما افاد  
الى حد ما من نظرية القرار الحديثة .

تبدو المتغيرات الدافعية الاكثر اهمية وما  
بينها من تفاعلات في معادلة اتكنسون :

٣٠٠ ش ج ح ش د ش ع ش ف ش ز ش ح ش ط ش

حيث م ح (Ts) تعنى الميل الى احراز  
النجاح الذى هو وظيفة لاستعداد ثابت فطرى  
او مكتسب ، يعرف ب « الدافع » الى انجاز  
النجاح « ع ح » (Ms) ، ويتحد مع « توقع »  
النجاح ح ح (Is) و « قيمة الباعث »  
incentive - value للاداء ح ح (Is)

وبالتالى طرق ذلك الميدان من البحث الذى كان يحتله من قبل العلماء من اصحاب الاتجاه البيولوجى وسيكولوجية التعلم (مثل ، برلاين)

وينتقد أتكينسون كذلك « قانون الاثر » لعدم امكانية تطبيقه على السلوك الانجازى ( أتكينسون ، فيزر ١٩٦٦ ) ، ويشير الى الحقيقة بأن « أولبورت » قد اثار هذا النقد ذاته من حوالى ثلاثين سنة .

وهنا يبرز اتجاه آخر فى سيكولوجية الشخصية ، صاحبه « جوردون أولبورت » . فى كتابه الدائع الصيت عن الشخصية (١٩٣٧) يقترح نظرية - أو ان شئنا ، نظاما وصفيا - للشخصية ، تتناقض الى حد ما مع الخط الاساسى الدينامى لنظرية الشخصية كما قدمه فرويد وليشيان وموراي ، وغيرهم ، بنكر أولبورت اهمية الحاجات او الحوافز البيولوجية وكذلك اهمية النمو فى الطفولة بالنسبة لشخصية الراشد . وكبديل لذلك ، طور فرضا عن الاستقلال الوظيفى functional autonomy لدافعية الكبار (فرض قدمه أصلا « وودورث » ١٩١٨) . وفى تعديل لنظريته يقرر :

« من وجهة النظر هذه يعتبر الاستقلال الوظيفى مجرد سبيل لاقرار ان دوافع الناس تتغير وتنمو فى سياق الحياة ، لأن من طبيعة الناس أنهم ينبغي أن يفعلوا هكذا » ( أولبورت ١٩٦٨ ، ٢٥٢٨ ) .

يتفق أولبورت فى هذه النظرة الفلسفية الوجودية للانسان مع عالم قد آخر هو « ابراهام ماسلو » الذى يعتبر من ابرز قادة الاتجاه الانسانى فى نظرية الشخصية . ينتقد « ماسلو » نظرية التحليل النفسى من حيث أنها « من جانب واحد » ، تعول على دافعية النقائص deficiency - motivation وتغفل تماما دافعية النمو growth - motivation ويسلم ماسلو ان دافعية النمو هذه التى تتضح كحاجة الى تحقيق الذات

يمكن أن تتبدى فى السلوك حينما تشبع الحاجات الأخرى المحتملة أكثر بالنقائص . ويقترح نظاما هرميا للحاجات وفقا للقوة القالبة prepotency ( ١٩٥٤ ) ، يمتد من أكثر الحاجات فسيولوجية الى أعظمها نضجا وتمدينا من الناحية النفسية . ويحدد ماسلو نظام الحاجات الأساسية على النحو التالى :

المستوى الاول : الحاجات الجسمية الأكثر اساسية ( كالسعى الى الطعام والماء والهواء والدواء والجنس ، وهكذا ) . المستوى الثانى حاجات الامن ( وتتمثل فى تجنب الاخطار الخارجية او ما يؤذى الفرد ) . المستوى الثالث : حاجات الحب والاستحسان . المستوى الرابع : الحاجات التى تربط باقامة علاقات مشبعة مع ذات الفرد ومع الآخرين ( وتتمثل فى ان يكون متمتعاً بالتقبل والتقدير ، وان يحظى باحترام الذات ، وان يكون محترما ، وان تكون له مكانة ، وان يتجنب الرفض أو النبذ أو عدم الاستحسان ) . المستوى الخامس الحاجات التى تربط بالتحصيل والانجاز والمعرفة والتعبير عن الذات ( ان يكون الفرد مبدعا ومنتجا ، ان يقوم بافعال وتصرفات تكون مفيدة وذات قيمة للآخرين ، ان يحقق امكاناته ويترجمها الى حقيقة واقعة ) .

وهنا يختلف ماسلو بنموذجه الهرمى للحاجات وما بينها من علاقات وظيفية متبادلة عن صناع القوائم ، منذ ماك دوجل ، الذين كانوا يكسبون قوائمهم دون محاولة جديدة لبيان الصلة فيما بينها . فقد أوضح ماسلو انه لا يمكن وصف حاجة فى عزلة عن الحاجات الأخرى : فالحاجات تنتظم وفقا لاهميتها بالنسبة للفرد ، وتتوقف مقدرة الفرد على اشباع الحاجات « العليا » upper needs ( أو ان شئنا حاجات النمو ، الحاجة الى المعرفة والخبرة الجمالية وتحقيق الذات ) على مستوى اشباعه للحاجات الأساسية ( مثال ذلك ، من الصعب على الفرد العمل بكفاية اذا شعر بعدم تقدير الجماعة أو بأنه غير

الدينامي dynamic calculus تركيب لا يزال يعرف حتى الان ، بطريقة غامضة ومتقنة للغاية ، بالفريزة أو الحافز ، الذي هو مصدر الطاقة الكامنة وراء السلوك . وكما سنرى يمكن ان يتعين ويتحدد الارج بدقة بطريقة التحليل العاملي ، بينما غدت الفريزة والحاجة والحافز وغير ذلك على أنها كل شيء لكل الناس ولا يمكن ان تعد تستخدم بدقة علمية » ( كاتل ١٩٦٥ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ ) .

ومن هنا نرى ثمة مصطلحاً جديداً للمتغيرات الدافعية الأساسية التي حدد منها كاتل على الأقل أحد عشر متغيراً ، هذه المصادر التكوينية للطاقة تناسب خلال تركيبات متعلمة تعرف بـ « الاتجاهات » و « العواطف » - وهي مفاهيم معروفة أيضاً من نظريات الشخصية الأخرى . وأنها لتكون رحلة طويلة إذا أردنا تتبع كل أعمال كاتل أو بعمق بسبب حجم ما أنتجه . فبالإضافة إلى مقالاته العديدة ، ألف عدة كتب ( ١٩٤٦ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٥ ) ، كما اشترك وحرر عدداً من الأعمال . ولذا ، فقد حالج كاتل في قسم خاص في الفصل المسحى عن « بنية الشخصية » (Personality Structure) الذي كتبه « ويجينز » (J. S. Wiggins) في الكتاب السنوي لعلم النفس المعروف بـ « Annual Review of Psychology » في عام ( ١٩٥٨ ) .

ويمكن ان نشير الى عالم ميرز آخر في ميدان نظرية التحليل العاملي للشخصية ، هو « هانز ايرنك » الذي اهتم خاصة بتطبيق نظرية وطرق التحليل العاملي في علم النفس الكلينيكي أو « العلاج السلوكي » ( انظر ايرنك ١٩٦٤ ) .

## ( ٢ ) مفاهيم الدافعية

ليس من السهل تصنيف مفاهيم الدافعية وفرز التشابهات والاختلافات بينها لأنها قد استخدمت بطرق مختلفة بواسطة سيكولوجيين مختلفين ، وأن المتغيرات المتشابهة قد تعينت

محبوب ) . وقد لاقى هذا النموذج الهرمي لنظام الحاجات تطبيقات ذات بال في علم النفس التطبيقي ( مثل ، علم النفس التربوي والصناعي ) .

ولقد تركز ماسلو في السنوات الأخيرة على بناء نظريته الى العلاقة بين سيكولوجية الشخصية وفلسفة الانسان ( ماسلو ، ١٩٥٩ خاصة ، انظر أيضاً ١٩٦٢ ، ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ) .

ولاستكمال صورة نظرية الشخصية اليوم ، ينبغي الإشارة الى « رايموند كاتل » ، العالم النفسى الانجلو - امريكي . ليس من السهل تصنيف كاتل على أنه ينتمى الى مدرسة معينة أو تقليد معين في علم نفس الشخصية ، وإنما هو بالأحرى مؤسس وقائد لمدرسة جديدة تتميز باستخدام التحليل العاملي والطرق الرياضية لبناء نظرية نبعت داخل سيكولوجية الدكاء . ولقد ابتدع كاتل اختبارات عديدة للشخصية ، استطاع بها هو وزملاؤه جمع بيانات وفيرة عن الشخصية . واسكن هذه البيانات في نظريته للشخصية ، التي تلعب فيها « السمات الدينامية » أو المتغيرات الدافعية دوراً هاماً . ولقد استعار كاتل بعضاً من هذه المفاهيم عن ماكديوجل وفرويد ، لكنه أعاد بناءها في نظرية أكثر احكاماً واتساقاً والمتغيرات الدافعية الأساسية في هذه « الشبكة الدينامية » dynamic lattice التي تعتبر نموذجاً للبنية الدينامية للشخصية هي : « الارج » erg ( وحدة عمل الطاقة ) ، العاطفة sentiment ، و « الاتجاه » [attitude] ويحدد « الارج » على النحو التالي :

« يبدو أننا هكذا قد بيننا بحيث ان اشباعاً نهائياً هي اشباعاً غريزية ، أو طاقة ergic . يستخدم مصطلح « ارج » ، وهو مأخوذ عن الكلمة اليونانية ergon بمعنى العمل أو الطاقة ، في التكامل والتفاضل

فيما بعد ( ١٩٦٢ ) . فكل السلوك يمكن وصفه ، وفقا لدوفى ، بالجمع بين مصطلحين وصفيين: «الشدة» intensity و «الاتجاه» direction ، وهما الجانبان من السلوك اللذان يفترض تكشفهما بالنظريات الدافعية.

وغالبا ما نستخدم في التفسير السيكولوجي فئتين من المصطلحات : المصطلحات التجريبية ( الامبيريقية ) والمصطلحات الفرضية .

تشير المصطلحات التجريبية ( الامبيريقية ) الى « المتغيرات المستقلة » التى يفترض انها الاسباب النهائية للسلوك ( الذى هو متغير تابع ) . وقد تتضمن هذه المتغيرات المستقلة المثيرات الخارجية من البيئة وكذلك المثيرات الداخلية من الاعضاء والانسجة المختلفة للأورجانزم . هذه المثيرات الداخلية ينبغي ان تكون قابلة للملاحظة اذا عولجت كمتغيرات مستقلة يمكن وصفها بمصطلحات تجريبية ( امبيريقية ) . واذا كانت المتغيرات المستقلة يمكن وصفها كمثيرات ( داخلية وخارجية ) ، فانه يمكن تسميتها بـ « المتغيرات - م » (S-variables)

وقد يفضل بعض علماء النفس ، مثل سكرن الاهتمام اساسا بوصف العلاقات الملاحظة بين « المتغيرات - م » والسلوك . وتصاغ هذه الاوصاف في بعض الاحيان في قضايا عامة عن العلاقات المتكررة والملاحظة بانتظام بين انماط « المتغيرات - م » وانماط السلوك او « المتغيرات - س » . وغالبا ما تعرف هذه القضايا العامة بـ « القوانين » ( او علاقات م - س ) . ويعتبر سكرن تكوين وتطبيق تلك « القوانين » على أنه التفسير العلمى الوحيد . لكن معظم علماء النفس يفضل افتراض وجود متغيرات « توسطية » mediating او « وسيطة » intervening بين « المتغيرات - م » ، « والمتغيرات - س » . وهذه المتغيرات الوسيطة لا يمكن ملاحظتها .

بمصطلحات مختلفة في النظريات المختلفة . لذا كان من الضروري محاولة استخلاص مفاهيم الدافعية من خلال الدراسة المقارنة للنظريات المختلفة .

### المصطلحات التجريبية (الامبيريقية) والفرضية:

نقد نشأت نظريات الدافعية وبنيت فروضها لتفسير السلوك . لكن ليست هناك حاجة الى المفاهيم الدافعية لكل انماط او جوانب السلوك فردود الافعال الانعكاسية البسيطة (الانعكاسات الولادية ) يمكن تفسيرها على أساس وجود مثير يباشر تأثيره على البنية الولادية « القوس الانعكاسى » . اما السلوك المركب ( الاداءات او الافعال السلوكية ) فغالبا ما يوصف على انه سلوك فرضى او موجه نحو هدف ، وهذا السلوك يمكن تفسيره بنظريات الدافعية . ومصطلحات السلوك «الفرضى» Purposive و « الموجه نحو الهدف » goal-directed مصطلحات وصفية ذات طبيعة مركبة وتجريدية وقد تستخدم هذه المصطلحات لوصف او تعيين السلوك الذى يكشف عن مركب لسمات عديدة يمكن ملاحظتها .

وقد كان ماكدوجل ( ١٩٠٨ ) اول من قام بتحليل ووصف محركات السلوك الفرضى ، هى كما عددها سبعة محركات . وقد اشار تولمان الى هذه المحركات حينما حدد ، في كتابه المشهور ، السلوك الفرضى ( ١٩٣٢ ) . وقد اختزل بندرا ( ١٩٥٩ ) ، في تحليله العميق ، هذه المحركات الى ثلاثة : الملاءمة appropriateness ، المثابرة persistence ، الاستقصاء searching . واقترح ايضا مصطلح «الموجه نحو الهدف » بدلا من الفرضى ، حيث يستخدمه كمرادف للسلوك المدفوع .

وربما تعتبر اكثر المصطلحات الوصفية بساطة ودقة تلك التى قدمتها « اليزابيث دوفى » في اعمالها المبكرة في الثلاثينات وأحكمتها

## جدول ( ١ ) : المتغيرات « م ، ف ، س »

## في بعض نظريات الدافعية

المتغيرات - س	المتغيرات - ف	المتغيرات - م	
المتغيرات التابعة	المتغيرات الوسيطة	المتغيرات المستقلة	
سلوك غرضي	الفريزة ( ١٩٠٨ ) الميل الطبيعي الميل ( ١٩٣٢ )	مثيرات ( خارجية )	ماكندوجل
تداعيات حرة تقارير الاحلام اعراض عصائية وغير ذلك من السلوك	الحوافز القريبية ، الشحنة الانفعالية ، الهي ، الانا ، الانا الاعلى	المصادر الجسمية ( السوماتية )	فرويد
سلوك غرضي	الطلب ( ١٩٣٢ ) نظام الحاجة ( ١٩٥١ ) مصفوفة الاعتقاد - القيمة ( ١٩٥١ )	الحالة الفسيولوجية الشروعية ( ١٩٣١ ) الحافز ( ١٩٥١ ) المثيرات	تولمان
سلوك	الحافز ، الحالة ، الاتجاه الرغبة .	الحاجات المثيرات	يونسج
سلوك وسيلي وتعبري	السمات الدافعية والوسيلية	الحوافز المثيرات	اولبورت
سلوك	القوة ، التوتر ، القيمة الداتية	الحاجات	ليفين
الافعال « اكنون » : ١ - اللفظية « فربون » ٢ - الحركة « موتون »	الحاجات ( ١٩٣٨ ) ضغط بيتا ( ١٩٣٨ ) شحنة انفعالية الاستعداد للموضوع ( ١٩٥٩ ) .	المثيرات ( خاصة موضوعات الهدف ) ضغط الفا ( ١٩٣٨ ) ، والمثيرات الاخرى المصادر الداخلية للحاجات	موراي
الاستجابة	الحافز دافعية الباعث جهد الاستجابة قوة العادة	الحاجة المثيرات الخارجية	هل

## تابع جدول ( ١ )

المتغيرات - س المتغيرات التابعة	المتغيرات - ف المتغيرات الوسيطة	المتغيرات - م المتغيرات المستقلة	
سلوك منظم	قوة العادة تجميعات الخلايا تتابعات الاطوار (١٩٤٩) وظيفة الامارة والاستشارة ( ١٩٥٥ )	المثيرات الخارجية والداخلية	هب
السلوك الشهوى الافعال الاستهلاكية	ميكانزمات الافراح الفطري ميكانزمات الفريزة الدافعية	المثيرات المفرجة العوامل الدافعية	تنبرجن
استجابات « التات » وغيرها من السلوك	الدافع الاستشارة الوجدانية	الامارات الحرمان من مستوى المواعمة	ماكلياند
الاستجابات للاختبار وغيرها من السلوك	الارج الاتجاه العاطفة	المثيرات الحالة الفسيولوجية	كانل
السلوك الاستجابي وسلوك العملية	قوة الاستجابة او - الاحتمال ؟	الحرمان الدعمات المثيرات النفورية	سكنر
استجابات التات وغيرها من السلوك	الميل ، الدافع ، التوقع البامث - القيمة	المثيرات	اتكنسون
السلوك الاستقصائي والمعرفي	الاستشارة ( المنظومة الاستشارية الشبكية ) التطلع	المتغيرات الموازية جهد الاستشارة	برلاين



«متغيرات الاستعداد» disposition variable للمتغيرات الموروثة وكذلك المكتسبة . وبدلاً من « الاستعداد » قد يفضل البعض مصطلحات « العامل » أو ربما « التركيب » .

وخلافاً لهذه المتغيرات توجد فئة أخرى من المتغيرات النفسية ذات فترة أقصر للوجود، وتتضمن هذه الفئة فئتين فرعيتين : العمليات، التي ربما توجد فقط لشوان أو دقائق ؛ والحالات ، التي ربما توجد فقط لساعات أو حتى لأيام . ولما كان من الصعب التمييز بين العمليات الأقصر والحالات الأطول ، يمكن أن نستخدم المصطلح العام « وظائف » ( أو « متغيرات الوظيفة » function variable

ويولي علماء النفس المختلفون اهتماماً بفئة من هذه المتغيرات أكثر من الأخرى .

فمتغيرات الاستعداد قد درست أساساً باستخدام طرق الاختبارات في علم النفس الفارقي ، متضمناً سيكولوجية الشخصية والذكاء . ( يوضح مصطلح « التحليل العاملي » الاهتمام « بالعوامل » أو « الاستعدادات » ) . ومن ناحية أخرى ، درست متغيرات الوظيفة أساساً باستخدام الطرق التجريبية في علم النفس العام ، متضمناً التعلم والمعرفة والدافعية .

ومع ذلك ، توجد علاقة وثيقة بين الاستعدادات والوظائف ، حيث أن الاستعدادات تؤثر في مسار الوظائف وتخلق الفروق الفردية في السلوك الذي يتحدد مباشرة بالوظائف . ومن ثم ، غالباً ما استخدم المصطلح الواحد للإشارة إلى الاستعداد والوظيفة المتعلقة به . وقد يخلق هذا في بعض الأحيان فوضى وسوء فهم بين علماء النفس . لذا غالباً ما يشير مصطلح « الحاجة » في سيكولوجية التعلم إلى الوظيفة ( على نحو أكثر دقة ، إلى الحالة ) . ومن ناحية أخرى ، غالباً ما تستخدم « الحالة » في نظرية الشخصية

بطريقة مباشرة ، ولكن تستنجد أو تفترض ، ولذا يمكن تسميتها بـ « المتغيرات » الفرضية Hypothetical variables أو « المتغيرات - ف » .

وقد قدم « تولمان » ، بهدف تفسير السلوك الفرضي خاصة ، تلك المتغيرات الوسيطة « مثل » « الحافز » و « المعرفة » cognition وعلى أساس طراز تولمان « م - ف - س » يمكن تقديم تصنيف أساسي للمتغيرات النفسية وتطبيقها على المتغيرات الدافعية في أهم النظريات التي عرضنا لها ، كما يتضح ذلك من الجدول (١) ، ( الجدول الواردة في هذه الدراسة مأخوذة عن أعمال « مادسن » ١٩٥٩ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٣ ) .

ويتضح من هذا الجدول أن ثمة استخداماً للمصطلحات يشيع في علم النفس ينم عن عدم اتساق وفوضى بالفتن . ويتضح ذلك خاصة في التفسيرات المختلفة المتعلقة بالمصطلحين الهامين : « حاجة » و « حافز » . لذلك يستخدم هل وتولمان ( ١٩٥١ ) المصطلحين بطرق متناقضة ، واستخدام موراي « الحاجة بطريقة مختلفة تماماً . وهذه الفوضى هي في الواقع أعظم مما يبينه هذا الجدول ، والتي سوف تصبح واضحة من الجداول الأخرى .

### الاستعدادات والوظائف :

أعد تولمان أيضاً تصنيفاً للمتغيرات وفقاً لطول مدة وجود المتغيرات : فبعض المتغيرات النفسية توجد لفترة طويلة ، قد تستغرق كل حياة الفرد من الميلاد حتى الموت ، وهي الاستعدادات الموروثة . والبعض الآخر يكون مكتسباً بعملية التعلم في فترة أو أخرى من حياة الفرد ، وتوجد لفترة أقصر أو أطول ، ولكنها بعد أن تكتسب تلعب نفس الدور الذي تلعبه الاستعدادات الموروثة . لذا يمكن أن نستخدم مصطلح « الاستعدادات » أو

ويلذهب « فارير » فيما بعد الى التمييز بين الجوانب « دينامية الاصل » والجوانب « التوجيهية » للمتغيرات السيكلوجية ( ١٩٥٥ ) .

وعلى اساس كل هذه التحديدات ، قدم « مادسن » ( ١٩٥٩ ) تصنيفا للمتغيرات السيكلوجية يستند الى التمييز بين التأثيرات المختلفة على السلوك ( جدول ٢ ) ،

١ - المتغيرات دينامية الاصل  
Dynamogenic variables ، وهي تقوم بالحريك او الاستثارة والتنشيط ، ولذا يكون لها تأثير الشدة intensity effect على السلوك .

٢ - المتغيرات التوجيهية  
directive variables ، وهي تقوم بالتوجيه والتنظيم ، ولذا يكون لها تأثير توجيهي على السلوك .

٣ - المتغيرات المتجهة  
Vector variables ، وهي متغيرات محددة لكل من الشدة والاتجاه .

ويتضح من التصنيف ( جدول ٣ ) مرة اخرى مصدر الارتباك بين النظريات النفسية فمصطلح « حافز » يستخدم في نظام هـل كمتغير دينامي الاصل ، بينما في نظام فرويد كمتغير متجه . ويستخدم مصطلح « حاجة » كمتغير دينامي الاصل عند هـل ، ولكن كمتغير متجه في نظرية موراي ( ١٩٣٨ ) وفي نظريات اخرى كثيرة للشخصية .

وبالاضافة الى ذلك ، توجد فروق بين المتغيرات المتجهة ، مثل « الفريزة » عند ماكدوجل و « الحافز » عند فرويد ، من ناحية ، و « جهد الاستجابة » عند هـل و « الميل » عند اتكنسون من ناحية اخرى . لذا يعتبر مصطلح « فريزة » عند ماكدوجل غامضا شموليا ( ومن ثم ينبغي تصنيفه كمتغير متجه ) ، بينما يتحدد بوضوح مفهوم « جهد

لتفطية كل من الوظيفة الدافعة للسلوك والاستعداد الذي يحدد الفروق الفردية في القوة والفترة وغير ذلك من هذه الوظائف . وقد تنبه موراي لذلك وغير مفهومه الاساسي باستبدال مصطلح « حاجة » الى المصطلح الجديد « الاستعدادات للموضوع » thematic dispositions . وهذا الاستخدام ، الذي يعث على الارتباك والحيرة لمصطلحات الاستعدادات والوظائف يمكن ان يتضح من الجدول ( ٢ ) .

### المتغيرات الدينامية والتوجيهية :

ربما تعتبر هذه الفئة من تصنيف المفاهيم اكثر اهمية لنظرية الدافعية ، بقدر ارتباطها الوثيق بالمتغير - س : « السلوك الموجه نحو الهدف » .

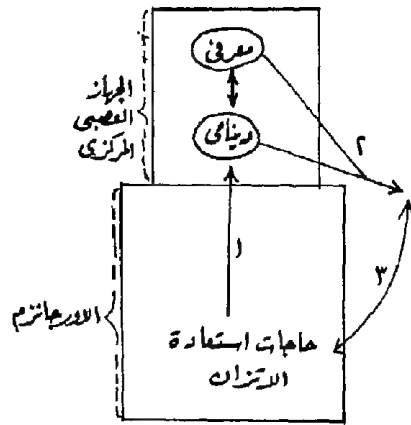
يمكن ان تعتبر « ليفين » اول من قدم تحليلا متعمقا للمفاهيم الدافعية ( ١٩٣٨ ) ، حيث ميز بين القوى والقيمة الدائية . فالقوى forces تتميز بكل من القوة والاتجاه ؛ ولذا يمكن ان تمثل رياضيا بواسطة المتجهات vectors ، اما القيمة الدائية فهي ، على العكس من ذلك ، يمكن تحديدها فقط قياسا الى قوتها ، ولذا يمكن ان تمثل رياضيا بواسطة المعاريات Scalars .

ولم يكن ليفين هو الوحيد الذي ادرك ذلك التحديد للمفاهيم . فقد ميز « وودورث » ( ١٩١٨ ) بين الحافز والميكانزم . ويلذهب العالم الميرز « پول توماس يونج » الى تحديد مشابه في تقريره ان : « علم النفس الدافعي يمكن تعريفه على انه دراسة لكل الشروط التي تستثير وتنظم سلوك الكائن الحي » ( يونج ، ١٩٣٦ ، ص ٤٥ ) .

وفي نفس الوقت ، سعت « دوفي » ( ١٩٣٦ ) الى الفصل بين « الشدة » و « الاتجاه » كمفاهيم وصفية اساسية في علم النفس .

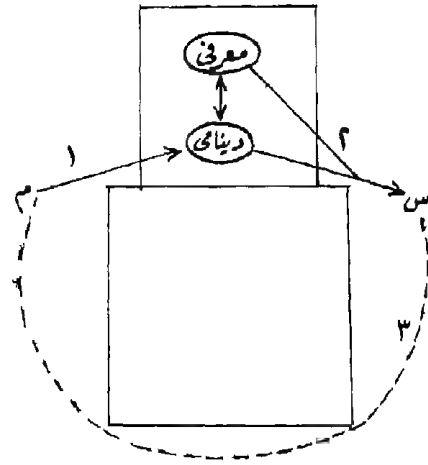
شكل ( ٢ )  
نماذج الدافعية

## نموذج استعادة الاتزان



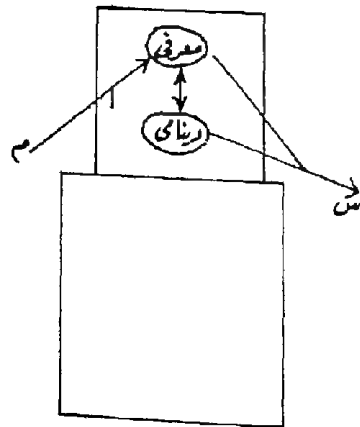
من = دالة (العمليات الدينامية ، والمعرفية)  
العمليات الدينامية = دالة (الحاجات)

## نموذج الباعث



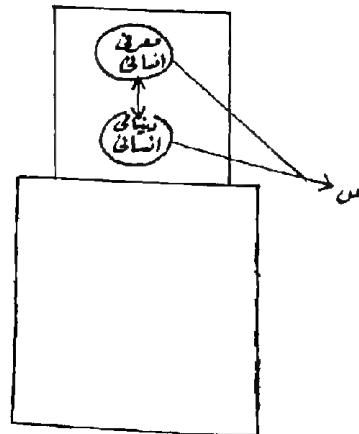
من = دالة (العمليات الدينامية ، والمعرفية)  
العمليات الدينامية = دالة (العمليات)

## النموذج المعرفي



من = دالة (العمليات الدينامية ، والمعرفية)  
العمليات المعرفية = دالة (العمليات)

## النموذج الانساني



من = دالة (العمليات الدينامية الانسانية ، والمعرفية الانسانية)  
العمليات الدينامية الانسانية = دالة (؟)  
العمليات المعرفية الانسانية = دالة (؟)  
لا تعتمد

## جدول ( ٢ ) : تصنيف للاستعدادات والوظائف

## وفقاً لمدة وجود التنفّيرات النفسية

متغيرات الوظائف والحالات والعمليات	متغيرات الاستعداد « العوامل » أو « التركيبات »	
الميل	الفريزة الميل الطبيعي العاطفة	ماكندوجل
العمليات الأولية والثانوية الحوافز والطاقة	الهي ، الانا ، الانا الاعلى ميكانيزمات الدفاع	فرويد
التوقعات المطالب ( ١٩٣٢ ) الحاجات ( ١٩٥١ ) الحوافز ( ١٩٥٩ )	المقددرات والسمات المزاجية ( ١٩٣٢ ) استعداد الغاية - الوسيلة ( ١٩٣٢ ) مصفوفة الاعتقاد - القيمة ( ١٩٥١ )	تولمان
الحافز ، الحاجة ، الحالة ، الرقبة ،	الاتجاه	يونيغ
السمات الدافعية والوسيلية	السمات الدافعية والوسيلية	أولبورت
التوتر ، القيمة الذاتية ، القوة	تركيبات الشخصية والبيئة	ليفين
الحاجة ( ١٩٣٨ ) الضغط والشحنة الانفعالية ( ١٩٣٨ )	الحاجات ( ١٩٣٨ ) الاستعدادات للموضوع ( ١٩٥٩ ) الشحنة الانفعالات ( ١٩٥٩ )	موراي
الحافز جهد الاستجابة دافعية الباعث	قوة العادة	هل
تتابعات الاطوار ( ١٩٤٩ ) وظيفة الامارة الاستشارة ( ١٩٥٥ )	تجميعات الخلايا	هيب
الدافعية العوامل الدافعية	ميكانيزمات الفريزة ميكانيزمات الافراج الفطري	تنبرجن
الدافع الاستشارة الوجدانية	مستوى الموامة	ماكليلاند

تابع جدول ٢

متغيرات الوظيفة الحالات والعمليات	متغيرات الاستعداد العوامل أو التركيبات	
تنشيط الارجات ، العواطف والاتجاه	الارج العاطفة الاتجاه	كانل
الحرمان التدعيمية الاستشارة النفورية	احتمال رد الفعل او قوة الاستجابة	سكنر
قيمة الباعث التوقع الميل	الدافع	انكتسون
المتغيرات الموارية الاستشارة ، التطلع	المنظومة الاستشارية الشبكية والتركيبات العصبية الاخرى	برلاين

جدول (٣) : تصنيف المتغيرات : الدينامية ،  
والتوجيهية والمتجهة وفقاً لتأثيراتها على السلوك

المتغيرات المتجهة	المتغيرات التوجيهية	المتغيرات دينامية الاصل	
الفريرة العاطفة		الميل الطبيعي الميل	ماكس ووجل
الحوافز الهوى	الانا ، الانا الاحلى العميات الاولى والثانية	الشحنة الانفعالية	فرويد
الحافز ( ١٩٣٢ ) حيز السلوك المباشر ( ١٩٥١ )	استعداد الفايء الوسيلة والتوقعات ( ١٩٣ ) مصفوفة القيمة الاعتقاد ( ١٩٥١ ) المعتقدات ( ١٩٥٩ )	الطلب ( ١٩٣٢ ) الحافز ( ١٩٥١ ) الحاجة ( ١٩٥١ ) الحافز ( ١٩٥٩ )	تولمان
الرفبة ( ١٩٣٦ ) الدافع ( ١٩٦١ )	الحالة الاتجاه السمات الوسيلىة	الحاجة الحافز الحافز السمات الدافعية	يونسج أولبورت
القوة		الحاجة التوتر القيمة الذاتية	ليفين
الحاجة ( ١٩٣٨ ) الاستعدادات للموضوع ( ١٩٥٩ )		الضغط الشحنة الاشعالية	موراى
جهد الاستجابة	الاستجابة الموقوتة للهدف الحافز - المثير قوة العادة	الحاجة الحافز دافعية الباعث	هل
	التتابع الطورى (١٩٤٩) تجميعات الخلايا (١٩٤٩) وظيفة الامارة ( ١٩٥٥ )	الاستشارة ( ١٩٥٥ )	هيب

## تابع جدول ٢

المتغيرات المتجهة	المتغيرات التوجيهية	المتغيرات دينامية الاصل	
	ميكانزمات الافراج الفطري ميكانزمات الفريزة	المثيرات المفرجة العوامل الدافعية الدافعية	تبرجن
الدافع	الامارات	الاستشارة الوجدانية	ماكيلاند
الاتجاه		الاريج	كاتل
العاطفة		الحرمان	سكنر
المثيرات النفورية المدمعات قوة الاستجابة			
الميل	التوقع	قيمة الباعث	اتكنسون
المتغيرات الموازية	التفكير	الدافع	
التطلع	والعمليات المعرفية الاخرى	الاستشارة	برلاين

الاستجابة « عند هل كمزج للمتغير دينامي الاصل ( «الحافز» ) والمتغير التوجيهي ( «قوة العادة» ) على النحو التالي : جهد الاستجابة = دالة ( الحافز  $\times$  قوة العادة ) .

ويتصف مسار النمو في نظريات الدافعية بتزايد التمايز في المفاهيم بين الابعاد المختلفة للمفاهيم . ويرتبط هذا النمو ، بطبيعة الحال ، ارتباطا وثيقا بالنمو التجريبي .

ربما يمكن ان نستخدم تصنيف « دينامي في مقابل توجيهي » على انه يعطي وصفا تقريبا لنظريات الدافعية : كانت النظريات الاقدم ( ماكديوجل ، فرويد ، والى حد ما الاشكال الاولى من نظريات موراي وتولمان ) نظريات تستخدم مفاهيم المتجهات . اما النظريات الاحداث فتتقسم الى مجموعتين : تلك التي تؤكد على المتغيرات دينامية الاصل ( خاصة هل وحواريه ) ، وتلك التي تؤكد على المتغيرات التوجيهية ( خاصة نظريات ماكلياند واتكنسون ) .

والنتيجة الهامة لهذه الدراسة التحليلية المقارنة تكشف عن الميل المتزايد بين علماء النفس الى استخدام المصطلحات المختلفة للاشارة الى مختلف جوانب المفاهيم من المتغيرات النفسية التي يعالجونها في نظرياتهم .

واحراز خطوة اكبر في نمو التنظير السيكولوجي يتم بتقبل نظام عام من المصطلحات طالما انها مفاهيم عامة مشتركة بين علماء النفس يعبرون عنها بمصطلحاتهم . وبطبيعة الحال ينبغي ان يكون هنالك مجال لاستخدام مصطلحات جديدة ومختلفة حينما يبتدع المنظر مفهوما جديدا او يكتشف متغيرا .



من هذا التحليل المقارن لنظريات الدافعية وتناولها للمتغيرات الدافعية بمفاهيم مختلفة، يمكن ان نخلص الى تصنيف لنظريات الدافعية خاصة وعلم النفس عامة الى الانماط التالية ( جدول رقم ٥ ، ٦ ) :

١ - نظريات « م - س » (S-R) ، وهي تتضمن كل النظريات الوصفية ذات لفظة البيانات السلوكية . وهذه النظريات قد تتضمن أو صافا

لكن هل وحواريه قد خلطوا لسوء الحظ - او على الأقل لم يميزوا بوضوح - بين البعدين المفهومين : « الاستعداد في مقابل الوظيفة » و « الدينامي الاصل في مقابل التوجيهي » . لذا يكون جهد الاستجابة والحافز وظائف ، بينما قوة العادة في الواقع استعداد ( تنشيط بالحافز ومن ثم فهي ايضا وظيفة ، ولكن لا يملك هل وحواريه مصطلحا لقوة العادة كوظيفة ) . وربما يعزى سبب هذا الاختلال الى ان الاستعدادات غالبا ما تكون توجيهية ( مثلما تكون قوة العادة ) ، وان الوظائف غالبا ما تكون دينامية الاصل ( مثلما يكون الحافز ) . لكن هناك استعدادات تكون دينامية الاصل ( مثل العوامل المراجعية ) ووظائف تكون توجيهية ( مثل الادراك وغيره من العمليات العرفية ) . ولذا تتضمن معادلة اتكنسون :  $M = C \times O \times T$  ( تمييزا بين البعدين : م ( الميل ) ، « و » ( التوقع ) وكذلك « ث » ( قيمة الباعث incentive-value تكون كلها وظائف ، فيها « م » كوظيفة متجهة « و » كوظيفة توجيهية ، « ث » كوظيفة دينامية الاصل . « ع » ( الدافع ) يتحدد في نظرية اتكنسون ( ١٩٦٤ ) بوضوح كاستعداد - ولكن ليس بوضوح وفقا لتأثيراته على السلوك - ومن ثم ربما يمكن تصنيفه كاستعداد متجه وكذلك كاستعداد دينامي .

واهمية التمييز بين هذين البعدين ربما تتضح أكثر اذا وجدناهما في تصنيف واحد ، يتبين منه لماذا كان المفهوم القديم للفريرة ( مثل مفهوم الفريرة عند ماكديوجل ) عقيما علميا ، حيث لم يتم اطلاقا بالتمييز والتحديد بين ابعاد المفاهيم ، فالفريرة كانت مصطلحا يشير الى كل من الاستعداد والوظيفة ، وكانت الوظائف تعتبر وظائف متجهة غير محددة .



جدول (٤) تصنيف جامع للمتغيرات الفرضية

المتغيرات التوجيهية	المتغيرات الدينامية	المتغيرات التجهية
الاستعدادات : « الأنا » و « الأنا الأعلى » عند فرويد قوة العادة عندهل	« الدافع » عند اتكسون	« الهى » عند فرويد
الوظائف : « التوقع » عند اتكسون	« القيمة » عند اتكسون	« الحاجة » عند موراي ( = عوامل الشخصية )
« الحالة » عند يونج	« الطاقة » عند فرويد	« الميل » عند اتكسون
	« التوتر » عند ليفين	« الحافز » عند فرويد
	« الحافز » عند هل	« القوة » عند ليفين
		« جهد الاستجابة » عند هل
		« الحاجة » عند موراي ( = الحافز )

جدول (٥) : أنماط نظريات الدافعية (مادسن

١٩٧٣)

نظريات « م - س »	نظريات « م - ر - س »	نظريات م - ض - س	نظريات « م - ق - س »
سكنر بولز	بافلوف يونيغ هـب تنبرجن دوفي فريمان برلاين بندرا مورجان ستيلار كونورسكى	فرويد وودورث ليفين تولمان هل ميلر سبنس براون موراي كاتل ماكلياند اتكنسون ماك ف هنت كوش فستنجر بربرام	اولبورت ماسلو

جدول (٦): تصنيف موحد لنظريات الدافعية (مادسن ، ١٩٧٣ )

## انماط النظريات

الفروض الأساسية	نظريات « م » « س »	نظريات « م - ر » « س »	نظريات « م - ض » « س »	نظريات « م - ق » « س »
فروض استعادة الاتزان		بافلوف ؟ دوقى فريمان	فرويد هل موراى ( ١٩٣٨ )	
فروض البامث	سكنر بولز	يونج تيرجين هـب برلاين بندرا	موراى ( ١٩٥٩ ) ليفين ماكلياند اتكنسون كاتل ميلر سبنس	
الفروض المعرفية			براون تولمان وودورث مالك لف هنت كوش فستنجر	
الفروض الانسانية				اولبورت ماسلو

تمخضت عن بيانات ومفاهيم وقروض ومتغيرات عديدة .

ومن طبيعة الظواهر المعقدة ان تخضع لمزيد من التحليل وتبين العلاقات ، وبالتالي تعدد النظريات والتصورات . وهنا يتوزع « بالتحليل » بيئة متعددة ، قد تكون حتى متناقضة .

وفرض منطق التناول العلمى لئلا هذه البيئة العارمة محاولة تبينها وتبصرها في اطار تصورات جديدة تكشف عن العلاقات بين النظريات وما بينها من تناقضات . ويقول آخر ، عندما تصل الدراسات والبحوث لظاهرة ما الى حد التشبع الزائد بالبيانات والنتائج ، يستلزم النمو في دراسة هذه الظاهرة « تركيب » Synthesis هذه البيئة الوفيرة في تصورات ونماذج اخرى تعمد الى جمع اشتات واوضاع النظريات المختلفة ، وتسعى الى كشف ما يجرى بينها من علاقات وتناقضات ، وما تنصف به من الهام او ايهام ، وما يشيع فيها من وصل وفصل .

بتمثل ذلك في بعض اتجاهات الفكر السيكلوجى المعاصر التى تعرف بـ « نمذجة النشاط النفسى » (Psychic Modelling) « تتحدد أهمية « النماذج » (Models)

في انها تسمح بأن تخضع للاختبار والمراجعة تلك الأسس التي تقوم عليها مفاهيمنا وقروضنا عن الظاهرة النفسية ، وبأن تبين امكانيات التطبيق العملي لهذه المفاهيم والقروض . ويكشف التطبيق انه لكي ندرس قوانين النشاط النفسى بنجاح يمكن ان نستخدم ليس فحسب المنظومات البيولوجية biological systems ولكن ايضا منظومات مبتدعة اصطناعا لمعالجة المعلومات information processing

وهذا الاتجاه الرامى الى مزيد من التقدم في بناء النظريات النفسية آخذ في النمو بعميق

لعلاقات أشبه بالقوانين Law - like relationships بين التفسيرات « م » والمتغيرات « س » ، لكن لا يقوم أى تفسير لهذه القوانين على فروض أساسية .

٢ - نظريات « م - ر - س » (S-O-R) ، وهى تتضمن كل النظريات التى تفسر علاقات « م - س » باستخدام متغيرات فرضية «ض» ذات معنى فسيولوجى . ( « ر » (O) وتعنى الاورجانزم ) .

٣ - نظريات « م - ض - س » (S-H-R) وتتضمن كل النظريات التى تفسر العلاقة « م - س » باستخدام متغيرات فرضية لها معنى « محايد » لا يشير الى أى شكل من واقع او مادة ( يقول آخر ، التكوينات الاصلية » genuine constructs وتتضمن هذا النمط أيضا كل النظريات التى تفسر استخدام النمط الشكلى « للمتغيرات الوسيطة » ( مثل ، النماذج الرياضية ) .

٤ - نظريات « م - ق - س » (S-M-R) وتتضمن كل النظريات التى تفسر العلاقات « م - س » باستخدام متغيرات فرضية ذات معنى عقلى ( « ق » (M) تعنى « عقلى » أو « العقل » ) .

٥ - نظريات « ق » (M) ، وتتضمن النظريات التى تعبر عن فهم لا يقوم على وصف موضوعى ودقيق بلغة البيانات السلوكية ، وإنما قد تقوم على لغة البيانات الظاهرية ( الفينومينولوجية ) . لكن اصحاب هذه النظريات لا يتضحون بجلاء في هذا بقدر ما يظهرون في فلسفتهم عن الانسان .

### ( ٣ ) نمذجة الدافعية

الدافعية ، اذن ، كانت ولا تزال موضوعا لفيض هائل من الدراسات النظرية والتجريبية

**نموذج استعادة الاتزان :** وهو أقدم النماذج في تاريخ علم النفس الدافعي . وقد ادخل مفهوم « الاتزان العضوي » Homeostasis في علم النفس ، السيكلولوجي الأمريكي « والتر كانون » ( ١٩١٥ ) عن الفسيولوجي الفرنسي « كلود برنار » في تصوره « للوسط الداخلي » internal milieu وقد قدم فرويد كذلك ( ١٩١٥ ) تصورا مشابها في نفس الوقت .

يتصور هذا النموذج ان كل العمليات البيولوجية - بما فيها السلوك - محتومة باختلال « الاتزان العضوي » - أي الشروط القصوى للاتزان في الاورجانيزم . وتستمر هذه العمليات حتى يعود « الاتزان » الى حالته الاصلية . ويؤلف اختلال الاتزان حاجة تحدد بدورها حافزا رئيسيا . وهذا الحافز ، بالاشتراك مع عمليات معرفية ، يحدد السلوك الذي يختزل - أو « يشبع » - الحاجة ، ومن ثم يعيد اقرار الاتزان العضوي .

ويوجد هذا النموذج في تلك النظريات المؤثرة مثل نظريات فرويد وهل . وقد تبني كثير من علماء النفس هذا النموذج لانه يتصف بعدة مزايا ، من أهمها :

( ١ ) انه نموذج بسيط .

و ( ٢ ) انه نموذج بيولوجي ، وهو ما يعتبر هاما بالنسبة لعلماء النفس في فترة ما بعد الدارونية .

وقد أدت شهرة هذا النموذج بعلماء النفس الى سوء استخدامه والى تجاهل الحقائق لفترة

الشبه بين « النموذج » و « الطراز الاصلى » ( prototype ) ويعتبر استخدام طريقة النمذجة في بحث النشاط النفسي ليس « مودة » ولكن حتمية تفرضها طبيعة المشكلات المعاصرة لعلم النفس . ومن ثم تمثل النمذجة في جوهرها حلقة بالغة القيمة ، ناقصة في نطاق الطرق المستخدمة في علم النفس والطب النفسي يمكننا من التحقق والمراجعة من البيئة التي تتمخض عنها البحوث ، ومن بناء نظرية علمية وعملية متقنة ونافعة . . » ( ١١ )

ولعل هذا الاتجاه يتبدى خاصة في علم النفس الدافعي ، وأبرز رواده « ك . مادن » العالم الدنمركي .

يقدم « مادن » لعلم النفس العلمي عدة نماذج للدافعية ، ويقرر : « لقد وجدنا انه من المقتنع تصنيف الفروض الاساسية - البديهيات والمسلّمات - للدافعية الى أربع فئات نطلق عليها « نماذج الدافعية »

Models of motivation

لأنها غالبا ما تكون نظما من المتغيرات الفرضية ذات العلاقات المتبادلة ، يمكن تمثيلها ب « نموذج » ووفقا للمضمون الاساسي للفروض الاساسية في النماذج ، يصنفها مادن على النحو التالي ( شكل ٢ ) ( ١٢ ) :

( ١ ) نموذج « استعادة الاتزان »

“Homeostatic” model

( ٢ ) نموذج « الباعث » “Incentive” model

( ٣ ) النموذج « المعرفي » “Cognitive” model

( ٤ ) النموذج « الانساني » “Humanistic” model

( ١١ ) أ . ا . براون وآخرون ( باللغة الروسية ) : نمذجة النشاط النفسي موسكو ، ١٩٦٩ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

( ١٢ ) K.B. Madsen. Patterns of preferences and models of motivation. Paper presented at the Symposium on Pleasure, Reward and Preference. June 5. - 9., 1972, Korsdr, - Denmark.

المثيرات المعروفة بـ « البواعث » أى موضوعات المثيرات الدافعة *motivating stimulus objects* ( الدينامية ، التنشيطية ، المعبئة للطاقة ) . وتتضمن البواعث في بعض النظريات « المدعمات » (reinforcers) و « موضوعات الهدف » goal objects

ويوجد نوعان من البواعث : الأولية والثانوية

**البواعث الأولية** ، وهى المتغيرات « م » (S) ، التى لها تأثير دينامى فطرى . وهذه البواعث الأولية تلعب دورا هاما فيما يعرف بالنظريات « الوجدانية » أو نظريات « اللذة » (hedonistic theories) التى تتشامخ بينها نظرية « بول توماس يونج » حيث يوضح ان للاستشارة الخارجية نتائج وجدانية ، وكذلك حسية ، وان « الاستشارة » الوجدانية (affective arousal)

توجه الأورجانزم نحو أو ضد موضوع المثير ولذا تؤثر في الاختيار والتفضيل . ومن النظريات الدافعة الصيت في هذا الصدد ، نظريات : هب (١٩٤٩) ، ماكلياند ، وتبرجن .

ومما تجدر اشارته ان النظرية الوجدانية قديمة للغاية - حتى أقدم من نظرية الاتزان . فهى تعود الى فلاسفة الاغريق القدامى مثل ابقراط ، و « أصحاب المذهب النفعي » ( مثل بنشام ) في القرن الثامن عشر . ويمكن التصور الوجداني ايضا في « قانون الأثر » عند ثورنديك وفي « مبدأ اللذة » عند فرويد .

**أما البواعث الثانوية** ، فهى المتغيرات « م » التى لها تأثير دينامى مكتسب . ولذا تلعب تلك البواعث دورا هاما في نظرية التعلم الحديثة . وكان بفضل دافعية الباحث عند « سبنس » ان تضمنتها نظرية هل ( يشار اليها بالرمز « ك » ) (K) تكريما لـ (K. W. Spence) وتحدد « دافعية الباحث » ك « (incentive motivation, K)

طويلة لم تتلاءم في النموذج . ولذا تعرض هذا النموذج لنقد شديد الوطأة بحيث انه لم يعد قادرا على استبقاء مكانته على انه النموذج الدافعي الثابت الوحيد ، الامر الذى ادى الى ابتداء نماذج اخرى كبداية له .

**نموذج الباحث :** استمرت « فترة نموذج استعادة الاتزان » من عام ١٩١٥ ( وهو العام الذى خرج فيه كانون بنظريته ) حتى عام ١٩٥٣ ( وهو العام الذى عقدت فيه « ندوة نبراسكا عن الدافعية Nebraska Symposium on Motivation وقد انتقد « هارلو (H.F. Harlow) في هذه الندوة نموذج الاتزان على انه ضيق للغاية ، وانه توجد دافعية أولية بيولوجية اخرى بجانب حافظ الاتزان . ولقد اهتم خاصة بوجود « حافظ استقصائي بصرى » visual exploratory drive

ولقد اتضح من التجارب الكثيرة فيما بعد ان حتى ما يعرف بحوافز الاتزان homeostatic drives ( بصفة خاصة : الجوع ، العطش الجنس ) لا يمكن تفسيرها كلية بواسطة استخدام نموذج الاتزان . ومن اقوى الانتقادات الموجهة ضد النموذج الضيق للاتزان تلك التى قدمها « بول توماس يونج » ( ١٩٤١ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٨ ) ، وهى تقوم على بيئة تجريبية تتعلق بتفضيلات الطعام لدى الحيوانات ، وهذه التفضيلات لم تقم على الاتزان العضوى .

ويمكن تلخيص القضايا الرئيسية المتضمنة في « نموذج الباحث » كما يلى : يكون لمثيرات خارجية معينة تأثيرا ديناميا ، أى تحدد حالة التنشيط state of activation أو تعبئة الطاقة energy mobilization في الأورجانزم . وهذه الحالة الدينامية ، بالاشتراك مع العمليات المعرفية ، تحدد سلوك الأورجانزم . وغالبا ما يتعاضد هذا السلوك اختزال للمثيرات الدينامية الخارجية ( انظر الشكل ) ولهذه المثيرات أصلها في موضوعات

تأثير تنشيطي مشابه للحافز . هذا التأثير  
التنشيطي أو الدينامي لميكانيزم

س - هـ

فصل عن التأثير التوجيهي بالرمز « ك » .

وقد صار « ك » ، في تعديلات سبنس ( ١٩٦٠ ) الأخيرة لنظريته ، أكثر أهمية من « ف » ( الحافز ) كمحدد للسلوك ، حيث افترض هنا انهما يتفاعلا بطريقة الاضافة ، ومن ثم كان تعديل سبنس لمعادلة هل المشهورة على النحو التالي :

$$م \times س = د + [م \times س] \times (ف \times ك)$$

أو جهد الاستجابة = دالة قوة العادة  $\times$   
( الحافز  $\times$  دافعية الباعث )

وقد افترض ان « ك » تكتسب بالتدعيم ، وتتحدد كاختزال للحافز ، بينما تكون « م ع س » ( قوة العادة ) مكتسبة بالتجاور contiguity وفقا لما يذهب اليه سبنس .

ومن بين النظريات الحديثة في الدافعية التي تنتمي الى « نموذج الباعث » : نظرية اتكنسون ومن بين النظريات المبكرة : نظرية ليفين ، لانها تتضمن مفهوم « القيمة الذاتية » valence الذي تأثر به اتكنسون بعمق . كذلك يشبه مفهوم « الشحنة الانفعالية » cathexis عند فرويد المفهوم الحديث للباعث .

**النموذج المعرفي :** يدخل هذا النموذج تماما في كثير من النظريات المبكرة عن الادراك والعمليات المعرفية ، لكن بدون احكامها كنظريات لدافعية .

هذه ، بالاشتراك مع « الحافز » ( ف ) و « قوة العادة » ( م ع س ) ، « جهد الاستجابة » ( م ج س ) والسلوك المتتابع . اذن ، « ك » متغير فرضي يتحدد بالمتغير « م » : حجم ونوع الاثابة ( مثل ، الطعام ) المستخدمة في تجارب التعلم التي تشير النظرية اليها .

طور سبنس تصور دافعية الباعث على اساس مفهوم هل عن « استجابة الهدف السابقة الجزئية » (fractional antedating goal response) المعروفة بـ « ميكانيزم

$$س - هـ = م - (س - ع)$$

« والخاصية المميزة ، بل الوظيفة الوحيدة لهذه الاستجابة السابقة الجزئية ، هي انها تنتج مثيرات مميزة للحصول على الهدف . ويسمى هل هذا المثير ، مثير الهدف الجزئي fractional goal stimulus (س) (س)»

ونلاحظ ان حرف م صغير دليل على أنه مثير جزئي ، وان هل يربط بين هـ و س

يخط متقطع اشارة منه الى ان الرابطة بينهما داخلية . وتتطلب نشأة استجابة الهدف السابقة الجزئية ان ترتبط هذه الاستجابة

(س) ارتباطا وثيقا بالحصول على الاهداف اى بالتعزيز « (١٣)

ولميكانيزم استجابة الهدف السابقة الجزئية في نظام هل تأثير توجيهي فحسب ، لكن يشير سبنس الى احتمالية ان يكون لاجباط استجابة الهدف الكاملة (RG) complete goal response (س)

( ١٣ ) سيد عثمان : الفعل المثير الخالص . الكتاب السنوى الاول للجمعية المصرية للدراسات النفسية ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

أما الشكل الآخر للنموذج المعرفي في الدافعية  
يفترض أن للعمليات المعرفية « دافعية  
الذاتية أو الداخلية » (intrinsic motivation)

وأفضل إضاح لهذا نظرية « وودورث » ،  
التي تتضمن تعميماً لفكرة « الدافعية الذاتية  
أو الداخلية » في « نظرية أولية السلوك »  
(Behavior Primary theory)

تقرر هذه النظرية أن أكثر أنواع الدافعية  
أساسية يقوم على تناول البيئة بقوة . وهذه  
النظرية لا تستبعد الحقيقة بأن الدافعية  
« الخارجية » extrinsic - الحاجات  
والبواص - قد تحدد أيضاً السلوك في بعض  
الحالات . لكن الفكرة الأساسية أنه حتى بدون  
هذه المصادر « الخارجية » الدافعية يكون  
الأورجانزم نشطاً .

قدم « مالك . في . هنت » ( ١٩٦٥ )  
« صيغة جديدة لنظرية المعلومات »  
(information theory version)

للنظريات المعرفية المبكرة من الدافعية ، وبين  
أن نظرية « جان بياجيه » تتضمن فرماً  
كاملاً عن الدافعية المعرفية « الذاتية أو  
الداخلية » ، وأن نظرية « كارل بيربرام » -  
العالم الأمريكي السيكونيولوجي - تنتمي  
إلى نفس الفئة .

ولما كانت العمليات المعرفية المركبة تتعلق  
استثنائاً بالإنسان ، فإن النموذج المعرفي  
يقترّب من النموذج الإنساني .

**النموذج الإنساني :** لم يتحدد هذا النموذج  
بوضوح مقارنة بالنماذج الثلاثة الأخرى . لكن  
هناك مجموعة من نظريات الدافعية تتلوى على  
خصائص مشتركة بحيث يمكن تمييزها عن  
النظريات الأخرى وتصنيفها في فئة واحدة .  
ومن المعالم الهامة المشتركة بينها :

( ١ ) التصور الإنساني لعلم النفس .

ومن هنا ، تضمنت نظرية الجشطالت  
الكلاسيكية فروضاً دافعية ( ف . هيبدر ،  
١٩٦٠ ) . فقد عالج علماء نفس الجشطالت  
« الميل إلى الإغلاق » أو « إلى خالق شكل  
جيد » على أنه متغير دينامي ، « قوة » .  
وهذا التصور لم يحكم أبداً في فروض دافعية  
صريحة ، وربما قصد فحسب بالميل إلى  
الإغلاق تفسير دافعية العمليات المعرفية .  
لكن استطاع ليفين حيك نظرية عامة في الدافعية  
والشخصية ، تعتبر نظرية باعثة  
incentive theory أكثر منها نظرية معرفية .

وقد ألهمت أعمال السيكونيوجين الجشطالت  
كذلك ، من خلال ليفين ، العالم « تولمان » .  
تضمنت نظرية تولمان ( ١٩٣٢ ) كلا التفسيرات  
المعرفية والدافعية لكي يفسر السلوك الفرضي  
لدى الحيوانات والإنسان . وكانت بعض  
المتغيرات - خاصة « التهيؤ للدلائل الجشطالت »  
( sign - gestalt - readiness )

عند تولمان - متغيرات دافعية معرفية مختلطة  
وقد أحكم تولمان بعد ذلك ( ١٩٥١ ) هذه  
المتغيرات المختلطة في « مصفوفة الاعتقاد -  
القيمة » (Belief - Value Matrix)  
التي تحدد السلوك ، بالاشتراك مع « نظام  
الحاجة » (Need System) و « حيز  
السلوك » (Behavior Space) . وقد أطلق  
تولمان نفسه على نظريته ( ١٩٥٢ ) « النموذج  
المعرفي للدافعية »

( A Cognition Motivation Model )

وتتضمن النظريات الحديثة للدافعية شكلين  
مختلفين بدرجة بسيطة للنموذج المعرفي :

يلذهب الشكل الأول إلى أن العمليات  
المعرفية تحدد العمليات الدينامية ، وأن  
العمليات المعرفية إذن تأثير توجيهي وكذلك  
دينامي ( بطريقة غير مباشرة ) . وخير مثال  
لهذا النمط نظرية « ليون فستنجر » عن  
« التنافر المعرفي » .

الطبيعي الذي سيطر حديثا على الفكر السيكولوجي الأمريكي . وارتباطا بذلك أيضا تبني تصورا إنسانيا خاصا للإنسان خلافا للتصور البيولوجي السائد . ويتضمن تصور ماسلو للإنسان فرضه المتعلق بنوع راشد إنسانى خاص للدافعية يعرف بـ « الحاجة الى النمو » (growth need) أو « دافعية التغير » (metamotivation)

ويمكن الإشارة الى نظرية « توماس مور » (١٩٤٨) كمثال آخر ، وإن كان أقل ذيوعا . وتفترض هذه النظرية تصورا إنسانيا للعلم ونظرية في « حرية الإرادة » الاحتمية للدافعية الإنسانية .



من هذا العرض لنمذجة النشاط الدافعى يتضح الى أى حد تختزل النمذجة الكثير من نظريات الدافعية الى نماذج محددة تسكن فيها مفاهيمها ومتغيراتها . لكن يسعى بعض العلماء الى مزيد من الربط والوصل بين هذه النماذج المختلفة في تصورات تركيبية synthesis أكثر عمومية ووظيفية . من هذه التصورات ما قدمه « مادسن » (١٩٧٢) من « نموذج متكامل » ، يحاول فيه اقرار التكامل بين هذه النماذج ، وإن كان يقرر انه لم ينجح في تضمين النموذج الإنسانى داخل « النموذج المتكامل » ، وبالتالي يسعى هذا النموذج الأخير الى التكامل بين النماذج الثلاث الأولى : « نموذج الاتزان » ، « نموذج الباعث » « النموذج العرفى » .

يقوم التصور التركيبى لهذا النموذج الموحد كما يقرر مادسن ، على فرضين : الأول يقرر ان كل انماذج الثلاث « صادقة جزئيا » بقدر ما تتناول فئات مختلفة من الدافعية . ويقول آخر ، نماذج الدافعية صادقة كلها ، لكنها قد حدثت من إمكانية تطبيقها . لذا يفترض ان كل نموذج صادق لفئة خاصة من الدافعية .

( ٢ ) افتراض وجود فئة خاصة لدافعية الإنسانية . وتعتبر فئة الدافعية هذه - أو السلوك الإنسانى ككل - « غير » محددة .

ومن اصدق النظريات تعبيرا عن هذا النموذج : نظرية « أولبورت » و « ماسلو » :

عرض « جوردون أولبورت » نظريته في كتابه « الشخصية » (١٩٣٧) ، طبعة معدلة (١٩٦١) . في هذا الكتاب الدائع الصيت ، قدم تحديدا وتمييزا بين العلوم ذات المنحى الفردى (idiographic) والعلوم ذات المنحى الناموسى (nomothetic) ، يقترب من التصورين الخاصين بـ « العلوم الطبيعية » (natural) و « العلوم الشرحية » (hermeneutic) . وقدم فيه أيضا تصوره عن « الاستقلال الوظيفى » للدافعية (functional autonomy) الذى تأثر فيه بالفكرة التى عرض لها وودورث في كتابه الاول (١٩١٨) . ووفقا لهذا التصور توجد بيئة تؤيد وجود فئة من الدافعية لدى الراشدين ، الناضجين والمتمتعين بالصحة النفسية ، تكون مستقلة وظيفيا عن الدافعية الاولى الاساسية التى توجد لدى الحيوانات والاطفال .

ويوضح أولبورت ان نظريات الدافعية المتضمنة في نظريات التعلم تستند بطريقة ضيقة للغاية على التجريب على الحيوانات ، وان نظرية الدافعية المتضمنة في نظرية التحليل النفسى تستند أيضا بطريقة ضيقة للغاية على دراسة المصابين ، وهم أكثر طفلية في دافعيتهم من الراشدين الناضجين الأصحاء (مادسن ، ١٩٥٩) .

وقد تأثر « أبراهام ماسلو » في نظريته بأولبورت وغيره . ويعتبر ماسلو امام « علماء النفس الانسانيين » (humanistic psychologists) حيث نادى بالحاجة الى تصور إنسانى آخر للعلم خلافا للتصور



( الفصوص الحرفية ، وهى المحطة بالجسم الجاسي في الدماغ ) أو « الباعث » .

### ٣ - الدوافع الحرفية Cortical motives :

وتتضمن اللحاء المخي cerebral cortex وكذلك منظومة الاستثارة الشبكية . وهى تلك الفئة من الدوافع التى تقوم بوظيفتها وفقا للنموذج المعرفى : فالعمليات المعرفية تحدد دافعتها . ومن ثم يمكن أن تسمى هذه الفئة بالدوافع « المعرفية » أو « اللحائية » .

### ٤ - دوافع منظومة الاستثارة الشبكية

#### Reticular Arousal System

وهى الدوافع التى يفترض أن تتضمن فقط منظومة الاستثارة الشبكية (RAS) وهى الدوافع التى يصدق عليها النموذج « الذاتى أو الداخلى » intrinsic - مثل نظرية أولية السلوك عند وودورث . ومن ثم ، يمكن أن تعرف بالدوافع « الذاتية أو الداخلية » أو « دوافع الاستثارة أو التنشيط » (activation motives) .



**والخلاصة :** لقد عرف علم النفس لسنوات عديدة بحقيقة تقرر بأنه ذلك العلم الذى ينتج نظريات متعارضة كثيرة . وربما يستمر هذا الاتجاه في المستقبل . لذا ، من الأهمية بمكان بالنسبة لعلماء النفس أن يكونوا قادرين على أن ينموا في أنفسهم القدرة على ترشيد تناولهم لهذه النظريات المختلفة ، وعلى استخدامها بوعى يفتح على علم النفس كعلم ، لا على نظرية بعينها ، وأن يكونوا على بصيرة من أنفسهم فيخفضوا من دفاعاتهم الرامية إلى فرض محرمات نظرية theoretical taboo على الظاهرة النفسية الحية المتسامية . .

وحسبنا تبصر « علم النفس العلمى » !

أما الفرض الثانى ، فمؤداه أن كل فئة للدافعية تتضمن بنية معينة في الدماغ ( بالإضافة الى « منظومة الاستثارة الشبكية » التى تتضمن كل أنواع الدافعية ) . وفى ضوء ذلك ، يقترح مادسن ( ١٩٧٢ ) الفئات التالية للدافعية :

### ١ الدوافع دون سريرية المخ

#### hypothalamic motives

وهى الفئة من الدافعية التى يفترض وجودها في مراكز دون سريرية المخ

#### hypothalamic centres

وكذلك في منظومة الاستثارة الشبكية (RAS) . وهذه الفئة تكون أكثر صدقا بالنسبة لنموذج استعادة الاتزان . ولكن حتى في هذه الحالة لا نستطيع اعتبار نموذج الاتزان على أنه صادق تماما ، حيث أن دوافع الاتزان تتضمن ، مثلا ، الدافع الجنسي الذى لا يعتبر كلية دافعا للاتزان العضوى . وربما تحدد البواش أيضا هذا النوع من الدوافع وكذلك الدوافع العضوية الأخرى : الجوع ، العطش ، تجنب الألم ، تجنب البرد ، الخ . لذا يمكن أن يطلق على هذه الفئة من الدافعية « الدوافع العضوية » ، أو « دوافع استعادة الاتزان » أو « الدوافع دون سريرية المخ » .

### ٢ - الدوافع الحرفية limbic motives

وهى تلك الفئة من الدافعية التى يفترض أن تتضمن « المنظومة الحرفية » limbic system في المخ ، وكذلك منظومة الاستثارة الشبكية . وهنا يتبين مادسن فروض « كورنورسكى » بأن « الدوافع الانفعالية » تتضمن « مراكز الحوافز الحرفية » limbic drive centers وأن « الدوافع الاجتماعية » مشروطة بالدوافع الانفعالية . وهنا ينطبق خاصة « نموذج الباعث » على هذه الدوافع . لذا يمكن أن تسمى أيضا الدوافع « الانفعالية » و « الاجتماعية » بالدوافع « الحرفية »

### المراجع

- ALLPORT, G. W. *Personality : a psychological interpretation*. New York : Holt, Rinehart & Winston, 1937.  
*Pattern and growth in personality*. New York : Holt, Rinehart & Winston, 1961.
- ATKINSON, J.W. *An introduction to motivation*. Princeton, N. J. : Van Nostrand, 1964.  
 (ed.) *Motives in fantasy, and society*. Princeton, N. J. : Van Nostrand, 1958.  
 and Feather, N. T. (eds.) *A theory of achievement motivation*. New York : John Wiley, 1966.
- Bash, K.W. An investigation into a possible organic basis for the hunger drive. *J. Comp. Physiol. Psychol.*, 1939, 28, 109 - 135.
- BERLYNE, D. E. *Conflict, arousal, and curiosity*. New York : McGraw Hill, 1960.  
 Motivation problems raised by exploratory and epistemic behaviour. In S. Koch (ed.), *Psychology - a study of a science*, Vol. 5. New York : McGraw-Hill, 1963.  
 Reinforcement and arousal. In David Levine (ed.), *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1967.
- BINDRA, D. *Motivation : a systematic reinterpretation*. New York : Ronald Press, 1959.
- BOLLES, R. C. *Theory of motivation*. New York and London : Harper & Row, 1967.
- BROWN, J. S. *The motivation of behavior*. New York : McGraw-Hill, 1961.
- CATTELL, R.B. *Description and measurement of personality*. New York : Harcourt, 1946.  
*Personality ; a systematic theoretical and factual study*. New York : McGraw-Hill, 1950.  
*Personality and Motivation structure and measurement*. New York : World Book World Book Co., 1957.  
*The scientific analysis of personality*. Baltimore : Penguin, 1965.  
 (ed.) *Handbook of modern personality theory*. Chicago : Aldine, forthcoming.
- COLEY, K.M. *Energy and structure in psychoanalysis*. New York : Ronald Press, 1955.
- DOLLARD, J., and MILLER, N.E. *Personality and psychotherapy*. New York : McGraw-Hill, 1950.
- DUFFY, ELISABETHI, *Activation and behaviour*. New York : John Wiley, 1962.
- EYSENCK, H. J. *The biological basis of personality*. Springfield, Ill. : Charles C Thomas, 1967.
- EYSENCK, H. J., (ed.) *Experiments in motivation*. Oxford : Pergamon Press, 1964.

- FARBER, I. E. Anxiety as a drive state. In M. R. Jones (ed.), *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1954.
- FEATHER, N. T. An expectancy-value model of information-seeking behaviour. *Psychological Review*, 1967, 5 (74), 342-60.
- FRANKEL, Y.E. *Man's search for meaning : an introduction to logotherapy*. New York : Washington Square Press, 1963.
- HEBB, D.O. *Organisation of behaviour*. New York : John Wiley, 1949.
- Drive and the CNS (conceptual nervous system). *Psychological Review*, 1955, 62, 243-54.
- A Neurophysiological theory. In S. Koch, *Psychology-a study of science*, vol. I. New York : McGraw-Hill, 1959.
- A textbook of psychology*. Philadelphia : Saunders, 1966.
- HULL, C. L. *Principles of behavior*. New York : Appleton-Century-Crofts, 1943.
- A behaviour system*. New Haven : Yale University Press, 1952.
- JONES, M.R. (ed.) *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1953-1963.
- LAWRENCE, D.H. & W. A. MASON. Food intake in the rat as a function of deprivation intervals and feeding rhythms. *J. Comp. Physiol. Psychol.* 1955, 48, 267-271.
- A dynamic theory of personality*. New York : McGraw-Hill, 1935.
- Principles of topological psychology*. New York : McGraw-Hill, 1936.
- A conceptual representation and the measurement of psychological forces*. Durham N.C. : Duke University Press, 1938.
- Field theory in social science*. D. Cartwright (ed.) New York : Harper & Row, 1952.
- LINDSLEY, D. B. Psychophysiology motivation. In M.R. Jones (ed.), *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1957.
- LURIA, A. R. *Human brain and psychological processes*. New York : Harper, 1966.
- MC CLELLAND, DAVID C. *Personality*. New York : Dryden Press, 1951.
- The achieving society*. Princeton, N. J. : Van Nostrand Reinhold, 1961.
- (ed.) *Studies in motivation* : New York : Appleton-Century-Crofts, 1955.

- ATKINSON, JOHN W., CLARK, RUSSELL A., and LOWELL, L. **The achievement motive**, New York : Appleton-Century-Grofts, 1953.
- MC CIELLAND, D. and WINTER, D. **Motivating economic achievement**. New York : Free Press, 1969.
- MC DOUGALL, W. **An introduction to social psychology**. London : Methuen, 1908, 1908. The 1960 edition is used here. **The energies of men**, London : Ethuen, 1932.
- MADSEN, K.B. **Theories of motivation**, 4th ed. Copenhagen : Munke-gaard, 1959. 4th ed., 1968.
- Integration through meta-science**. Exemplified by a comparative study of psychological theories. **Proceedings of the XIV International Congress of Philosophy**, Vienna & s1968 b.
- Modern theories of motivation**. Copenhagen : Munksgaard, 1973.
- MASLOW, A. H. **Motivation and personality**. New York : Harper and Row, 1954.
- New knowledge in human values**. New York : Harper and Row 1959.
- Toward a psychology of being**. Princeton, N.J., : Van Nostrand Reinhold, 1962.
- The psychology of science**. New York : Harper & Row, 1966.
- A theory of meta-motivation ; The biological rooting of the valne-life**. **Journal of Humanistic Psychology**, ٤967, 93-127.
- MILLER, N.E. An experimental investigation of acquired drives. **Psychological Bulletin**, 1941, 38, 534-35.
- Studies of fear as an acquirable drive**. **Journal of Experimental Psychology**. 1948, 38, 89-101.
- Learnable drives and rewards**. In S. S. Stevens (ed.), **Handbook of experimental psychology**. New York : John Wiley, 1951.
- Liberalization of basic S-R-concepts ; extension to conflict behaviour, motivation, and social learning**. in S. Koch (ed.), **Psychology - A study of a science** vol. 2. New York : McGraw-Hill, 191959.
- And DOLLARD, J. Social learning and imitation**. New Haven, Conn : Yale University Press, 1941.
- MORGAN, C. & J. T. MORGAN, **Studies in hunger : II the relation of grastic denervstion and dietary sugar to the effect of insulin upon food intake in the rat**. **J. Genet. Psychol.**, 1940, 57, 153-163.
- MORUZZI, G., and MAGOUN, H.W. Brain stem reticular formation and activation of EEG. **EEG Clinical Neurophysiology**, 1949, 1, 455-73.

- MOWRER, O. H. A stimulus-response analysis of anxiety and its role as a reinforcing agent. *Psychological Review*, 1939, 46, 553-65.
- Learning theory and personality dynamics. New York : Ronald Press, 1950.
- Motivation. *Annual Review of Psychology*, 1952, 3, 419-32.
- Learning theory and behaviour. New York and London : John Wiley, 1960a.
- Learning theory and the symbolic processes. New York and London; John Wiley, 1960b.
- MURPHY, G. *Personality : A biological approach to origins and structure*. New York: Harper, 1947.
- MURRAY, H. A. *Explorations in personality*. New York : Oxford University Press, 1938.
- Toward a classification of interaction. In T. Parson and E. A. Shill (eds.), *Towards a general theory of action*. Cambridge, Mass : Harvard University Press, 1951.
- PETERS, R.S. *The concept of motivation*, London : Routledge & Kegan Paul, 1958.
- AIRPORT, D. The structure of psychoanalytic theory : a systematic attempt. In S. Koch (ed.), *Psychology a study of a science*, vol. 3. New York : McGraw-Hill 1959.
- On the psychoanalytic theory of motivation. In M.R. Jones (ed.) *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1960.
- SKINNER, B.F. *Science and human behavior*. New York : Macmillan, 1953.
- Technology of teaching*, New York : Appleton-Century-Crofts, 1968.
- SOKOLOV, E.N. *Perception and the conditioned reflex*. Oxford : Pergamon Press, 1963.
- SPENCE, K. W. *Behaviour theory and conditioning*. New York, Conn. : Yale University Press, 1956.
- Behaviour theory and learning*. Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1960.
- and JANET TAYLOR SPENCE (eds.) *The Psychology of learning and motivation*. New York and London : Academic Press.
- THOMAE, H. (ed.) *Allgemeine Psychologie II : Motivation*. Göttingen : Hogrefe's Verlag Für Psychologie, 1965.
- THORNDIKE, E. L. Animal intelligence. *Psychological Review*, 1898, Monograph Supplement 2, 8.
- Animal intelligence*, New York : Macmiltan, 1911.

- TINBERGEN, N. *The study of instinct*. Oxford ; Oxford University Press, 1951.
- TOLMAN, E. C. *Purposive behaviour in animal and men*. New York : Appleton-Century-Crofts, 1932.
- Drives towards war*. New York : Appleton-Century-Crofts, 1942.
- A Psychological model. In T. Parson and E.A. Shill (eds.), *Toward a general theory of action*. Cambridge, Mass : Harvard Univeraity Press, 1951.
- Principles of purposive behaviour. In S. Koch (ed), *Psychology, A study of a science*, vol. 2, New York : McGraw-Hill, 1959.
- TSANG, Y. C. Hunger Motivation in gastrectomized rats. *J. Abnorm. Physiol. Psychol.*, 1938, 26, 1-17.
- WANGENSTEEN, O.H. & A.J. CARISON., Hunger sensations in a patient after total gestrectomy. *Proceedings of the Society of Experimental Biology*, 1931, 28, 545 - 547.

## ابن شرف القيرواني

وآراؤه النقدية في رسائله (( اعلام الكلام ))

## محمد سلامة يوسف

زيري واشهر ملوكهم وريب المالكية ورضيع  
لبانها - بدا له ان يقطع الصلة الواهية التي  
تربطه بالعبيدين الشيعي النحلة ، فاعلن  
انفصاله عنهم ، وخلع طاعتهم ، ولعنهم على  
اعواد المنابر ، وحمل المغاربة على اعتناق مذهب  
مالك والاستمساك به دون سواء متاسيا في ذلك  
بملوك بني أمية بالاندلس ، يقول ابن الأثير :  
« وهذا المعز أول من حمل الناس بافريقية على  
مذهب مالك ، وكان الاغلب عليهم مذهب أبي  
حنيفة » (١) ويقول ابن خلدون : « وكان المعز  
منحرفا عن مذاهب الرافضة ، ومنتحلا لسنة  
فاعلن بمذهبه لأول ولايته ، ولعن الرافضة ،  
ثم صار لي قتل من وجد منهم » (٢) .

ابن شرف افريقي أو بالاحرى مغربي المولد  
والمنشأ والمربي ، وقد كان معاصرا لدولة بني  
زيري خلفاء العبيدين على المغرب وعما لهم  
عليه ، بعد أن فتحوا مصر واتخذوا من القاهرة  
قاعدة للكهم ، وما أن جلا العبيدون عن المغرب  
حتى تنفس أهل السنة الصعداء بعد أن لقوا  
على أيدي العبيدين ضروبا من الاذى وصنوبا  
من العسف والوانا من الاضطهاد زهاء ستين  
عاما أو أكثر ، حاولوا فيها بثتي الوسائل  
ومختلف الاساليب لرضي المذهب الشيعي  
وتعم المذهب السني والقضاء على أهله ،  
ولاسيما المالكية منهم .

ولما ولي المعز بن باديس - واسطة عقد بني

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦ : ١٥٩ .

(١) الكامل ٩ : ٩٥ .

**حياته :**

هو أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد أحمد بن شرف الجذامي القيرواني ، هذا ماورد فيما اثر لنا من كتب التراجم والطبقات التي ترجمت له ، وعرفت به قديما وحديثا ، فياقتوت يقول في ترجمته له : ( محمد بن أبي سعيد محمد المعروف بابن شرف الجذامي القيرواني ) (٣) ويقول الصفدي : « محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني أبو عبد الله الجذامي(٤) ويقو ابن شاذان الكلبى في قواته : « محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني الجذامي » (٥) ويقول ابن بشكوال : « محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي القيرواني يكنى أبا عبد الله » (٦) ويقول السيوطي : « محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي » (٧) ويكتفى ابن بسام في ترجمته بقوله : « وكان أبو عبد الله بن شرف بالقيرواني من فرسان هذا الشأن » (٨) ويفغل الدباغ في معالم الايمان (٩) ذكر نسبه وبهمله ، ولا يشير اليه ، أما ابن دحية في كتابه المطرب فقد اورد سلسلة نسبه ، وانتهى به الى قحطان نقلا عن ابن الكلبي أول من راد علم الأنساب ، والى فيها حيث يقول في بداية ترجمته له : ( من ولد جذام بن عدى بن الحارث بن مرة بن أد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان كذا نسبه أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبى (١٠) أما المحدثون فقد

بيد أن المعز لم ينعم طويلا بالاستقلال ، فقد اغضب العبيدين ، واحفظهم واثار موجدتهم عليه ، فأخذ الخليفة المستنصر الموتر يفكر كيف يثار لنفسه من المعز الذى انشق عليه ، وخلق طاعته ، فأشار عليه وزيره اليازورى أن يشرعوا فى ارسال العرب الى المغرب ، فأصلحوا بين زغبة ورياح وكانت بينهم حروب وحقوق واعطوهم مالا ، وأمروهم بقصد القيروان ، وملكوهم كل مايفتحونه ، ووعدوهم بالمدد والعدد فدخلت العرب افريقية ودارت رحى الحرب على أرض المغرب حتى عجز المعز عن رد عادية الأعراب المغيرين ، وسقط في يده ، واضطر الى أن يشير على رعيته بالارتحال من القيروان الى المهديّة سنة ٤٩ هـ وهكذا نجحت المكيدة التى بيتت بيل ، وخربت القيروان دار العلم بالمغرب ، وانحسرت موجة العلم والأدب عن القيروان الى المهديّة العاصمة الثانية لامراء بنى زيرى ، وأرز اليها العلماء والأدباء والشعراء .

وقد عاش ابن شرف فى ظلال المعز بن بارسى ، واتصلت أسبابه بأسبابه ، وانخرط فى سلك خدمته ، ولقى حظوة كبيرة فى بلاطه ، حتى أصبح شاعر المعز المقدم عنده الأثير لديه على سائر من فى بلاطه من الأدباء والشعراء باستثناء ابن رشيق .

(٣) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(٤) الوالى بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(٥) هوات الوفيات ٢ : ٤١٠ .

(٦) الصلة ٢ : ٥٧١ .

(٧) بغية الوعاة : ٤٦ .

(٨) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٣ .

(٩) معالم الايمان : ٣ : ٢٣٩ .

(١٠) المطرب : ٦٦ .



في الرد عليه عدة تصانيف ، كان أبوه رشيق روميا ذكر ذلك هو في الرد على ابن شرف بعد ذكره نسب ابن شرف : هو اسم امرأة نائحة ، ثم قال : وأما أنا فنضر الله وجه هذا الشيخ في ، وأتم به النعمة على ، فعا أبني به أبا ، ولا أرضى بملعبه مذهبا ، رضيت به روميا لأدعيها ولا بدعيا » (١٤) فيبدو لنا من هذا النص أن ابن شرف ربما كان ينز ابن رشيق بأرومته الرومية ، ويفخره في نسبه في الأعاجم ، ويطعن عليه ، وينتقص منه بذلك ، وينال منه في زمن كان العربي يعتز فيه بعرويته ، ويستشعر فيها العزة والشعم، وكان الموالي الممنون الى أصول غير عربية لا يألون جهدا في الابتغاء من الولاء الذي وسبهم بميسم الدلة والصغار ، ومن ثم أخذوا يصطنعون الأنساب العربية ، وينتفون جهدهم من أصولهم غير العربية التي نمتهم ، حتى أننا نجد أبا مسلم الخراساني وهو من هو يصطنع لنفسه نسبا عربيا يزعم فيه أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس ، وقد قرعه بذلك أبو جعفر المنصور ، وأنكر عليه هذا النسب المزعوم عندما هم بالإيقاع به وقتله على ما يروى لنا الطبري في تاريخه : (١٥) ونرى ياقوت في ترجمته للجاحظ يورد لنا قصة تدل على سخريته الجاحظ (١٦) بهذه الصناعة التي راجت في عصره ، إلا أننا نرى ابن رشيق في رده على ابن شرف يصرح برضاه عن نسبه في الأعاجم ، ويفخر بأرومته الرومية ، ويعرض

تبعوا القدامى عند ترجمتهم لابن شرف . **فالبغدادى** في هدية العارفين يعرف به وينسبه بقوله : « محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف الجدامى القيرواني » (١١) ويقول **محمد كرد على** : « أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجدامى القيرواني » (١٢) ويقول **صاحب معجم المطبوعات** : « أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني الجدامى » (١٣) .

ومن عرضنا لما ورد عن أصحاب التراجم والطبقات قديما وحديثا في نسبه عند ترجمتهم له ، وتعريفهم به نجدهم قاطبة يجمعون على أنه عربي صليبة وليس ولاء ، وأنه سليل قبيلة جذاع تلك القبيلة العربية القحطانية التي نزلت الى أفريقية فيمن نزع إليها من القبائل العربية إبان الفتوح الإسلامية لهذا الصقع ، وألقت به عصا التسيار ، وطاب لها المقام بمدينة القيروان ، فهو إذن عربي صريح ينتمى الى أرومة عربية قحطانية ، وقد كان نسبة العربي أمرا متعلما مشهورا ، حتى أن ابن رشيق ، قريعه ومنافسه في بلاط المعز بن باديس ، لم يستطع أن يفخره في نسبه أو يطن في عرويته ، وينال منها عندما استحکم العداء بينهما ، فعندما نقرا في ترجمة ياقوت لابن رشيق : « وكان بينه وبين ابن شرف الإديب مناقضات ومحادثات ، وصنف

( ١١ ) هدية العارفين ٢ : ٧٢ .

( ١٢ ) رسائل البلقاء ٢ : ٢٠٢ وانظر ترجمة حسن حسنى لابن شرف في مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥١ .

( ١٣ ) معجم المطبوعات ١ : ١٢٩ .

( ١٤ ) معجم الأدباء ٨ : ١١١ .

( ١٥ ) تاريخ الطبري ٩ : ١٦٦ - ١٦٧ .

( ١٦ ) معجم الأدباء ١٦ : ٩٤ .

بأن شرف الذي قالوا عنه : ان شرف اسم أمه (١٧) ، وأنه ليس له أب معروف ، كما غمز به بذلك مرة أخرى حيث يقول :

أما أبى فرشيقي لست أنكره

قل لى أبوك وصوره من الخشب

وهكذا نرى أن أصحاب التراجم والطبقات يجمعون على أن ابن شرف عربى صريح ، وأنه سليل قبيلة جذاع تلك القبيلة العربية اليمنية (١٨) التى ينتهى نسبها الى قحطان .

ولم يشر أحد ممن ترجموا له ، وعرفوا به الى مكان ولادته ومسقط رأسه ، ويثأب على أنظر أنه ولد بالقيروان ، أما سنة مولده فأننا لا نكاد نجد أحدا أشار إليها ممن ترجموا له من أصحاب التراجم القدامى ، أما المحدثون فقد حدها الأستاذ محمد كرد على وحسن حسنى بنحو سنة ٣٩٠ هـ (١٩) ، أما سنة وفاته فانهم يكادون يتفقون على أنه توفي سنة ٤٦٠ هـ (٢٠) ولم يشذ عن هذا الاتفاق سوى الصفدى وابن بسام والسيوطي أما الصفدى فانه أورد تاريخ وفاته بأملوب الشك والاحتمال ، ولم يقطع بأن وفاته كانت في هذا

التاريخ حيث يقول : « وتوفى سنة ستين وأربعمائة ، أو فيما قبلها » (٢١) ، أما ابن بسام فقد أورد في أخبار ابن شرف أنه توفى سنة ٣٦٢ هـ نقلا عن ابن رشيقي حيث يقول : « حكى أبو على في رسالة قراضة الذهب انه مات سنة اثنتين وستين وثلاثمائة (٢٢) وهو خبر غريب ووهم واضح ، اذ انه لم يكن ولد ، وخرج الى الوجود في هذا التاريخ ، وقراضة الذهب التى بين أيدينا الآن لا نجد فيها إشارة الى هذا الخبر الغريب ، ولعل ابن بسام كان يعنى سنة اثنتين وستين وأربعمائة لا اثنتين وستين وثلاثمائة ، أما السيوطى فقد ذهب الى انه توفى سنة ٥١٨ هـ وهو خبر غريب ووهم واضح ، ولا ندري من أين أتى بهذا التاريخ مع أن ترجمته له لا تعدو سطرين استقاهما ونقاها من الصلة لابن بشكوال ، وبالرجوع الى المصدر الذى استقى منه ، ونقل عنه ، لا نجد ابن بشكوال يذكر تاريخ وفاة ابن شرف بل أغفله تماما وأهمله ولم يشر اليه ، على هذا فتحديد تاريخ وفاة ابن شرف بسنة ٥١٨ هـ من اختراع السيوطى ، وليس كما زعم من أنه نقله عن ابن بشكوال حيث يقول : « مات سنة ثمان عشرة وخمسائة ذكره ابن بشكوال في زوائده على الصلة (٢٣) اما مكان وفاته فنحن

( ١٧ ) يقول الصفدى : « قيل ان شرف اسم ام احمد فعلى هذا لا ينصرف ، واسم أبيه فينصرف » الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ وبعد ان يحدد رسائل ابن رشيقي في هجاء ابن شرف وذكر اغلاطه يقول : « وأنشدنى في بعضها :

وليسست اباكم فلا تكذب  
فأنبست في ذلك المنصب  
ونحنن نسامكمم بالاب

بنو شرف شرف امكم  
ولكنها التقطت شيخكم  
ايبنوا لنا امكم اولاً

انظر الوافي بالوفيات ٢ : ٩٧ .

( ١٨ ) في كشف الظنون : ١ : ٤٦ « جدام بضم الجيم والذال قبيلة من اليمن » .

( ١٩ ) « رسائل البغداد : ٢٠٢ وانظر مجلة المقتبس ٦ : ٣٥١ .

( ٢٠ ) انظر معجم الأدباء ١٩ : ٣٨ وفوات الوفيات ٢ : ١٠ وكشف الظنون ١ : ٦ وهدية المارفين ٢ : ٧٢ وظهر الاسلام ١ : ٣٠٨ والأعلام للزركلى ٣ : ٩٠٠ .

( ٢١ ) الوافي بالوفيات ٢ : ٩٧ .

( ٢٢ ) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨٠ .

( ٢٣ ) بغية الوعاة : ٦ .

ابن شرف هذا ممن فهم متحاه ، وصم عن رفاقه ، فلم يجتمع مع عباد في صعيد ، ولا أهدى له السلام إلا من بعيد » (٢٨) ثم يذكر بعد ذلك أن أول ما بعث به ابن شرف إلى المعتضد باشبيلية خمس قصائد من شعره مع رقعة خاطب بها وزيره ابن زيدون ، وأنه أجيب على ذلك برسالة من انشاء ابن عبد البر يستحثه على القدوم على حضرة المعتضد الذي وجه إليه بما يعينه على رحلته إليه (٢٩) فامتنع ابن شرف من القدوم على حضرته واكتفى بأن أهدى إليه كتابه « إلكار الأفكار » يقول ابن بسام : « فتوقف ابن شرف عن القدوم بقدمه ، وكلف ذلك سن قلمه ، وطرده تأليفه « إلكار الأفكار » باسم عباد ، وبعث به إليه على البعاد » (٣٠) فلما وصل الكتاب والخطاب إلى المعتضد لم يجد بدا من أنفاذ صلته إليه ، (٣١) ورد على ابن شرف برسالة من انشاء عبد البر أيضا ، ثم يقول ابن بسام بعد ذلك : « ومع وصول هذه الصلة إلى ابن شرف لم يزل على ملوك الطوائف يومئذ يتطوف وينتقل في الدول من منزل إلى منزل ، ومن بلد إلى بلد إلا حضرة المعتضد فإنه كان يخاطبه ، ويتشده :

أجبك في البتول وفي أيها

ولكنى أجبك من بعيد (٣٢)

نعلم أنه توفي في دار غربته بالاندلس متنقلا بين ملوك الطوائف . إلا أننا لا نكاد نجد أحدا من أصحاب التراجم القدامى حدد لنا مكان وفاته اللهم إلا ياقوت الذي يكاد ينفرد بين القدامى بتقرير أن وفاة ابن شرف كانت باشبيلية (٢٤) ، كما ذهب إلى ذلك من المحدثين حسن حسنى عبد الوهاب حيث يقول : « واجتاز ابن شرف وحده الاندلس ، وسكن المرية وغيرها ، وتردد على ملوك الطوائف كآل عباد باشبيلية وغيرهم وبهذه المدينة الأخيرة كانت وفاته سنة ٤٦٠ هـ » (٢٥) وتبعه في ذلك طائفة من المحدثين . (٢٦) ونحن نشك في هذا الخبر ولا نكاد نطمئن إلى أنه توفي باشبيلية ، وأنه اتصلت أسبابه بأسباب المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية وعاش في كنفه إلى أن أدركته منيته ، لأننا نجد ابن بسام في ذخيرته يقول عن ابن شرف : « واستقر أخيرا عند المأمون بن ذي النون فعليه خلع آخر لبوسه ، ونشر بقية كيسه ، وكانت لعباد همة في اصطحاب الأحرار واستجلاب ذوى الأخطار ينصب لذلك الحبال ويعمل فيه الحق والباطل ، حتى إذا غشوا إلى سرجه ، واغثروا بزبرجه سامهم رد قبس على أبيه ، وأخذهم بالسعاية بين ألفرد وأخيه » (٢٧) ثم يذكر بعد ذلك أن ابن شرف كان يتجنب مبادا ، ويتحاماه فيقول : « وكان

( ٢٤ ) معجم الأدباء ١٩ : ٣٨ .

( ٢٥ ) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ .

( ٢٦ ) انظر الدولة الصنهاجية لأحمد بن عامر : ٨٤ وعصر القيروان : ١٠٨ والأعلام ٣ : ٩٠٠ .

( ٢٧ ) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٢٢ .

( ٢٨ ) نفس المصدر السابق والصفحة .

( ٢٩ ) المصدر السابق : ١٣٥ .

( ٣٠ ) المصدر السابق : ١٣٨ .

( ٣١ ) المصدر السابق : ١٤١ .

( ٣٢ ) المصدر السابق : ١٤٢ .

ثم يورد له ستة أبيات طريقة خاطب بها المعتضد ، وأياسه من لقائه والوقوع في حباله ، ولا بأس من أن نوردها لطرافة معانيها وهي :

ان تصيدت غيري صيد طائفة  
أوسعتها الحب حتى ضمها القفص  
حسبتي فرصة أخرى ظفرت بها  
هيهات ما كل حين تمكن الفرص  
وظاهر حسن أيضا لقصتها  
لكن لها باطن في طيها قصص  
لك الموائد للقصاد مترعة  
تروى وتشبع لكن بعدها قصص  
ولست أعجب من قوم اذا انتشبا  
لكنما عجبي من معشر خلصوا  
ولم يطب قط لى من يلد ولا  
سلوى اذا كان في عقباهما منقص (٣٣)

ثم يعلق ابن بسام على هذه الابيات بقوله : « قال هذا لتواتر الخبر عن المعتضد بازوروار ركنه ، وخشونة حزنه فأضرب عن ضربه ، ولم يتعرض للنشبة في حبال نشبه ، خوفا أن يورطه في الهوان ، ويسقط العشاء به على سرحان ، وبطيح في جملة ما طاح على يديه من الخطاء والندماء » (٣٤) وهكذا يخالجتنا الشك ولا يمكننا ان نطمئن الى أن ابن شرف انتهى به المطاف الى اشبيلية ، وأنه توفي بها كما يقول ياقوت من القدامى ، ومن ذهب الى ذلك من المحدثين ، ونرجح أنه أدركته منيته بطليطلة في كنف ابن ذى النون .

أما أسرته فقد سكت عنها المترجمون ، وأغفلوها ولم يشيروا اليها ادنى إشارة ، ولم يحفلوا بها شأنه شأن غيره من العلماء والأدباء ، فلا نكاد نعرف من أسرته الا ولده جعفرا ، وكان كاتبة ادبيا شاعرا ، وقد ترجم له ابن بشكوال في صلتة ترجمة موجزة ذكر فيها أن له رواية عن أبيه ، وأنه أخذ عنه ديوانه حيث يقول : « جعفر بن محمد بن أبى سعيد بن شرف الجذامي القيرواني ، وأصله منها ، وبها ولد سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، وخرج عنها عند اشتداد الفتنة عليها سنة ٤٧٧ هـ الى الاندلس ، واستوطن برجة من ناحية المرية ، يكنى أبا الفضل له رواية عن أبيه ، وأخذ ديوان شعره ، وعن القاضي أبى عبد الله بن المرباط وأبى الوليد الوقشى وأبى سعيد الوراق وغيرهم » (٣٥) ويقول محمد كرد علي : « وخلف ابنا يدعى أبا الفضل جعفرا كان ادبيا ومجيدا أيضا ، أورد له العماد في خريدته والفتح في قصائد ونصوص تشهد له بطول الباع » (٣٦) وفي الفصل الذى عقده ابن بسام بعنوان « ما أخرجته من شعر ابن شرف في أوصاف شتى » نجد ابن شرف قد فصل القول وأجاد في تصوير نكبة القيروان حاضرة افرريقية ، وما أصابها على أيدي أعراب الصعيد من صنوف التخريب والتدمير ، وما لحق بأهلها من ألوان العسف والاضطهاد ، وما حل بهم من فنون الاذى وضروب التعذيب ولا غرابة في هذا فقد هزته مأساة القيروان ، وأفرغته الكارثة ، وأزعجته عن حرمه الآمن ، فلا عجب أن أنطقته بعدة قصائد تعد من عيون الشعر العربى في رثاء المدن والامصار ، ويعيننا هنا انه يصف في إحدى مرثياته للقيروان حال أفراخ الصغار ،

( ٣٣ ) نفس المصدر السابق والصفحة .

( ٣٤ ) المصدر السابق : ١٤٣ .

( ٣٥ ) الصلة ١ : ١٢٩ كما ترجم له الفتح بن خاقان في ثلاثه : ٢٥١ - ٢٥٨ وأفاض في الثناء عليه ونقل شعره الرقص والطرب .

( ٣٦ ) رسائل البلغاء وانظر مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ .

ولى منهما سهران هذا ابن أربع  
وهذا ابن ست كلما كان اغفاء  
اضمهما والليل داج كأنما  
هما نقطتا ياء وجسمى هو الياء  
فطورا يشبههم على ذكرك الكرى  
فتصبح اضمواء عليهم ولاء  
وطورا يمجون الدجى ومطاله  
وما كان للفايات مطل وأرجاء  
فتضجر منهم أنفس ربما بكت  
بكى هو للصم الجلاميد ابتداء (٣٨)  
ويكاد هذا هو كل ما نعرفه عن أسرة ابن  
شرف ، وما أثر لنا من اشارات اليها ، في  
آثاره الشعرية التي وصلت ايننا .



كان ابن شرف شخصية خصبية متعددة  
الوجه ، فهو أديب ناقد كاتب شاعر صاحب  
منظوم ومنثور ، فياقوت يبدأ ترجمته له  
بقوله : « الاديب الكاتب الشاعر » (٣٩) وبعده  
الصفدي أحد فحول شعراء المغرب (٤٠) ،  
ويقول عنه ابن شاعر الكتبي : « أحد فحول  
شعراء الاندلس والمغرب » (٤١) . ويقول فيه  
ابن بشكوال : « وكان من جلة الادباء وفحول  
الشعراء ، وله كتب مصنفة في معنى ذلك كله  
ويشير ابن خلدون في مقدمته الى علو مرتبته في  
الشعر هو وقريعه ابن رشيق فيقول : « ما كان  
بافريقية من مشاهير الشعراء الا ابن رشيق

وما تجشموه من صعاب وأهوال في الصحارى  
والقفار وعلى متون البحار فرازا بأنفسهم من  
عسف الاعراب واذا بهم فيقول :

كانى وأفراخى اذا الليل جننا  
وبات الكرى يجفو جفونا ويطرق  
حمائم أضلالن الوكور فضمها  
تجانسها حتى تراءى المفرق  
اذا أفرعتهم نبوة زاحموا لها  
ضلوعى حتى ودهم لو تفتق  
ويصفر جسمى عن جميع احتضانهم  
فيثبت ذا فيه وذا عنه يزهدق  
كانهم لم يسكنوا ظلل نعمة  
لها بهجة ملء العيون ورونق  
الى أن غدوا قن الفيافى فتارة  
تباع وفي بعض الاحايين تعتق  
وطورا على موج البحار كأنما  
قدى قد وثقنا اننا ليس نفرق  
ونحن نفوس تسعة ليس بيننا  
وبين الردى الا هويد معلق (٣٧)  
كما نجده في مدحة أخرى بعث بها الى  
المعتضد يشير الى طفلين له : احدهما ابن أربع  
سنوات والآخر ابن ست سنوات ، وما تجشماه  
في هذه السن الفضة من صعاب فيقول :  
أجشمهم ليل القفار وظلمة الـ  
بحار وكم ريعوا ولستر أرخاء

( ٣٧ ) الدخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨١ .

( ٣٨ ) المصدر السابق : ١٧٩ .

( ٣٩ ) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ .

( ٤٠ ) الواقي بالوفيات ٣ : ٩٧ .

( ٤١ ) فوات الوفيات ٢ : ٢٥٥ .

وإبن شرف ، وأكثر ما يكون فيها من الشعراء طارئين عليها » (٤٢) وحين عرض له ابن رشيق فيمن عرض لهم من شعراء عصره قال فيه كما نقل لنا ابن فضل الله العمري : « شاعر حاذق متصرف كثير المعاني والتوليد ، جيد المقطعات والتقصيد ، أشعر أهل زمانه من شق غباره ، وأحذقهم من اقتفى آثاره ، وما منهم إلا أغر نجيب » (٤٣) فابن رشيق في موقفه من ابن شرف هو موقف الرجل المنصف الذي يعرف له قدره ، وينصفه ولا يفيطه حقه ، ولا يخسه فيما يعلم ، ولا ينتقص من قدره الذي يعرفه له ، وهو موقف يحمي لابن رشيق إذا عرفنا ما كان بينهما من منافسة ، والواقع أن ابن شرف كان من الشعراء المجيدين ، وقد اتسم شعره بقوة التراكيب وسلسلة المعاني ، ودقة الموصف ، ووضوح الأفكار ، كما هو واضح من أشعاره التي أوردنا طرفاً منها ، ويقول فيه ابن بسام : « من فرسان هذا الشأن ، واحد من نظم قلائد الآداب ، وجمع أشاتات الصواب وتلاعب بالمنظوم والموزون تلاعب الرماح بأطراف الفصول » (٤٤) وقد أورد ابن بسام طائفة كبيرة من شعره ونثره ، وبسط القول في أخباره الأدبية وأفاض فيها حتى كسر عليها ما يزيد عن خمسين صفحة ، بل أن لابن شرف رواية عن أبي الحسن القاسبي وأبي عمران الفاسي الفقيهين يقول ياقوت : « روى أبي

الحسن القاسبي وأبي عمران الفاسي » (٤٥) ويقول الصفدي : « روى ابن شرف عن أبي الحسن القاسبي » (٤٦) ويذكر ابن بشكوال أن لابن شرف رواية عن أبي الحسن القاسبي وأبي عمران الفاسي وصحبة لهما ، وأن أبا الوليد بن شرف ، عليه ، ووصفه بالعلم والذكاء ، ثم يقول : « روى ابن شرف أخبرنا عنه ابنه الأدب أبو الفضل جعفر بن شرف بجميع مجموعات أدبه ، وكتب بذلك إلى والده رحمه الله » (٤٧) ويذكر الدباغ : « ولابن شرف الله محمد بن شرف » (٤٨) رواية عن الشيخ أبي الحسن بن علي بن شرف عن ابن شرف ، وذكره الشيخ أبو شرف الباجي ، وأثنى عليه ، ووصفه بالعلم والذكاء ، وأن علم الأدب من بعض علومه » (٤٩) ويبدو أن صلة ابن شرف بالفقه والفقه كانت قوية متينة ، وأن روايته عن الفقهاء كانت معروفة مشهورة ، حتى رأينا الدباغ يسلكه في جمعه الفقهاء ، ويعدده منهم ، فيترجم له ، ويعرف به في كتابه « معالم الإيمان » وكأنه كان مشهوراً بالعلم والفقه في عصره ، معدوداً من جملة الفقهاء والعلماء ، بل أنه يبدو أن شخصيته الفقهية العلمية كانت أغلب عليه من شخصيته الأدبية ، وأن شهرته بالفقه والعلم طغت على جانب شهرته بالأدب وفاقتها ، حتى أننا نجد الدباغ في نهاية ترجمته له ينقل لنا ثناء أبي الوليد الباجي عليه ، ووصفه بالعلم والذكاء ، وأن

(٤٢) المقدمة : ٦٥ ولا توافق ابن خلدون على مذهب اليه من أنه لم يكن بالفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف ، وأن أكثر من فيها من الشعراء طارئون عليها ، إذ أنه وجد بالفريقية من الشعراء من هم في مرتبة ابن رشيق وابن شرف ، بل ربما وجئنا من الشعراء المعاصرين لهما من هو أشعر منهما مثل عبد الكريم النهشلي والرفيق القيرواني وعلي بن عبد الفنى الحصري وغيرهم .

(٤٣) مسالك الأبصار ج ١١ قسم ٢ : ٢٢٨ .

(٤٤) الأخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٢٣ وقد نقل الدباغ في ترجمته لابن شرف عن ابن بسام انظر معالم الإيمان ٣ : ٢٢٩ .

(٤٥) معجم الأدباء ١٩ : ٢٧ .

(٤٦) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(٤٧) الصلة ٢ : ٥٧١ .

(٤٨) معالم الإيمان ٣ : ٢٢٩ .

كيف كان يشهد مرارا لدته ومعاصره ابن شرف وهو يكتب القصيدة في غير مسودة كأنه يحفظها ثم يقوم فينشدتها ، ويذكر أنه لا يستطيع أن يحصى ما كان بينهما والروابط المتينة التي تجمع بينهما تدفع بابن شرف إلى أن يحضر كل يوم صاحباً حيناً ، وفي سكر حيناً آخر على ما يروى الصفدي حيث يقول : « وقال ابن رشيق في حقه في الإنموذج : لقد شهدته مرات يكتب القصيدة في غير مسودة كأنه يحفظها ، ثم يقوم فينشدتها ، وأما المقطعات فما أحصى ما كان يصنع منها كل يوم بحضرتي صاحباً كان أو سكراناً ، ثم يأتي بعد ذلك أكثرها مخترعاً بديعاً » (٥٤) .

وبعد أن اتصلت أسبابهما بأسباب المعز بن باديس ، وجمعهما بلاطه ، وهما لهما أن يكونا شاعري حضرته وملازمي ديوانه ، حتى أصبحا متقدمين عنده الذين لديه على سائر من في بلاطه من الأدباء ، يقول ياقوت : « وكان ابن شرف وابن رشيق صاحب العمدة متقدمين عنده على سائر من في حضرته من الأفاضل والأدباء » (٥٥) .

ويقول حسن حسني : « وقد خصص المعز لصحبته من بين هؤلاء الزعماء المتقدمين ابن شرف هذا وابن رشيق فكان يلتفت تارة إلى الأول ، وأخرى إلى الثاني ، وجرى بسبب ذلك بين هذين الأدبيين مناقشات ومهاجاة رسمها كل منهما في رسائل مستقلة ومقامات متنوعة لم يصل البثامنها شيء فيما نعلم (٥٦) .

علم الأدب من بعض علومه (٤٩) ويقول الدكتور ياغي : « وكان ابن شرف قد كان مشهوراً بالعلم والفقه في زمنه ، ولهذا فلسنا نجد له ترجمة لدى ابن خلكان أو ياقوت بخلاف ابن رشيق فله ترجمة لديهما » (٥٠) ونرى أن الدكتور ياغي قد جانبه الصواب فيما ذهب إليه من أنه لم يجد ترجمة لابن شرف لدى ابن خلكان ، أو ياقوت بخلاف ابن رشيق ، ورده ذلك إلى أن شهرة ابن شرف في زمنه بالفقه قد غلبت على جانب الأدب بخلاف ابن رشيق ، فالواقع أننا نجد ترجمة لابن شرف عند ياقوت في معجمه ، وإذا كانت ترجمته قد سقطت من ابن خلكان فليس ذلك بسبب شهرته بالفقه ، لأن ابن خلكان لم يقصر وفياته على الترجمة للأدباء وحدهم دون غيرهم ، بل ترجم لشتى الطبقات ومختلف الطوائف والفئات من خلفاء ووزراء وقضاة وفقهاء ومحدثين وقراء ومفسرين ونحاة ولغويين وأدباء وشعراء وكتاب ومؤرخين ورواة ووعاظ وصوفية ومتكلمين .

وقد توطدت العلاقات بينه وبين معاصره ابن رشيق ، وتوثقت الصلات بينهما قبل أن يجمعهما بلاط المعز بن باديس واسطة عقد بيته كما يقول ابن خلكان (٥١) والذي كانت القيروان في عهده كما يقول ياقوت ، « وجهة العلماء والأدباء ، تشد إليها الرجال من كل فج ، لما يروونه من إقبال المعز على أهل العلم والأدب ، وعنايته بهم » (٥٢) كما كانت حضرته محط بنى الآمال ومنتجع الأدباء كما يقول ابن خلكان (٥٣) ، وقد حدثنا ابن رشيق

(٤٩) معالم الأيمان ٣ : ٢٤١ .

(٥٠) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها : ٢٠٢ .

(٥١) وفيات الأعيان ٤ : ٢٢١ .

(٥٢) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(٥٣) وفيات الأعيان ٤ : ٢٢١ .

(٥٤) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٨ .

(٥٥) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(٥٦) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٢ .

ويبدو أنهما كانا أقرب إلى نفس المعز من سائر الشعراء ، وأكثر استجابة لما يمليه عليهما ولهذا رأينا كثيرا ما كن يستدعيهما ، ويخلو بهما حين يطيب له أن يلهو ، وكان على ما يظهر لنا يرغب في إثارة أسباب المنافسة بينهما في مجالسه الأدبية ، ويقوم هو بدور الحكم أحيانا في المفاضلة بينهما ، يقول ابن ظافر : « ان الاتفاق والتوارد بين الشعارين يقع أكثر ما يقع عندما يضيق المقترح عليهما بأن يعين لهما الوزن والقافية » (٥٧) ثم ينقل عن « أبنكار الأفكار » لابن شرف ما يؤيد ماذهب إليه فيقول : « أكثر ما يقع هذا الاتفاق الغريب والتوارد العجيب إذا ضيق المقترح على الشعارين بأن يعين الوزن والقافية .

ذكر أبو عبد الله بن شرف القيرواني في كتاب (أبنكار الأفكار) قال : استدعاني المعز بن باديس يوما ، واستدعى أبا علي الحسن بن رشيق ، وكنا شاعري حضرته وملازمي ديوانه ، فقال : أحب أن تصنعا بين يدي قطعتين في صفة الموز على قافية الفين ، فصنعا حالا من غير أن يتف أحدهما على ما صنعه الآخر ، فكان الذي صنعه :

ياحبذا الموز واسمعه

من قبل مضغ الماضغ

لان الى ان لا مجس له

فالقم ملان به فارغ

سيان قلنا ماكل طيب

فيه والا مشرب سائغ

والذي صنعه ابن رشيق :

موز سريع اكليه

من قبل مضغ الماضغ

ماكله لاكل

ومشربة لسائغ

يخال وهو بالسغ

للخلق غير بالسغ

فأمرنا للوقت ان نصنع فيه على حرف الدال ، فعملنا ، ولم ير أحدهما صاحبه ما عمل ، فكان ما عملته :

هل لك في موز اذا

ذقته قلت حبذا

فيه شراب وغداء

يريك كالماء القلي

لو مات من تلدا

به لقييل : ذا بدا

وما عمله ابن رشيق :

الله موز لذيذ

يعيله المستعيد

فواكله وشراب

به يداوى الوقيد

تري القلي العين فيه

كما يريها النيد

قال ابن شرف : فانت ترى هذا الاتفاق لما كانت القافية واحدة والقصة واحدة

(٥٧) بدائع البدائ : ١٢٧ ، ويقول ابن دحية : « وبسئنا الى أبي عبد الله محمد بن شرف قال : أكثر ما يكون توارد الخواطر ووقوع الاتفاق وما يقاربه اذا طلب الشاعران أو الناشران معنى واحدا في قافية واحدة » المطرب : ٦٧ ثم يورد بعد ذلك شعري ابن رشيق وابن شرف في وصف الموز ، وفي مدح الزغب على سوق بعض حفايا المعز .



والقصود واحدا ، ولقد قال من حضر ذلك اليوم : ما ندرى مم نتعجب من سرعة البديهة ، أم من غرابة الثقافة ، أم من حسن الاتفاق (٥٨) ثم ينقل ابن ظافر بعد ذلك عن ابن شرف قوله : « استخزلنا المعز يوما ، وقال : أريد أن تصنعنا شعرا تمدحان به الشعر الرقيق الخفيف الذي يكون على سوق بعض النساء ، فاني استحسنه وقد عاب بعض الضرائر بعضا به ، وكلهن قارئات كاتبات ، فاحب أن أريهن هذا ، وأدعي أنه قديم لاحتج به على من عابه ، وأسر به من عيب عليه ، فانفرد كل منا ، وصنع في الوقت ، فكان الذي قلت :

وبلقيسية زينت بشعر  
يسر مثل ما يهب الشحيح

رقيق في خدلجة رداح  
خفيف مثل جسم فيه روح

حكى زغب الخدود وكل خد  
به زغب فم عشوق ملبح

فان يك صرح بلقيس زجاجا  
فمن حلق العيون لها صروح

وكان الذي قال ابن رشيق :  
يعيون بلقيسية أن راوا بها  
كما قدرأي من تلك من نصب الصرحا  
وقد زادها التزغيب ملحا كمثل ما  
يزيد خدود الفيد تزغيبها ملحا

فاتقد المعز على ابن رشيق قوله « يعيون » وقال : قد أوجدت لخصمها حجة بأن بعض الناس عابه ، وهذا نقلا ما فطنت له (٥٩) . وهكذا رأينا المعز بن باديس الذي كان حريصا على أن يقرب الكتاب والشعراء وأن يلحقهم بخاصته ، ويجمعهم في ديوانه ، حتى اجتمع في بلاطه مائة شاعر بليغ كما يقول حسن حسني (٦٠) يطيب له أن يبعث في الشعراء روح التنافس ، وأن يدفعهم الى التسابق في الاجادة ، والمباراة في الاحسان فيما يقترحه عليهم من اغراض ، وأن يساجل بعضهم بعضا ، وينظره فيما يفرض عليهم ، ويطلب اليهم القول فيه ، وأن يغري بعضهم ببعض شحذا لقرائهم ، واستخراجا لاجود ما عندهم ، حتى عادت تلك المساجلات والمناظرات على الادب بالطيب الالغر واحسن النتائج يقول حسن حسني « وكثيرا ما كان المعز يظهر الميل الى اديبيدون آخر ، أو ينشب بين شاعرين فيوقع بينهما تنافسا ادبيا تشا

( ٥٨ ) بدائع البداهة : ١٢٧ - ١٢٨ والمغرب : ٦٧ - ٦٨ وليس في اتفاقهما هذا ما يدعو الى التعجب ، أو يسر الاستغراب لان العلاقات الوثيقة والروابط المتينة التي جمعت بينهما والصالهما الدائم الطويل قبل ان يجمعهما بلاط المعز بن باديس . واتفاقهما في الاخذ من مشاهير علماء عصرهما وآدبائه أمثال القزاز وابى اسحق الحميري وغيرهما .. بالإضافة الى القرض الواحد الذي فرض عليهما ، وطلب اليهما أن ينظما فيه على لافية واحدة ، فضلا عن قههما لم يكونا يصدران في ذلك عما يدور بخواطرهما ولم يكونا يتناولان هذه الموضوعات التي فرغت عليهما كما يحصل بها في دغل نفوسهما ، وكما تقع في وجداتهما . وقد نتج عن كل ذلك أن جاء شعرهما في الموضوعات المفروضة عليهما متقاربا متشابهما كما رأينا ، وهكذا سخر المعز الشعراء لازجاء اوقات فراغه اللهي المأبث ، وللهوة حين يطيب له ان يلهو ، وللهو حين يحلو له ان ينشد اللذة ويطلبها فيتقدم اليهم أن يصنعوا شعرا في مدح زغب تبت على سوق من عبت به من حلقها ، أو يلقوا في وصف فاكهة من اللواكه حتى كان الشعراء في بلاطه لا يكادون يصدرون الا عما يدور بخلده ، ويحس في خاطره ، وتعده به نفسه ولقما كانوا يصدرون عن داخل نفوسهم أو وجداتهم .

( ٥٩ ) بدائع البداهة : ١٢٧ - ١٢٨ والمغرب : ٦٨ - ٦٩

( ٦٠ ) بساط العقيق : ٥١

عنه تسابق في اختراع الممانى بتوليد المبتكرات، وحصل بسبب هاته المنافسات، نوع من سوق الادب، وظهرت حركة عامية وفكرية اجتماعية افريقية من ثمراتها الياقة ما يحق لها الانتباه به» (٦١) .

ويقلب على الظن ان ما اثر لنا من ابن رشيق وابن شرف من مساجلات ومناظرات وما قام بينهما من مناقشات ومنازعات وسجلتها كتب الادب، كان لا يعدو الى كون لونا من ألوان المماريات، وضربا من ضرب المناقشات لا يصارح فيها عن داخل - بينهما - وكان الناس من حولهما يلففون ما يصدر منهما، ويفرون احدهما بصاحبه، ويأرونه عليه، ويبجونه به، ويجرحونه. بينهما استخراجا لما عندهما، واستمارة ما يصدر عنهما، ثم يحكمون لهذا ام ذلك، ولم يكن كل ذلك ليصل بهما الى حد البغضاء او العدا او القطعة وانقسام شري المودة وتقطع اسباب الصداقة بينهما، وفيه تحفظ هذه المناقشات احيانا احدهما على صاحبه وتهيجه وتثير حميته عليه، فينصرف مفاضبا، ولكنه سرعان ما يعود اليه، وتتصل اسباب الصداقة والمودة بينهما، ولا يبقى للحفيظة والفضب مكان في نفسه، وقد فطن لذلك ياقوت، ونبه اليه حيث يقول: « وكان ابن شرف وابن رشيق صاحب العمدة متقدمين عنده على

سائر من في حضرته من الافاضل والادباء فكان يقرب هذا تارة، ويدنى ذاك تارة أخرى فتناقسا وتنافرا ثم تهاجيا، ولكن لم يتغير احدهما على الآخر بما جرى بينهما في المناقشات (٦٢) نعم لم يتغير احدهما على الآخر بسبب هذه المساجلات والمناقشات، وليس أدل على ذلك من ان الكتابات والمخاطبات ظلت متصلة بينهما، يكتب كل منهما لصاحبه ويجيبه حتى بعد ان انخرط في سلك خدمة المعز، واشتد التنافس بينهما، فها هو ذا ابن شرف يسبق ابن رشيق الى صقلية، وحين يصل اليها يتذكر ايامه مع ابن رشيق، فيكتب اليه - وهو بالمهدية - قصيدة يتشوقه فيها، ويجيبه ابن رشيق بقصيدة أخرى على ما يروى لنا القفطي حيث يقول: « وكان بين ابن رشيق وبين محمد بن شرف الشاعر مياينة بعد مواصلة وذلك انهما كانا شاعري ابن باديس، ودخلا اليه، واتصلا بخدمته في وقت واحد، وكان ابن شرف ممن لا ينكر حذقه، ولا يدفع في هذا النوع صدقه، ولم يزل بينهما مكاتبات ومخاطبات، فمن شعر ابن شرف قصيدة كتب بها الى ابن رشيق وهو بالمهدية يتشوقه اولها:

عدمناك من بعد وان زدتنا قربا  
على ان فيما بيننا سببا سهبا

(٦١) بساط العقيق: ٥٥ كما يقول في موضع آخر من تنافس ابن رشيق وابن شرف، وحرص المعز على اذكاء جذوة التنافس بينهما: « فانه (اي ابن شرف) كان يترصد الخلفاء للوثوب على صاحبه، وجرى بسبب ذلك تنافس ادبي ومكافحة اقلام، وتسابق الى الاختراع والابتداع، اجتنى منها سوق الادب فواكه فكرية رسمها كل واحد منهما في تأليف كانت احسن اثر للنتائج فرائح شاعرنا، وربما كان الامر المعز يحرص على هذا التنافس بين ابن رشيق وابن شرف بالملحاة تارة الى الاول، واخرى الى رفيقه سعيًا مشهورا بتشجيع الاداب وترويج موادها... » بساط العقيق: ٥٩ ويقول احمد امين: « وقد كانا صديقين، ثم دببت بينهما الخصومة فتساجلا في الادب كذلك المساجلة التي كانت بين الخوارزمي وديع الزمان الهمداني » ظهر الاسلام ١: ٢٠٨ .

(٦٢) معجم الادباء ١٩: ٣٧ كما اشار ياقوت الى ما كان بينهما عند ترجمته لابن رشيق حيث يقول: « وكان بينه وبين ابن شرف الاديب مناقشات ومعاقدات، وصنف في الرديعية عدة تصانيف: » معجم الادباء ١١٠ ومن ذلك ما ذكره ابن رشيق في الرد على ابن شرف من انه منسوب الى امرائه.

المعروف بابن شرف القيرواني مناقضات ومهاجاة ، وصنف عدة رسائل في الرد عليه منها رسالة سماها « ساجور الكلب » و « رسالة نجح الطلب » و « رسالة قطع الانفاس » و « رسالة نقض الرسائل الشعوذية » و « القصيدة الدعية » و « الرسالة المنقوضة » و « رسالة رفع الاشكال ودفع المحال » (٦٦) اما العمري في مسالك الابصار فقد ذهب الى ان ما وقع بينهما انما هو من قبيل ما وقع بين الخوارزمي وبديع الزمان (٦٧) ويؤكد مذهبنا اليه انهم كانوا في هذا العصر كثيرا ما يلجأون الى الهجاء لا لشيء الا لتندر والتسلية وازجاء اوقات الفراغ ، ومن ذلك ما يرويه الصفدي وابن شاكر الكنتي (٦٨) من ان ابن شرف قال بيتين على قافية القاف في ذم حمام ، فبلغ ذلك ابن رشيق ، فقال مجيزا لهدين البيتين بيت هجا فيه ابن شرف ونيزه بالعمور والصالح وهو :

وانت ايضا اصور اصلع  
فصادف التشبيه تحقيق

وكتب اليه ابن رشيق قصيدته التي اولها :  
عتابا عسى ان الزمان له عتبى  
وشكوى فكم شكوى الانتله قلبا (٦٣)

ولعل هذا هو مادفع الصفدي في ترجمته لابن شرف الى ان يشير الى ان ما جرى بينه وبين ابن رشيق من مهاجاة ومعاداة انما هو امر يحدث عادة بين المتعاصرين (٦٤) حيث يقول : « وكانت بينه وبين ابن رشيق مهاجاة ومعاداة جرى الزمان معادتها بين المتعاصرين » ثم يتبع ذلك بسرد أسماء عدة رسائل لابن رشيق يهجو فيها ابن شرف ، ويعدد اغلاطه ومساوئه ، فيقول : « ولابن رشيق فيه عدة رسائل يهجو فيها ، ويذكر اغلاطه وقبائحها منها » رسالة ساجور الكلب « و « رسالة قطع الانفاس » و « رسالة نجح الطلب » و « رسالة رفع الاشكال ودفع المحال » و « رسالة ذم الحمام » (٦٥) ويقول الوزيري السراج في ترجمته لابن رشيق : « وكان بينه وبين عبدالله بن ابي سعيد بن أحمد

( ٦٣ ) انباه الرواة : ١ : ٣٠١ والقفاي وان كان لم يحدد المكان الذي بعث منه ابن شرف قصيدته الى صاحبه بتشوقه فيها الا انه يغلب على الظن انه بعث بها من صقلية ، لانه من المعروف ان ابن شرف سبق صاحبه اليها ، ثم يقول القفاي بعد ذلك ثم ان المناقشة اوقعت بينهما ، وتخرجوا في الهجاء ، وعمل ابن رشيق عدة تصانيف في الرد عليه واخراج معاني اقواله ساستوفى لها وملحها في كتابي الذي اسميه « الاتيق في اخبار ابن رشيق » بعشيقة الله وعونه انباه الرواة : ١ : ٣٠٣ فالقفاي هنا يعد باخراج كتاب يستعمل على رسائل ابن رشيق ومصفاته في الرد على ابن شرف وابراز اغلاطه ومعاني اقواله ، ولا ندرى ان كان القفاي قد وفي بوعده فخرج هذا الكتاب ام لا .

( ٦٤ ) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ وانظر فوات الوفيات ٢ : ٤١

( ٦٥ ) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ وفوات الوفيات ٢ : ٤١ ويقول ابن بسام : « وبينه وبين ابي علي بن رشيق ما ج بحر البراعة ودام ، ورجع نجم هذه الصناعة فاستقام وذهب من المناقضة مذهبا تنالاه شرا طويلا ، وخلصناه ذكرا محمودا ، واحتملاه ان لم يسمح الله ولدا ثقيلا . وكان ابو علي واسعهما نفسا واقر بهما ملتصبا ، ولابن شرف اصالة متزعة وجلالة مظهره ومناة لفظه وسعة حقله ، فتسمع بشعره ملائمة وموعة وجمجمة ، ولكن ما ابد ما يرويه وابده » للخرقة القسم الرابع المجلد الاول : ١٢٣ .

( ٦٦ ) المحلل السننسية في الاخبار التونسية الجزء الاول القسم الاول : ٢٧٩ ويقول ابن خلكان : « وكانت بينه وبين ابي عبد الله محمد بن ابي سعيد بن احمد المعروف بابن شرف القيرواني وقائعوما جريات يطول شرحها » وفيات الاعيان ١ : ٣٦٨ .

( ٦٧ ) المكتبة الصقلية : ٦٥١ نقلا عن مسالك الابصار ج ١٧ ويقول حسن حسني « وقع بينهما بالقرآن ما وقع بين جرير والفردك او بين الخوارزمي وبديع الزمان » مجلة المكتبة المجلد السادس : ٢٥٤ وانظر رسائل البلفاء ٣ : ٥ .

( ٦٨ ) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٨ والفيح المسجم ٢ : ٢٥٥ وفوات الوفيات ٢ : ٤١٠ .

بل أنهم كثيرا ما كانوا يهجون أنفسهم ،  
ويتندرون عليها حين لا يجدون من يهجوهم  
ويتندرون عليه ، فقد اجتمع ابن رشيق يوما  
مع بعض أصحابه وكان فيهم ابن شرف وكان  
أعورا ، والطوسي وكان أعمى وكان ابن رشيق  
أحولا ، فقال في صاحبيه وفي نفسه :

لا بد في العور من تيه ومن صلف

لأنهم يبصرون الناس أنصافا

وكل أحول يلفى ذا مكارمة

لأنهم ينظرون الناس أضعافا

والعمى أولى بحال أعور لو عرفوا

على القياس ولكن خاف من حافا (٦٩)

ولم يزل ابن شرف ملازما لخدمة المعز بن  
باديس مقدما عنده أثرا لديه ، ولم تزل  
المنافضات والمساجلات والمنافرات متصلة  
بينه وبين ابن رشيق ، ولم يزل الهجاء والتندر  
قائما بينهما ، وهكذا مضت الحياة بهما  
وبغيرهما من الشعراء الذين ضمهم بلاط  
المعز بن باديس إلى أن هاجم أعراب الصعيد  
القيروان ، فاضطر المعز إلى الخروج منها  
ومغادرتها إلى المهديّة سنة ٤٤٩ هـ ولحق  
به من شعراء بلاطه وكتاب ديوانه ، ومن  
بين من لحق به ، واتصل بخدمته بالمهديّة ابن  
شرف وابن رشيق يقول ياقوت : « ولم يزل  
ابن شرف ملازما لخدمة المعز إلى أن هاجم  
عرب الصعيد القيروان ، واضطر المعز إلى  
الخروج منها إلى المهديّة سنة سبع وربعين  
وأربعمائة ، نخرج ابن شرف وسائر الشعراء  
معه إليها ، واستقروا بها » (٧٠) ولكن المعز  
في المهديّة كان مهموما محزونا ضيق الصدر

منقبض النفس ، فقد سقطت القيروان حاضرة  
ملكه وقصبة إفريقية في أيدي الأعراب الذين  
عاثوا في الأرض فسادا ، وانتقصوا مملكته من  
أطرافها ، وأشاعوا في جنباتها الخراب والدمار ،  
فلم يعد يعقد المجالس الأدبية ، ويدعو إليها  
الشعراء ، ويقترح عليهم الأغراض التي تخطر  
بباله ، وإنما هو منقبض النفس ، ضيق الصدر ،  
متبرم بكل شيء ، فإذا حدث وعقد مجلسا  
من تلك المجالس التي كان كثيرا ما يعقدها  
بالقيروان ، ودعا إليه الشعراء لا يلبث أن  
يضيق ذمرا به وبمن فيه من الشعراء ، كما  
فعل حين مزق الرقعة التي فيها قصيدة ابن  
رشيق ، ولم يكتف بتمزيقها ، حتى قدمها  
طعمة للريان . يقول العمري في مسالك  
الإبصار نقلا عن ابن بسام : « ولما طلع  
نجوم النحوس بسماء المعز بن باديس خرج  
إلى المهديّة بسماء كاسفة الأقمار ، وذمء  
أقصر من طي الخمار ، وكان أبو علي ممن  
انحشر في زمرته المحروبة ، وتحيل إلى فئته  
المنكوبة أقام معه ، وغشى المهديّة فما بعد  
استول الروم ، فأصبح البحر ثنايا تطلع  
النايا ، وأكاما تحمل موتا زؤاما ، فدخل على  
المعز حين وضع الفجر ، فوجده في مصلاه ،  
والرقاع عليه ترد ، والشموع بين يديه تتقد  
فقام ينشده قصيدته التي أولها :

تثبت لا يخامرك اضطراب

فقد خضعت لعزتك الرقاب

فقال له : مه ، متى عهدتني لا اثبت ، إذا  
لم تجئنا إلا بمثل هذا فمالك لا تسكت عنا ؟  
ثم أمر بالرقعة التي كانت فيها القصيدة  
فمزقت ، ولم يقنعه حتى أدناها إلى الشمع  
فأحرقت » (٧١) .

( ٦٩ ) الفيت المسجّم ٢ : ٢٥٥ وديوان ابن رشيق : ١١٦ - ١١٧ .

( ٧٠ ) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

( ٧١ ) المكتبة الصقلية : ٦٥٠ نقلا من مسالك الإبصار المجلد السابع عشر .

واطمأن مقامه بها تذكر هذا سلف ، وأياما مضت مع ابن رشيق في ربوع القيروان والمهدية ، وفي بلاط المعز بن باديس ، فبيعت اليه وهو بالمهدية بقصيدة يتشوقه فيها ويحييه ابن رشيق بقصيدة أخرى على ما يروى لنا القفطي حيث يقول : « فمن شعر ابن شرف قصيدة كتب بها الى ابن رشيق وهو بالمهدية يتشوقه ، أولها :

عدمنك من بعد وان زدتنا قربا

على ان فيما بيننا سببا سببا

وكتب اليه ابن رشيق جوابا عنها قصيدته التي أولها :

عتابا عسى أن الزمان له عتبى

وشكوى فكم شكوى الا انت له قلبا (٧٥)

ويركب ابن رشيق ثبج البحر الى صقلية في اثر صاحبه ابن شرف ، وينزل بمأز إحدى مدنها على أميرها ابن مطكود ، فيؤثره ، ويقربه ، ويسلكه في عداد خاصته ، ويصيب عنده حظوة كبيرة ، حتى انه قرأ عليه كتبه ، ومن بين ما قرأه عليه من كتبه العمدة ، وعاش في كنفه ، ولم يزل عنده حتى أدركته الوفاة يقول القفطي « ونزل مازر إحدى مدنها على أميرها ومتوليا ابن مطكود ، فأكرمه واختصه ، وقرأ عليه كتبه ، ومن جملة ما رأته من قراءته عليه كتاب العمدة في صنعه الشعر ، وهو أجل كتبه وأكبرها ، ورأيت خط ابن رشيق على نسخة منها ، ولم يزل عنده الى ان مات بمأزر » (٧٦) بيد أن الاستاذ أحمد أمين ذهب الى انها قرأ عند غزو الهلاليين

ويضيق ابن شرف بالمقام في المهدية ، وينبو بها منزله ، ولا يطيب له العيش بها بعد ان لقي من المعز انقباضا عن كل شيء ، وضيقا بالشعر ، وانصرافا عنه ، وعزوفاً عن الادب ، وازورارا عن الشعراء ، ونفورا منهم ، وعزوفاً عنهم ، وعدم ارتياح لهم ، وانحرافا صمن لحق به من الادباء ، وجفاء لهم ، فلم يلبث بالمهدية الا قليلا حتى ركب ثبج البحر ، وولى وجهه شطر صقلية وأفداً على أميرها القائد أبي محمد الحسن بن عمر بن مطكود ، وكأنما ترامى الى سمعه ، ونمى الى علمه ان الشعراء يصيبون حظوة كبيرة في بلاط هذا الأمير ، وأنه يقدمهم ويؤثرهم ، وبحبهم ، ويجزل لهم العطاء ، ويقول ياقوت : ( فأقام ابن شرف مدة بالمهدية ملازماً خدمة المعز بن باديس وابنه تميم ، ثم خرج منها قاصدا صقلية ، ولحق به رفيقه ابن رشيق فاجتمعا بها ، ومكثا بها مدة (٧٧) وقد أشار العمري الى أن ابن شرف سبق ابن رشيق الى صقلية حيث يقول بعد ان أورد خبر ابن رشيق مع المعز ، وتمزيق المعز للرقعة التي كانت بها قصيدته التي لم يرقه مطلعها ، ولم يعجبه ابتداءها واستهلالها وأحراقها ، والجفوة التي وقعت بينهما نتيجة لذلك : « فخرج ابن رشيق يومئذ من عنده على غير طريق ، وكانت وجهته الى صقلية ، وكان ابن شرف قد سبقه اليها وقد قتله عليها » (٧٨) ويقول حسن حسني : « وأقام ابن شرف مدة بالمهدية مع زمرة شعراء الملك يخدم الأمير المعز وابنه تميم الى أن رحل عنها قاصدا جزيرة صقلية لما سمع من كرم أميرها » (٧٩) .

وكانى بابن شرف وقد وصل الى صقلية ،

( ٧٢ ) معجم الادباء ١٩ : ٢٨ .

( ٧٣ ) المكتبة الصقلية : ٦٥٠ - ٦٥١ نقلان من مسالك الإبحار المجلد السابع عشر .

( ٧٤ ) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ وانظر رسائل البغداد : ٣٠٥ .

( ٧٥ ) انباه الرواة ٢ : ٣٠١ .

( ٧٦ ) انباه الرواة ١ : ٣٠٢ .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نراه :  
 اثر في النهضة الادبية بجزيرة صقلية ، فبعد  
 ان رحل اليها ، وألفى بها عصا التسيار ،  
 واطمان مقامه بها أخذ يدرس كتابه العمدة ،  
 والتفت حوله طائفة من اهل الادب ، وأقبلوا  
 عليه يأخذون عنه ويتلقون عليه ، وغير بعيد  
 ماسبق ان ذكرناه من ان ابن مطكود أمير مازر  
 نفسه قرا على ابن رشيق كتابه العمدة ، وقد  
 كلف اهل صقلية بكتاب العمدة ، وشغفوا به ،  
 وأقبلوا عليه يتدارسونه ، ومن كلف كلف به  
 من اهل صقلية بيو عمر عثمان بن علي بن عمر  
 الصقلي ، فقد قراه ، وأعجب به ، واختصره ،  
 يقول حاجي خليفة : « واختصره الصقلي  
 وسماه العدة » (٧٩) .

وهكذا يتبين لنا من خبر أبي عبدالله الصفار  
 مع ابن رشيق ان اشعار ابن رشيق قد سبقته  
 الى صقلية ، وذاعت بها ، وأنه كان باتجاهه  
 الادبي والنقدي موضع الإعجاب والتقدير من  
 أدباؤها ، بالغ التأثير فيهم ، حتى أننا نرى ابن  
 حمديس الصقلي مع انه أبعد حظا منه في  
 الشاعرية يتناول شعره بالمعارضة .

ويبدو أن خاصة ابن مطكود وجلساءه كان  
 يحلو لهم ان تقوم المناظرات بين ابن رشيق  
 وابن شرف ، وأن تتصل المساجلات والمناقضات  
 بينهما ، كما كانت في القيروان ، فقد ترامت  
 اليهم اخبارهما الادبية ، وسمعوا بما كان  
 بينهما من مناقضات ومساجلات ، ووصلت  
 اليهم اخبار ابن رشيق وأشعار وعبرت البحر

مدينة القيروان ، وان ابن رشيق قصد الى  
 صقلية ، بينما ولى ابن شرف وجهه شطر  
 الأندلس . (٧٧) ولم يشر الى أنهما خرجا مع  
 العزيز بن باديس بعد خراب القيروان الى  
 المهديّة ، وأقاما بها معه مدة ، ثم ذهب  
 ابن شرف الى صقلية ، ولحق به رفيقه ابن  
 رشيق ، ثم شخص ابن شرف وحده الى  
 الأندلس تاركا صاحبه بصقلية ، وأن ابن  
 رشيق قد رام بعد ذلك الشخص الى الأندلس  
 فلم تطاوعه نفسه على ركوب البحر ، فأقام  
 بعازر حتى أدركته منيته بها .

ويبدو أن ابن رشيق أصاب حظوة كبيرة  
 عند ابن مطكود أمير مازر ، وكان أقرب الى  
 نفسه وأثر عنده من ابن شرف ، وليس في  
 هذا غرابة ، فقد كان لابن رشيق اثر بعيد  
 في النهضة الادبية بصقلية فقد ذاعت شهرته  
 بها ، وترامت اليها أخباره الادبية ، وطنت  
 أشعاره في جنباتها ، وتداول اهل صقلية  
 أخباره ، وتلقفوا أشعاره ورووها وتدارسوها ،  
 حتى غدا مطمح انظار بعض الصقليين ، وأمامهم  
 الذي يتأسون به في اتجاههم الادبي ، كما كان  
 له أصدقاء كثيرون معجبون به بهذه الجزيرة ،  
 وقد اتصلت أسباب الصداقة بينه وبينهم ،  
 وكانوا على اتصال دائم به ، ويدل على ذلك  
 أننا نجد واحدا منهم وهو أبو عبدالله الصفار  
 يصرح بذلك حيث يقول : « كنت ساكنا  
 صقلية ، وأشعار ابن رشيق ترد على ، فكنت  
 أتمنى لقاءه ، حتى قدم الروم علينا ، فخرجت  
 فاراً بهجتي ، تاركا لكل ماملكت يدي (٧٨)

( ٧٧ ) ظهر الإسلام : ١ : ٣٠٨ .

( ٧٨ ) بدائع البداة على هامش معاهد التنميص : ٢ : ٣٦ وورد الخبر مع بعض تصرف في مسالك الإبصار المجلد السابع  
 عشر والقرن المكتبة الصقلية : ٦٥١ وما بعدها وفي الخريدة لسم شعراء المغرب : ٨٣ - ٨٤ في فصل بعنوان « جماعة من  
 شعراء جزيرة صقلية عند الحديث من أبي عبد الله محمد بن علي الصباغ الكاتب : ( وكان في عهد ابن رشيق ، وبينهما  
 مراسلات » . . . . . وكتب اليه أبو علي بن رشيق عند وصوله من القيروان الى مازو في أول رسالة . . ) لم يورد ثلاثة أبيات  
 من الشعر أجابه عليها ابن الصباغ بثلاثة أبيات أخرى .

( ٧٩ ) كشف الظنون : ٢ : ١٦٩ وانظر المكتبة الصقلية : ٧٠٤ ويقول القلطي في ترجمته لعثمان بن علي : « ومن معتنقيه  
 مختصر عمدة ابن رشيق وشاهدت هذا المختصر بحلب بخطه من ابن القيسرائي ، وقد زاد فيه أبوابا اخل بها ابن رشيق  
 وهي واقعة موقعا من التصنيف » ، انباه الرواة : ٢ : ٣٤٣ .

ذلك مد رعا بمكانته من ابن مطكود أمير ملقر ،  
وبمنزنته الرفيعة التي احتلها من نفوس أهل  
جزيرة صقلية ، ودالته عليهم ، فكلن كما يقول  
العمرى : « ربما اعترض وتعرض ، ونحط  
ولمظ ، وأما ابن شرف فلم يحل ماعقد ، ولا  
حال ماعهد » (٨٢) .

ويطيب لابن شرف المقام بجزيرة صقلية ،  
فقد هادنه ابن رشيق ، وامتدت الهدنة فيما  
بينهما وانصلت ، وأصلح من بالجزيرة من أهل  
القيروان ذات بينهما ، واستقلت الأمور بينهما  
حتى عادا إلى الصفاء والإخاء والسماح . يقول  
حسن حسنى : « فلما اجتمعا بصقلية  
تسامحا » (٨٣) ثم تهيأت الظروف لابن شرف ،  
واتيحت له الفرصة ، فركب ثبح البحر ، وعبر  
إلى عدوة الإندلس وولى وجهه نطر ملوك  
الطوائف ، وتردد عليهم ، وانتهى به المطاف  
عند المأمون بن ذى النون صاحب طليطة يقول  
ابن بسم : « فتردد على ملوك الطوائف بالإندلس  
بعد مقارعة أهوال ومباشرة خطوب طوال ...  
واستقر أخيرا عند المأمون بن ذى النون ، فعليه  
خلع آخر ليوسه ، ونشر بقية كيسه » (٨٤)  
ويقول الدباج : « وقدم الإندلس ، وسكن المرية  
وغيرها وتردد على ملوك الطوائف » (٨٥) حتى  
سكته ابن شاعر في عداد فحول شعراء الإندلس  
والغرب ، فقد استهل ترجمته بقوله : « محمد  
بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني البطلي  
أحد فحول شعراء الإندلس والغرب » (٨٦)  
وبعد الصفدى أحد شعراء الغرب (٨٧) .

إلى صقلية قبل أن يعبرها هو إليها ، وكانما  
طاب لهم أن تقوم تلك المناقشات والمساجلات  
والمناظرات بينهما في ربوع صقلية ، كما قامت  
بينهما من قبل في ربوع القيروان ، وأن يعيدتا  
سريتها الأولى حتى ينشط الشعاران ، وتروج  
سوق الأدب ، ويلهو الناس ، ويسعدون  
بما يصدر عنهما . يقول العمرى : « وقد قد  
وقع بينهما بالقيروان ما وقع بيننا ترازمى  
وبدع الزمان ، فلما اجتمعا يومئذ بعنقلية  
تنمر بعضهما لبعض ، وتثوق أعلام نند  
لما كان بينهما من إبرام ونغض » (٨٠) وكان  
أهل صقلية سعوا بين الشائرين وحرشوا  
بينهما ، وأغروا أحدهما بالآخر ، إلا أنه يبدو  
أنه كان بصقلية من أهل القيروان من يخشى  
مغبة الخصومة بين الشاعرين ، ويدرك سوء  
عاقبتها ، لو دبت عقارب السماوية بين الشاعرية ،  
وأذكى القوم نار العداء بينهما ، فأخذ نفسه  
باصلاح ذات بينهما ، حتى لا يصبحا في دار  
غربتهما موضعا لتندر أهل صقلية وسخرتهم  
يقول العمرى : « فقصده ابن رشيق بعض  
أخوانه ، وقال له : انتما على الإحسان وشيخا  
أهل القيروان ، وقد أصبحتما بحال جلاء وبين  
الأعداء ، والأشبه بكما ألا تغريا أديمكما ، ولا  
تظهما الأعداء لحومكما ، فقال له : أبت ابن  
شرف ، فوحده أجنح للسلم ، وأدنى إلى الحلم ،  
برىء إليه من صبيه وصعده ، وأعطاه بذلك  
صفقتى لسانه ويده » (٨١) بيد أن ابن رشيق  
كان يتحرش أحيانا بابن شرف ، وينال منه ،  
ويتعرض له ، ويسعى به ، ولعله كان يفعل

( ٨٠ ) المكتبة الصقلية : ٦٥١ نكلا من مسالك الإصدار المجلد السابع عشر .

( ٨١ ) نفس المصدر السابق والصلحة .

( ٨٢ ) نفس المصدر السابق والصلحة .

( ٨٣ ) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ ورسائل البلقاء : ٢٥٥ .

( ٨٤ ) الأخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٢٣ .

( ٨٥ ) معالم الإيمان ٣ : ٢٣٩ .

( ٨٦ ) فوات الوفيات ٢ : ٤١٥ .

( ٨٧ ) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ .

ان نطمئن الى انه توفي باشبيلية ، وانه اتصلت اسبابه باسباب المعتضد ، وعاش في كنفه الى ان أدركته منيته . وقد سبق ان بسطنا القول في هذه المسألة ، وانتهينا الى ترجيح انه توفي بطليطلة في كنف ابن ذي النون لاننا نجد ابن بسام يقول : « فتردد على ملوك الطوائف بالاندلس بعد مقارعة احوال ومباشرة خطوب طوال ... واستقر أخيراً عند المأمون بن ذي النون فعليه خلع آخر لبوسه ونثر بقية كيسه » (٨٩) .

#### آثاره ومصنفاته :

خف لنا ابن شرف مؤلفات كثيرة سقطت من يد الزمن ، ولم يصل اليها منها الا القليل ويشيد ابن بسام بمؤلفاته وينوه بها حيث يقول : « ولأبي عبد الله عدة تواليف أفاضها بحارا واطلمها شمسوا وأقمعرا » ويقول حسن حسني : « اما تأليف ابن شرف فكثيرة على مانقله اليها المؤرخون » ومن هذه المؤلفات .

#### أبكار الافكار :

ويشتمل هذا الكتاب على مختارات مما أنتجه ابن شرف من شعر ونثر يقول فيه ياقوت « أبكار الافكار جمع فيه ما اختاره من شعره ونثره » (٩٠) ويقول الصغدلي : « وهو كتاب حسن في الادب يشتمل على نظم ونثر من كلامه » (٩١) ويقول ابن دحية : « ولابن شرف مصنفات عديدة وأوضاع مفيدة منها » أبكار الافكار « في سفرين ، وهو اختراع كله في الحكم والأمثال والنظم والنثر » (٩٢) ويقول حاجي خليفة : « أبكار الافكار لمحمد بن سعيد الجذامي

ويؤكد مذهبنا اليه - من ان المهادنة التي تمت في جزيرة صقلية بين ابن رشيق وابن شرف قد امتدت واتصلت ، وان الامور بينهما قد استقامت وصلحت - مانقرا في كتب التراجم من ان ابن شرف حين عقد النية على مغادرة صقلية ، وازمع الرحلة الى الاندلس استنهض صاحبه ابن رشيق في ان يجتمعا بالطريق ، وان يجوزوا معا الى الاندلس ، ويبدو ان ابن رشيق تباطأ عنه ، ولم ينهض معه ، بل تردد واعتذر عن عدم النهوض ، فمضى ابن شرف وحده ، يقول ياقوت : « ثم استنهضه ابن شرف على دخول الاندلس ، فتردد ابن رشيق ، وأنشد » :

مما يزهدني في أرض أندلس  
أسماء مقتدر فيها ومعتضد

القاب مملكة في غير موضعها  
كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

فأجابه ابن شرف على الفور :

ان ترمك الغربية في معشر  
قد جبل الطبع على بعضهم

قدارهم مادمت في دراهمهم  
وأرضهم مادمت في أرضهم (٨٨)

ثم شخص ابن شرف منفردا الى الاندلس ، وتنقل في بلادها ، وسكن المرية بعد مقارعة احوال ومقاومة خطوب ، وتردد على ملوك الطوائف كال عباد وغيرهم ، وتوفي باشبيلية سنة ستين وأربعمائة كما يقول ياقوت ، وقد سبق ان ذكرنا انه يخالفنا الشك ، ولا يمكننا

( ٨٨ ) معجم الادباء ١٩ : ٢٨ .

( ٨٩ ) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٢٣

( ٩٠ ) معجم الادباء ١٩ : ٤٢ .

( ٩١ ) الوالي بالوفيات ٢ : ٩٧ وانظر فوات الوفيات ٢ : ٤١

( ٩٢ ) الطرب : ٦٦



باسم باديس بن حبوس « وهذا الكتاب مفقود يكون كل ما وصل إلينا منه هو ما نقله ابن ظافر في كتابه « بدائع البدائيه » ( ٩٨ ) .

### أعلام الكلام :

وقد حدثنا ياقوت عن هذا الكتاب وموضوعه ، حيث يقول وهو بسبيل تعداد مؤلفات ابن شرف : « وأعلام الكلام مجموع فيه فوائد ولطائف وملح منتخبة » ( ٩٩ ) ثم يشير عقب ذلك مباشرة إلى أن لابن شرف كتابا آخر بعنوان « رسالة الانتقاد » ويحدثنا عنه بقوله : « ورسالة الانتقاد وهي على طراز مقامة نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهليين والاسلام » ( ١٠٠ ) فهل هما كتابان مختلفان أو أنهما اسمان لكتاب واحد ، ونحن نرجح أن رسالة اعلام الكلام هي رسالة الانتقاد ، وأنهما اسمان لكتاب واحد .

وقد نشر هذا الكتاب حسن حسني في مجلة المقتبس تحت عنوان « رسائل الانتقاد » على نسخة في خزانته وأخرى في خزانة الاسكوريال برقم ٥٣٦ ( ١٠١ ) من القسم العربي ، كما نشر ضمن « رسائل البلغاء » كما نشره الخانجي مستقلا سنة ١٩٢٦ م وصدره بمقدمة جاء فيها : « كتاب اعلام الكلام الذي نشره اليوم بين يدي القارئ الكريم وقد سبق لأحد الأفاضل التونسيين ، وهو حسن أفندي عبد الوهاب

القيرواني . . . جمع فيه من نظمه ونثره » ( ٩٣ ) ويقول البغدادي : « له أفكار الأفكار نظما ونثرا » ( ٩٤ ) ويقول حسن حسني : « أما تأليف ابن شرف فكثيرة على ما نقله إلينا المؤرخون فمنها كتاب « أفكار الأفكار » جمع فيه ما اختاره من نظمة ونثره ، وهو انفس مصنفاته ، مفقود وقد يوجد شيء منه في كتب الأدب » ( ٩٥ ) ويحدثنا ابن شرف نفسه عن كتابه هذا ، فيذكر أنه اشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال وحكايات قصار وطوال حيث يقول : « وقد كنت حاولت منه ما لم أسبق إليه ، ولم أجعل سوى ناظري معيني عليه ، فصنعت الكتاب الملقب « أفكار الأفكار » يشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال وحكايات قصار وطوال » ( ٩٦ ) ثم يشير إلى أنه من اختراعه ، ومما أنتجته قريحته ، وأنه اشتمل على الجد والهزل فيعقب ذلك بقوله : « مما عزوتها إلى من لم يحكها ، وأضفت نسجها إلى من لم يحكها ، قد طررت بلمح الجد والهزل ، وحسنت بمقابلة الضد للمثل ، وليس في ذلك كله رواية رويتها عن قديم ولا جديد ، ولا حديث بها عن قريب ولا بعيد . . . » ( ٩٧ ) .

وقد أهدي ابن شرف هذا الكتاب إلى المعتضد ، وبعث به إليه . يقول ابن بسام : « وطرر تأليفه ( أفكار الأفكار ) باسم عباد ، وبعث به إليه على البعاد ، وقد كان وسعه قبل

( ٩٣ ) كشف الظنون ١ : ٦١

( ٩٤ ) هدية العارفين ٢ : ٧٢

( ٩٥ ) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ وانظر رسائل البلغاء : ٢٥٥

( ٩٦ ) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٤٠

( ٩٧ ) المصدر السابق : ١٤٠ - ١٤١

( ٩٨ ) بدائع البداية : ١٢٦ - ١٢٨

( ٩٩ ) معجم الأدياء ١٩ : ٢٣

( ١٠٠ ) نفس المصدر السابق والصفحة

( ١٠١ ) انظر حديثه عن النسخ التي اعتمدها في « رسائل الانتقاد » مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٠

ان نشره في مجلة المقتبس تحت اسم « رسائل الانتقاد » وقد خيل لحضرتيه أن رسائل الانتقاد هذه غير اعلام الكلام ، كما أشار بذلك في مقدمته « (١٠٢) ويحدثنا الدكتور ياغي عن رسالة اعلام الكلام وأنها هي بعينها « رسائل الانتقاد » كما أنها تسمى أيضا « مقامة عن الشعراء » فيقول : « اعلام الكلام نشرها الخانجي وهي هي رسائل الانتقاد » ، كما هي في الاسكوريال برقم ٥٣٦ وعليها اسم « مقامة عن الشعراء » وقد صورتها الى الجامعة العربية، وبينها وبين نسخة الخانجي بعض الاختلافات القليلة « (١٠٣) وهكذا نرى ان « اعلام الكلام » و « رسالة الانتقاد » و « مقامة عن الشعراء » كلها أسماء أطلقت على كتاب واحد ومسمى واحد .

وتكاد هذه الرسالة تكون هي الأثر الوحيد الذي وصل إلينا من مصنفات ابن شرف وآثاره التي امتدت إليها يد الضياع ، وقد كتبها بأسلوب السجع المعروف في المقامات ، وأثقلها بالمحسنات البديعية ، واتخذ لها شخصا خاليا دعاه ( أبا الريان الصلت بن السكن ) وتحدث على لسان هذا الشخص الخيالي أو البطل عن مشاهير الشعراء القدامى والمحدثين فوصف كل واحد باختصار ، وعرض لمزاياه وعيوبه في إيجاز ، وأغفل المضمورين منهم والمجاهيل ولم يشر إليهم ، ويقول باقوت : « وهي على طراز مقامة نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهلية

والاسلام » (١٠٤) ويحدثنا عنها ابن بسام بقوله : « ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابيه وصب فيها على قلبه ، منها مقامة فيها بعض طول لكنه غير مملول ، أخذه بطرف مستطرف من أخبار الأدباء وذكر الشعر والشعراء » (١٠٥) ويقول أحمد أمين : « كما وضع ابن شرف كتابه (اعلام الكلام) وموضوعه مقامة طويلة كمقامات الحريري ، تعرض بطلها لمشهورى الشعراء من المتقدمين والمحدثين بصفه في قول قصير ، ويبين مزاياه وعيوبه في إيجاز » (١٠٦) ويقول حسن حسنى : « وهي من أجمل ما وضع الواضعون في هذا الفن الجليل الذى كاد أن يكون مفقودا في التصانيف العربية » (١٠٧) كما ذهب في مقدمته لها الى انه يبدو أن ابن شرف كان يهدف من ورائها الى معارضة كتاب « العمدة » لابن رشيق وأنها ربما كانت أطول مما وجدته وحققه ونشره ، وقد استند في رأيه هذا الى ما جاء في سياق كلام ابن شرف في مقدمته للمجلس الاول يقول حسن حسنى : « ويلوح لى أن مؤلفنا قصد بتدوين هذه الرسائل معارضة كتاب «العمدة» . . . . الا أن الرسائل المعارض بها كانت أطول وأكثر مما وجدناه وأوردناه هنا يؤيد ذلك ما جاء في سياق كلام ابن شرف في مقدمته للمجلس الاول حيث يقول : « فاقمت من هذا النصوص عشرين حديثا » فالظنون انه يقصد بالحديث مجالسه مع الاستاذ الموهوم الذى سماه « أبا الريان » كما اختلق الحريري في مقاماته شخص

( ١٠٢ ) انظر مقدمة رسالة اعلام الكلام ، وممن ذهب من المحدثين الى أن رسالة « اعلام الكلام » كتاب آخر غير « رسائل الانتقاد » حسن حسنى حيث يقول وهو يصد عرض مؤلفات ابن شرف : « لومنها كتاب « اعلام الكلام » به نخب وملح مفقود ايضا ، ثم رسائل الانتقاد ، والمظنون أنه ألفها بدهجته القطر التونسى كما يستفاد من سياق كلامه في مقدمتها » مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ - ٣٥٥ وانظر رسائل البلقاء : ٣٠٦

( ١٠٣ ) حياة التبروان ومولف ابن رشيق منها : ٢٠٥

( ١٠٤ ) معجم الأدباء ١٩ : ٤٣

( ١٠٥ ) اللخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٥٤

( ١٠٦ ) فهر الاسلام : ١ : ٨ : ٢٠٨

( ١٠٧ ) بساط المتيق : ٥١

على التهاون بما أنشدت له ، فان ذلك جور في الاحكام وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما ، فحينئذ تحكم لهما أو عليها» (١١١) ثم يقول : « وقد وصف تعالى في كتابه الصادق تثبيت القلوب بسيرة القديم ، ونفارها عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم « انا وجدنا آباءنا على أمة » وقال تعالى « لن نعبد الا ما وجدنا عليه آباءنا ... » فلا يرمك ان تجرى الحق في جميع الخلق ، فيه قامت السماوات والارض ، وبه احكم الابرام والنقض ، وسامثل لك في هذا أمثالا ، وأملا اسمعك مقالا ، وفهمك مدلا واعتدالا ، هذا امرؤ القيس أقدم الشعراء عصرا ، ومقدمهم شعرا وذكرنا ، وقو السمعت الاقوال في فضله اتساعا لم يغز غيره بمثله ، حتى ان العامة تظن بل توقن ان جواد شعره لا يكبوا ، وان حسام نظمه لا ينبو وهيئات من البشر الكمال ، ومن الأدمين الاستواء ، والاعتدال» (١١٢) ثم يمضى يعدد على بعض الشعراء القدامى كثيرا من السقطات والهفات ، وينمى عليهم ما وقعوا فيه من اخطاء وعيوب ويجرحهم ، ويشهر بهم بادئا بامرئ القيس أقدم الشعراء عصرا ، ومقدمهم ذكرا وشعرا ويرى انه كسائر الشعراء لا يخلو من العيوب ولا يسلّم من الهفات والمآخذ ، ثم يعرض لطائفة من عيوبه وسفاسف شعره وساقطه .

واذا كان ابن شرف يحدثنا عن القدامى والمحدثين كما رأينا في النص السابق ايراده من هذه الرسالة الذي حمل فيه على مقاييس الرواة وعلماء اللغة في تفضيلهم القديم لجرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه ، فاننا نجد ابن

الحارث بن همام واخترع الهمداني عيسى بن هشام ، فعسى ان يساعدني الحظ بالعثور على بقية هذا التأليف النفيس ان كان في عالم الموجودات » (١٠٨) .

هذه هي رسالة اعلام الكلام واقوال العلماء القدامى والمحدثين فيها وفي موضوعها ويجدر بنا قبل أن نتحدث عنها أن نقارن بينها وبين « كتاب العمدة » ورسالة قراضة الذهب لابن رشيق .

واذا قارنا بين رسالة « اعلام الكلام » لابن شرف ، والعمدة ورسالة قراضة الذهب لابن رشيق وجدنا تشابها بينهما في كثير من الموضوعات ، فابن شرف مثلا يقول عن ابن الرومي : « وأما ابن الرومي فشجرة الاختراع وثمرة الابتداع ، وله في الهجاء ما ليس له في الاطراء فتح فيه ابوابا ، ووصل منه اسبابا ، وخلع منه اثوابا وطوقه رقابا» (١٠٩) ويقول ابن رشيق « وكان ابن الرومي ضئيلا بالمعاني ، حريصا عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهرا لبطن ، ويصرفه في كل وجه الى كل ناحية ، حتى يميتته ، ويعلم انه لا مطمع فيه لاحد» (١١٠) ونرى ابن شرف في الرسالة يحدثنا عن الشعراء القدامى والمحدثين ، ويحمل على اتجاه الرواة وعلماء اللغة ومقاييسهم في تقسيمهم للشعراء الى طبقات ، وتفضيلهم القديم لمجد قدمه وسبق الزمن بصاحبه حيث يقول : « وتحفظ من شيئين : أحدهما أن يحملك اجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له ، والثاني : أن يحملك اصغارك المعاصر المشهور

( ١٠٨ ) مجلة المقتبس الجلد السادس : ٢٥١

( ١١٠ ) المصنعة ٢ : ٢٣٦ - ٢٢٧

( ١٠٩ ) اعلام الكلام : ٢٤

( ١١١ ) اعلام الكلام : ٢٨

( ١١٢ ) اعلام الكلام : ٢٨

تأثر بصاحبه ، وتأسى به ، أو نقول : أن اتفاقهما وتشابههما هو مجرد توارد خواطر كالذي رأينا في الأشعار التي حملها عليهما المعز بن باديس ، ودفعهما إليها دفعا مثل اشعارهما في صفة الموز أو في وصف شعر السوق .

وقد بدا لي بعد كل هذا أن أستنتج أن ابن رشيق أخذ من ابن شرف ، وأميل إلى أنه تأسى به ، وأرجح أنه تأثر به خاصة أننا نجد ابن شرف يستهل رسالته، ويفتحها بقوله : « هذه احاديث صفتها مختلفة الانواع ، مؤلفة في الاسماع ، عريبت المواشم غريبات التراجم ، وعزوتها إلى أبي الريان الصلت بن السكن من سلامان ، وكان شيخا هما في اللسان ، وبدرا تما في البيان ، قد بقي احقبا ، ولقى احقبا ، ثم القته الينا من ياديته الازمات واوردته علينا العزمات فامتحننا من علمه بحرا جاريا ، من فهمه زنادا واريا ، وادركنا من بره طرفا ، واجتنبنا من ثمره طرفا ، ونحن اذ ذاك والشباب مقتبل ، وغفلة الزمان تهتبل (١١٥) . . . » فابن شرف يصرح في هذا النص انه كتب هذه الرسالة في مقتبل الشباب وصدره ، واذا عرفنا أن ابن شرف ولد في سنة ٣٩٠ هـ كان لنا أن نزعم انه ألفها بين سنتي ٤١٠ هـ و ٤٢٠ هـ أي في العقد الثالث من عمره في مقتبل الشباب وشرخه وصدره ، فإذا أضفنا إلى ذلك انه يمكننا أن نقول : أن ابن رشيق ألف كتابه « العمدة » في الفترة ما بين سنتي ٤١٢ هـ و ٤٢٥ هـ لاننا نجده يورد خبر هجاء دعل بن علي الخزاعي للمعتصم وهروبه من وجهه ، فارا بمهجته

رشيق يعقد لهم بابا مستقلا وقائما بديانه في كتابه العمدة بعنوان « القدماء والمحدثين » .

واذا كان ابن شرف يحدثنا في رسالته عن امرئ القيس ، ويذكر انه « مؤسس الاساس ، وبنيانه عليه الناس ، كانوا يقولون : أسيلة الخد ، حتى قال امرؤ القيس : أسيلة مجرى الدمع ، وكانوا يقولون : تامة القامة وطويلة القامة واشباه هذا وجيداء ، وتامة العنق ، حتى قال امرؤ القيس : « بعيدة مهوى القرط » وكانوا يقولون في الفرس السابق يلحق العزال ، ويسبق الظلام ، أو الظليم ، وامثال هذا ، حتى قال : بمنجرد قيد الاوابد هيكل » ومثل هذا له كثير (١١٣) فاننا نرى ابن رشيق يحدثنا في رسالته « قراضة الذهب » عن امرئ القيس بقوله : « وانا اقتصر من جميع الشعراء في اكثر ما اوردته على امرئ القيس ، لانه المقدم لا محالة ، وان وقع في ذلك بعض الخلاف فالميز الحاذق بطرق البلاغة يجد لكلامه من الفضيلة في نفسه ما لا يجده لغيره من كلام الشعراء ، والبحث والتفتيش يزبدانه جلالة ، ويوجبان له على ما سواه مزية ، ويشهد الطبع وذوق الفطرة شهادة بينة واضحة لا تدركها شبهة اذا قصد الانسان العدل ، وترك التعصب واول ما ابدا من ذلك ما كان من جهة الاستعارة كقوله : « بمنجرد قيد الاوابد هيكل » فانه اول من قيدها ، وسبق إلى الاستعارة البديعة فاتبعه الناس (١١٤) فهل لنا بعد هذه المقارنة بين اعلام الكلام لابن شرف ، وقراضة الذهب والعمدة لابن رشيق التي اوردنا اطرافا منها أن نقول : أن احدهما

( ١١٣ ) اعلام الكلام : ١١٦

( ١١٤ ) قراضة الذهب تطبيق الشاذلي بو يحيى ط تونس سنة ١٩٧٢ م ص ٢٠ - ٢١ .

( ١١٥ ) اعلام الكلام : ١٣

( ١١٦ ) العمدة ١ : ٥٧

عصره ، فيهدى كتابه الى ابن ابي الرجال ، وأن يسرف في مدحه ، ويقال في اطرائه شأنه شأن غيره ممن هم على شاكلته من الانبياء والكتاب حتى يقول : « ولم أرسم كتابي هذا باسم السيد زاده الله تعالى سمو لاكون كجالب النمر الى هجر ، ومهدى الوشى الى عدن ، ولكن تزينا باسمه الشريف وذكره الطيب : واستسلما بين علمه الطائل وأدبه الكامل ... (١١٨) فاذا عرفنا أن ابن ابي الرجال هذا الذي اهداه ابن رشيق كتابه « العمدة » توفي سنة ٤٢٥ هـ فان من المقطوع به ان يكون هذا الكتاب قد تم تأليفه قبل هذا التاريخ ، وعلى هذا يكون ما ذهبنا اليه ، وافتراضنا من أن ابن رشيق أخذ من رسالة اعلام الكلام لابن شرف ، وافاد منها ، وتأثر بها أمر جائز يقبله العقل ، ولا يحيل ، ولا يمنع من ذلك أن ينفي ابن رشيق عن نفسه في كتابه العمدة تهمة الاخذ من بعض معاصريه ، وذلك انه حين ألف كتابه العمدة ، واخرجه للناس يبدو أنه ظفر بأعجاب الجمهور ، واصاب الحظوة عندهم الامر الذي أوغر صدور خصومه فنالوا من الكتاب ، وانتقصوا من قلوبه ، وبخسوه حقه ، وتقموا على صاحبه ، وغبطوه حقه ، وادعوا عليه الاخذ والاتصال والسرقة ، فقال معرضا بهم في بداية باب التضمين والاجازة : « وهذا باب يختلط على كثير من الشعراء ممن ليس له تقوى في العلم ولا حلق بالصناعة كجماعة ممن وسم في بلدنا بالعرفه ، وينسب اليها مكلوبا عليه فيها ، كاذبا فيما ادعاه منها ، ولعنهم في لحن القول » (١١٩) كما يعرض بهم في موضع آخر حيث يقول : « وكم في بلدنا هذا من الحفلات

منه ، بعد أن طلبه المعتصم ونذر دمه ، وابعاده في الهرب حتى أدركته منيهة ، وحمل قضاؤه بالمغرب بزويلة بنى الخطاب حيث دفن الى جوار قبر عبدالله ابن شيخه القزاز حيث يقول : « وألى جانب قبر عبد الله بن شيخنا ابي عبد الله محمد بن جعفر النحوي رحمه الله » (١١٦) فهو يذكر قبر ابن شيخه القزاز ، ويقرن اسم شيخه بقوله : « رحمه الله » فاذا ذهبنا الى أن الدعاء بالرحمة انما هو لشيخه القزاز وأنه كان قد توفي اثناء كتابة تلميلة ابن رشيق قصة دجيل وخبره مع المعتصم أمكننا أن نقول : أن ابن رشيق ابتداء تأليف كتابه هذا في سنة ٤١٢ هـ وهناك قرينة ثانية تدل على أن هذا الكتاب ألف في الفترة آتفة الذكر ، وهي أن اول ما يطالعنا من هذا الكتاب أن ابن رشيق يرفعه الى ابن الحسن على بن أبى الرجال رئيس ديوان انشاء المعز بن باديس ، ويهديه اياه ، فيقول : « السيد الامجد والفد الاوحد حسنة الدنيا وعلم العليا وبانى المكارم وآبى المظالم رجل الخطب وفارس الكتب ابي الحسن على ابن ابي الرجال الكاتب زعيم الكرم وواحد الفهم ، الذي نال الرياسة وحاز السياسة » (١١٧) ولم يكن ابن رشيق في صتيه هذا ، واهدائه كتابه الى ابن ابي الرجال بدعا من المؤلفين والمصنفين وانما كان يجرى على سنة العصر الذي عاش فيه ، فقد جرت عادة العلماء والادباء حينذاك أن يرفعوا كتبهم ومصنفاتهم الى الامراء والوزراء وكبار رجالات الدولة ، ويهدونها اليهم ابتغاء للمثوبة والمنفعة ، والتماسا لجزيل عطائهم ونوالهم وصلاتهم وطلبا للشهرة وذوبوع الصيت فلا على أن ابن رشيق ان يجرى على سنة

(١١٧) العمدة ١ : ٢

(١١٨) العمدة ١ : ٥

(١١٩) العمدة ٢ : ٨٠

خرجت به الى الاوهام سبقا  
وقل له عن الوهم الخروج  
الى الملك المعز ابي تميم  
امر بمن سواه فلا أعيج

فابن رشيق يحدثنا عن هذه الابيات بقوله : « ومن قصيدة صنعتها بديهة بالمهدية ساعة وصولي اليه - ادام الله عزه - عن اقتراح بعض شعراء وقتنا هذا » (١٢٢)، فاليمين يرى ان ابن رشيق انما ذهب الى المهدية ، ولحق بالمعز بن باديس بها بعد خراب القيروان على ايدى الاعراب سنة ٤٤٩ هـ وهى سنة جلاء المعز عن القيروان الى المهدية، ولنا ان نسائل الميمنى وان تناقشه فيما ذهب اليه ، فمن ذا الذى زعم او قال : ان المعز بن باديس لم يذهب قط الى المهدية الا فى سنة ٤٤٩ هـ بعد خراب القيروان ؟ ومن يستطيع ان ينكر ان المعز قد ذهب اليها ، وزارها قبل هذا التاريخ اثناء ازدهار ملكه لتفقد احوال رعيته فيها ، ليست احدى المدن الكبار الواقعة فى نطاق دولته ؟ اليس المعز قد ولى عليها ابنه تميم ، وعهد اليه بامرها ؟ ثم الم يحدثنا المؤرخون القدامى والمحدثون ان المعز كان بالمهدية فى صحبة جدته يوم مات ابوه باديس ، وأنه ولى الملك ، وآلت اليه الامارة وهو بها سنة ٤٠٦ هـ ؟ على ما يحدثنا ابن ابي دينار حيث يقول عن وفاة باديس : « فادركه اجله على مدينة المحمدية آخر ليلة من ذى القعدة سنة ست وأربعمائة ، فكنتم اكابر دولته موته ، وتشاورا فيما بينهم ، فانفق رأيهم على تولية ولده المعز وكان صغيرا اذ ذاك لم يبلغ عشر سنين ، فجعلوا باديس فى تابوت . . . . . وأوصلوه الى المهدية

قد صاروا ثعابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهين » ان البغاث فى أرضنا يستنسر ، ولولا ان يعرفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم فى هذا الكتاب ، ويدخلوا فى جملة من يعدخله ، ويحصى زلله للذكرت من لعن كل واحد منهم وتصحيفه وفساد معانيه وركاكة لفظه مايدلك على مرتبته من هذه الصناعة التى ادعوها باطلا ، وانتسبوا اليها انتحالا ، وقد بلفنى ان بعض من لا يتورع عن كذب ، ولا يستحي من فضيحة زعم انى اخذت مسائل من هذا الكتاب لو سئل عنها الان ما علمها » (١٢٠) وربما كان يقصد بمن لا يتورع عن الكذب ، ولا يستحي من الفضيحة ابن شرف القيروانى قريعه وغريمه ومناقسه فى بلاط المعز بن باديس .

وقد ذهب حسن حسنى الى قريب مما ذهبننا اليه ، فقد ذكر ان ابن رشيق الف كتابه « العمدة » فى حدود سنة ٤٣٠ هـ او قبلها بقليل حيث يقول : « واشهر تاليف لابن رشيق فى الادب هى كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده الفها فى حدود سنة ٤٣٠ هـ او قبلها بسير » (١٢١) وانه لمن الغريب حقا ان يذهب اليمنى الى ان ابن رشيق الف هذا الكتاب بعد سنة ٤٤٩ هـ معتمدا فى ذلك على خبر أبيات لابن رشيق وردت فى هذا الكتاب وهى :

وذاك له رجل طحون  
لما نزلت به ويد زجوج  
يطير بأربع لا عيب فيها  
لظهران الصفا منها عجيج

( ١٢٠ ) العمدة ٢ : ٢٢٨

( ١٢١ ) بساط المقيى : ٨٧

( ١٢٢ ) العمدة ١ : ٢٠٢

على ارجح الروايات ، فكيف نستسيخ أو نتقبل أن يسلم ابن رشيق من عمره ستين عاما ، وأن يقضى حياته الا اقلها لا يؤلف شيئا ، حتى اذا ما أصبح في خريف العمر ، وغدا شيخا هرما ، واضطربت أمور الدولة ، والتأثت أحوال الرعية ، وحدثت مأساة سقوط القيروان في أيدي الأعراب ، وأزعج عن حرمة الأمن ، وأجلى عنه مرغما ، ونزح الى المهدي على كره منه ، راح يكتب وأخذ يؤلف مثل هذا الكتاب ، والميمنى نفسه يقول عنه « ولكن لما انتقل المعز من سبيل أعراب مصر الى المهدي ، وتبعه صاحبنا ، طاس فكره ونال رايه ، فكان يتمتع من أدنى فلة ، ويحبه على أحقر بادرة ، ويسوء الظن بصديقه الوفي وصاحبه الحق ، فارتحل الى صقلية وهو كاره . . مع أنها لم تكن أحسن حالا من أفريقية » (١٢٤) فشيخ هرم مثل ابن رشيق هذه حاله ونفسه وتلك ظروفه يزعم عن حرمة الأمن ، ويجلو عن موطنه القيروان مرغما ، ويلدرف على ضياعه دموعا صادقة ، ويصور لنا مأساته أدور تصوير وأصدقته في مراثية من أصدق شعر ابن رشيق عاطفة وأعمقه اثرا في النفس ، ثم يعانى في هذه السن الآم الوحشة والافتراق ويتجوع مرارة نبو المعز عنه ، وجفوته له ، لا يمكنه بحال من الأحوال أن يؤلف مثل هذا الكتاب في ذلك الحين ، وإنما المستساغ والمقبول والاقرب الى الصواب أن يكون قد ألفه قبل ذلك في

وكان ولده المعز بها خرجت به جدته للنزاهة وجعلتها حرزا لاموالها ، لما كانت ترى من الفتنة في دولة ولدها باديس» (١٢٣) .

على أن قصة هذه الابيات التي اعتمد عليها الميمنى في تحديد زمن تأليف كتاب «العمدة» وردت برواية أخرى في النسخة الخطية أقدم نسخ الكتاب تقول هذه الرواية : « قبل وصولي اليها » فهو يصرح فيها أنه قال هذا الشعر قبل أن تتصل أسبابه بأسباب المعز بن باديس ، وينخرط في سلك خدمته ، ويصطنعه المعز ، ويصطفيه لنفسه ، ويصبح شاعر بلاطه المقدم عنده الاثير لديه ، وليس أدل على ذلك من أنه قال هذا الشعر عن اقتراح أحد شعراء الوقت ، ولو كان قد قاله بعد سنة ٤٩٠ هـ - كما ذهب الميمنى - ما كان بحاجة الى اقتراح غيره عليه أن يقول شعرا وإنما يكون الاقتراح قبل أن يصل حبله بحبل المعز ، فيدفعه المقترح الى أن يقول شعرا في هذا الفرض أو ذاك ، وبدا يكون الزمن الذي حددناه لتأليف الكتاب أقرب الى الصحة والصواب ، ولا يكون ابن رشيق نفسه بعد سنة ٤٩٠ هـ بحال من الأحوال كما ذهب الميمنى .

على أننا لو تركنا هذا الموضوع جانبا ، ونظرنا الى سن ابن رشيق حين رحل الى المهدي ولحق بالمعز بن باديس بها سنة ٤٩٩ هـ لرأيناه قد ناهز الستين اذ انه ولد سنة ٣٩٠ هـ

( ١٢٣ ) المؤنس : ٧٩ - ٨٠ وفي بساط العتيق : ٤٢ : « ولما اندكت المنية والده باديس آخر ليلة من نى القعدة سنة ٤٠٦ هـ بمدينة الحمديّة ، تفاوض مديرو الدولة بينهم ، فاتفقوا بهم على تولية المعز ، وكان وقتئذ في التزوّد صحبة جدته بالمهديّة » ويظهر من كلام ابن عذاري أن المعز كان في صحبة عمته أم ملال عند توليه الإمارة بالمهديّة ، وليس في صحبة جدته انظر البيان المغرب ١ : ٢٨٦ وقد ذهب الى ذلك احمد بن هاجر في كتابه « الدولة العنناجية » حيث يقول عن أم ملال : « وهى سيدة بنت الأمير المنصور وشقيقة الأمير باديس نشأت ودرجت في كتف والدها وألحها ، واشتهرت برجاعة العقل وسعة التفكير ولقب الراى وعلو الثقافة ... وبذلك تاهلت لان تنتخب وصية على ابنه الأمير المعز الذي ولي الإمارة وعمره ثمانية أعوام .. » الدولة العنناجية : ٦٢ - ٦٣ وذكر ابن الأثير أن ولاية المعز كانت بالمهديّة ، ولم يشر الى وصاية عمته عليه حيث يقول : « ووصلوا الى المهديّة ، والمعز بها لامن الحرم ، فركب المعز ووقف جيبب يعلفه بهم ، وذكروا له اسماءهم ، وعرفه بقوادهم وأكابرهم ، فرحل المعز من المهديّة ، فوصل الى المنصورة منتعفا الحرم » الكامل ٩ : ٩٥

( ١٢٤ ) ابن رشيق : ٥٠ .

شرح شبابه ومقبل عمره ، والدنيا عليه مقبلة والسلطان عنه راضى ، والظروف مهيأة له ومتاحة ، والزمان موات له ومساعد ، ومن العجيب ان الميمنى يقرر بعد ذلك ان ابن رشيق سنة ٤٤٩ هـ كان في عهد هرمه وشيوخه ، وأنه لم يصنف فيه شيئا جديرا بالذكر حيث يقول : « ان هذا العهد كان عهد هرمه وهمومه ، وأنه لم يعمل فيه عملا يصلح للذكر اصلا ، او على ما بلغنا » (١٢٥)

فهل لنا بعد كل هذا ان نركن الى مذهبنا اليه ، وافترضناه ، واستنتجناه من أن ابن رشيق اخذ من ابن شرف ، وتأثر به ، وكان من الممكن أن نظمّن الى ما انتهينا اليه لولا أننا رأينا ابن شرف يورد في مقدمة رسالته ما ينقض كل ما افترضناه واستنتجناه وذهبنا اليه ، ويأتى عليه من القواعد ، ويجعلنا لانظمّن الى ما انتهينا اليه حيث يقول « ولعمري ما أشكر من نفسي ، ولا أثنى على شيء من حسى الا ظفري بالآقل مما حاولته ، على ما أضرمته نيران الفرية من قولى ، وثلمته صمقات الفتنة من لبي ، وقطعت أهوال البر والبحر من خواطرى ، وأضعفت الوحشة والوحدة من غرائزى وبصائرى » (١٢٦) فهذا النص يدل على أن الرسالة كتبت بعد معاناة أهوال في البر والبحر ، وبعد غربة وفتنة ، وليست هناك الا فتنة سقوط القيروان التي هزته ، فخلد مأساتها في عدة قصائد تعد من عيون شعر رثاء المدن ، هذا اللون الذى شاع

في الاندلس والمغرب العربى قبل أن يعرفه المشارقة ولا تكاد نعرف الا غربته في صقلية ، ثم القربة والوحدة في الاندلس كما سبق أن بينا ، واذا كان الامر كذلك وكانت كتابة الرسالة بعد هذا كله فلا يمكننا أن نزعّم أن ابن رشيق تأثر بابن شرف أو اخذ عنه لا في ( العمدة ) ولا في ( قراضة الذهب ) ، ولعل هذا النص هو الذى دفع حسن حسنى الى أن يرجح أن ابن شرف الف هذه الرسالة بعد هجرته من القطر التونسى حيث يقول وهو بصدد تعداد مصنفات ابن شرف : « ثم رسائل الانتقاد ، والمظنون أنه ألفها بعد هجرته القطر التونسى كما يستفاد من سياق كلامه في مقدمتها » (١٢٧) .

ومن هنا نرى أنه لم يكّد يصل إلينا من مؤلفات ابن شرف الكثيرة التى يقول فيها ابن بسام : « ولابى عبدالله عدة تواليف أفاضها بحارا ، وأطلعها شحموسا وأقمارا » (١٢٨) والتى يحدثنا عنها حسن حسنى بقوله : « أما تاليف ابن شرف فكثيرة على ما نقله إلينا المؤرخون سوى رسالته أعلام الكلام » (١٢٩) أما باقى مؤلفاته فقد فقدت ، وامتدت إليها يد الضياع ، الا أنه ينبغي أن نشير هنا الى أنه توجد أنارات من نثره وشعره مبوثة في ثنايا كتب الادب ، ولا سيما ( الذخيرة ) لابن بسام ، فقد احتفظ لنا فيها بجملة صالحة من آثاره تكفى لابرار قيمتها ، وأورد لنا طائفة كبيرة من نثره وشعره ، وبسط القول في اخباره الادبية وأفاض فيها حتى كسر عليها ما يزيد عن خمسين صفحة ، فمع نثره الذى

( ١٢٥ ) ابن رشيق : ٦٧

( ١٢٦ ) رسالة اعلام الكلام : ١٤

( ١٢٧ ) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ - ٢٥٥ وانظر رسائل اليلفاء : ٣٠٦

( ١٢٨ ) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٢٤ .

( ١٢٩ ) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ وانظر رسائل اليلفاء : ٣٠٦ وقد عد اليفادى ضمن مؤلفات ابن شرف حجج النصح وسر البر ، ولا ندرى شيئا عن موضوع هذين الكتابين ولا المصادر التى استلهم منها إذ اكتفى بذكرهما دون أن يشير الى موضوعهما ولا الى المصادر التى اعتمدها في هذين الكتابين .



أورده ابن بسام رسائله إلى المعتضد التي خاطب في أحداها وزيره ابن زيدون ، وفصل من رسالة بعث بها إلى المظفر بن الأفطس ، وفصول من النثر في مختلف المعاني وشتى الموضوعات ، ثم ختمها بقصة قصيرة سماها مقامة ، وقد التزم السجع ، وكلف بالمحسنات البديعية في كل كتاباته ، فاثقل نثره بالمحسنات البديعية ، وأسرف في استعمالها ، وغالى في تزوين الألفاظ وتزويق العبارات ، وحشد فيها كل ما يستطيع أن يأتى به من تلك المحسنات حتى أننا لانكاد نجد عبارة واحدة لا تثقلها المحسنات ، وقد كان هذا شأنه في كل ما اثر لنا عنه من نثر سواء أكان نثرا انشائيا صرفا كالرسائل والفصول التي أوردها ابن بسام ، ومحدثنا عنها آنفا ، أم كان نثرا تناول فيه الأبحاث الأدبية مثل رسالته «أعلام الكلام» تلك الرسالة الوحيدة التي وصلت إلينا من بين مؤلفاته ، والتي تناول فيها الشعراء بالنقد ، فقد حشد فيها كل المحسنات البديعية ، وكلف بالسجع الركيك . واحتفل به ، والتزمه من أول الرسالة إلى آخرها كما أولع بالألفاظ الغريبة ، حتى كادت الأفكار والاحكام العامة الخالية من الضبط ، والتحليل المشتملة عليها هذه الرسالة تضيق في أمواج السجع والألفاظ الغريبة ، وتغيب في خضم الصنعة المفرطة المغالى فيها ، فهو يعرض فيها للشعر والشعراء ومنازلهم في الجاهلية والاحتلام ، ويبين رأيه فيهم وموقفه منهم سالكا في ذلك سبيل المقامات .

أورده ابن بسام رسائله إلى المعتضد التي خاطب في أحداها وزيره ابن زيدون ، وفصل من رسالة بعث بها إلى المظفر بن الأفطس ، وفصول من النثر في مختلف المعاني وشتى الموضوعات ، ثم ختمها بقصة قصيرة سماها مقامة ، وقد التزم السجع ، وكلف بالمحسنات البديعية في كل كتاباته ، فاثقل نثره بالمحسنات البديعية ، وأسرف في استعمالها ، وغالى في تزوين الألفاظ وتزويق العبارات ، وحشد فيها كل ما يستطيع أن يأتى به من تلك المحسنات حتى أننا لانكاد نجد عبارة واحدة لا تثقلها المحسنات ، وقد كان هذا شأنه في كل ما اثر لنا عنه من نثر سواء أكان نثرا انشائيا صرفا كالرسائل والفصول التي أوردها ابن بسام ، ومحدثنا عنها آنفا ، أم كان نثرا تناول فيه الأبحاث الأدبية مثل رسالته «أعلام الكلام» تلك الرسالة الوحيدة التي وصلت إلينا من بين مؤلفاته ، والتي تناول فيها الشعراء بالنقد ، فقد حشد فيها كل المحسنات البديعية ، وكلف بالسجع الركيك . واحتفل به ، والتزمه من أول الرسالة إلى آخرها كما أولع بالألفاظ الغريبة ، حتى كادت الأفكار والاحكام العامة الخالية من الضبط ، والتحليل المشتملة عليها هذه الرسالة تضيق في أمواج السجع والألفاظ الغريبة ، وتغيب في خضم الصنعة المفرطة المغالى فيها ، فهو يعرض فيها للشعر والشعراء ومنازلهم في الجاهلية والاحتلام ، ويبين رأيه فيهم وموقفه منهم سالكا في ذلك سبيل المقامات .

ومستخدما أسلوبها ، فعنى بتزوين الألفاظ واهتم بتزويق العبارات ، وكلف بالسجع ، واحتفل بالمحسنات والصنعة ، حتى أنك لانكاد تجد عبارة واحدة في هذه الرسالة لا تنوء بأثقال المحسنات البديعية والصنعة المفرطة المغالى فيها .

أما الأشعار التي أوردها ابن بسام فهي في موضوعات شتى منها المقطوعة الطريفة التي خاطب فيها المعتضد ، وبعث بها إليه

بعد خطوب خطبت مهجتي  
وكان وشك البين أمهلها  
ذا كبد أفلاذها حولها  
قسمت الغربة أعضارها  
أطفال ما سمعت بالفلأ  
قط فعابت الفلأ دارها  
ولا رات أبصارها شاطئا  
ثم جلت بالبح أبصارها  
وكانت الاستار آفاقها  
فعادت الإنفاق أسفلها  
ولم تكن تعلقو سريرا غلا  
إلا إذا وافق مقفلها  
ثم علت كل عثور الخطأ  
ترسى بها الأرض وأحجلها  
ولم تكن تلحظها مقلة  
لو كحلت بالشمس أشفلها  
فأصبحت لا تتقي لحطة  
إلا بأن تجمع أطفلها

الفضة من صعاب في الصحارى والقفار وعلى  
متون البحار فرارا بأنفسهم من عسف الأعراب  
وعنتهم وأذاتهم .

يقول ابن شرف :

كانسى وأفراخي اذا الليل جننا  
وباتت الكرى يجفو جفونا ويطرق  
حمائم اضللن الوكور فضمها  
تجانسها حتى تراءى المفرق (١٣١)

الى آخر هذه المقطوعة التى سبق ان  
أوردناها عند حديثنا عن أسرته . ومن أشعاره  
قصيدة يندب فيها القيروان ، ويكى فيها  
وطنه الضائع ، ويدرف على ضياعه دموعا  
صادقة ويسترجع ذكرياته بالقيروان فى مرارة  
وأسى وحسرة ولوعة ، ويتشوق حياته الماضية  
بها، ويعوده السالفة فى ربوعها ومغانها فيقول:

ياقيروان وددت انسى طائر  
فأراك رؤية طائر متأمل  
أها وابة آهة تشفى جوى  
قلب بنيران الصبابة مصطلى  
أبدت مفاتيح القيوب عجائبا  
كانت كوامن تحت فيب مقفل  
زعموا ابن آوى فيك يعوى والصدى  
بدراك يصرخ كالحزين المتكلم  
يا بسد روضة والشوارع حولها  
مغمورة أبدا تفص وتمتلى  
يا أربعى في القطب منها كيف لى  
ببعاد يوم فيك لى ومن أين لى

وفى البيت الخامس من هذه المقطوعة قد  
ملح يقول ابن بسام معلقا على هذه المقطوعة  
« قوله » وكانت الاستار آفاقها « من الكلام  
الفصيح والقلب المليح ، ويشبه منحاه وان لم  
يكن فى معناه قول الأول :

فرد شعورهن السود بيضا  
ورد وجوههن البيض سودا

وكقول الآخر :

ندبتى جارية ساقية

ونزعتى ساقية جارية (١٣٠)

وقد بسط ابن شرف القول ، وأجاد كل  
الاجادة فى تصوير نكبة القيروان حاضرة  
أفريقية ، وما أصابها على أيدى الأعراب من  
صنوف التخريب والتدمير ومالحق بأهلها  
من ألوان العسف والاضطهاد ، وما حاق بهم  
من فتنون الأذى وضروب التعذيب ، ومالحق  
بهم من الدلة والهوان ، وكان ابن شرف قد  
أحسن للدع المصيبة وحرها ، وذاق مرارة  
النكبة ، وتجرع غصص الكارثة فى نفسه وأهله  
وولده ، وهزته المأساة وأزعجته عن حرمة  
الآمن، وعانى من ويلاتها ما عانى فانطقته بشعر  
صورها فيه تصويرا دقيقا ، حتى انه قلما  
نجد عند غيره من الشعراء من صور مأساة  
القيروان مثل هذا التصوير الدقيق المتمثل،  
ونحس مثل هذه اللمسات الحزينة التى تشيع  
فى كل مراثيه للقيروان ووصف مأساتها وماحل  
بأهلها ، ومن ثم كانت مراثي ابن شرف  
للقيروان ، وتصويره لمأساة سقوطها ، وماحل  
بأهلها من أصدق الشعر عاطفة ، وأعمقه أثرا  
فى النفوس وخاصة حين يصور حال أسرته  
وأطفاله الصفار ، وما تجشموه فى هذه السن

وسفورهن من هول الكارثة وتبذلهن وامتهانهن .  
وما لقيته من أهوال وأخطار ، وما تجشمت من  
صعاب بعد رغد عيشهن ، وتقلبهن في أعطاف  
النعم مصونات ممتنعات .

ونود أن نشير هنا الى أن المغاربة قد كلفوا  
بتقليد المشاركة ، وأن ابن بسام قد أدرك ذلك ،  
وأحسن تعلق بني وطنه بالمشاركة ، وولوعهم  
بتقليدهم ، والتأسي بهم ، فأحفظه ذلك ،  
وأغضبه وأثار حميته ، فراح ينعي على قومه  
تطعمهم الى المشرق وعلمائه وأدبائه ، وافتتاهم  
بهم ، واحتفالهم بأثارهم ، وكلفهم بتقليدهم  
والتأسي بهم حيث يقول : « أن أهل هذا  
الافق أبو الا متابعة أهل المشرق يرجعون الى  
أخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة ،  
حتى لو نقي بتلك الافاق غراب ، لوطن بأقصى  
الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنعا ،  
وتلوا ذلك كتابا محكما ، ففاظنى منهم ذلك ،  
وانفت مما هنالك غيرة لهذا الافق القريب أن  
تمود بدوره أهلة وتصبح بحاره ثعابا مضطحة ،  
وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان  
واختص أهل المشرق بالاحسان » ( ١٣٣ ) .

أما في مجال الشعر فقد كان غاية ما يطمح  
اليه أحد الشعراء المغاربة أو الأندلسيين وتصبوا  
اليه نفسه أن يشبه بأحد شعراء المشرق ويلحق  
به ، ويقرن اسمه باسمه ، فالتمالي يعجب  
بأن دراج القسطل ، ولا يتجاوز في تعبيره عن  
أعجابه به أن يشبهه بالمتنبى في المشرق ، ولا

يألو شهدت اذا رأيتك في الكرى  
كيف ارتجاع صباى بعد تكلل  
لاكثره الاحسان تنسى حسرة  
هيهات تذهب علة بتعلل  
واذا تجدد لى اخ ومنادم  
جددت ذكر اخاء خل أول  
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم  
يوم الرحيل فعلت مالم أفعل ( ١٣٢ )

كما توجد مقطوعات من شعره في كل الكتب  
التي ترجمت له مثل ( معجم الأدباء ) ( والوافي  
بالوفيات ) و ( المطرب ) ( معالم الايمان ) ،  
كما توجد آثان من شعره ونثره في ثنايا الكتب  
الادبية الأخرى مثل ( الفيت المسجم ) ففيه  
عدة مقطوعات من شعره ، كما توجد قطعة من  
نثره في مدح الشطرنج وهذه القطعة موجودة  
ايضا في ( نزهة الجليس ومنية الأديب الانيس ) .

ونستطيع أن نقول أن أجود اشعار ابن خرف  
هي قصائده التي رثى فيها القيروان . وطنه الضائع  
وبكائها فيها ، وندب أيامه بها ، واسترجع  
ذكرياته فيها ، وصور حال أسرته وأطفاله  
الصفار ، وما تجشموه من صعاب بعد أن  
هزتهم المأساة وأزعجتهم الفتنة عن حرمهم  
الامن ، وتلك التي صور فيها أجلاء العرب  
لأهلها بعد أن روعوهم في حرمهم الامن ،  
وأوقموا بهم ، ووصف خروج نساء القيروان

( ١٣٢ ) اللخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨١ - ١٨٢ وانظر معالم الايمان ١ : ١٥٠ مما اورد له الدباغ قصيدة يصف  
فيها خلاة القيروان ، وجلالة أهلها عنها ، منها :

الا منسؤل فيه انيس مغالط  
فجلت عن القلبران والله فاطر  
السم لك قنما في البلاد الكبار  
سوى سائر او قاطن وهو سائر  
القيمت سطور منهم وستائر

الا منسؤل فيه انيس مغالط  
نرى سينات القيروان لما ظلمت  
تراها اصيبت بالكبار وحدها  
ترحل منها قاطنوها فلا ترى  
تكشفت الامتار منهم وديها

وانظر اللخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨٢ - ١٨٤

( ١٣٣ ) اللخيرة القسم الاول المجلد الاول : ٢

« قوله (أى ابن دراج) :

فمن حرة حليت بالجـلاء  
وعلداء نصت بنص الزميل

ثم يتبع ذلك بقوله : « انتحى ابن شرف فيما وصف فتنة قيروانه منحنى القسطل في شكوى زمانه ، والحديث عن الفتن ، فكأثر البحر بوشل مشفوه ، وجارى الريح بكودن لافضل فيه » (١٣٦) الا انه ينبغي الا نغفل ابن شرف حقه في الشعر ، فهو يعد من الشعراء المغاربة المجيدين ، وشعره يمتاز بوضوح المعاني والافكار والدقة في الوصف وجزالة الالفاظ والتراكيب كما رأينا من اشعاره التى تناولناها وعرضنا لها .

هذه هي آثار ابن شرف التى فقدت وامتدت اليها يد الضياع ، والتى لم يبق لنا منها الا اثار منثورة في ثنايا الكتب ، وقد عرضنا لنشره وشعره حسبما استعفتنا النصوص ، ولنعرض لآرائه النقدية المتمثلة في رسالته « اعلام الكلام » .

#### آراؤه النقدية :

تتمثل آراء ابن شرف في النقد الأدبي في رسالته « اعلام الكلام » تلك الرسالة التى ضمنها آراءه النقدية ، وبين فيها موقفه من كثير من القضايا الادبية التى كانت تشغل بال معاصريه ، وهى باهتمامها على عديد من القضايا النقدية ، واحاطتها بكثير من المسائل الادبية ربما تعد متنا في النقد الأدبي .

يعدو ان يلحقه به فيقول : « وكان بصقع الاندلس كالمثني بصقع الشام » (١٣٤) ولم يكن ابن شرف بدعا من شعراء عصره من المغاربة في التعلق بالمشارقة والافتتان بهم ، فنراه ونحن نطالع الذخيرة لابن بسام مفتونا بالمتنبي ، كلفا بمجاراته ومعارضته ، وكأنى به وقد زهى بشاعريته ، واحس انه نظير للمثني ، وقرين له حتى حدثته نفسه ان يجاريه ويعارضه ، وسولت له ان بطاوله ويساميه ، يقول ابن بسام ان ابن شرف « قال يوما للمأمون بن ذى النون ايام خدمته اياه ، واستشفاه صباية عمره في ذراه ، وقد أجروا ذكر أبى الطيب ، فذهبوا في ثانيه كل مذهب : ان رأى المأمون - لافارق العزة والعلل - ان يشير الى اى قصيدة شاء من شعر أبى الطيب حتى اعارضه بقصيدة تنسى اسمه ، وتعفى رسمه فتثاقل ابن ذى النون عن جوابه علما بضيق جنبه ، واشفاقا من فضيحتة وانتشابه والى ابو عبد الله حتى أخرج ابن ذى النون واغراه ، فقال له : دونك قوله « لعينيك مايلقى الفؤاد وما لقي » فخلا بها ابن شرف اياما ، فوجد مركبها وعرا ، ومريرتها شزرا ، ولكنه أبلى مدرا ، وأرهق نفسه من امرها عسرا فما قام ولا قعد ، ولا حل ولا عقد » (١٣٥) .

كما يذكر ابن بسام في موضع آخر ان ابن الاشرف كان في وصفه نكبة القيروان ومأساتها متأسيا بابن دراج ، ومقلدا له ، ثم ينال منه ، ويقمطه حقه ، ويصفه بالقصور عن شأو ابن دراج كدابه دائما في التعصب لبنى وطنه وانتقاص من عداهم وغمط حقوقهم ، والفض من شأنهم ، حيث يقول مقارنا بين بيتين لابن شرف وابن دراج :

( ١٣٤ ) البيت ٢ : ٢٠

( ١٣٥ ) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٤

( ١٣٦ ) الذخيرة القسم الاول المجلد الاول : ٧٤ على ان ابن شرف كان معجبا بشعر ابن دراج وخاصة اشعاره التى قالها في محنته انظر اعلام الكلام : ٢٦

ودمنة ( فاضلوا حكمه الى الطير الحوائم ، ونطقوا به على السنة الوحوش والبهائم ، لتعلق به شهوات الأحداث ، وتستعذب بشجرة الفاظ الحداث وقد نحا هذا النحو سهل بن هارون الكاتب في تأليفه كتاب « النمر والتعلب » وهو مشهور الحكايات بديع المراسلات ، مليح المكاتبات ، وزور ايضا بديع الزمان الحافظ الهمداني وهو الاستاذ أبو الفضل أحمد بن الحسين مقامات كان ينشئها بديها في اواخر مجالسه وينسبها الى راوية رواها له يسميه عيسى بن هشام ، وزعم انه حدثه بها عن بليغ يسميه ابا الفتح الاسكندري ، وعددها فيما يزعم رواها عشرون مقامة ، الا انها لم تصل هذه العدة اليها ، وهي متضمنة معاني مختلفة ، ومبنية على معان شتى غير مؤلفة ، لينتفع بها من الكتاب والمحاضرين من صرفها من هزل الى جد ومن ضد الى ضد ، فأقمت من هذا النحو عشرين حديثا ، أرجو ان يتبين فضلها ، ولا تقتصر عما قبلها » ( ١٣٨ ) .

ويحدثنا ابن خلكان عن بديع الزمان ومقاماته بقوله : « صاحب الرسائل الرائعة والمقامات الفائقة على منواله نسج الحريري مقاماته ، واحتذى حذوه ، واقتفى أثره ، واعترف في خطبته بفضله ، وأنه الذي أرشده الى سلوك ذلك المنهج » ( ١٣٩ ) .

وقد أقر الحريري لبديع الزمان بالفضل حيث يقول في خطبة المقامات : « فاشار من اشارته ، وطاعته غم الى أن أنشئ مقامات اتلو فيها تلو البديع ، وأن لم يدرك المطالع شأو الضليع » ( ١٤٠ ) .

وقد سبق أن عرضنا لها ، وبيننا آراء العلماء فيها ، ومواقفهم منها ، وقارنا بينها وبين قراصة الذهب والعمدة لابن رشيق ، وذكرنا انه كتبها بأسلوب المقامات ، ذلك الأسلوب الملتزم للسجع ، والمنقل بالمحسنات البديعية ، والمتسم بتزيين الالفاظ وتزويق العبارات ، والحافل بحوشي الالفاظ وغريبها ، وأنه اتخذ لها شخصا خاليا أو بطلا دعاه ابا الريان الصلت بن السكن ، وتحدث على لسان بطله عن مشاهير الشعراء القدماء والمحدثين وأغفل المقصورين منهم وأهملهم ولم يشر اليهم .

وقد ابتدأ هذه الرسالة واستهلها بقوله : « هذه احاديث صفتها مختلفة الأيوان مؤلفة في الاسماع ، عربيات المراسم ، غريبات التراجم ، واختلقت فيها اخبارا فصيحيات الكلام بديعات النظام لها مقاصد ظراف ، واسانيد طراف ، يروق الصغير معناها ، والكبير مغزاها ، وعزوتها الى ابي الريان الصلت بن السكن من سلامان » ( ١٣٧ ) .

ثم يذكر انه لم يكن مبتدعا لهذه لاحاديث على غير مثال سابق ، ولم يكن سابقا الى اختراعها وابتكارها ، وانما هو متبع لمن سبقه في امثالها ، وحاذ حذوهم وناسج على منوالهم ، ولا سيما بديع الزمان الهمداني في مقاماته التي بلغ عددها على ما يرويه الرواة في ذلك الحين عشرين مقامة ، وأن كان هذا العدد لم يكد يصل اليه فيقول : « واحتديت فيما ذهبت اليه ، ووقع تعريضه عليه من بث هذه الاحاديث مارايت الاوائل قد ضمته في كتاب » ( كلية

( ١٣٧ ) رسالة اعلام الكلام : ١٢ وسلامان يفتح اوله مادليني شيبان على طريق مكة الى العراق ، وبه مات نوفل بن عبد مناف . معجم ما استعجم ٢ : ٧٢٥ وينو ان ابن شرف اختار سلامان الذي هو منزل لقبيلة شيبان اشارة بهذه القبيلة وتزويها بشانها ، اذ ينسب اليها ولي نعمته ابو الحسن علي بن ابي الرجال الشيباني رئيس ديوان الانتشاء في بلاط المعز بن باديس .

( ١٢٨ ) رسالة اعلام الكلام : ١٢ - ١٤

( ١٣٩ ) وفيات ١ : ١٠٩

( ١٤٠ ) وفيات الاميان ٢ : ٢٢٨ وانظر مقدمة مقامات الحريري : ط الحلبي .

وخمسون مقامة قد ثبت منذ زمن طويل ، لان  
الحريري عارض هذا العدد بمثله » . ( ١٤٢ )

**وابو الريان الصلت بن السكن الذي اجرى**  
**ابن شرف على لسانه هذه الاحاديث اتما هو**  
**رجل استعاره ، او شخص جرده من نفسه ،**  
**وانتزعه منها ،** فكان ابن شرف يخاطب ابا الريان  
هذا ابطل المزعم ويسأله ، وابو الريان  
يجيبه بما يعرفه عن كل شاعر الا انه قصر  
حديثه على الشعراء المشهورين في العصور  
الجاهلية والاسلامية ، واغفل المجهل  
والمغمورين منهم ، واهملهم ولم يشر اليهم وعل  
ذلك بعدم قدرته على استقصائهم ، والاحاطة  
بهم ، ومن ثم اجتزا المشهورين وقصر حديثه  
عليهم ، يقول ابن شرف : « وجاريت ابا الريان  
في اشعر والشعراء ومنازلهم في جاهليتهم  
واسلامهم ، واستكشفت عن مذهبه فيهم  
ومذاهب طبقته في قديمهم وحديثهم فقال :  
الشعراء اكثر من الاحصاء ، واشعارهم ابعد  
من شقة الاستقصاء فقلت : لا اعتك باكثر  
من المشهورين ، ولا اذكر رايتك الا في المذكورين  
مثل الضليل والقتيل ... » ( ١٤٣ ) ومضى  
يسرد اسماء المشهورين من الجاهليين  
والمخضرمين والاسلاميين والمولدين ، كما سرد  
اسماء طائفة من مشاهير شعراء الاندلس  
والغرب مثل : احمد بن عبد ربه ، وابن هانيء  
وابن دراج القسطلي وعلى بن العباس الابادي  
التونسي ، حتى انتهى من سرد اسماء  
المشهورين وتسميتهم طالبا من ابي الريان ان  
يبين رأيه فيهم واحدا واحدا ، فأجابه ابو الريان  
بقوله : « لقد سميت مشاهير وأبقيت الكثير .  
قلت : بلى ولكن ما عندك فيمن سميت لك قال :

ومقامات بديع الزمان تبلغ اربعمائة مقامة  
عارض بها احاديث ابن دريد على ما ذكره  
الحصري في زهر الآداب حيث يقول : « ولما  
رأى ابا بكر محمد بن الحسين بن دريد الازدي  
أشرب بأربعين حديثا ، وذكر انه استنبطها من  
ينابيع صدره ، واستنتجها من معادن فكره  
وأبداها للابصار والبصائر ، وأهداها للأفكار  
والضمان في معارض أعجمية والفاظ حوشية  
فجاء أكثر ما أظهر تنبؤ عن قبوله الطباع ، ولا  
ترفع له حجتها الإسماع ، وتوسع فيها اذ  
صرف الفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب  
متصرفة فعارضها بأربعمائة مقامة في الكدية  
تلذوب ظرفا ، وتقطر حسنا ، لا مناسبة بين  
المقامتين لفظا ولا معنى ، وعطف مساجلتها  
ووقف مناقلتها بين رجلين سمى أحدهما عيسى  
بن هشام ، والآخر ابا الفتح الاسكندردي  
وجعلهما يتهاديان الدر ، ويتنافشان السحر في  
معان تضحك الحزين ، وتحرك الرصين ،  
يتطلع منها كل طريفة ، ويوقف منها على كل  
لطيفة ، وربما أفرد أحدهما بالحكاية ، وخص  
أحدهما بالرواية » ( ١٤١ )

بيد ان المتداول منها الآن بين أيدينا احدي  
وخمسون مقامة فقط ، ويقلب على الظن  
انه لم يصل الى افريقية في عصر ابن شرف  
سوى عشرين منها ، ويقول برو كلمان : « بديع  
الزمان يفتخر في احدي رسائله بأنه صنف  
اربعمائة مقامة ، وطبيعي انه لا ينبغي فهم  
العدد هنا على معناه الحرفي ، فهذا محمد  
بن شرف القيرواني المتوفى سنة ٤٦٥ هـ لم  
يكذ يعرف في كتابه « اعلام الكلام » سوى  
عشرين مقامة للبديع ، ولكن ينبغي أن يكون  
عدد المقامات التي أثرت وبقيت لنا وهو احدي

( ١٤١ ) زهر الآداب ١ : ٢٦١

( ١٤٢ ) تاريخ الادب العربي ٢ : ١١٢ - ١١٤ وهو يقصد المائلة التقريبية فان عدد مقامات الحريري خمسون مقامة ،  
وقد اشار الحريري نفسه ل مقدمته الى ذلك حيث يقول : « وأنشأت على ما اعانيه من قريحة جامدة وفطنة خاملة ...  
خمسين مقامة » مقدمة المقامات ص ٥

( ١٤٣ ) رسالة اعلام الكلام : ١٤

شعراء بنى أمية ، ثم ذكر جملة من الشعراء المولدين ، ومضى يحدثنا عن تلامه ، وأتى بعدهم ، ثم ختم حديثه بالعرض لطائفة من شعراء المغرب والاندلس مثل : ابن عبد ربه وابن هانيء وابن دراج وأبى على الأيادى حيث يقول : « هذا ما عندى في شعراء الشرق ، وقد سميت لى من متأخري شعراء المغرب من لعمرى لا يبعد عن معاصره ، ولا يقصر عن سابقة وأما ابن عبد ربه الاندلسي وإن يعدت عنا دياره فقد صاحبنا أشعاره .. ( ١٤٦ ) .

ومن الأمثلة التي أوردناها نجد أن أبا الريان كان يقف عند كل شاعر ليقدم ما عنده ، وما يعرفه ، ويقرر وضعه وما عرف به ويميز به ، ويبرز صفاته وخصائصه ومميزاته ، وما تفرده به عما عداه .

وبعد أن أعجب بأحدثه عن الشعراء المشهورين من الجاهليين إلى المولدين ، ومن المشاركة إلى المقاربة والتي أوردنا أطرافاً منها ، أخذ يسأله عن النقد ، ويبدى رغبته الشديدة في أن يقف على رأيه فيه ، وأن يقتبس من عمله الصائب ، وأن ينال نصيباً منه ، فيجيبه بأن النقد موهبة تولد مع الإنسان فمن وهبه ومنحه وحظى بنصيب منه كان قادراً على الميل بين جيد الشعر وردئته واستحسان الحسن منه ، واستقباح القبيح منه ، أما من لم يرزق هذه الموهبة ولم يحظ بها فهو غير قادر على التمييز بين جيد الشعر وردئته والتفرقة بينهما ، ويؤيد رأيه وما ذهب إليه من أن النقد موهبة ومنحة يحظى بها أناس دون آخرين أنه رأى كثيراً من علماء الشعر وروايتهم ممن له يؤتوا هذه الموهبة لانفاذ لهم في نقد الشعر ، ولا قطنه عندهم ولا بصيرة في التمييز بين جيد وردئته ، بينما رأى كثيراً ممن لا علم لهم بالشعر ممن منحوا هذه الموهبة لهم نفاذ وبصيرة وإدراك

أما الضليل مؤسس الأساس ، وبنياته عليه الناس ، كانوا يقولون : أسيلة الخد ، حتى قال امرؤ القيس « أسيلة مجرى الدمع ، وكانوا يقولون : تامة القامة وطويلة القامة ، وأشباه هذا ، وجيداء وثامة العنق ، حتى قال امرؤ القيس : « بعيدة مهوى القرط » وكانوا يقولون في الفرس السابق : يلحق الفزال ، يسبق الظليم أو الظلام وأمثال هذا حتى قال : بمنجرد قيد الأوابد هيكلك « ومثل هذا له كثير .... ( ١٤٤ ) »

**ويحدثنا عن الحارث بن حلزة اليشكري بقوله :** « وأما ابن حلزة اليشكري فسهل الحزون ، قام خطيباً بالوزون ، والعادة أن يسهل شرح الشعر بالنثر ، وهذا أسهل السهل بالوعر ، وذلك مثل قوله :

أبرموا أمرهم بليلى فما  
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء  
من مناد ومن مجيب ومن  
تصهل خيل خلال ذلك رغاء

فلو اجتمع كل خطيب سائر من أول وآخر يصفون سفرنا نهضوا بالأسفار ، وعسكرا تنادى بالنهوض إلى طلب الثار لما زادوا على هذا أن لم ينقصوا منه ، ويقصروا عنه ، وسائر قصيدته على هذا المسلك شكاية وطلاب نصفه وعتاب في عزة وأنفة ، وهو من شعراء وائل وأحد السنة هاتيك القبائل .... ( ١٤٥ ) » وهكذا مضى أبو الريان على هذا الأسلوب ، وأخذ يصف طائفة من شعراء الجاهلية ، ثم عرض للمخضرمين ممن أدركوا الجاهلية والإسلام كالنابغة الجعدي ، ثم مضى إلى الشعراء الإسلاميين وأجمعهم بالحديث عن

( ١٤٤ ) رسالة أعلام الكلام : ١٥ - ١٦

( ١٤٥ ) رسالة أعلام الكلام : ١٧

( ١٤٦ ) رسالة أعلام الكلام : ٢٦

لغامض الشعر ، وقدرة فائقة على الميز بين جيده وردئه يقول ابن شرف : « قلت لابي الريان في مجلس عقب هذا المجلس : يا ابا الريان لقد رايت لك نقدا مصيبا ومرمى عجيبا ، ولقد ارجب في ان اثال منه نصيبا ، فقال : اننقد هبة في المولد ، وفيه زيادة طارف الى تالد ولقد رايت علماء بالشعر ورواة له ليس لهم نفاذ في نقده ، ولا جودة فهم في رديه وجيده وكثير ممن لا علم له يقطن الى غوامضه والى مستقيمه ومتناقضة » . ( ١٤٧ ) باستحسان ولا استقباح ، والا نبادر الى استملاح ولا استبراد الا بعد انعام نظر وطول روية واثانة ، فالاستحسان والاستهجان تابعان للرؤية وطول النظر وحسن المزان والدربة ، فيجب ان نعم النظر ، ونستخدم الفكر في نقد الشعر ، والا ما كنا قادرين على النفاذ الى كنهه وحقيقته وجوهره لمعرفة محاسنه ومساوئه وادراك غوامضه ومتناقضه ، والوقوف على مستقيمه واعوجه من جميع الوجوه ، فالخطأ موكل بالعجلة ، ومع المستعجل الزلل ، ثم يلال ما ذهب اليه من ضرورة التزام الاثانة والرؤية وحسن المزان والدربة في الشعر ، وان الاستحسان والاستهجان تابعان للرؤية وطول النظر وحسن المزان والدربة وان الشعر منه ما يملأ لفظه السامع فنخطيء فيه ، وننوه في معناه ، ونفلس في حقيقته ، ولا نلتفت الى كنهه ومفهومه ، فنحكم باستحسانه لما فيه من فمعة وجلبة والفاظ تملأ السامع دون نظر الى معناه ، وهو غير جدير بالاستحسان ، كما انه لا ينبغي ان نمجّل باستهجان الشعر واستقباحه اذا اشتمل على افاظ مألوفة معتادة وكلمات مبتدلة مطروقة كثر استعمالها ودورانها على اللسان ، حتى نعم النظر في معناه ، فكمن معنى طريف غريب في لفظ مبتدل مألوف ، فالمعنى اذن هو الغاية المنشودة ، يقول ابن

شرف : « قلت : انا شديد الرغبة ان فضلك في ان تسهمني من ميزك وعقلك ما استهدى بسراجه على مستقيم منهاجه ، فاقف من سرائره على بعض ما وقفت ، واعرف من مفاخره ومعانيه جزءا مما عرفت ، قال : نعم اول ما عليه تعتمد ، واياه تعتقد الا تستعجل باستحسان ولا باستقباح ، ولا باستبراد ولا باستملاح ، حتى تنعم النظر وتستخدم الفكر ، واعلم ان العجلة في كل شيء مركب زلوق وموطيء زهوق ، وان من الشعر ما يملأ لفظه السامع ، ويرد على السامع قعاقع ، فلا ترعك شماخة مبناه ، وانظر الى ما في سكناه من معناه ، فان كان في البيت ساكن فلك المحاسن ، وان كان خاليا فاعدهد جسميا باليا ، وكذلك اذا سمعت الفاظا مستعملة وكلمات مبتدلة ، فلا تمجّل باستضعافها حتى ترى ما في اضعافها ، فكمن معنى عجيب في لفظ غير غريب » . ( ١٤٨ )

ثم يعرض ابن شرف لقضية اللفظ والمعنى ، ويبدو انه كان يقف من هذه القضية موقفا وسطا ، فهو يرى ان الالفاظ قوالب واجسام للمعاني هي الارواح فهو اذن لا يفضل اللفظ على المعنى ولا المعنى على اللفظ بل يجمع هذين الركنين في وحدة كاملة لا تتجزأ ولا تنقسم ، ومن ثم فهو ينادى بضرورة الموازنة بين اللفظ والمعنى والعناية بكل منهما ، فان حسنا بلغ الشعر الغاية المنشودة ، وان قببح احدهما انحط الشعر عن مكانته المرجوة ، ونزل عن مستواه المطلوب ، الا انه كان يفضل المعنى على اللفظ ، ولعل ذلك راجع الى شيوع هذا المذهب وسيادته في المغرب وميل المغاربة الى اعتناقه والاخذ به ، يقول ابن شرف : « والمعاني هي الارواح ، والالفاظ هي الاشباح فان حسنا فذلك الحظ المدوح ، وان قببح احدهما فلا يكن الروح » ( ١٤٩ ) ويؤكد ابن

( ١٤٧ ) رسالة اعلام الكلام : ٢٧

( ١٤٨ ) رسالة اعلام الكلام : ٢٧

( ١٤٩ ) رسالة اعلام الكلام : ٢٧ - ٢٨



**لمجرد قدمه ، وسبق الزمن بصاحبه ، ولعلمهم** كانوا مدفوعين فيما ذهبوا اليه من تفضيلهم الشعر القديم وإثارة واستحسانه الى انه كان موضع الاستشاد والاحتجاج به للغة ، فالشعر القديم حتى الرديء منه صالح الاحتجاج والاستشاد به في اثبات اللغة وقواعدها وضوابطها وتفسير كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، أما الشعر المحدث فغير صالح لشيء من ذلك ، فلاحتجاج به ساقط ولا يجوز الاستشاد به ، وإنما يؤتى به على سبيل التمثيل والاستئناس ، يقول ابن شرف منبها الى خطأ هذه القضية ، وحاملا على اتجاه الرواة وعلماء اللغة في تفضيلهم القديم لمجرد قدمه ، ومفتدا مقاييسهم ، ومحدرا من الوقوع فيها : « وتحفظ من شيئين : أحدهما : ان يحملك أجلاك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له ، والثاني : ان يحملك اصفارك المعاصر المشهور على التهاون بما أنشدت له ، فان ذلك جور في الاحكام ، وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما ، فحينئذ تحكم لهما او عليهما ، فهذا باب في اعلاقه استصعاب ، وفي صرف العامة وبعض الخاصة عنه اتعاب » (١٥١)

فهو ينبه في هذا النص الى خطأ هذه القضية قضية تفضيل القديم لمجرد قدمه وينظر الى الشعر بعين النصفة ، ويدعو الى التزام الحيدة في الحكم عليه ، وتقويمه من حيث هو أثر فني دون نظر الى قائلته وزمته ، ثم يقول : « وقد وصف تعالى في كتابه الصادق تثبيت القلوب بسيرة القديم ، ونفارها عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم : « انا وجدنا آباءنا على أمة » وقال تعالى : « ان نعبد الا ما وجدنا عليه آباءنا » . . . فلا يرعك ان تجرى على منهاج الحق في جميع الخلق ، فبه قامت

شرف في هذه القضية قضية اللفظ والمعنى يتفق مع ابن رشيق الذي يقف منها ايضا موقفا وسطا لا يفضل أحدهما على الآخر ، ولا يفصل بينهما ، بل يشبههما أيضا بالروح والجسد الا ان ابن رشيق بسط القول في هذه القضية ، وفصله في كتابه العمدة : « اللفظ جسم ، وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى ، واختل بعض اللفظ كان نقصا لشعر وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل والعمور وما اشبه ذلك من غير أن تذهب الروح ، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظا كالذي يعرض للاجسام من المرض بمرض بعض الارواح ، ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من ألوان أدواء الجسوم والارواح ، فان اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتا لا فائدة فيه ، وان كان حسن الطلاوة في السمع كما ان الميت لم ينقص من شخصه في رأى العين الا انه لا ينتفع به ، ولا يفيد فائدة ، وكذلك ان اختل اللفظ جملة وتلاشي لم يصبح له معنى لانا لا نجد روحا في غير الجسم البتة » (١٥٠) فابن رشيق في هذا النص يشير الى الارتباط الوثيق والتلاحم التام بين اللفظ والمعنى ، وتلازمهما وتلاحيهما ، فاللفظ جسم وروحه المعنى ، ومن هنا كان ما يوصف به أحدهما بمد وصفه للآخر ، وما يعترى أحدهما من ضعف او بطأ عليه من اختلال ينعكس على الآخر .

ثم يتحدث ابن شرف عن طبقات الشعراء القدامى والمحدثين ، ويحمل حملة عنيفة على مقاييس علماء اللغة والرواة فيما ذهبوا اليه من تفضيلهم القديم واستحسانه لا لشيء الا

السموات والارض ، وبه احكم الابرام والنقض » - (١٥٢)

ثم طفق ينمى على بعض الشعراء القدامى كثيرا من الهنات ، واخذ يعدد عليهم طائفة من السقطات ، وما وقعوا فيه من اخطاء واغلاط وتعقيبهم مشهرا بهم ، ومجرحا اياهم بادنا بنقد امرىء القيس اقدم الشعراء عصرا ، ومقدمهم شعرا وذكرنا وتعداد سقطاته واخطائه وسرد عيوبه وهناته ، وما اخذ عليه مع اتساع الاقوال في فضله اتساعا لم يحظ به غيره ، حتى ان عامة الأدباء والنقاد يظنون بل يوقنون ان جواد شعره لا يخبو ، وان حسام نظمته لا يئبو ، وهيهات من البشر الكمال ، ومن الادميين الاستواء والاعتدال ، ثم اخذ ينقده ويعدد عليه سقطاته واخطائه في معلقته اعظم ما اثر لنا عنه من شعر حيث يحدثنا عن هذه العيوب وتلك الهنات في هذه المعلقة بقوله : « يقول في قصيدته المقدمة ومعلقته المفخمة :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة

فقلت لك الوليات انك مرجلى

كما كان اغناه عن الاقرار بهذا ، وما اشد غفلته عما ادركه من الوصمة به » (١٥٣) وعدد ما ترتب على فعلته هذه من العيوب والهنات والسقطات والمآخذ ، فيقول : « وذلك ان فيه اعدادا كثيرة من النقص والبخس منها : دخوله متطفلا على من كره دخوله عليه ، ومنها قول عنيزة له : « لك الوليات » ومن قوله لا تقال الا للخسيس ، ولا يقابل بها رئيس . . » وهكذا يعضى يسرد عيوبه وسقطاته وهناته الى قوله :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع

فاليهيتها من ذى تمائم محمول

فينقده بقوله : « وانما المعروف للعاشق الانفراد بمعشوقه ، واطراح سواه كالقيسين في ليلى ولبنى ، وغيلان بمية وجميل وبثينة وسواهم كثير ، فلم يكن لها عاشقا بل فاسقا » (١٥٤)

ويمضى في نقده على هذا النحو ، ثم يجره ذلك او يسوقه الى ذكر أبيات ثلاثة من قصيدة له اخرى غير المعلقة وهى :

سموت اليها بعد ما نام اهلها

سمو حباب الماء حالا على حال

فقلت : لحاك الله انك فاضحى

الست ترى السمار والناس احوالى

حلفت لها بالله حلفة فاجر

لناموا فما ان من حديث ولا صال

ونقد هذه الأبيات ، وعدد ما فيها من عيوب وهنات وسقطات بقوله : « فأخبرها هنا انه حين القدر عند النساء وعند نفسه وبرضاه قولها : « لحاك الله » فحصل على « لك الوليات من تلك ، وعلى « احاك الله » من هذه ، فشهد على نفسه انه مكروه مطرود غير مرغوب في مواصلته ، ولا محروص على معاشرته ، ولا مرضى بمشاكلته ، ثم اخبر عن نفسه انه يرضى بالحنث والفجور ، وهذه اخلاق لا خلاق لها » (١٥٥)

ثم ياخذ على امرىء القيس انه اقر واعترف بما يكتمه الأحرار حيث يقول : ( ثم اقر في مكان آخر من شعره بما يكتمه الأحرار ، ولا ينم بقبحه الا الاوضاع الاشرار ، فقال :

وايا دنوت تسديتها

فثوب نسيت وثوب أجر

( ١٥٢ ) رسالة اعلام الكلام : ٢٨

( ١٥٣ ) رسالة اعلام الكلام : ٢٨ - ٢٩

( ١٥٤ ) رسالة اعلام الكلام : ٢٩

( ١٥٥ ) رسالة اعلام الكلام : ٢٠

مؤسس الأساس ، وبنائه عليه الناس ، فإذا كان قد سما أسلوبه ، وعلا في أمور عديدة ومواضع كثيرة فقد انحط وتسفل في سلوكه ونهجه في أخرى ، فيقول : « ولستنا ننكر هذه العيوب ونزارتها وما أقرنا له به من الفضائل ودارتها » (١٥٨)

ثم يعرض لحال المتعصبين للقديم لجسرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه ويرى أنهم غفل سذج ، وأنه من الأولى بهم الا يتعرض لهم ، وأن يتركهم وشأنهم يتخبطون في عمايتهم وضلالتهم وجهلهم فيقول : « وسنجد ناصرا لا يصدق معاصرا ولا يفضل على متقدم عصر متأخرا يبنى على ضعفه اسمه ، ويفديه من الجهل والعيوب بنفسه فإذا اعترضك من هذا النمط معترض فاعرض عنه ، ودعه على أخلاقه .... واتبع المنهج الذي أوضحت لك (١٥٩) ثم يذكر أن فضلاء الشعراء كثيرون جدا إلا أنه قلما يسلم واحد منهم من هنات وعيوب وسقطات وأخطاء ، فلكل منهم سقطاته وعيوبه ، ثم يرى أن يجتزىء بالعرض لبعض هذه العيوب ، إذ ليس في وسعه أن يحيط بها وأن يأتي عليها مستهدفا من وراء ذلك إيضاح منهج من مناهج النقد ، والتدريب عليه لا حرصا على انتقاص الفصحاء ، ولا رغبة في غمط حقوقهم والنيل منهم ، وليس الغرض التنديد بالأدباء دون عرض المحاسن والفضائل وبيان نواحي النقص فمنهجه مبنى على القصد والاعتدال يقول : « وفضلاء الشعراء كثير جدا ، ولكل سقطات ، وسأفك على بعضها لعظيم المؤونة في الإحاطة بها ليس إلا لأوضح لك بذكرها منهاج من مناهج النقد ، لا حرصا على نقص الفصحاء ، ولا قصدا الى تهجين الصرحاء ، وأية رغبة لنا في ذلك وهم جرثومة

وأي فجر في الاقرار بالفضيحة على نفسه وعلى حبه ، وأين هذا من قول يعقوب الخريمي :

ولا اسأل الولدان عن وجه جارتى

بعيدا ولا أرمعه وهو قريب (١٥٦)

ثم يعلل ابن شرف اعتراف امرئ القيس بهذه المنديات واقرارها بما كان يأتيه من فحش وفجور بأنه كان مبغضا للنساء مفروكا من حلائله وأزواجه لأسباب كثيرة ذكرت ، وكل من حرص على نيل شيء فحرمه ، ومنع منه فعلا ادعاه كذبا وزورا . شأنه شأن غيره من الشعراء ممن كانوا مبغضين للنساء كالفرزدق مثلا فيقول : « وانما سهل عليه كل هذا حرصه على ما كان ممنوعا منه ، وذلك أنه كان مبغضا للنساء جدا ، ومفروكا ممن ملك عصمتها لأسباب كثيرة ذكرت ، وكل من حرص على نيل شيء فمنع منه فعلا ادعاه قولاً ، وله أشباه فيما اتاه يدعون ما ادعاه افكا وزورا وكذبا وفجورا ، ومنهم الفرزدق » (١٥٧)

وهكذا يمضي ابن شرف في نقده لامرئ القيس ذلك الشاعر الذي ساد الاعتقاد فيه عند العامة وبعض الخاصة أنه لا ينتقد ، وكان نقده في موضعه فنعى عليه عيوبه ، وما اتاه من فحش وفجور وتعيير ، وعدد عليه هناته وسقطاته .

ثم ختم حديثه عن امرئ القيس بأن قرر ان هذه العيوب والمآخذ وتلك السقطات والهفات والاستدراكات نزرة قليلة بالنظر لما أقر له به من الفضائل الادبية التي تفرد بها ، وسبق إليها ، وبالقيااس الى محاسنه ومزاياه التي خصها بحديث سابق ، ونوه بها ، وأنه

( ١٥٦ ) رسالة اعلام الكلام : ٢٠

( ١٥٧ ) رسالة اعلام الكلام : ٢٠

( ١٥٨ ) رسالة اعلام الكلام : ٢٣

( ١٥٩ ) رسالة اعلام الكلام : ٢٣

فروغنا ، وبهم افتخارنا جميعنا» ( ١٦٠ ) ومثل لذلك بزهير بن أبي سمي ، وحمل عليه ، وأورد جملة من سقطاته وطائفة من هنائاته وعبوبه في معلقته مع اشتراطه برفعة مكانته في الشعر وسمو منزلته فيه ، فيقول : « قال زهير على ما وصفناه به ، ووصفه غيرنا من العلو والرفعة في هذه الصنعة من مذهبته الحكيمة ومعلقته العلمية :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب

تمته ومن تخطى يعمر فيهرم

وقد غلط في وصفها بخبط العشواء على أنه لا نطاليه بحكم ديننا ، لأنه لم يكن على شرعنا ، بل نطلبه بحكم العقل فنقول : « انما يصح قوله لو كان بعض الناس يموت وبعضهم ينجو ، وقد علم هو ، وعلم العالم حتى البهائم ان سهام المنايا لا تخطى شيئا من الحيوان حتى يعمر رشقا ، فكيف يوصف بخبط العشواء ... ( ١٦١ ) فهو لا يعيب على زهير هذا البيت ، ولا يأخذ عليه ما فيه من مخالفة لعقيدتنا و خروج على ديانتنا ، لما كان عليه من جاهلية ، فهو غير مطالب بحكم ديننا وشريعتنا ، لأنه لم يكن على شريعتنا ولم يكن يدين بديننا فلا تثريب عليه من هذه الناحية ، وانما عاب عليه أنه عارض العقل وخالف المنطق فيما رآه ، وذهب اليه من أن المنايا خبط عشواء ، فراه في هذه القضية فائل ومذهبه باطل ، ثم عاب عليه بيتا آخر ورد في معلقته هو :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه

يهدم ومن لا يظلم لناس يظلم

بأنه أسرف وتجاوز حدود الحق والعدل ، وقد كانت له مندوحة عن ذلك فيقول في تعليقه على هذا البيت : « وقد تجاوز في هذا الحق اباطل وبني قولا ينتقضه جريان العادة وشهادة المشاهدة ، وذلك أن الظلم وعرة مراكبه ، مدمومة عواقبه في جاهليته واسلامنا ، فحرض في شعره عليه » ( ١٦٢ )

وهكذا مضى ابن تتر في نقد زهير ، وعاب عليه ابياتا أخرى في قصائد أخرى له غير المعلقة ، وبعد أن عرض لطائفة من هنائاته ، وعبوبه ختم حديثه عنه بأن له سقطات وهنات أخرى غير ما سردها وعددها ، وأنه لولا المشقة والكلفة لأتى عليها وعرض لها مع ما عرف عنه واشتهر به من أنه أمدح الشعراء وأجزلهم ، ثم ذكر أن التعصب له من الأمور المستقبحة التي لا تحسن بالناقد المنصف ، اذ أن النقد الموجه له لا يقط حقه ، ولا ينال منه ، ثم ذكر أن ما جاء في شعره من هنات وسقطات لا يخل بما عرف عنه من حكمه الأخرى الرائعة وحسن أسلوبه ورقته وما أثر لنا عنه من أقوال مستحسنة ومبارات مليحة وإن المستحسن لا ينكر ، والقيح لا يهمل فيقول : « ولزهير غير هذا من السقطات لولا كلفة الاستقصاء هذا على اشتهاه بأنه أمدح الشعراء ، وأجزل الوافدين على الاشراف والأمراء ، ويتعاضى المتعصب له عن وضوح هذا البيان ، وسينكر جميع هذا البرهان ، ويجعل التفتيش عن غوامض الخطأ والنصواب استقصاء وظلما ومطالبة وهضما ، ويرغم أن جميع الشعر لو طلب هذه المطالبة لبطل صحيحه ، وانعجم فصيحته ، والباطل الذي زعم ، والمحال الذي به تكلم ، فالسليم سليم والكريم كريم ، وانما سمع المسكين أن أمدح الشعر ما قلت عبارته ، وفهمت اشارته

( ١٦٠ ) رسالة أعلام الكلام : ٢٢

( ١٦١ ) رسالة أعلام الكلام : ٢٢ - ٢٤

( ١٦٢ ) رسالة أعلام الكلام : ٢٤

ولمحت لمحاه ، وملحت ملحاه ، ورققت حقائقه ، وحققت رقائقه ، واستغنى فيه باللمحة الدالة عن الدلائل المتطاولة ، وأمثال هذا الكلام في استعمال لطائف النظام ، فتوهم أن خلل الشعر زلله وضعف أركانه ، وتناقض بنيانه وانقلاب لفظه لفوا ، وانعكاس مدحه هجوا داخل فيما قدمنا من الأوصاف المستحسنة ومن لمح اشاراته وملح عباراته « (١٦٣)

ثم أخذ في سرد عيوب الشعر وتعدادها مبتدئاً باللحن أظهر عيوب الشعر ، إذ تضيق عنه اللغة العربية ولا تتسع له ، وحذر من ارتكابه والوقوع فيه ، وإن تحيل له بعض النحويين بشتى الحيل ، واعتلوا له بمختلف الإعذار فيقول : « ومن عيوب الشعر اللحن الذي لا تسمعه نسخة العربية كقول جرير : »

واو ولدت لعنزة جرو كلب

لسب بذلك الجسرو الكلاب

فنصب الكلاب بغير ناصب ، وقد تحيل له بعض النحويين بكلام كالضرب لا يسمن ولا يفنى من جوع ، وكقول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع

من المال إلا مسحاً أو مجلف

فرفع مجلفاً وحقه النصب . وقد تحيل بعض النحويين أيضاً للفرزدق على وجه الإقواء أحسن منه ، فأحذر مثله ، وإياك وما يعتذر منه بفسيح من العذر فكيف بضيق « (١٦٦)

ثم عد من عيوب الشعر أيضاً خشونة حروف الكلمة كلفظة « بوزع » التي وردت في بيت من قصيدة لجرير تعد من عيوب شعره وأحسن قصائده وأجزائها وأفصحها فتقلت

ولمحت لمحاه ، وملحت ملحاه ، ورققت حقائقه ، وحققت رقائقه ، واستغنى فيه باللمحة الدالة عن الدلائل المتطاولة ، وأمثال هذا الكلام في استعمال لطائف النظام ، فتوهم أن خلل الشعر زلله وضعف أركانه ، وتناقض بنيانه وانقلاب لفظه لفوا ، وانعكاس مدحه هجوا داخل فيما قدمنا من الأوصاف المستحسنة ومن لمح اشاراته وملح عباراته « (١٦٣)

ثم يقرر بعد ذلك أن فيما ذكره وأورده من شعر هذين الشاعرين الفحلين المتقدمين القديمين ما يفنى عن التفتيش عن سقطات سواهما ، ويجزىء عن تسقط عثرات غيرهما ومن عداهما والبحث عنها فليقتس عليها ما لم يقله ، فقد أوضح أمراً عظيماً يتصل بسلوك الشاعر ومنهجه ونفسيته وأنه تناول شعره وتقده من ناحية اتصاله بالمجتمع وتعلقه به ، فيقول : « وفيما أطلعك عليه من شعري هذين الفحلين والمتقدمين القديمين ما يفنى عن التفتيش عن سقطات سواهما ، فقتس على ما لم تره بما ترى ، وأعلم أن كل الصيد في جوف الفرا ... » (١٦٤)

ونراه يتعصب للمتنبي ، وينتصر له ، فيقول : « وأما أبو الطيب المتنبي فقد شغلت به الألسن وسهرت في أشعاره الأعين ، وكثر الناسخ لشعره والأخذ لذكره ، والفائض في بحره ، والمفتش عن جمائه ودره ، وقد طال فيه الخلف وكثر عنه الكشف ، وله شيعة تغلو في مدحه ، وعليه خوارج تنفيا في جرحه ، والذي أقول : أن له حسنات وسيئات ، وحسناته أكثر عدداً ، وأقوى مدداً ، وغرائبه طائفة وأمثاله سائرة ، وعمله نسيح ، ومميزه صحيح ، فيقدر ويدرى ما يورد ويصدر (١٦٥)

( ١٦٣ ) رسالة اعلام الكلام : ٣٦ - ٣٧

( ١٦٤ ) رسالة اعلام الكلام : ٣٧

( ١٦٥ ) رسالة اعلام الكلام : ٢٥

( ١٦٦ ) رسالة اعلام الكلام : ٣٧ - ٢٨

القصيدة ، واستبردت بهذه اللفظة التي لا تكاد تجد لها نظيراً في شعر جرير كله وذكر أن الفرزدق قد كثرت في شعره الفاظ كثيرة خشنة يقول ابن شرف : « ومما يعاب به الشعر ، ويستهجنه النقد خشونة حروف الكلمة كقول جرير :

وتقول بوزع قد دببت على العصب

هـلا هـزات بفسرنا يا بوزع

وهذا البيت في قصيدة من أحلى قصائد جرير واملحها واجزلها وافصحها ، فثقلت القصيدة كلها بهذه اللفظة ، وللفرزدق لفظات كثيرة خشنة الحروف تجدها ان استقصيتها وفتشتها على لفظة جرير هذه ، ولا تكاد ترى اختارها في شعره » (١٦٧)

ثم عد من عيوب الشعر ايضا التعقيد اللفظي وتقديم آخر الكلام وتأخير اوله ، وذكر انه مما يكرهه النقاد ، ولا يستسيغونه ، وأنتا لا تكاد ترى هذا العيب في شعر جرير ويعتدل له ببيت الفرزدق :

وما مثله في الناس الا مملكا

أبو امه حى أبوه يفاربه

ويعلق عليه بقوله : « وهذا غاية التعقيد والتشديد ، وليس تحته سوى انه شريف كابن اخته ، ولا تكاد ترى في شعر جرير شيئاً من هذا » (١٦٨)

ثم ذكر أن من عيوب الشعر ايضا الكسر وهو وصف شامل لكل عيوب الشعر ، وعده من أشد عيوب الشعر ، وأنه لا يمكن ارتكابه والوقوف فيه ، اذ انه اذا وقع في الشعر أخرجه عن اسمه فلا يسمى الشعر الذي وقع فيه

هذا العيب حينئذ شعرا ، وليس هذا العيب مما يقع لمن وصف بالشعر وعد شاعرا من الشعراء وسلك في عدادهم ، أما سائر عيوب الشعر المتصلة بالوزن أو القافية أو الضرورات الشعرية كالاقواء والايطاء والسناد والاكفاء والزحاف وصرف ما لا ينصرف ، فكل هذه العيوب محتملة ويمكن للشاعر ارتكابها ، والوقوف فيها واستعمالها ولا يخرج الشعر معها عن كونه شعرا الا أن السلامة من هذه العيوب وتجنبها وعدم الوقوع فيها وارتكابها أفضل وأجمل ، فيقول : « ومن عيوب الشعر كلها الكسر ، لأنه يخرج عن نعت شعرا ، وليس مما يقع لمن نعت شاعرا ، فأما الاقواء والايطاء والسناد والاكفاء والزحاف وصرف ما لا ينصرف فكل ذلك يستعمل الا أن السالم من جميع ذلك أفضل وأجمل » (١٦٩) ثم عد من عيوب الشعر المذمومة مجاورة الكلمة ما لا يناسبها ولا يقاربها مثل مجاورة كلمة « الدل » لكلمة « الشنب » واقتربانها بها في قول الكميت :

حور تكامل فيها الدل والشنب

وكقول بعض المتأخرين في مرثية له :

فانك غيببت في حفرة

تراكم فيها نعيم وحور

وان كان النعيم والحور من مواهب اهل الجنة فليس بينهما في النفوس تقارب ولا لفظة تراكم مما تجمع بين الحور والنعيم ، وكقول بعض المتأخرين :

والله لولا ان يقال تغيرا

وصبا وان كان التصابي اجدرا

لأعاد تفاح اخذود بنفسجا

لثما وكافور التراثب عنبرا

( ١٦٧ ) رسالة اعلام الكلام : ٢٨

( ١٦٨ ) رسالة اعلام الكلام : ٢٨

( ١٦٩ ) رسالة اعلام الكلام : ٢٨

ومثل قول ديك الجن :

كانه وكأنها حلل الخلّة

وقف الحلول اذ يفمّا

ووجه اعيب في افتتاحي ابي تمام وديك الجن  
انهما ابتداء قصيدتهما بضمائر لم يسبقها اسم  
ظاهر تعود عليه .

كما عاب ايضا الافتتاحات التي يتطير بها .  
ويتشاءم منها ، والكلام المضاد للفرض المطلوب  
ويضرب مثلا لذلك بابتداء قصيدة ابي نواس  
التي اتشدّها جعفر بن يحيى البرمكي يهنئه  
بينائه دارا جديدة ، فدخل عليه عند كمالها  
وقد جلس للهناء والدعاء ، وعنده وجوه الناس  
فابتدا فانشد قصيدة مطلعها :

اربع البلى ان الخشوع لبادى

عليك واني لم اخشك ودادى

فتكس جعفر راسه ، وتناظر الناس بعضهم  
الى بعض ثم تمادى ، فختم الشعر بقوله :

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم

بنى برمك من رالحين وغادى

فكمل جهله ، ونعم خطاه ، وزاد القلوب المتوقعة  
للخطوب سرعة توقع ، و اضاف للنفوس  
المتوجة بذكر الموت شدة توجع ، وأراد أن  
يمدح فهجا ، ودخل ان يسر فشجى « (١٧٢)

ثم يضرب مثلا آخر لهذا العيب بما وقع  
للمتنبي في أول شعر اتشدّه كافورا الاخشيدي  
وهو :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وحسب المنايا ان يكن امانيا

فاجاد الوصف واحسن الرصف لكون الورد  
من قبيل البنفسج ، وهكذا نجد ابن شرف  
قد بسط القول ، وافاض في الحديث عن  
العيب الذي سماه « مجاورة الكلمة ما لا  
يناسبها » (١٧٠) وعد هذا العيب من عيوب  
الشعر المذمومة .

ثم ذكر ان لفضلاء الشعراء المولدين سقطات  
وهنات مختلفات في اشعارهم ، ووعد بأنه  
سيدكر اطرافا منها لا رغبة في طلب الزلات  
وتلمسها ولا شهوة في اقتفاء العثرات  
واستقصائها وتتبعها ، وانما لتستدل بها على  
اغراضنا ونقف منها على منهجنا ، ويضرب  
مثلا لذلك بيشار فقد كانت طبقات شعره  
تفاوت وتباين ، فيسمو ويرتفع كثيرها ،  
وينحط ويسفل قليلها ، وكذلك شعر ابي  
تمام حتى بلغ من تفاوت طبقات شعر هذين  
الشاعرين وتباينهما الى هذا الحد أنك لو  
سمعت جيدها لانكرت ان رديئها لهما ،  
ولو صح عندك وثبت ان هذا الرديء لهما  
لانكرت جيدهما ، ونفيتة عنهما ، واقسمت  
انه ليس لهما ، وانما هو لغيرهما فيقول :  
« ولفضلاء المولدين سقطات مختلفات في  
اشعارهم ، اذكرك منها في أشياء لتستدل بها  
على اغراضك ، ولا لطلب الزلات ولا لاقتفاء  
العثرات ، كان بشار تتباين طبقات شعره  
فيصعد كثيرها ، ويهبط قليلها كثيرا ، وكذلك  
كان حبيب الطائي فاذا سمعت جيدها كذبت  
ان رديئها لهما ، واذا صح عندك أن ذلك الرديء  
لها أقسمت أن جيدها لغيرهما » (١٧١)

ثم عد من عيوب الشعر الافتتاحات الثقيلة  
والابتداءات المستبردة المجوجة وضرب لهذا  
العيب امثلة كثيرة مثل قول ابي تمام :

هن عوادي يوسف وصواحيه

( ١٧٠ ) تحدث ابن شرف عن هذا العيب في ص ٢٨ ، ص ٣٩ من رسالة اعلام الكلام .

( ١٧١ ) رسالة اعلام الكلام : ٢٩

( ١٧٢ ) رسالة اعلام الكلام : ٤٠

ووجه العيب في هذا المطلع انه خاطب كافورا بالكاف ، وهذا امر مستهجن ، وخاصة في أول لقاء له معه وفي ابتداء استجداء واستعطاف ... » (١٧٣)

ثم يضرب مثلاً آخر لقبح مطلع القصيدة واستفتاحها وقع لأحد الشعراء المعاصرين له، فيذكر ان بعض الشعراء أنشد بعض الأمراء في يوم المهرجان :

لا تقل بشرى ولكن بشريان

غرة الداعي ووجه المهرجان

فامر الأمير باخراج الشاعر، واستطاريافتتاحه وحرمة احسانه ، ثم علق على هذا المطلع المستقبح بأنه لو كان هذا الشاعر حاذقاً لكان اصلاح هذا الفساد ايسر الاشياء عليه ، وذلك بأن يعكس البيت فيقول :

وجه من أهوى ووجه المهرجان

اي بشرى هي لا بل بشريان (١٧٤)

ثم يذكر ان من عيوب القافية البالغة القافية في الاستهجان والاستقبح ان تأتي بكلمة القافية معجمة لا ترتبط بما قبلها من الكلام ، وانما هي مفردة بحشو القافية كقول بعض الشعراء :

قبلت النى برغم أعاديك

وابقاك سالماً رب هود

يقول ابن شرف : « فانت ترى فثانة هذه القافية ، والله تعالى رب جميع الخلق وكل شيء فخص هودا عليه السلام وحده لضعف ثقله ، وعجز عن الاتيان بقافية تليق وتحسن » (١٧٥)

ثم يذكر ان مما يتبع في النسب الجفاء على الحبيب والقسوة عليه والتضجر ببعده ، واغلاظ العقاب على هجره وصدوده ، ويضرب مثلاً لذلك بقول ابي نواس في أول قصيدته المشهورة التي مدح بها الخصيب بن عبد الحميد عامل مصر :

أجارة بيتينا أبوك غيور

وميسور مايرجى لديك عسير

فان كنت لا خلا ولا أنت زوجة

فلا برحت منا عليك ستور

وجاورت قوما لا تراور بينهم

ولا قرب الا ان يكون نشور

يقول ابن شرف : « فلم اسمع بأوحش من هذا النسب ، ولا بأخشن من هذا التشبيب وذلك قوله ان لم تكوني لى زوجة ولا صديقة فلا برحت منا ستور التراب عليك ، ولا كان جارك ما عشنا نحن الا الموتى الذين لا يتزاورون ولا يتواصلون الى يوم النشور مع ان كلامه يشهد عليه بأنه شاك ، وانما المعروف في اهل الرقة والظرف ، والمهمود من اهل الوفاء والعطف ان يفدوا احبابهم بالنفوس من كل مكروه وبوس ، فأين ذهبت ولادته البصرية وآدابه البفدادية حتى اختار القدر على الوفاء وبلغت به طباعه الى أجفى الجفاء » (١٧٦)

ثم عرض للسرقا الشعرية ، وعدها من عيوب الشعراء ، وذكر ان أنواعها كثيرة وأقسامها متعددة ، فمنها سرقة الفاظ ، ومنها سرقة معان ، وبين ان سرقة المعاني اكثر من سرقة الالفاظ لانها اخفى ، وسرقة المعاني متعددة : فمنها سرقة المعنى كله ، ومنها سرقة

( ١٧٣ ) رسالة اعلام الكلام : ٤٠

( ١٧٤ ) رسالة اعلام الكلام : ٤١

( ١٧٥ ) رسالة اعلام الكلام : ٤١

( ١٧٦ ) رسالة اعلام الكلام : ٤١ - ٤٢



ثم ختم الرسالة بالحديث عن أحسن الشعر وأجوده ، فقال : « فأما نقد المستحسن فتمثيله لك يعظم ويتسع لكثرة فلا يسعنا إيراد ، وكفى ما سلم في جميع ما أوردناه فهو في حيز السالم ، ثم تتسع طبقات الجودة فيه ، وأحسن الحسن منه ما اعتدل مبناه ، وأغرب معناه ، وزاد من محمودات الشعر على سواه ثم يمدح الأدون فالأدون بمقدار انحطاطه إلى حيز السلامة ، ثم لا مدح ولا كرامة » (١٧٨)

ثم بدأ لابن شرف أن يسأل أبا الريان السؤال الأخير بعد أن طوف معه كل هذا التطواف ، فسأله عن مذهبه في انتقاء الأشعار واستفسر عن منهجه وطريقته في اختيارها ، وعزم عليه أن يخبره عما سأله عنه ، واقترح عليه أن ينشده ولا يمل من مستحسن الأشعار وأجودها ، وأن يمل عليه ولا يمل من منتقاهها ومتخيرها ، ومنتخبها ، فأجاب أبا الريان إلى طلبه ، وحقق رجاءه ومبتغاه . وهكذا نجد ابن شرف يختتم رسالته بإيراد عدة أمثلة من أجود الأشعار ومنتخبها ومتخيرها في شتى الموضوعات وفي مختلف الأغراض ، فابتدأ بإيراد طائفة منها في الحكمة وما جرى مجرى المثل ، ثم عرض لأمثلة أخرى من منتخب شعر الغزل ، ثم اتبع ذلك بإيراد مختارات من المرائي مبتدئاً بعريضة قتيلة بنت النضر بن الحارث في أخيها النضر بن الحارث وقد قتله الرسول صلى الله عليه وسلم صبوا ، وتعد هذه المراثية من أحسن المرائي وأفصحها وأوجعها وأقربها ، ثم عرض لمنتخبات من أشهر المدائح وبذلك تنتهي هذه الرسالة .

هذه هي رسالة أعلام الكلام لابن شرف التي تمثل آراءه النقدية ، ومن حديثنا عنها ، وعرضنا لآرائه فيها يتبين لنا أن آراءه النقدية قد عرض لها كثير من النقاد السابقين عليه والمعاصرين له كالجاحظ وابن قتيبة وابن رشيق

البعض ، ثم ذكر أن أحسن السرقات السرقة باختصار في اللفظ وزيادة في المعنى ، وأن أفصح السرقات هي السرقة بزيادة الفاظ مع قصور من المعنى ، وهناك سرقة محضة بلا زيادة ولا نقص ، والفضل في مثل هذه السرقة راجع للمسروق منه ، ولا شيء للسارق ، ومثل لها بسرقة أبي نواس معنى بيت أبي الشيبان بتمامه وهو :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم

فسرق أبو نواس معنى هذا البيت بكامله فقال :

فما حازه جود ولا حل دونه ولكن يسير الجود حيث يسير

يقول ابن شرف : « فهذا على أن بيت أبي الشيبان أحلى وأطبع ، ومع خلوصه جزالة وقد ذكر عن الحسن أنه قال : ما زلت أحسد أبا الشيبان على هذا البيت حتى أدخلته منه ، وسرقة المعاصر قصور همة » (١٧٧)

ثم ختم حديثه عن عيوب الشعر بالحديث عن الإخلال بالتناسب في المعنى والأبيات ، أو تعقيد الكلام ومثل له بقول المتنبي :

« كفى بك داء أن ترى الموت شافيا »

وهذه العيوب التي عرض لها ابن شرف أوسعها علماء البلاغة وإبيان بحثا ودراسة ، وأفاضوا في الحديث عنها ، فالأخطاء اللغوية معيبة يؤاخذ عليها الشاعر واللعن ينتقص من قدرة الشاعر ، ويفض من شأنه ، والخلل اللفظي في المفردات وفي التراكيب معيب على الشاعر ، ويستوجب توجيه النقد إليه .

وان ابن شرف لم يأت بجديد في هذه القضايا النقدية التي عرض لها كما يتبين لنا من آرائه النقدية في هذه الرسالة انه بالرغم من الجهد الذي بذله في اصدار احكام صحيحة على الشعراء وبيان منازلهم وتقويم ادبهم ، فان هذا الجهد قد ضاع في خضم التعابير اللغوية المتخيرة ، وغاب في امواج اللفاظ المتقاة ، كما نلاحظ انه يهمل التدقيق في الافكار التي يبني عليها احكامه كما فعل قريعه ومنافسه ابن رشيق في كتابه « العمدة » ومن ثم جاءت احكامه عامة خالية من التحليل والتدقيق ضائعا ما فيها من صواب محدود في خضم السجع الركيك وحواشي اللفاظ وغريبها ، وغائبا ما اشتملت عليه من افكار في أسلوب المقامات التي التزمه في هذه الرسالة ذلك الأسلوب المعنى بتزيين اللفاظ ، وتزويق العبارات والحافل بالمحسنات البديعية والصنعة اللفظية ، حتى انه لا وجه للمقارنة والموازنة بين احكام ابن شرف وآراء ابن رشيق التي بلغت درجة الكمال اذ يوجد بون شاسع بينهما ، فابن شرف ، فضلا عن أسلوبه الذي هو دون أسلوب ابن رشيق في كتابه « العمدة » ، لم يبلغ منزلة ابن رشيق في النقد الأدبي ، ولتجزيء بعرض آرائهما في قضية القديم والمحدث ، فابن شرف يقول : ( وتحفظ من شيئين : احدهما ان يحملك اجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تستمع له ، والثاني : ان يحملك اصفارك المعاصر المشهور على التهاون بما انشدت له ، فان ذلك جور في الاحكام وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما فحينئذ تحكم لهما او عليهما ، فهذا باب في اعتلاقه استصعاب ، وفي صرف العامة وبعض الخاصة عنه اتعاب ، وقد وصف تعالى في

كتابه تشبث القلوب بسيرة القديم ونفارها من المحدث الجديد ، فقال حاكيا قولهم : « انا وجدنا آباءنا على امة » . . . . . فلا يرعك ان تجرى على منهج الحق في جميع الخلق ، فيه قامت السموات والأرض ، وبه احكم الابرام والنقض (١٧٩) وابن شرف لم يأت بجديد في هذه القضية ، ولم يعد ان يكون مرددا لكلامهم . فمعاصره ابن رشيق ادلى بدلوه في هذه القضية وتكلم فيها بأسلوب أوضح من أسلوب ابن شرف ، وعالجها على نحو اكمل وأوفي مما عالجها به صاحبنا ، فهو مثلا يستهل الباب الذي عقده في العمدة بعنوان « باب في القدماء والمحدثين بالحملة على المقاييس البالية التي اصطنعها الرواة واللفويون في تفضيلهم القديم لمجرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه ، ويبين ان القدم والحداثة امران نسيان ، فيقول : « كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالاضافة الى من كان قبله (١٨٠) . . . » كما يقول في موضع آخر : « وانما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين : ابتدا هذا ببناء فاحكمه واتقنه ، ثم اتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن » (١٨١) كما نجد لابن فتيبة السابق عليهما في هذه القضية رأيا أكثر دقة ووجاهة وصوابا من رأييهما ، فقد بسط القول في هذه القضية وفصله ، وأفاض فيه حيث يقول : « ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لقدمه ، والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل للفريقين ، وأعطيت كلا حظه ، ووفرت عليه حقه ، واني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب عنده الا انه قيل في زمانه ،

( ١٧٩ ) رسالة اعلام الکلام : ٢٨

( ١٨٠ ) العمدة ١ - ٧٢

( ١٨١ ) العمدة ١ : ٧٢

كما يتضح لنا كيف تناول ابن شرف في رسالته « أعلام الكلام » الشعر والشعراء ومتازهم في جاهليتهم واسلامهم ومذاهبهم قديمهم وحديثهم ، وكيف كانت الاشعار قبل امرئ القيس سواذج حتى جدد فيها ، ووضع الأساس الذي بنى عليه الناس ، وكيف أقام الصوى والأعلام التي اهتدى بها كل من جاء بعده ، فقد كانوا يقولون : « أسيلة الخد » حتى قال امرؤ القيس : « أسيلة مجرى الدمع » وكانوا يقولون : « تامة القامة وطويلة القامة وأشباه هذا حتى قال امرؤ القيس : « بعيدة مهوى القرط » وأشباه هذا من الاستعارات والاشارات التي لم يفتن لها من قبله ، وتأسى بها وبنى عليها من أتى بعده ، فحسنت بها اشعارهم ، وكيف أخذ يتناول كل شاعر على حدة ، ويعرض لأخباره المشهورة وسماته ومميزاته الخاصة به ، وكيف مضى في ابداء رأيه على هذا النحو في مشاهير شعراء المشرق ، ثم انتقل بعد ذلك الى مشاهير الشعراء المغاربة والاندلسيين يعرض لهم ، ويبدى رأيه فيهم دون التقييد بمنهج نقدي شامل ودون تحليل أو تعليل ، وكيف عرض بعد ذلك لطائفة من عيوب الشعر ، وكيف اختتم رسالته بإيراد نماذج وعرض أمثلة من أجود الاشعار ومتخيرها في شتى الموضوعات ومختلف الأغراض مبتدئا بعرض أبيات من شعر الحكمة وما جرى مجرى المثل ، ثم عرض لأمثلة أخرى متخيرة من شعر الفزل ، ثم أورد منتخبات من المرائي مبتدئا بعربية قتيبة بنت الحارث في أخيها النضر بن الحارث أحسن المرائي وأفصحها وأوجعها ثم عرض ذلك لمنتخبات تعجبه من أشهر المدايح .

هذه هي طريقة ابن شرف في النقد الأدبي ، وهي كما رأينا لا تتقيد بمنهج نقدي يقوم على الاستقصاء والاستقراء والتحليل والتعليل

أو أنه رأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم » (١٨٢) كما يقول بعد ذلك : « فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » (١٨٣) ويردد ابن قتيبة رأيه هذا في القديم والمحدث مرة أخرى في مقدمة كتاب « عيون الأخبار » حيث يقول : « وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين واشعار المحدثين إذا كان متخير اللفظ لطيف المعنى لم يرو به عندنا تأخر قائله ، كما أنه إذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدمه ، فكل قديم حديث في عصره ، وكل شرف فأوله خارجية ، ومن شأن عوام الناس رفع المعلوم ووضع الموجد ورفض المبدول وحب المتنوع وتعظيم المتقدم وغفران زلته وبخس المتأخر والتجنى عليه ، والعامل من ينظر بعين العدل لا بعين الرضا ، ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم » (١٨٤) ومن أقوال ابن قتيبة التي عرضنا لها في قضية القديم والحديث نجد أن رأيه في هذه القضية كان أكثر دقة وصوابا ووجهة من رأى ابن شرف وابن رشيق .

وهكذا يتضح لنا اتجاه ابن شرف في النقد الأدبي وطريقته في تناول القدامى والمحدثين والموازنة والمقارنة بينهم وقضية القديم والحديث حظيت باهتمام كبير من النقاد العرب ، وكانت الشغل الشاغل للأوساط الادبية في المشرق والمغرب على السواء وفي جميع العصور ومختلف البيئات ، وقد بينا موقف معاصره ابن رشيق منها ، وموقف ابن قتيبة السابق عليهما من هذه القضية أيضا .

( ١٨٢ ) مقدمة الشعر والشعراء : ٦ - ٧

( ١٨٣ ) مقدمة الشعر والشعراء : ٧

( ١٨٤ ) مقدمة عيون الأخبار : ٧

والتدقيق وإنما تناول طائفة من الاخبار النقدية  
واثارات متفرقة هنا وهناك ، وتبدى آراء  
جزئية في هذا الشاعر أو ذاك ، وتصدر احكاما  
عامة متناثرة في الادب . يقول احمد امين :  
« وظهرت في المغرب حركة جيدة في النقد  
الادبي وردت أول الأمر نتفا في كتب الادب  
كقول عبد الكريم النهشلي : قد تختلف المقامات  
والأزمنة والبلاد ، فيحسن في وقت ما لا  
يحسن في آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما  
لا يستحسن عند أهل غيره . . . . . ومثل قول  
ابراهيم الحصري : الشعر مطبوع ومصنوع ،  
فالطبوع الجيد الطبع مقبول في السمع قريب  
المثل بعيد المنال أنيق الديباجة رقيق الزجاجة  
. . . . . ثم ارتقى هذا النقد حتى صار موضوعا  
قائما بنفسه » ( ١٨٥ ) وتظل هذه الطريقة في  
النقد الادبي سائدة في المغرب الى أن يجيء ابن

رشيق فيتخصص في نقد الشعر عامة ، ويفرد  
به ، « ويولي عنايته واهتمامه ويشمله برعايته ،  
ويأخذ لهذا الأمر أهيته ، ويعد له عدته ،  
فيبوب البحث وينظم منهجه ، ويفرد لذلك  
كتابه « العمدة » الذي توج به حركة النقد  
الادبي التي ظهرت في المغرب ، فقد ثقل فيه  
فن النقد الادبي كما يقول الأستاذ أحمد امين :  
« من نقد شاعر خاص أو شعراء معينين كما  
فعل صاحب الموازنة والوساطة الى نقد للشعر  
عامة » ( ١٨٦ ) ويقول ابن خلدون : « وهو  
الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة واعطاها  
حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده  
مثله » ( ١٨٧ ) ويقول فيه القفطى : « وهو  
اجل كتبه واكبرها ، وأنه اشتمل على ما لم  
يشتمل عليه تصنيف من نوعه ، واحسن فيه  
غاية الاحسان » ( ١٨٨ ) .

★ ★ ★

( ١٨٥ ) تقييد الاسلام ١ : ٢٠٦ - ٢٠٧

( ١٨٦ ) تقييد الاسلام ١ : ٢٠٧

( ١٨٧ ) مقدمة ابن خلدون : ٥٧٤

( ١٨٨ ) انباه الرواة ١ : ٣٠٣

### مراجع البحث

- ١ - الأعلام للزركلي ط ثانية سنة ١٩٥٥ م .
- ٢ - أعلام الكلام لابن شرف القيرواني ط مكتبة الخانجي سنة ١٣٤٤ هـ .
- ٣ - انباء الرواة على أنباء النحاة للقطبي تحقيق أبي الفضل ط دار الكتب ج ١ سنة ١٩٥٠ م . وج ٢ سنة ١٩٥٢ ١٩٥٢
- وج ٢ سنة ١٩٥٥ م وج ٤ سنة ١٩٧٣ م .
- ٤ - بدائع البداهة لملي بن ظافر ط بولاق سنة ١٢٧٨ هـ .
- ٥ - بساط العقيق لحسن حسنى عبد الوهاب ط المطبعة التونسية سنة ١٣٣٠ هـ .
- ٦ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ط السعادة سنة ١٣٢٩ هـ .
- ٧ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى ط بيروت بدون تاريخ .
- ٨ - تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار ط دار المعارف سنة ١٩٥٩ م .
- ٩ - تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ط الحسينية المصرية سنة ١٣٢٦ هـ .
- ١٠ - حياة القيروان وموقف ابن رشيقي منها لعبد الرحمن يافى ط بيروت سنة ١٩٦١ م .
- ١١ - الخريدة ، قسم شعراء المغرب للعماد الاصفهاني ط تونس سنة ١٩٦٦ م .
- ١٢ - ديوان ابن رشيقي جمع وتحقيق الدكتور عبد الرحمن يافى ط بيروت .
- ١٣ - الذخيرة لابن بسام ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥ م .
- ١٤ - رسائل البلغاء اختيار وتصنيف محمد كرد علي ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦ م .
- ١٥ - ابن رشيقي القيرواني للدكتور/ عبد الرؤوف مخلوف سلسلة أعلام العرب ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ١٦ - زهر الآداب للحمري تحقيق علي محمد البجاوي ط الحلبي سنة ١٩٥٢ م .
- ١٧ - الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق الشيخ أحمد شاكر ط الحلبي سنة ١٣٦٦ هـ .
- ١٨ - الصلة لابن يشكوال ط مكتب نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٩٥٥ م .
- ١٩ - ظهر الإسلام لأحمد أمين ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٢٠ - العمدة لابن رشيقي القيرواني تحقيق محيي الدين ط مصر سنة ١٩٢٤ م .
- ٢١ - عيون الأخبار لابن قتيبة ط دار الكتب سنة ١٩٢٥ م .
- ٢٢ - الفيت المسج في شرح لامية المعجم للصفي ط الوطنية بالاسكندرية سنة ١٣٢٩ هـ .
- ٢٣ - فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي تحقيق محيي الدين ط النهضة سنة ١٩٥١ م .
- ٢٤ - قراضة الذهب في نقد اشعار العرب لابن رشيقي تحقيق الشاذلي بو يحيى ط المطبعة الرسمية بتونس سنة ١٩٧٢ م .
- ٢٥ - الكامل لابن الأثير ط مصر سنة ١٢٩٠ هـ .

- ٢٦ - كشف الفنّون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ط استامبول سنة ١٣١٠ هـ .
- ٢٧ - مجلة المقتبس المجلد السادس .
- ٢٨ - مسالك الأبصار ج ١١ قسم ٢ مصورة معهد المخطوطات بالجامعة العربية .
- ٢٩ - المطرب من اشعار اهل القرب لابن دحية تحقيق الابيضاري وزميله ط المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٩٥٤ م .
- ٣٠ - معالم الايمان في معرفة اهل القيروان للدباغ ط تونس سنة ١٣٣٢ هـ .
- ٣١ - معجم الادباء لياقوت الحموي ط دار الامون .
- ٣٢ - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للبكري تحقيق السقاط لجنة التأليف سنة ١٩٤٥ م .
- ٣٣ - مقدمة ابن خلدون ط الكتبة التجارية بدون تاريخ .
- ٣٤ - الكتبة الصقلية لاماري ط ليبسك سنة ١٨٥٧ م .
- ٣٥ - المؤنس في اخبار افريقية وتونس لابن ابي دينار ط تونس سنة ١٢٨٦ هـ .
- ٣٦ - الننف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف للميمي ط السلفية سنة ١٣٤٢ هـ .
- ٣٧ - هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين لاسماعيل البغدادي ط استامبول سنة ١٩٥٥ م .
- ٣٨ - الوافي بالوفيات للصفدي ج ٣ ط الهاشمية بدمشق سنة ١٩٥٣ م .
- ٣٩ - وفيات الاعيان لابن خلكان تحقيق محيي الدين ط السعادة سنة ١٩٤٨ م .



## مقدمة السكان

تحليل سوسولوجي

عرض وتحليل الدكتور مصطفى ناجي

الجزء الثاني من الكتاب ( الفصل السادس - العاشر ) يتضمن مناقشة عوامل التركيب السكاني ومتغيراتها - الوفيات ( Mortality ) - الولادات ( Fertility ) والهجرة ( Migration ) .

الجزء الثالث والاخير يشتمل على ستة فصول تتعلق بالنتائج التي تترتب على التغيرات السكانية وانماطها الديموجرافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، كذلك السياسات السكانية .

يتكون الكتاب من ثلاثة اجزاء رئيسية مقسمة الى سبعة عشر فصلا بالإضافة الى اربعة ملاحق وثمانى صفحات من البيلوجرافيا وفهرس . وتبلغ مجمل صفحاته ٤٥٢ صفحة . يضم الجزء الاول خمسة فصول ويعالج بصفة اجمالية التصورات المختلفة عن الناس والسكان والمجتمعات

(Perspectives on People, and Societies)

وفيه استعرض المؤلف تأثير التغيرات السكانية على التنظيم الاجتماعي والاقتصادى والسياسى بصفة اجمالية وفي المجتمع الامريكى بصفة خاصة .

Prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs, New Jersey 07632.

من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية سيكون متيسرا لو تناقصت معدلات نمو السكان المرتفعة في كثير من دول العالم النامي .

تطرق المؤلف في الفصل الثاني الى منشأ وتطور الحركة المناهضة بتوقف النمو السكاني، كما استعرض نشاطات المنظمات القائمة بالدعوة لهذه الفكرة ، وناقش الوسائل التي اتبعتها لتحقيق أهدافها . لقد ظهرت هذه الحركة في أوائل الستينات من خلال أنشطة بعض منظمات القطاعين العام والخاص في الولايات المتحدة بهدف التأثير على برامج تنظيم الأسرة وتشجيع تحديد النسل . وما لبثت أن تطورت أهداف الحركة من اهتمام أولي بسعادة الافراد كمبرر لتحديد النسل الى إبراز خطورة النمو السكاني على النواحي الاجتماعية والديموقراطية والاقتصادية والسياسية كمبرر أساسي يستوجب إيقاف النسل . وأشار المؤلف الى عدم وضوح كيفية التوصل الى الأهداف المندى بها ، خاصة وأنه من المسلم به أن تنظيم الأسرة الاختياري لن ينتج عنه توقف أو تومائيكي في الزيادة السكانية . وأن تحقيق معدل نمو سكاني معادل للصفر يستوجب اعتبار برامج أخرى إجبارية .

رغم استمرار الجدل العلمي حول خطورة النمو السكاني وأفضل الوسائل المتبعة « لتحديد » أو « إيقاف » النسل ( اختيارية أو إجبارية ) ودور الزوجين أو الافراد في مقابل مسؤولية الدولة ، نبه المؤلف الى حقيقتين :

( ١ ) معدل الولادات في الدول الغربية بما فيها الولايات المتحدة قد أخذت بالانخفاض الواضح حتى وصلت في السبعينات الى مستوى منخفض يضمن بالكاد الاستبدال (Replacement)

بدأ الفصل الأول بإحصائيات توضح مدى الانفجار السكاني الذي حدث في العالم خلال القرن العشرين ، حيث ازداد عدد السكان من بليون ونصف في بداية القرن الى ما يقارب أربعة بلايين في عام ١٩٧٥ ، مع احتمالية وصول هذا العدد الى ستة بلايين في نهاية القرن المذكور أي بمعدل نمو يوازي أربعة أضعاف .

رغم الحديث الكثير عن الانفجار السكاني\* والوعي الذي بدأ يتزايد عن أبعاد المشكلة يعتقد المؤلف أن ذلك لا يعني بالضرورة وجود تفهم علمي للمشكلة أو اتفاق على النتائج التي تترتب على الزيادة السريعة في السكان ، وقد لخص الآراء المتداولة الى : -

أ - ظاهرة الانفجار السكاني تمثل كارثة على الجنس البشري حيث أن النقص في الغذاء والموارد الأولية والتلوث والتلف الذي يحدث في البيئة كلها يشكل ظواهر تنبئ بوقوع كارثة ، وأن مجرد تخفيض معدل نمو الزيادة السكانية لن يؤخر وقوع مثل هذه الكارثة ، ولذا فهناك ضرورة حتمية وملحة لتوقف النمو السكاني تماما ، أي الوصول الى معدل للسكان معادل للصفر (Zero Population Growth)

ب - التزايد السكاني يوفر فرصة ذهبية للنمو والتوسع الاقتصادي والاجتماعي وذلك بتطويره فرص العمل ، ومساعدته في اكتشاف واستغلال المواد الأولية عن طريق استعمال الابتكارات التكنولوجية والتنظيمية .

ج - الانفجار السكاني يعتبر عاملا مضاعفا للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويؤدي الى قصور الخدمات الاجتماعية بصورة عامة . ومن مسلمة هذا الرأي أن حل كثير

\* خصصت مجلة عالم الفكر العدد الرابع من المجلد الخامس ( يناير - مارس ١٩٧٥ ) لمناقشة المشكلة السكانية .



الفزو ) ولو أن احتمالاتها أصبحت ضعيفة في الوقت الحاضر .

النمط الثاني : اقتباس الابتكارات الحديثة في التكنولوجيا والنظم الاجتماعية لفرض استغلال الموارد الطبيعية استغلالاً أفضل ( الحل الاقتصادي ) .

النمط الثالث : ويتمثل في تحديد نمو السكان سواء عن طريق زيادة الوفيات أو تنافس الولادات ( الحل الديموجرافي ) . ولقد كان اللجوء إلى زيادة الوفيات وسيلة منتشرة في بعض المجتمعات .

قدم المؤلف في الفصل الرابع هيكلًا عامًا ( Typology ) ليوضح العلاقة بين العوامل الديموجرافية والتركيب الاجتماعي، وفي شيء من الدقة وصف احتمالات تأثير هذه العوامل على البيئة الانسانية والنظم الاجتماعية . وقد قسم السكان حسب المتغيرات الآتية : العدد Size المساحة Area الكثافة السكانية (Population Density) ريف وحضر Rural / Urban والتركيب العمري Age Structure وكذلك خصائص النمو . وكانت تقسيماته للمجتمع مقتصرة على : بدائية - بسيطة - ومتطورة بالنسبة لقدراتها التكنولوجية .

وبعد تعريف المجتمع الانساني على انه مجموعة من السكان المرتبطة بانماط من العلاقات الاجتماعية بقرص المعيشة والتأقلم للبيئة المحيطة ، تطرق المؤلف إلى النظريات العلمية البارزة في حقل البيئة الانسانية Human Ecology والتي تصنف المجتمعات حسب طبيعة تكنولوجيا انتاج المواد الغذائية التي تمتلكها . وكذلك نظام تقسيم العمل في هذه المجتمعات . وذكر المؤلف أن التحول التدريجي للمجتمعات من المستوى البدائي

( ٢ ) معدلات النمو السكاني في بعض الدول النامية وخاصة في دول شرقي آسيا كالصين ونايلند واندونيسيا وكامبوديا والجمهوريات الاسيوية في الاتحاد السوفيتي قد بدأت بالتناقص بشكل ملحوظ ، مما حدا بكثير من علماء الديموجرافية بدراسة احتمال توقف النمو السكاني عامة في هذه الدول في خلال القرن العشرين وتحليل النتائج المحتمل وقوعها .

من النماذج المستخدمة في شرح النمو السكاني التي قام المؤلف بمناقشتها في الفصل الثالث نموذج التحول الديموجرافي (Demographic Transition) والتي تصف تجربة العالم الغربي والصناعي في تخفيض معدل نموه السكاني منذ بداية حركة التصنيع، ويمكن وصف مراحل هذا التحول كالآتي : -

١ - مرحلة ما قبل التصنيع وهي الفترة التي تكون فيها معدلات كل من الولادات والوفيات مرتفعة .

٢ - مرحلة بداية التصنيع وفيها تنخفض معدلات الوفيات مع بقاء معدلات الولادات ثابتة ومرتفعة ، وهذه المرحلة هي التي ينتج عنها ما يسمى بالانفجار السكاني .

٣ - مرحلة التصنيع وفيها تبدأ معدلات الولادات بالانخفاض .

٤ - مرحلة ما بعد التصنيع وفيها تصل معدلات الولادات إلى مستوى منخفض يتناسب مع المعدلات المنخفضة للوفيات وبتمامها تتم مرحلة التحول الديموجرافي .

وفي نهاية الفصل حدد المؤلف ثلاثة أنماط من استراتيجية الاستجابة لنمو السكان .

النمط الاول : ويشمل التوسع في الحدود وضم أراض جديدة ، وهي استراتيجية اتبعت في كل العصور ( الحل السياسي أو

اجتماعية متصفة بالحضارية محل الروابط التقليدية مثل رابطة الدين ، الجنسية ، المنشأ ، كذلك الروابط العائلية .

بدأ المؤلف الجزء الثاني من الكتاب بتعريف لتحليل الديموجرافي على انه وصف كمي للطاقة البشرية و مكوناتها بالمجتمع . تلا ذلك استعراض اولي ( الفصل السادس ) لطرق دراسة النمو السكاني وكيفية حساب مؤشرات النمو ، وبين كذلك استعمالات أبرز هذه المؤشرات وهي معادلة الموازنة السكانية  $(P_2 = P_1 + B - D + M)$  حيث  $(P_2)$  حجم السكان في وقت ( 2 ) يساوي حجم السكان  $P_1$  في وقت سالف زائدا حجم الولادة ( B ) ناقصا حجم الوفيات ( D ) زائدا او ناقصا حجم الهجرة ( M ) . كذلك اشار الى بعض مصادر البيانات عن السكان مثل التعدادات والمسوحات وسجلات الظواهر الحياتية .

ومن الواضح ان الهدف من هذا الفصل هو تزويد القارئ المبتدئ بقليل من الخلفية العلمية من مفاهيم ومصطلحات ومؤشرات .

في الفصول الاربعة التي تلت قام المؤلف بمناقشة علاقة التركيب الاجتماعي وكلا من الوفاة والبقاء ( الفصل السابع ) والزواج وصنع الزواج Match Making ( الفصل الثامن ) والولادات ( الفصل التاسع ) والهجرة ( الفصل العاشر ) .

تتبع المؤلف في الفصل السابع التطورات التي حدثت في معدلات الوفيات في أوروبا وغيرها من القارات المسكونة بالعنصر الأوروبي حيث شهدت تناقصا تدريجيا ومستمر منذ القرن الثامن عشر وحتى الحسب العالمية الثانية . وكان ذلك التناقص نتيجة لتحسن الاحوال الاجتماعية والتعليمية والاستجابة للتطور الاقتصادي والاستقرار السياسي الذي

البسيط الى التنظيم المتطور المقدر يعزى الى التوسع الايكولوجي المتأثر بالزيادة السكانية وما ينتج عنها من تكيف اقتصادي واجتماعي وتنظيمي لغرض تحمل المضاعفات التي قد تنشأ في مرحلة النمو والتطور .

وبتطبيق مفاهيم الهيكل العام الذي حدده المؤلف على المجتمع الأمريكي (الفصل الخامس) حاول أن يربط بين العوامل الديموجرافية ، وخاصة عامل الهجرة ، وبين التغيرات التي حدثت في التكنولوجيا وأنماط الاستيطان والتكيف الايكولوجي المتميز بالاتجاه الظاهر نحو العمران وخاصة في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية .

وبمقارنة أمريكا ذات الطابع الريفي في القرن التاسع عشر بأمريكا الحضارية في القرن العشرين ، اتصفت الأولى بانتشار المجتمعات الصغيرة Communities المنعزلة نوعا ما والمأهولة بالأسر ذات التركيب المتد والوظائف المتعددة ومنها : الدينية والترفيهية وتربية النشء ، هذا بالإضافة الى كونها وحدات إنتاجية واقتصادية كانت تمثل حلقة الوصل الرئيسية ما بين الفرد ونشاطاته واتصالاته في المجتمع .

يتصف المجتمع الأمريكي حاليا بالتركيز الشديد في الكثافة السكانية في جزء بسيط من مساحته الشاسعة وفي التزايد الحضري والعمراني الهائل المتميز بالمجتمعات اللامتجانسة التي يغلب عليها نمط الاسر الصغيرة التي تغير كثيرا من وظيفتها التربوية والاقتصادية والترفيهية وفقدانها لمعظم هذه النشاطات .

وأبرز المؤلف أهمية عامل الهجرة ( الخارجية منها أو الداخلية ) في : ١ ) تشكيل أنماط توزيع السكان وتطورها في المجتمع الأمريكي والتي أدت في النهاية الى ظهور المدن الضخمة Megalopolis ( ٢ ) احلال روابط

كنظام اجتماعي وركز بشكل محدد على اختلاف طبيعة الزواج في المجتمعات الأوروبية أو التي من أصل أوروبي عنها في المجتمعات الأخرى . ومن خصائص المجتمعات الأوروبية :

١ - وجود فائض من النساء في سن الزواج بالمقارنة بالمجتمعات الأخرى .

٢ - انتشار الفكرة القائلة بأن الزواج يجب أن تسبقه فترة طويلة من التعارف بين الطرفين .

٣ - اللجوء إلى تأجيل الزواج نتيجة لشعور الفرد بأهمية الضمانات المالية وتطلعه إلى مستوى معيشة أفضل .

٤ - عملية اختيار الزوج أو الزوجة تتصف بأنها أقل تأثراً بعوامل السن أو العنصر أو الدين أو مستوى التعليم والقربة واللغة عنها في المجتمعات الأخرى .

هذا بالإضافة إلى أن عوامل أخرى ذات طابع ديموجرافي يمكن أن تسبب حالات من الضغط على الزواج Marriage Squeeze وذلك بجعلها المرض والطلب يفقدان التناسق فيما بينهما ، ومن أمثال هذه العوامل الهجرة المتزايدة لأحد الجنسين وكذلك اختلاف سن الزواج ما بين الزوج والزوجة المنتشر من الدول النامية . هذا بالإضافة إلى بعض التقاليد التي تحتم الزواج من نفس الطبقة الاجتماعية .

إن مسؤولية اختيار أو تحديد ظروف الخطبة وكذلك مكان الإقامة وطبيعة الأحوال المعيشية للمتزوجين الجدد ما زالت في يد الإباء أو الأقارب ، ولم تترك كاملاً للأشخاص أنفسهم حتى في الزواج العصري ما زال للإباء قدرة التحكم في مكان وكيفية تقابل الطرفين .

أدى إلى إصلاحات اجتماعية وارتفاعات في مستوى المعيشة وكذلك في تحسين طرق الوقاية العامة ، أما في الدول النامية فإن الانخفاض السريع في معدلات الوفيات الذي حدث عقب الحرب العالمية الثانية ف يرجع إلى إدخال وسائل الصحة العامة والصحة الوقائية والطب الحديث أكثر مما هو ناتج عن أي تغيير اجتماعي أو اقتصادي .

بالرغم من أن علماء الديموجرافية قد أبدوا اهتمامهم بدراسة الحالة الزوجية للسكان وتأثيرها على معدلات الولادات ، إلا أنهم ، وفي رأي المؤلف ، أقل رغبة في دراسة العلاقة ما بين الزواج من ناحية وتركيب الأسرة وتكوين القربان والطبقات الاجتماعية من ناحية ثانية حيث ظلت هذه المواضيع موضوع اهتمام علماء الاجتماع والانتروبولوجي . وعند مقارنة الدول الأوروبية والغير أوروبية نجد أن ظاهرة الزواج المتأخر أو الامتناع الكلي عنه منتشرة في معظم الدول الأوروبية منها في الدول الأخرى ، وتفسير هذه الظواهر أنها ناتجة عن الشعور المتأصل بالفردية Individualism وبأهمية احساس الفرد بالاستقرار الشخصي والمالي كخلفية لازمة للزواج والانجاب .

إن ظاهرة رواج الزواج Marriage Boom التي وقعت بعد الحرب العالمية الثانية في الولايات المتحدة وأوروبا حدثت بين مجموعات من السكان كانت تتعاشى الزواج كليا أو تختار الزواج المتأخر ولذا أدت حركة رواج الزواج هذه إلى تخفيض سن الزواج وكذلك إلى تخفيض نسبة غير المتزوجين في المجتمع مما نتج عنه تقارب معدلات الزواج في المجتمعات الأوروبية وبين الريف والحضر وكذلك بين الطبقات الاجتماعية المختلفة .

وفي تحليل وصفي انتروبولوجي لظاهرة الزواج ، اختيار الزوج ، والرواج المبكر أشار المؤلف إلى التغيرات التي حدثت في الزواج

النسل في أغلبها بالتشجيع المباشر . ولذا استخلص المؤلف بأن منشأ الاسرة الصغيرة والعودة الى معدلات الولادة المنخفضة في الدول الغربية ليس له علاقة وطيدة بأى سياسة سكانية حكومية بوجه عام .

لقد اتجه علماء الديموجرافية حديثا الى التحليل الدقيق Micro لموضوع الخصوبة والولادات والاختلافات في كل منها كالتباين في عدد الولادات وفي توقيت المواليد . هذا وبالإضافة الى ذلك يرجع الباحثون الى الكثير من النظريات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية لتفسير حجم الولادات واختلافاتها ومن امثلة ذلك نظرية العلاقة ما بين المنزل الاجتماعية والحراك الاجتماعى

#### Social Status and Social Mobility

ومستوى الخصوبة وكذلك نظرية الكلفة - المنفعة - Cost-Benefit القائلة بان العامل الاقتصادى يتحكم في تقديرات الزوجين وبالتالي في لجوءهما الى استعمال اساليب منع الحمل او عدم استعمالها .

ذكر المؤلف ان دراسة الهجرة تتطلب وجهة نظر أكثر من خلفية علمية واحدة ثم تطرق الى شرح تاريخى للهجرة العالمية وخاصة الهجرة من أوروبا والتي اتجه معظمها الى الولايات المتحدة ، ورغم ذلك فان نسبة المهاجرين الى المولودين في الشعب الأمريكى لم تزد في دورتها عن ١٣٪ . وقليل جدا من دول العالم التي يبلغ فيها المهاجرون نسبة عالية من السكان تصل في بعض الحالات الى النصف مثل الكويت وهونغ كونغ واسرائيل .

كان للهجرة الداخلية تأثير كبير على توزيع السكان في الولايات المتحدة وعلى حركتهم الى الغرب التي صاحبت الاسكان بالولايات الغربية وخاصة ولاية كاليفورنيا . كما أدت الى التزايد السريع في درجة العمران بالولايات المتحدة في فترة زمنية قصيرة . وتظهر آثار التحرك

من المتفق عليه بين علماء الديموجرافيا أن عامل الولادات هو العامل الرئيسى المؤثر في النمو السكاني . ولدراسة هذا المتغير يتبع الباحث عادة في تحليله أحد المستويين التاليين أو كليهما : - الأول Macro وهو عبارة عن تحليل العوامل الهيكلية الرئيسية المؤثرة على الخصوبة والولادات . الثاني Micro أو التحليل الدقيق المتعلق بدراسة العوامل السلوكية والفردية المؤثرة على الظاهرة .

رغم وصول معدلات الولادة في أوروبا والدول الغربية عموما الى مستوى منخفض نسبيا في بداية الحرب العالمية الثانية ، عادت للزيادة في الفترة التي تلت الحرب مباشرة Baby Boom ، وكان هناك نمطان لهذه الظاهرة ( الأول ) استمر لفترة زمنية قصيرة لتمويض حالات الولادات الموجلة خلال فترة الحرب . ( الثانية ) امتد لفترة اطول خاصة في الولايات المتحدة واستراليا ونيوزلندا وكان محصلة تعويض للولادات الموجلة في فترة الحرب بالإضافة الى زيادة حقيقية في معدلات الولادة والاتجاه نحو الولادات على فترات زمنية متقاربة . بدأت الولادات في دول أوروبا الشرقية وجنوب أوروبا ودول أمريكا اللاتينية مثل الأرجنتين بالتساقط تدريجيا في أبان الحرب العالمية الأولى ولكنها أخذت بالانخفاض السريع حتى الحرب العالمية الثانية .

عند بداية الحرب العالمية الأولى كان معدل الولادات في الدول الأقل تطورا ( النامية ) عاليا نسبيا ( أعلى من ٣٥ بالالف ) ، وتنصف معدلات الولادة بالانخفاض الملحوظ في مجموعة منها بعد الحرب العالمية الثانية بينما استمرت معدلات الولادة العالية في البعض الآخر .

كما أبرز حقيقة ظاهرة وهي أن الدول التي اتجهت فيها معدلات الولادة بالانخفاض السريع لم تتبع الا القليل مما يوصف بسياسة سكانية محدودة ، وفي الواقع لم تحظ برامج تحديد

بمناقشة تأثير التغير السكاني على النظم الاجتماعية مثل تقسيم الـ Division of Labor وتوسيع المحيط الاجتماعي وكذلك تبني المبتكرات والاستفادة منها مستعينا في شرحه بالنظريات العلمية المفسرة لهذه الظواهر ومشيئا الى أن النمو السكاني على نطاق واسع يجعل مستحيلا على التركيب الاجتماعي أن يستمر بصورته الاولى . هذا بالإضافة الى أن التزايد في الكثافة السكانية يؤدي بدوره الى تكثيف النشاطات المتعلقة بإنتاج المواد الأساسية كما حدث في ظاهرة الانقلاب الزراعي Agriculture Revolution

لقد حدد المؤلف نمطين من استراتيجيات الاستجابة الديموجرافية للنمو السكاني ويتلخص في : ١ ) زيادة الاتجاه العمراني بما فيه زيادة وتعدد المناطق المتصفة بالحضر والعمران وانتشار المدن الكبيرة Megalopolis ب ) التجاء بعض المجتمعات الى تشجيع الهجرة الخارجية . ونظرا لأن احتمالات الهجرة الخارجية أصبحت في عالمنا الحاضر محدودة ، فإن النمط الرئيسي للتجاوب ينحصر في الاتجاه نحو العمران وفي استعمال الزراعة المكثفة . ولظاهرة العمران صفات اجتماعية مميزة منها تباين صفات السكان Heterogeneous وتنوع وتعدد الاتحادات والنظم الاجتماعية . هذا بالإضافة الى الميل للتخصص Specialization الوظيفي والبنائي .

ونظرا لعدم وجود سياسة تحكم الهجرة الداخلية في معظم الدول باختلاف بعض الدول الاشتراكية ، فإن المؤلف يتساءل عما إذا كان من المستطاع التأثير في الحراك السكاني عن طريق سياسة سكانية محددة . ويستخلص بان الموضوع ما زال يحتاج الى بحث أكثر لتحديد ابعاده .

السكاني أيضا في ظاهرة نمو الضاحية Suburbanization الذي تزايدت بشكل ملحوظ من بعد الحرب العالمية الثانية .

رغم أن معظم العوامل الخلفية التي ينبغي دراستها بالنسبة لظاهرة الهجرة ما زالت غير واضحة ومتغيرة التأثير فإن معظم النظريات التي توضح أسباب الهجرة تركز حول ضرورة فهم تأثير العوامل الاقتصادية على الميل للهجرة وكذلك علاقة الصفات الاجتماعية والديموجرافية كالعمر والحالة الزوجية والجنس وخلافه على الاستعداد للهجرة .

هذا ورغم الاعتراف بوجود عدة عوامل غير اقتصادية مؤثرة على ظاهرة الهجرة إلا أنه ما زال ينظر الى تحركات القوى البشرية على أنها متعلقة بصورة رئيسة بالعوامل الاقتصادية خاصة فرص التوظيف ، اختلاف الأجور ، وهيكلة سوق العمالة والبطالة بأنواعها .

إن للهجرة تأثيرا واضحا ليس فقط على المجتمع بل أيضا على الفرد وهناك علاقة ما بين هجرة الأفراد وصفاتهم الديموجرافية وغير الديموجرافية كالخصوبة والانحرافات والمرضى العقلي وخلافه . بالإضافة لذلك فإن الهجرة تأثيرا آخرًا مباشرًا على العلاقات والمنظمات الاجتماعية وكذلك على الميول السياسية والانفصال العنصري أو الثقافي ونظم التعليم وخلافه .

وباختصار إن معظم المجتمعات التي تشتد بها حركة الهجرة يجب أن تطور منظماتها ومؤسساتها لكي تضمن الاستقرار والاستمرارية في الصلات والتفاعلات الاجتماعية على جميع المستويات .

في الجزء الثالث من الكتاب يناقش المؤلف أنماطًا مختلفة من الاستجابات الاجتماعية والديموجرافية والاقتصادية والسياسية للتغير السكاني . ويتبدى الفصل الحادي عشر

منها هو الإصلاح الاجتماعي لمكانة المرأة وليس التحكم في السكان وتحديد النسل . ان مجهودات مسز ( Singer ) منذ عام ١٩١٣ في الولايات المتحدة وفي مدينة نيويورك بالذات تشكل بداية الحركة المناهضة باستعمال وسائل منع الحمل وتحديد النسل . لقد تطورت الحركة بشكل ملحوظ بعد الحرب العالمية الثانية على يد مستر John D. Rockefeller 111 وانبثق عنها مجهودات هيئة الامم المتحدة ومنظماتها وبرامجها في العالم النامي . كما تكونت في الدول الأوروبية ولا سيما الولايات المتحدة بعض المنظمات حديثا التي تطالب بوقف نمو السكان وتؤكد بضرورة استخدام جميع الوسائل الممكنة بما فيها العمليات الجراحية Sterilization وذلك للاعتقاد بعدم كفاية وسائل منع الحمل التقليدية مثل استعمال حبوب منع الحمل .

ان العلاقة التي تربط العوامل الاقتصادية والعوامل الديموجرافية علاقة متشعبة ودقيقة . ومن أبسط مظاهرها احداث التغير السكاني ردود فعل في كل من حجم ومعدل نمو كل من القوى العاملة والعمالة وسوق العمل ، وكذلك في حجم كل من الادخار والاستثمار ومستوى الانتاجية . وعند مناقشة هذه الموضوعات ( الفصل الرابع عشر ) فرق الكاتب ما بين انماط الاستجابات الاقتصادية للزيادة السكانية في كل من الدول النامية وفي الدول الاقل نموا .

ونستعرض فيما يلي آراء المؤلف حول نوعية الارتباط بين النمو السكاني والعوامل السالف ذكرها .

النمو في القوى العاملة : تعتبر كل من معدلات النمو السكاني وهيكل التركيب العمري السكان ومعدلات الهجرة بأنواعها من المتحكمات الاساسية في نمو القوى العاملة وفي تحديد نسبتها في السكان . من المعروف ان حجم

في الفصل الثالث عشر انتقل المؤلف الى مناقشة اشكال الاستجابة الديموجرافية وابتدا بذكر مبدأ قديم عن الضوابط الايجابية Positive Check لالتوس والقائلة بحتمية ارتفاع الوفيات في حالة زيادة السكان عن الموارد الغذائية . وتساءل المؤلف عما اذا كان من الممكن ان تسمح اخلاقيات المجتمعات الحديثة بمعدلات اهل للوفيات كوسيلة لمجابهة اية زيادة في السكان غير متوازنة مع الريادة في الموارد الغذائية وبالتالي هل تلجأ الى تخفيض معدلات الوفيات في حالة نقص السكان ، استخلص من الدراسات التي قام بها كل من Clark و Kreziok عن اتجاهات معدلات الوفيات بين الاطفال في المجتمعات الريفية والريف الصناعية الى انه من الجائز ان تكون التغيرات التي تحدث في مستوى الوفيات وفي معدلاتها حسب العمر استجابات من المجتمع لظاهرة نمو السكان بغرض التكيف والبقاء .

كما نبهنا المؤلف الى فكر اخر من افكار مالتوس عن اهمية التحكم في سن الزواج كوسيلة من وسائل الحد من النمو السكاني والذي لا شك فيه ان انماط الزواج والطلاق واعادة الزواج والقيم المتحكمة في هذه الظواهر لها ارتباط بمحاولات المجتمع التحكم في معدلات نمو سكانه ، ولو ان نوعية هذه الارتباطات غير مدروسة . وقد اشار المؤلف على سبيل المثال الى الاتجاه الحديث نحو انخفاض سن الزواج وزيادة نسبة السكان المتزوجين وارتباط كل منها مع التوسع في استعمالات وسائل منع الحمل بما فيها الاجهاز وخاصة في الدول الغربية لا سيما في الولايات المتحدة .

وفي نبذة تاريخية عن تطور وسائل منع الحمل اشار المؤلف الى تواجد العديد من وسائل منع الحمل في مختلف العصور وانه رغم ما نشر عن الموضوع في القرن التاسع عشر تطورت الى حركة نسائية كان الغرض

أشار المؤلف الى أهمية دراسة تأثير التركيب العمري للسكان والتغيرات التي تحدث فيه على معدلات الادخار ، ورغم أنه فيما يبدو ينتمي الى المدرسة القائلة بأن الزيادة في عدد الاطفال في حد ذاتها ليس لها تأثير كبير على القدرة على التوفير حيث أن :

١ - معظم الادخارات تتوقف على حجم الضرائب في القطاع العام أكثر من توقفها على الادخارات النوعية في الأسرة .

٢ - عدم وجود الادلة الكافية على أن ادخارات الأسرة تشكل المصدر الرئيسي للاستثمارات .

أورد المؤلف عدة نماذج توضح اختلاف الآراء حول تأثير النمو في السكان على مستوى الانتاجية (Productivity منها : أولا ) قوانين مالتوس عن تناقص العوائد في قطاع الزراعة Laws of Diminishing Returns التي ينتج عن ازدياد كثافة العمل وحدود الرقعة الزراعية . ثانياً ) افكار آدم سميث عن الاقتصاد على نطاق واسع وEconomics of scale والتي تعكس نوعية العلاقة بين الحجم والانتاجية ، ومن مضمونها أنه كلما زاد حجم الوحدة زادت كفاءتها الانتاجية . كذلك قام المؤلف بشرح آراء كينز المشهورة عن الركود الاقتصادي Staguation وينتج من نقص في النمو السكاني وللاسباب الآتية : -

١ - في المجتمعات الفنية برأس المال التي تتصف بمستوى دخل مرتفع ونمو بطيء في السكان عادة ما يكون صعباً فيها زيادة فرص الاستثمارات .

٢ - في المجتمعات الفنية برأس المال ، نسبة صغيرة من الدخل المرتفع يستهلك فقط تاركا نسبة أكبر للاستثمارات .

القوى العاملة يتأثر بمعدلات الاشتراك في سوق العمل لكل من المجموعات العمرية والبيئية المختلفة ، وتلك تتأثر بدورها بعوامل ذات طبيعة ديموجرافية كحجم الأسرة والهجرة من الريف الى الحضر وزيادة حجم السكان الذين يبلغون سن التقاعد وخلافه .

من الظواهر التي تتضارب حولها الآراء هي العلاقة المحتملة وجودها بين النمو السكاني من جهة وبين مستوى البطالة من جهة أخرى وارتكز المؤلف في شرح هذه العلاقة على آراء كل من Spengler و Keynes فمن رأى الاول مثلاً أن النمو السكاني ولو بمعدل قليل يعتبر أمراً ضرورياً لتلافي البطالة الشديدة .

وفي حالة تقييد معدل نمو سكاني مناسب فإن على الحكومة أن تزيد من نفقاتها لتعويض النقص في الاستهلاك المحتمل نشوءه . هذا طبعاً يناقض كثيراً من آراء Spengler التي ترى في تناقص معدل نمو السكان خلفية مشجعة لمستويات أعلى العمالة .

ورغم أن المؤلف لم يلتزم برأي معين في هذه المسألة إلا أنه أوضح أن العلاقة بين النمو السكاني وكل من البطالة والعمالة تختلف بالدول النامية عنها في الدول الصناعية . فمعظم الدول النامية تتصف بارتفاع معدلات النمو السكاني وبالتالي ترتفع فيها معدلات الزيادة السنوية في القوى العاملة ، وبالتالي معدلات كل من البطالة والبطالة المفتعة بالذات .

هذا بالإضافة الى أن الهجرة السكانية في الدول الصناعية عادة ما تحدث تكاملاً بين الموارد البشرية والموارد الاقتصادية في حين أنها في الدول الأقل نمواً تعبر عن نقص دائم في الطلب على العمل الناتج من انخفاض الأجور في الزراعة كذلك ارتفاع الزيادة السكانية في المناطق الريفية .

١ - خلق أنماط من السلوك الذاتي والفردى ومن التطلعات الشخصية ذات الفائدة المحدودة في فهم أو تكيف التطلعات الجماعية.

٢ - زيادة الاختلافات الموجودة في المهارات وفي احتياجات الأفراد .

٣ - إمكانية التفاضل عن أو السماح لبعض السلوك المتحرر من التقاليد بالتواجد مع السلوك العرفي .

٤ - تشكيل قوى اجتماعية بهدف تنظيم أو استغلال أو تجنب الخلافات الفردية وخاصة الناشئة عن قصور في بعض الإمكانيات والمجهودات مما يضاعف إمكانية المجتمع نحو الإنتاج والاستهلاك بل والبقاء ، وفي مقدمتها قدرته على التكيف .

ومن رأى المؤلف أنه إذا كان للنمو السكاني القدرة على توافر احتمالات الاختلافات والتنازع الاجتماعي فإنه من الواضح أن ازدياد الكثافة السكانية تخلق حاجة للتمييز الطبقي وكذلك التباين في النظم الاجتماعية وذلك يرجع لأن ارتفاع الكثافة السكانية يصاحبه عادة :

١ - ارتفاع معدلات الاتصالات الإنسانية الناتجة من القرابة الجسمية .

ب - التنافس نحو الأولوية في جذب الاهتمام وفي المشاركة .

ج - التنافس لحرية الوصول إلى المؤسسات والأماكن وفي المجهودات الاجتماعية .

وباختصار فمن الجائز أن يقلل النمو السكاني من قيمة بعض الارتباطات الاجتماعية ويجعلها قليلة الفائدة في نفس الوقت يمكن أن ينمى مزايا ارتباطات أخرى . ولذا فإنه من الطبيعي أن تثنى الاستجابة الاجتماعية لمثل هذه التغيرات السكانية في صورة ابتكارات اجتماعية بما فيها من تغير في القيم وقوانين

٣ - في حالة ثبات أو نقص معدل النمو السكاني تزداد معدلات البطالة لعدم كفاية الطاب على الخدمات والبضائع .

٤ - تغييب التأثير الإيجابي الذي يحدثه النمو السكاني في تشجيع ارتباطات التعاقد وتشكيلها لنمو كل من الإنتاج وانتاجية الفرد .

وقد أشار المؤلف إلى أنه لا يوجد نتائج علمية ثابتة تحدد العلاقات الرئيسية ما بين كمية العمل والقدرة الانتاجية ، وكيف تتأثر كل منها بازدياد السكان وأن عدم نجاح الاقتصاديين أو بالأحرى تجاهلهم لمعالجة هذه العلاقة يرجع عادة إلى أنها تحدث في إطار اجتماعي وسياسي وعليه فإن نوع الاستجابة تختلف باختلاف الظروف السياسية والاجتماعية وأن هذه الظروف تتوقف على ثلاثة متحركات:

١ - قرارات الجهة المنظمة للاقتصاد .

٢ - الضوابط والمتغيرات التي يمكن تطبيقها على الوحدات الاقتصادية .

٣ - تركيب هيكل الجراءات والتقديرية وكذلك العقوبات المنظمة للنشاطات الاقتصادية .

من المسلم به أن أي تغير ملحوظ في السكان غالباً ما ينتج عنه إعادة ترتيب كثير من المؤسسات والمنظمات والعلاقات الاجتماعية .

من أمثال الظواهر الاجتماعية التي تنتج من التغير السكاني وخاصة من الهجرة التغيرات التي تطرأ على التركيب الوظيفي والبيئي والعنصري في بعض الحالات مما حدا ببعض علماء الاجتماع القول بأن مقداراً من الصراع يصاحب دائماً التغير في العلاقة بين المجموعات السكانية وبين مؤسساتها الاجتماعية وأن الاستجابة الاجتماعية لنمو السكان تأخذ عادة عدة أشكال منها :



التشريعية الى تنظيم شبه بيروقراطي نظرا لازدياد ظاهرة تعدد الخواص التي تصاحب الزيادة السكانية . و اخيرا يتأثر التوازن السياسى بين المجموعات المهنية والدينية والثقافية والعنصرية ليس فقط بالريادة السكانية ولكن بحركة وهجرة السكان الداخلية وقدرة الاحزاب والمنظمات السياسية على توضيح مواقف معينة وقيم ايدولوجية محددة لكل الجماعات والمجموعات المختلفة من السكان.

واخيرا يتساءل الكاتب في الفصل الاخير عن امكانية تواجد مدينة الاحلام Utopia ذات الصفات الاجتماعية والديموقراطية المتكاملة وكذلك تسأل عن دور السياسة السكانية في تحقيق ذلك الحلم . فصل بين مفهوم كل من السياسة السكانية والنظرية السكانية حيث عرف الاولى على انها تتكون من تبين واضح لحاكم أو جهة ذات سلطة لبعض الاهداف السكانية التي تخدم المنفعة العامة ، وكذلك التحكم في الموارد المتاحة بشأن تحقيق هذه الاهداف اما بواسطة تدخل مباشر أو غير مباشر في عوامل الوفيات والولادات والهجرة .

وقد رأى المؤلف ان السياسة السكانية يجب فصلها عن السياسات الاخرى المحتملة التأثير على حجم ونوع وانتشار السكان ولكن من خلال تشكيلها لعوامل اخرى غير العوامل الديموقرافية . هذا بالاضافة الى انه لا يمكن بصفة عامة تحديد تركيب محدد للسياسة السكانية يكون له صفة الدوام وانما هي عادة أقل تحديدا وغالبا ما تشمل فترة زمنية معينة .

قام المؤلف باستعراض التجربة الامريكية واستنباط الخلفيات التي صاحبها وخاصة ظاهرة الهجرة من أوروبا والعوامل التي ادت الى اقبال سياسة الباب المفتوح وظهور نظام الحصص Quota System المنظمة للهجرة في اوائل العشرينات والتي استبدلت

التبادل وكذلك في تعريف الموارد بل والحوافز الاجتماعية .

اختتم المؤلف هذا الفصل ( الخامس عشر ) بمناقشة سطحية لتأثير الهجرة على الارتباطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واستعمل التفسيرات الآتية للمقارنة: المهاجر باستمرار ، المهاجر أحيانا ، الغير مهاجر أو الثابت ، وبين كيف أن عملية الهجرة ينتج عنها إعادة صياغة الصفات الاجتماعية للمنظمات والمؤسسات وحتى للمجتمعات الصغيرة نتيجة للحركة السكانية .

ابتدأ المؤلف ( الفصل السادس عشر ) بقوله أن موضوع الاستجابة السياسية للزيادة السكانية ما زال حديثا ولم يحظ بالدراسة المناسبة الا مؤخرا . ثم وجه اهتمامه الى ثلاثة موضوعات ذات علاقة : أولا - الضغوط السياسية والإدارية التي يتعرض لها المجتمع نتيجة للزيادة السكانية. وثانيا - التكامل السياسى المرتبط بظاهرة تغير الخواص Variation الصفة التي تلازم عادة التغيرات السكانية . وثالثا الحراك السكانى على الانضمام والاشتراك في الاحزاب والمنظمات السياسية والنخبة القيادية .

استخلص المؤلف : أولا - أن المجتمعات ذات الكثافة السكانية العالية والنمو السكاني المتزايد تتطلب نسبة مرتفعة من الخدمات الحكومية بشتى أنواعها مثل الخدمات الصحية والترفيهية والتعليمية وخلافه . وثانيا - التركيبات العمرية في حد ذاتها تؤثر في نوعية وتخصص الخدمات الحكومية اللازمة ، فمثلا ازدياد الامصار في سن الشباب يتطلب التوسع في بناء المدارس وفي فرص العمل في حين أن زيادة نسبة كبار السن في السكان تتطلب التوسع في برامج العلاج الطبي والضمان الاجتماعى وخلافه . ثالثا - يصاحب الزيادة السكانية عادة ازدياد حجم الهيئات التشريعية في المجتمع وازدياد تعقيداتها وتحول العملية

بقانون الهجرة الصادر في ١٩٦٥ والسارى  
المفعول حتى الآن .

وتطرق الى شرح برنامج المساعدة الامريكية  
للدول النامية في تنظيم الاسرة وكيف انه بعد  
تردد طويل توسعت الحكومة الامريكية في  
هذا المضمون عن طريق برامج المساعدات -  
الخارجية وبرامج المساعدة لفرض التنمية منذ  
منتصف الستينات . اشار ايضا الى نتائج  
الدراسة التي قامت بها الهيئة المشكلة بأمر  
من الرئيس السابق نيكسون في عام ١٩٧٥  
لدراسة النمو السكاني ومستقبل أمريكا  
واستعرض باختصار أهم النتائج التي توصلت  
اليها اللجنة بعد دراسات مستفيضة لأكثر  
من عامين والتي أثرت في المفهوم العام للمشاكل  
السكانية .

وبمقارنة الولايات المتحدة والدول  
الاوروبية وجد ان اهتمام الدول الاوروبية  
يختلف من دولة الى أخرى حسب طبيعة  
المشكلة السكانية في كل منها ومع ذلك فان  
الخلاف الرئيسى بين التجربة الامريكية  
والتجربة الاوروبية هو حداثة فكرة السياسة  
السكانية في الولايات المتحدة وتواجدها تاريخيا  
في كثير من الدول الاوروبية التي توصف بالمقارنة  
بانها :

١ - ثقل مبدأ مسئولية الدولة في  
تجميع البيانات وتنظيمها بل وفي التدخل لحل  
كثير من المشكلات الاجتماعية بما فيها مشاكل  
الهجرة وتوزيع السكان .

٢ - شهدت ظواهر سياسية كثيرة  
مرتبة على تغيرات ديموجرافية مثل الحروب،  
تصارع القوميات الاوروبية ، انهيار النظام  
الاقطاعى وخلافه .

٣ - تبنت حكوماتها في بعض الاوقات  
مبادئ اقتصادية وفلسفية ذات محتوى  
ضمني يفضل الزيادة في حجم السكان  
Mercantilism .

ورغم وجود هذه الخلفية التاريخية  
للمسألة السكانية في أوروبا فان الخطوات التي  
ادت الى انخفاض الولادات في تلك القارة لم  
تكن في الواقع ضمن سياسة سكانية وانما  
تطورت تماما دون تدخل حكومات الدول  
المعنية وجاءت استجابة لاصلاحات اجتماعية،  
وحتى القوانين التي لها تأثير مباشر على الولادات  
كالسماح بالإجهاض في الاتحاد السوفيتي  
ودول أوروبا الشرقية التي اعقبت الحركة  
الاشتراكية نشأت من مفهوم القوانين المتعلقة  
بحماية حقوق المرأة وبرامج العدل الاجتماعى .

تبنت كثير من الدول النامية حديثا  
مبادئ عامة يمكن وصفها بأنها تشكل سياسة  
سكانية والفرض الواضح في خطط معظم  
هذه البلدان هو تخفيض معدلات النمو  
السكاني . في عام ١٩٧٤ - تبنت ٣٣ من الدول  
النامية سياسة سكانية الفرض منها تخفيض  
معدلات النمو في حين تبنت ٣٠ دولة أخرى  
برامج تنظيم الاسرة لفرض تحسين المستوى  
الصحي والاجتماعى وخلافه .

وفي هذا المضمار ( برامج تنظيم الاسرة )  
كان لكثير من المنظمات العالمية والمؤسسات  
الخاصة وبعض الحكومات الغربية كالولايات  
المتحدة والسويد نشاط ملحوظ مما كان له  
اثر واضح في انخفاض معدلات الولادة وخاصة  
في بعض دول الشرق الاقصى كنيكلند وتايوان  
وكوريا والفلبين .

ومع ذلك فان بعض الانتقادات قدوجهت  
لهذه البرامج على أنها تحاول ان تحل محل  
برامج الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى والتي  
هي في نظر الناقدين أهم بكثير في المدى البعيد  
لسكان هذه الاقطار .

وفي اعتقاد المؤلف انه كلما ازدادت معرفتنا  
عن الخصوبة والولادة وعلاقتها بالنواحي  
الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فان درجة  
كبيرة من الاستقرار في معدلات النمو السكاني  
ستحدث تدريجيا عن طريق التحكم في الولادات

ولذا فإن الكتاب لم يأت بجديد من ناحية التحليل الديموجرافي البحث Formal Demography

أما من جهة ربط العوامل الديموجرافية بالتركيب الاجتماعي وأنماطه فلا شك أن المؤلف قد قدم محاولة لا بأس بها في إبراز تشعب ودقة هذه العلاقة . لذا فإن معالجته للموضوع من وجهة نظر سوسولوجية بحثة ولو أنها لم تفسح له المجال للاهتمام بوجهة نظر الفروع العلمية الأخرى عن طبيعة السكان ، إلا أنها أتاحت له التركيز على التركيب الاجتماعي بمضمونه الأوسع وبصورة منظمة ، وكذلك الرجوع إلى كثير من النظريات والنماذج العلمية من كل من فرعي الاجتماع والبيئة الإنسانية ، مما يجعل الكتاب أكثر تشويقاً لمختصي فروع الاجتماع والانتروبولوجي عنها لمختصي علم الديموجرافيا البحتة .

قدم المؤلف كتابه على أنه كتاب مدرسي الفرض منه إعطاء تحليل دقيق لنقط الالتقاء والتداخل ما بين العوامل السكانية والتركيب الاجتماعي . وأتبع في تحليله ما أسماه بالمنهج الاستكشافي وليس المنهج الجامع ، أراد عن طريقه أن يثير كثيراً من الجدل بطرح الجديد من الأسئلة أكثر من محاولته حسم الأسئلة المطروحة والوصول إلى نتائج علمية ثابتة .

وفي هذا المضمون يمكن تحديد مجموعة من المشاكل والأسئلة العامة الرئيسية والتي يحس القارئ حتى بعد قراءة الكتاب بأنها مازالت بحاجة إلى توضيح . وفي اعتقادي ، وذلك هو الرأي السائد بين معظم دارسي علم السكان ، أن الإجابة عليها ستأتي فقط عن طريق الدراسات العلمية المستفيضة والبحوث الدقيقة ومنها الآتي : -

١ - مشكلة تحديد الارتباطات المتشعبة بين عوامل النظام الإيكولوجي وهي السكان ، البيئة ، التنظيم الاجتماعي والتكنولوجيا . رغم أن المؤلف أهتم أساساً بعامل السكان

سواء تم ذلك عن طريق سياسة سكانية محدودة أم لا .

ويختتم الموضوع بقوله إن اتباع سياسة سكانية واضحة من شأنه أن يساعد المجتمعات على سرعة وسهولة وصولها إلى مرحلة الاستقرار السكاني .

قبل توجيه اهتمامنا لمناقشة بعض آراء المؤلف أود أن أورد قليلاً من السلبيات وأغلبها يقع في نطاق التنظيم والعرض أكثر منها في مجال المعامات .

من الواضح أن الكتاب غني بالأفكار والنظريات العلمية المتعلقة بموضوع السكان . غير أن المؤلف قدم الكثير منها بطريقة الحشر ولم يعطها حقها من التفصيل . هذا بالإضافة إلى إحساس القارئ بأن المناقشة لم تتبع مستوى واحداً في كل الفصول ، فمثلاً يظهر المؤلف كثيراً من العمق ودقة التحليل في الجزء الثالث من الكتاب والذي في اعتقادي هو أقوى جزء فيه في حين تتصف بعض فصول الجزء الثاني بكثير من الملاحظات السطحية وبدائية التحليل .

إن اهتمام الكاتب موجه بصورة خاصة للسوق الأكاديمية الأمريكية لتوزيع الكتاب . لذا فإن كثيراً من تحليلاته انصبحت على الولايات المتحدة بالدات رغم أنه حاول بين الحين والآخر مقارنة الولايات المتحدة الأمريكية بالدول النامية .

كالعادة في كل الكتب المدرسية ، معظم المعلومات الإحصائية الواردة في الكتاب تتوقف عند فترة زمنية معينة ، حتى عام ١٩٧٥ . معظمها أيضاً متداول في كتب أخرى عن علم السكان أكثر استعمالاً وانتشاراً في جامعات الولايات المتحدة وأخص بالذكر كتاب William Peterson بعنوان السكان Population و Ralph Thomlinson عن ديناميكية السكان Population Dynamics

والوصول الى حالة الثبات السكاني Stationary Population في بعض الدول توقع الآثار المترتبة على تضخم قيمة الهرم السكاني وتحوله باتجاه كبار السن والشيخوخة من جمود للتنظيم والعلاقات الاجتماعية واحتمالات انطباعها بالتحفظ ، وكذا تقلص الحراك السكاني والوظيفي بل وبعض أنشطة النظام الاقتصادي نفسه وبصفة خاصة الأنشطة الموجهة لمجابهة نمو السكان والاستجابة لاحتياجات ذوي الأعمار الصغيرة .

باختصار قدم الكتاب كثيرا من الوصف والتحليل لتأثير زيادة السكان على العلاقات الاجتماعية والسياسية والبيئية وخلافه ، ولكنه لم يتعرض لمناقشة تأثير الوصول الى معدلات نمو معادلة للصفر على طبيعة وتركيب مجتمع المستقبل ، هذا بالرغم من وجود كثير من الاهتمام العلمي بالموضوع . وليس من الواضح ان كان هذا الأفعال هو نوعا من التخلف العلمي أم انه اختصار لما هو ممكن ادماجه عمليا في كتاب واحد أغلب الظن انه الآخر . ومع ذلك كان يجدر بالمؤلف الإشارة البسيطة الى الاهتمامات الحالية خاصة في نطاق مناقشة تجربة الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى .

رغم الانتقادات التي أشرنا اليها فإنه مما لاشك فيه ان كتاب البروفيسور ماترس يعتبر خطوة هامة في طريق توسيع نطاق الدراسات السكانية من مضمونها التقليدي المهتم بالنواحي الكمية والاحصائية فقط ، الى مضمون تحليلي أشمل وخاصة في هذا التخصص الأكاديمي الذي يرداد فيه التراث العلمي بسرعة ملحوظة . رغم تخلفه الواضح في جامعاتنا العربية ليس فقط من الناحية الأكاديمية ولكن أيضا في البحث والتطبيق في منطقة من العالم يتوجب ان تجرى بها دراسات ديموجرافية مفصلة . وأخيرا ما أحوج المكتبة العربية الى الثراء محتوياتها القليلة في هذا التخصص العلمي عن طريق البحث والنشر والترجمة .

والتنظيم الاجتماعي الا أنه من المعروف ان لكل من عاملى البيئة والتكنولوجيا ضغوطها على طبيعة العلاقات المذكورة ، وفي الواقع مازال هناك كثير من الاختلاف بين مدارس علمى الاجتماع والبيئة حول أولوية أى من العوامل الداخلية في هذا النظام حيث يتجه كثير من التحليل الحديث الى إبراز أهمية عامل التكنولوجيا كعامل مؤثر .

٢ - رغم ان المؤلف ناقش الاستجابة الاقتصادية لنمو السكان في فصل منفرد فان تحديد طبيعة العلاقة بين النمو السكاني والتقدم الاقتصادي لم تتوفر . ومازال هناك اختلاف بين مؤيدى الحل الديموجرافي لمسألة التخلف ومحبذى طريقة التنمية الاجتماعية والاقتصادية مع ظهور رأى ثالث منادى باعتبارهما سياستين متكاملتين في مرحلة النمو .

٣ - جدوى استعمال النماذج العلمية المبينة على تجارب الغرب والدول الصناعية في تفسير ظاهرة التحول الديموجرافي في الدول النامية حيث تمر هذه الدول بظروف تاريخية مختلفة وحيث التركيب الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والديموجرافي في هذه الدول أى الدول النامية يعطى لها أنماطا معينة .

٤ - الجدل القائم حاليا بين مؤيدى تحديد النسل والراغبين في إيقاف النسل تماما وامكانية اتباع كل منهما بل وشرعية كل منهما وخاصة على ضوء ومحاولة استعمال الطرق الاجبارية كما حدث في الهند أخيرا .

يتبع المؤلف الرأى القائل بأن المعدلات العالية للزيادة السكانية ، وخاصة اذا اقترنت بظاهرة الهجرة الداخلية او الخارجية تولد جوا من التنافس والصراع الداخلى في النظم الاجتماعية والسياسية ، وأن الحركة السكانية المرتفعة تؤثر في قيم المجتمع .

بالمقارنة نجد ان اهتمام الباحثين حاليا هو دراسة احتمالات توقف النمو السكاني



## مهاجرون سُود ومواطنون بيض

عرض وتحليل الأستاذ عبد الله عبد الغنى غانم

بموضوع آخر هو العلاقات بين السلالات . ووجهت أبحاث عديدة نحو دراسة علاقة هؤلاء المهاجرين بالمواطنين البيض وذلك في مختلف مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

وكتب اليوم هو أحد هذه الكتب التي تعالج العلاقات السلالية في مدينة نوتنجهام إحدى المدن البريطانية . ومن الجدير بالذكر أن الموضوع سبق أن تناوله وفي نفس المدينة باحثون آخرون ومنهم اليزابيث بيرلى ، وإيريكينز نلسن وغيرهم .

يحظى موضوع الهجرة في الوقت الحاضر ، وفي ظل مشكلات الانفجار السكاني ، باهتمام متزايد من كثير من علماء الجغرافيا والسكان والاجتماع والانثروبولوجيا والاقتصاد وغيرهم .

وقد حظى موضوع الهجرة في بريطانيا بقدر أكبر من الاهتمام خاصة مع وجود مشكلة الملونين من مهاجري دول الكومنولث الذين يعيشون كأقليات وسط الاغلبية البيضاء من المواطنين الاصليين باعتبارهم ينتمون الى سلالات مختلفة عن ابناء البلاد . ومن ثم ارتبطت دراسة موضوع الهجرة في بريطانيا

\* Daniel Lawrence: Black Migrants : White Nations, Cambridge University Press, 1974.

**ومؤلف كتاب اليوم هو دانييل لورانس**  
محاضر علم الاجتماع بجامعة نوتنجهام .  
ويتألف الكتاب من ثمانية فصول بما فيها  
المقدمة والخاتمة .

**وفي المقدمة** التي اعتبرها المؤلف فصلا مستقلا نجده يذكر ان الباحثين الذين درسوا العلاقات بين السلالات في نوتنجهام قد اختلفوا بما بينهم ، فقد قال البعض بأن مدينة نوتنجهام لا تعكس اى صراع سلالى ، وان العلاقات بين السلالات في هذه المدينة تتسم بالوفاق والتسامح . بينما قال البعض الآخر بوجود ازمة في العلاقات السلالية بين الملونين من ناحية والمواطنين البيض من ناحية اخرى . ومؤلف كتاب اليوم يوافق الراى الثانى، ويرى ان شهرة مدينة نوتنجهام بالوفاق والتجانس بين السلالات قول لا يصمد كثيرا للنقد وان القائلين به اساءوا فهم العلاقات بين السلالات في هذه المدينة، وانهم اعتمدوا في قولهم بالوفاق في العلاقات على عدم وجود معارضة منظمة ضد الملونين في المدينة . ويعلق على هذا بأن فهم العلاقات السلالية يقتضى ان نتعمق بعيدا عن المظهر الخارجى . وان ما نعتقده وما كنا نامله من الابحاث التى تناولت هذا الموضوع في مدينة نوتنجهام هوان تقوم هذه الدراسات باعطاء تقييم للدور الذى تلعبه العوامل الثقافية والبنائية في علاقات السلالات وفي رؤية كل من المواطنين البيض للمهاجرين والعكس .

كذلك هناك حاجة لربط هذه الرؤية بالظروف التى انت بالمهاجرين الى بريطانيا . لماذا تركوا بلادهم ؟ لماذا اتوا الى بريطانيا ؟ هل في نيتهم العودة الى مواطنهم الاصلية ؟ ولا بد من معرفة المكانة التى يحتلها المهجرون في كل من مجال المسكن والتوظيف ، وان نقرر ما هي الاسواق الممكن لهم ان ينافسوا فيها في هذين المجالين سواء حاليا او مستقبلا . هذه النقاط لابد ان تربط بسياسة التطور العام في بريطانيا والسؤال الان هو : ماهي المشكلات

السياسية اليوم وكيف تؤثر او تصطدم بالعلاقات السلالية، فاذا اجبنا على هذه الاسئلة امكن ان نجيب على التساؤل اذا ما كانت مدينة نوتنجهام تحظى بعلاقات سلالية متوافقة ام لا .

ويذكر المؤلف ان فصول الكتاب توضح ان غياب الصراع الظاهر لا يجب ان يختلط بحالة التوافق السلالى المزعومة، وان هذا هو مانجده في نوتنجهام حاليا . حيث ان عدم غياب الصراع الظاهر والتوافق السلالى هو الذى اوجد حالة من استفاؤل في غير موضعها .

ويضيف المؤلف : ان غياب الصراع الظاهر في العلاقات السلالية لا يرجع الى سيادة التسامح في هذه العلاقات بل انه يرجع الى الطريقة التى يحدد على اساسها المهاجرون وضعهم في البلاد كما ان عدم ظهور الصراع يرجع ايضا الى مجموعة اتجاهات وظروف عقوية ( في مجالات الاستخدام أو العمل والاسكان ) ، أدت الى تقليل التنافس المباشر بين الاهالى والمهاجرين ومن ثم قللت من فرص الصراع المكشوف ومع ذلك فان هذه الظروف في سبيلها للتغير وذلك يزيد من احتمالات المناقشة والصراع . ويقول انه بعد دراسة ذلك كله يمكن الحكم على العلاقات السلالية بالمدينة . ثم ينهى الفصل باستعراض تيار الهجرة نفسه الى المدينة مؤكدا انه قد بدأ في الخمسينيات بالنسبة لجزر الهند الغربية وأن الهنود والباكستانيين قد بدأوا الهجرة اليها فى الستينات ويوضح تعداد ١٩٦٦ ( بالعينه ) انه حوالي ٨٥٠٠ نسمة ممن يعيشون بالمدينة هاجروا اليها من دول الكومنولث ، وذلك بين سكانها البالغ عددهم ٣٠٥ آلاف نسمة أغلبهم من الجمايكيين ثم الهنود ثم الباكستانيين .

ويعالج المؤلف في الفصل الثانى بعض الظروف التى اثرت في الطريقة التى ينظر بها المهاجر الى وضعه بالمدينة، فيعالج اسباب قيام المهاجر بالهجرة الى بريطانيا . ثم يعالج نقطة لها تأثيرها في دراسة سلوك المهاجر بالمدينة

على السلوك الحالي لانه حتى لو لم يكن المهاجر يقوم بالادخار فعلا من أجل العودة فان هذا لا يعنى أن سلوكه واتجاهاته في مجالات أخرى غير متأثرة بمقصد العودة . وهنا يوضح أن كلام من الهنود والباكستانيين يرون أن بريطانيا مجتمع غريب عنهم وأنهم ليسوا راغبين في التمثل له . بعكس الجامايكيين . وليس معنى هذا أن الجامايكيين يشعرون بأنهم بريطانيون بل أن ٩٠ ٪ منهم أفادوا بأنهم يشعرون بعكس ذلك رغم تمثيلهم للمجتمع الانجليزي . وقد ثبت أن النسبة الغالبة من المهاجرين يرسلون معونات اقتصادية لذويهم بمواطنهم الاصلية . كما ثبت أن اصطحاب الزوجة الى منطقة المهجر أو الجذب ليس دليلا على نية الاستقرار الدائم بها إذ ثبت أن ٩٣ ٪ من مصطحبي زوجاتهم في بريطانيا من المهاجرين من الباكستانيين و ٨٩ ٪ من الهنود ينوون العودة لبلادهم . وعموما فان اعلان الرغبة في العودة كان أكثر وضوحا بين غير مصطحبي زوجاتهم وبجانب ذلك فان نية العودة لدى المهاجرين لعبت دورا هاما في مقابلة المهاجرين للظروف غير المرضية بنوع من التسامح . فحيث أنهم ينظرون للهجرة كشيء مؤقت فإنهم يدخلون هذا في الاعتبار في الحكم على ما يواجهون من معاملة غير مرضية . اما عن النقطة الثالثة أى التوقعات والواقع فقد اجاب ٨٦ ٪ من البحوثيين أنهم لم يجدوا بريطانيا كما كانوا يتوقعون ، فقد اوضحوا صعوبة حصولهم على العمل وكسب المال . والتفرقة العنصرية والاستقبال السيء للملونين والمستوى المنخفض معيشيا ، والاسكان الرديء وغيره .

وتناول المؤلف في الفصل الثالث مشكلة التعصب بين المواطنين الاصليين في نوتنجهام تجاه الملونيين . فيتناول اهالى نوتنجهام انفسهم بالدراسة وبخاصة أولئك الذين يعيشون بالقرب من الملونيين في المناطق الداخلية من المدينة ويوضح في الجزء الاول من هذا الفصل عدم القبول العام لدى الاهالى بالنسبة

وهي نظرة المهاجر الى هجرته وهل هلى هجرة دائمة ام مؤقتة وقد ثبت أن معظم من تناولهم البحث لا ينوون الاستقرار الدائم في بريطانيا . والنقطة الثالثة التي يعالجها في هذا الفصل هي مدى اتفاق ما وجدوه في بريطانيا بالمقارنة مع ماتوقعوه قبل هجرتهم اليها .

وباستعراض اسباب الهجرة النى ساقها المؤلف بالنسبة للجماعات الثلاث ( جامايكيون ، هنود ، وباكستانيون ) نجد أن اجراء عملية حسابية بسيطة على الجداول الموضحة لهذه النقطة توضح أن اسباب الهجرة تأخذ نفس الترتيب للجماعات الثلاثة . وهذه الاسباب هي : السبب الاقتصادي يليه الرغبة في السفر واكتساب الخبرة ثم الرغبة في التعلم أو مواصلة التعليم . ثم مجموعة رابعة وضعها المؤلف تحت عنوان ( اسباب أخرى ) .

ونجد أن اسباب اختيار بريطانيا كم منطقة مهجر هي الاسباب التالية ( لأنها المكان الوحيد المتاح - مجرد الرغبة في المجيء الى بريطانيا - وجود الأهل والأصدقاء بها . - أخرى ) . واخيرا يوضح الباحث أن الهجرة عموما الى نوتنجهام هي هجرة اختيارية .

كما اوضحت المناقشة التفصيلية حول النظرة للهجرة وهل هي دائمة ام مؤقتة .

فان المؤلف أن هناك عددا كبيرا من الدراسات كلها توضح أن عددا كبيرا من المهاجرين الملونين الى بريطانيا لا ينوون الاستقرار في بريطانيا وهذه الحقيقة اوضحها كل من فيليبوت ، وشيلايا ترسون وديفيدسون وغيرهم . وأن هذه الحقيقة قد اوضح بروكس بشأنها أمرا هاما عندما قال : أن كثيرا من الذين يوضحون أنهم سيعودون لمواطنهم الاصلية لا يفعلون ذلك بالفعل ، ويعلق المؤلف بأنه من الأفضل التركيز على هذه النقطة أى قصد الاستقرار أو العودة بالفعل وانما يجب أن نركز على أثر هذا القرار

وهو في هذا الفصل يحاول توضيح العلاقة بين الاسكان والعلاقات السلالية في نوتنجهام . فبالرغم من المشكلة السكانية الواضحة التي تعاني منها نوتنجهام ، فانه لم يظهر صراع واضح في مجال الاسكان . ولكن هذا مرجعه الى الظروف غير المتعمدة والاتجاهات المفوية ، وليس مرجعه وجود التسامح لدى السكان الاصليين في نوتنجهام في مجال الاسكان .

ويوضح المؤلف ان قيام ازمة الاسكان ونقص المسكن يخلق خصومة وعداء بين السود والبيض ، وهو امر يعتمد على عدة عوامل من أهمها مدى التبرم الذي يشعر به أولئك الذين يعيشون في ظروف اسكانية سيئة وهم الان كما يبدو غير متبرمين بهذه الظروف وان كانوا ليسوا جميعا بالطبع مشتركين في عدم التبرم بها .

وفي هذا الفصل يقوم الباحث بوصف المساكن الخاصة بالملونين موضحا اختلافها عن مساكن ابناء نوتنجهام من حيث ما تتمتع به من تجهيزات كالماء الساخن وغيرها . ويعلق بانه وحتى الان فان الملايين من البريطانيين عموما يعانون من ازمة اسكان حادة اذ لا زال حوالي ٢ مليون يعيشون بمساكن تنقصها الضرورات مثل ، الحمامات ، كما لا زال البعض يعيش بدون مساكن بالمرّة - كما لا زال مليوناً نسمة يعيشون في مناطق متخلفة . وجوهر مشكلة الاسكان في نوتنجهام ليس انعدام المساكن . بل هو نوع هذه المساكن . فاللاف الاسر لا زالت تعيش دون المستوى اللائق . ولكن حيث لا يوجد تعريف متفق عليه للاسكان غير اللائق فان المرء لا يستطيع تحديد من يعانون منه . ولكن ، على العموم ، فان نوتنجهام تعاني فعلا من ازمة اسكان بالمعنى النوعي ، واغلب المهاجرين الملونين بها يعيشون في هذه الازمة .

للملونين . ويتعرض للدراسة التي قام بها ابراهام على عينة من ٢٥٠٠ حالة في خمس مدن من بينها مدينة نوتنجهام نفسها والتي تناول فيها ابراهام موضوع التعصب . وينتقد المؤلف الاساس الذي وضعه ابراهام في دراسته هذا لتعريف التعصب حيث قال ابراهام ان التعصب كلمة تستخدم فقط لتدل على الاتجاهات العدوانية التي ترجع الى عمليات تقع داخل حامل الاتجاهات العدوانية نفسه . ويعلق المؤلف بأن هذا التعريف لا يميز بين الاتجاهات الناجمة عن مصادر واسباب مختلفة وهنا يرى المؤلف ان المقياس الذي وضعه نيكولاس ديكنسون وصنف على اساسه مرقف الباحثين ( عندما درس التعصب للجنس ) الى اربعة اقسام - شديدو التعصب - متعصبون - متوسطو التعصب - غير متعصبين يرى ان هذا المقياس افضل من تصنيف ابراهام الذي كان تصنيفه للأفراد هو ( متعصبون - ميالون للتعصب - متسامحون - واخيرا ميالون للتسامح ) حيث يرى المؤلف ان عدم وجود العداء لا يعنى بالضرورة وجود التسامح مثلاً . ويضيف المؤلف انه ليس هناك داع للقول بأن مقولة التعصب هي المحدد الرئيسي او الوحيد للعلاقات السلالية، فهناك القوانين التي تنظم الهجرة والتي تحرم التفرقة العنصرية وغيرها . ويقرر المؤلف هنا ان اغلب الاهالي في نوتنجهام من البيض يعتبرون الملونين قوما مختلفين عنهم وانهم اقل منهم ، ولا يجب ان يتساوا معهم .

وبالعلاج **الفصل الرابع** الاسكان والعلاقات السلالية ، فيشير الى ان ازمة الاسكان في نوتنجهام ترجع الى القرن الثامن عشر ، وقد بدأ الانفجار السكاني منذ ذلك التاريخ مع التطور الصناعي السريع ويتابع المؤلف التطور في تعداد السكان بالمدينة منذ ذلك التاريخ حتى الان .



يواجه التفرقة العنصرية عند محاولته السكنى أو الحصول على مسكن في الضواحي . كما ان المناطق الداخلية قد شغلت شوارعها بسكان من مناطق البيض ثابتين نسبيا وهنا فان المهاجرين لديهم خيار ضئيل في ان يصبحوا أما مؤجرين من ملاك أفراد أو من مؤجرين آخرين . ومركز المهاجرين السيء في سوق الاسكان لا يجلب عليه عطف السكان الاصليين من البيض بل أنه بالإضافة الى العداء الناجم عن العوامل الثقافية والشخصية فانه ينظر الى المهاجرين باعتباره شخصا يعمل على اكتظاظ المسكن ، ويقوم بتخريب البيوت التي يسكنها ، ومركزه هذا في سوق الاسكان يحدد مركزه في نظر الاهالي البيض . ويوضح المؤلف رفضه للقول بأن سكان إنجلترا يتنافسون من أجل السكنى في الضواحي . كما يوضح ان البحث الميداني قد أوضح انه لا يوجد تنافس بين المهاجرين والاهالي على الاسكان الا انه أوضح قوله للتصنيف الطبقي في مجال الاسكان الذي ساقه كل من ريكس ومور ولكنه أضاف اليه طبقتين أخريين لتصبح الطبقات السكانية عنده تسع طبقات وقد تابع المؤلف هذه الطبقات وتوزيعها مقارنا موضحا فيها بين المهاجرين والسكان الاصليين في نوتنجهام . كما استعرض الصعوبات التي يواجهها المهاجرون في مجالات الاسكان ، موضحا انهم يواجهون صعوبة امكانية الحصول على مسكن في المناطق الراقية ، ولا يمكنهم الشراء فيها . وأنهم يدفعون سعر فائدة عالية - او ان الثمن الذي يطلب منهم يبالغ فيه عادة بسبب اللون وضيق السوق امامهم . او يطلب منهم تأمين عال جدا . . الخ . كما أنهم لا يحصلون على أية مساكن من المساكن المملوكة للدولة . وقد أوضح ان ٤١٪ من العائلات المهاجرة التي تركت مسكنها في مناطق مختلفة قد تحركوا الى مناطق مختلفة ايضا . ويقول أن سبب ذلك هو مواطنهم الاصليين ، ومن ثم فان التكلفة

ويوضح المؤلف ان علاقات السلالات تتأثر بوضع الاسكان وان تحليله لهذه النقطة قد بناه على التحليل الذي قدمه rex & moor اللذان اوضحا ان العلاقات الاجتماعية في المجتمعات الصناعية تتحدد بنمط الصراع في المصالح رغم عدم اعتبارهما ان الصراع على الاسكان هو انعكاس لصراع الطبقات في الصناعة . فقد لاحظا وجود اختلاف كبير في تسهيلات الدخول في مجالات الاسكان بالنسبة للمشتريين في نفس العلاقة في مجال ملكية ادوات الانتاج ( الطبقة ) وهما هنا يتابعان ماكس فيبر عندما يقول ( ان الصراع الطبقي يميل للظهور عندما تسمح حالة السوق السائدة بمداخل مختلفة للملك وهذا يظهر الصراع الطبقي ليس فقط بالنسبة لوسائل الانتاج الصناعي ولكن بالنسبة للملكية العائلية ايضا ) ، والقول بان اكثر من مبدأ من مبادئ السوق يعمل في عملية توزيع الاسكان في بريطانيا لا يقتضي اكثر من تغير طفيف في نظرية فيبر بالنسبة للنظام البيروقراطي لتوزيع المساكن لكي نصل الى فكرة الاسكان الطبقي ، وهي فكرة هامة جدا في تحليل البناء والعملية الحضرية ، وان العملية الاساسية التي تدعم التفاعل الاجتماعي الحضري - كما يقول ريكس ومور هي التنافس من اجل البيوت النادرة في الضواحي وعلى اساس من عمومية هذه الرغبة في الحصول على هذه البيوت وعلى اساس من ندرتها والاستقلال النسبي للصراع الطبقي من اجل المسكن عن الصراع الطبقي الصناعي فان ريكس ومور قالوا انه من المفيد أن تميز الطبقات الاسكانية التالية وقدمنا سبع طبقات عن السكان طبقا لنوع المسكن ونوع علاقتهم به مثلا ( ملاك في مناطق مرغوبة ملاك ملكية جزئية بمناطق مرغوبة - مستأجرون لمساكن المجالس المحلية - . . . الخ ) . وكل مجموعة من هذه المجموعات السبع تمثل طبقة مختلفة عن غيرها . وتختلف حالة السكان المهاجرين عن السكان الاصليين في مجال الاسكان فهو

ويقرر المؤلف أن كثيرا من الاعمال لا زالت تميز بين الملونين وبين غيرهم من القوى العاملة وأن ٦٧٪ من المبحوثين البيض قالوا بوجوب إعطاء البيض أولوية في مجال العمل . وأن أهم أسباب عدم رضى الملونين عن أعمالهم هو التفرقة التي يلاقونها فيه بل ذلك إحساسهم بإمكانية أداء أفضل مما يقومون به بينما أن المهاجرين ليس لديهم نفس الفرصة للحصول على العمل بنفس المؤهلات التي لدى الانجليزى الأبيض وذلك بسبب اللون . بينما قالت نسبة ٤٢٪ من العينة للبيض بوجود التفرقة بين السلالات في مجالات العمل والتوظيف .

ويناقش المؤلف في الفصل السادس السياسة والعلاقات السلالية - فيناقش السلوك السياسي والبدائل السياسية المتاحة أمام الملونين ، موضحا أن كثيرا من أولئك الذين صوتوا منهم في الانتخاب العام لم يفعلوا ذلك بحماسة تذكر وأنهم إنما فعلوا ذلك بسبب أنه لا يوجد أى بديل أمامهم . ذلك أن الملونين لا يعتقدون أن أى من الحزبين الرئيسيين ( محافظين وعمال ) مختلف عن الآخر ولا يختلف الأمر بالنسبة لهم أن يفوز أى منهما ، ذلك أنهم إذا كانوا قد صوتوا لصالح المحافظين في الانتخابات الأخيرة فقد فشل المحافظون في الحصول على تأييد كاف لدخول السوق الأوروبية والحقيقة أن الخطوات التي اتخذتها الحكومة أخيرا فسي مجالات الدخول والأسعار لم ترض الناخبين عموما . كما أن القرارات التي اتخذها كلا الحزبين بصدد الهجرة والمهاجرين لم تقابل بالرضى من كل من المهاجرين أنفسهم ، وكلا من المواطنين البيض ، وهذه النظرة تنطبق على قوانين الهجرة التي صدرت في أعوام ١٩٦٢ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧١ . إذ ينظر الملونون إلى هذه القوانين على أنها تؤكد

الإضافية في مسكن أفضل لا تبدو استثمارا معقولا لأموالهم من وجهة نظرهم وعموما ورغم هذه الظروف كلها فإن الإسكان لا يمثل مثارا لصراع بين السلالات . . أو على الأقل لم يؤد إلى صراع ظاهر بينها . فالنسبة المتبرمة من ساكنيها من الملونين قليلة . ولم يثبت أن هناك تنافسا على المساكن النادرة الغالية . كما أن بعض البيض في صراع على المساكن في المناطق التي يسكنها الملونون أنفسهم وفيما بينهم .

ويناقش المؤلف في الفصل الخامس العلاقات السلالية والتوظيف - فيقول أن أغلب مهاجري الكومنولث يقيمون في مناطق ذات طلب على عنصر العمل ويقل إقامة الملونين في المناطق التي يكون فيها الطلب على عنصر العمل خفيفا أو متوسطا ، وهم عموما يحلون في مجال العمل محل البيض في المناطق التي لم تنجح في جذب عدد كاف من البيض . ويستعرض المؤلف التاريخ الصناعي والخدمي لمدينة نوتنجهام موضحا كيف أصبحت تشتري الآن بالصناعات الرأسمالية في مجال التصدير والمجال المحلي ، وأن النسبة الغالبة من المهاجرين قد جاءت أصلا للبحث عن عمل ، وأن البحث الميداني قد أوضح أن هناك ٣٪ فقط منهم عاطلون حاليا - ثم قام الباحث بمتابعة توزيع المجموعات السلالية على مختلف الصناعات ويوضح أن ثمة زيادة في عدد العمال غير المهرة بين المهاجرين عنها بين البيض . وأنهم ، أى المهاجرين ، يعملون بأعمال غير مرضية وغير جذابة عموما للبيض . وعموما فإن فجوة التوظيف بين الملونين وبين البيض فجوة واضحة . ولم تشكل هجرة الملونين إلى المدينة أى خطر على الأهالي البيض من الناحية الاقتصادية ، فالعمل متوفر للجميع ولا يشغل الملونون من الوظائف ، أو الأعمال عموما ، إلا مالا يقبله البيض . ومن ثم لم يشكل مجال العمل مثارا للنزاع السلالي .

الكثير من أجل تحسين العلاقات السلالية بالفعل . والسبب الثالث هو ما ذهب اليه كيتز نلسن من أن هذه اللجنة قد لعبت دورا دقيقا في علاقات بناء المدينة السلالية ، ويرغم المؤلف أن هؤلاء قد غالوا في أهمية هذه اللجنة ويقول أن ما قدمته لم يؤد الا قليلا من المزج في العلاقات السلالية في هذه المدينة وأن الاهتمام الكبير الذي احيطت به اكبر بكثير من دورها الحقيقي . وليس معنى هذا أنها لم تقم بعمل شيء مفيد ، الا ان الفأبية الساحقة من الملونين ، وكذا النمط العام للعلاقات السلالية لم يتأثر بمجهودات هذه اللجنة الا في القليل النادر . ويستعرض المؤلف في هذا الفصل دراسة كيتز نلسن لأعمال هذه اللجنة وتاريخها وتطورها . كما يستعرض موقف المهاجرين منها قائلا انها لا تحظى بحماس الكثيرين منهم ، خاصة الباكستانيين والسود .

واخيرا يستعرض المؤلف في الفصل الثامن وهو الخاتمة ما انتهى اليه من نتائج ومحددات المهاجرين في مجموعهم شعرون بانهم غرباء وإن أغلبهم لم يأت للاستقرار الدائم بل للعمل ثم العودة لبلده ، ومستعرضا ملخصا سريعا لنتائج الفصول السابقة ، وموقف المهاجرين في مجالات الاسكان والتوظيف وفيه مما سبق مرصه تفصيليا .

ومع ان الموضوع الذي يتناوله المؤلف هو الهجرة الا أنه يركز على المهاجرين أنفسهم بقدر ما ركز على علاقاتهم بالمواطنين الأصليين ، وقد اعطى المؤلف صورة كاملة عن هذه العلاقة بالفعل الا ان الكتاب لم يظهر العلاقات بين مجموعات المهاجرين من دول الهند وباكستان وجمايكا ، إذ لم يركز المؤلف على العلاقة بين كل جماعة من هذه الجماعات وغيرها من الجماعات ، ولا شك ان هذه نقطة كانت جديرة بالبحث خاصة اننا سبق ان

التمايز بين السلالات وذلك بالنسبة لقوانين ١٩٦٨ ، ١٩٧١ ، وانها تحقر من شأنهم . بينما أدت القوانين التي قدمتها حكومة العمال في ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ الى تهيج هذا الشعور ( وقد لا حظ المؤلف أن أغلب البحوث لا يعرفون أن قوانين وتشريعات منع التفرقة العنصرية قد ظلت باقية ) وعموما فقد نظر الملونون الى قوانين ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ ، ومابها من ضعف على انها تعكس تدلب حزب العمال . كما نظر اليها الكثيرون من البيض على انها تعمل على وضع الملونين في مركز ممتاز . ويقرر المؤلف في النهاية أن مختلف المحاولات التي بذلت في سبيل تحسين العلاقات السلالية لم تنجح بسبب عدم وجود القوة التي تساند القوانين التي تصدر في هذا الشأن وأن البحوث من الاهالي أى المواطنين البيض - أو من المهاجرين الملونين لا يشعرون بأن النظام الحزبي الحالي يقدم من الوسائل والطرق وما يحقق مصالحهم . ويشير المهاجرون هنا الى أنه لا يوجد في المجالس المحلية أى هندي أو باكستاني أو جمايكي .

ويمالع المؤلف في الفصل السابع (المنظمات وعلاقات السلالات) موضحا أنه يوجد الكثير من المنظمات المهتمة بعلاقات السلالات في مدينة نوتنجهام سواء من الأشخاص أو الهيئات الرسمية . فثمة ١٤ منظمة رسمية تهتم بالعلاقات السلالية في نوتنجهام تشرف عليها جهات عدة مثل الصليب الاحمر البريطاني والكتب الاسقفى للشئون الاخلاقية وغيرهما ، وقد ركز المؤلف في هذا الفصل فقط على اللجنة الوطنية الاستشارية للكمونوت وما تربط به من علاقات بغيرها من المنظمات ، مبيرا ذلك بأنها اللجنة الوحيدة الرسمية في نوتنجهام التي تتلقى المساعدات المالية ، وانها المسئولة مسئولية مباشرة عن تحسين العلاقات السلالية . والسبب الثاني هو ماذهب اليه الكثيرون من أن هذه اللجنة قد قدمت

وغير مقصودة في مجالات العمل والاسكان ، ولا شك ان العلاقات الداخلية بين افراد كل جماعة كانت ستشكل اساسا تفسيريا هاما لهذا كله . . . أو على الأقل أحد الاسس التفسيرية له .

ولعل عدم متابعة العلاقات الداخلية بالتحليل ترجع الى اعتماد المؤلف على المنهج السوسيولوجي كلية ، المتمثل في الاعتماد على الاستمارة واستخدام المقابلة على عينة محددة ( ٣٠٠ حالة ) من مجموع سكان المدينة من البيض ومهاجري الكومنولث الملونين مع استخدام الاسئلة المغلقة .

وعلى اية حاله فان الكتاب يتعرض لموضوع امتدت اليه يد البحث مرات عديدة في المجتمع البريطاني وهو العلاقات السلالية بين الاهالي الملونين من المهاجرين ، وقد حصر نفسه تماما في هذه النقطة مما جعل من الكتاب صورة واضحة عن هذه العلاقات دون أن يمس بعمق الصورة التي يعيش عليها المهاجرون انفسهم او المواطنون البيض انفسهم .

اوضحنا ان العلاقات السلالية هي النقطة الاساسية في هذا الكتاب . كما ان المؤلف لم يتناول بالدراسة العلاقات الداخلية بين افراد كل جماعة من هذه الجماعات المهاجرة رغم انه ذكر في المقدمة ان فهم العلاقات تلعبه العوامل الثقافية والبنائية في هذه العلاقات في الرؤية المتبادلة بين المهاجرين الملونين من جانب الاهالي من جانب آخر . ولا شك ان عدم اهتمام المؤلف بالعلاقات الداخلية بين مهاجري كل جماعة من الجماعات المهاجرة قد عمل على غياب عنصر بالغ الاهمية في تفسير عدد كبير من النقاط والنتائج التي توصل اليها الباحث ، والتي لم يقدم تفسيراً كافياً لها ، مثل قوله بان الملونين لا يتبرمون بظروف السكن السيئة التي يعيشونها . وقوله بان الملونين عموماً غير متحمسين للتنظيمات السياسية ولا للمنظمات الخاصة بالعلاقات السلالية ، وقوله بان الجماعيين قد تمثلوا نسبياً للمجتمع البريطاني بينما لم يمثل الباكستانيون والهنود . وقوله بان غياب الصراع الظاهر في العلاقات السلالية يرجع الى مجموعة اتجاهات وظروف عفوية



General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

*Bibliotheca Alexandrina*

\*\*\*

## من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف تعرض لها بالتحليل في الاعداد القادمة

---

Abelson, Raziol, "Persons. A Study in Philosophical Psychology," The Macmillan Press Ltd., 1977.

Greeley, Andrew M., "Ecstasy. A Way of Knowing," Prentice-Hall, Inc. 1974.

Jacob, François, "The Logic of Living Systems. A History of Heredity,"  
Translated by Betty E. Spillmann, Allen Lane, 1970.

Milunsky, Aubrey, "Know your Genes", Houghton Mifflin Company, Boston, 1977.

Milunsky, Aubrey, "Know your Genes", Houghton Mifflin Company, Boston, 1977.

Whitby, M. C., Robins, D.L.J., Tansey, A.W., and Willis, K.G., " Rural Resource Development," Methuen & Co Ltd., 1974.

★ ★ ★



العدد التالي من المجلة

العدد الثالث - المجلد التاسع

أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر

قسم خاص عن

العلم والتكنولوجيا

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

التمت  
٢٥٠  
فلسًا

ريال	٣	سوريا	ريال	٥	الخليج العربي
ملياً	٢٥٠	القاهرة	ريال	٥	السعودية
ملياً	٢٥٠	السودان	فلس	٤٠٠	البحرين
قرشاً	٣٥	ليبيا	فلس	٤٠٠	اليمن الجنوبية
باية	٤٠٠	مستط	ريال	٤,٥	اليمن الشمالية
دنانير	٥	الجزائر	فلس	٣٠٠	العراق
مايم	٥٠٠	تونس	لمية	٢,٥	لبنان
درهم	٥	المغرب	فلساً	٢٥٠	الأردن

#### الاشتراكات :

للإشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت